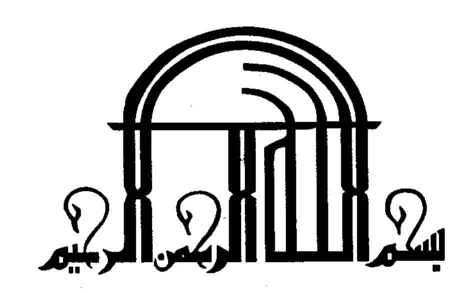
آيات الهداية والاستقامة
في كتاب الله تعالى

تأليف
فضيلة الشيخ عطية محمد سالم
رحمه الله تعالى (ت ١٤٢٠هـ)

المجلد الخامس

الجزء الأول

دار
الجوهرة


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ



المدينة النبوية
شارع الملك عبدالعزيز - المناخة
هاتف : ٨٣٨١١٤٨
فاكس : ٨٣٩٠٨٣٨

آياتُ الهِدايةِ والاستِقامةِ

في كتابِ اللهِ تعالى

(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٢ ـ ٧]. فكانوا أهلَ توفيقك وهداكَ، فبَلغوا أقصى رضاهم ورضاك، وأسبغت عليهم نعمك ظاهرةً وباطنة في الدنيا والآخرة، فكانوا أهل التقوى وأهل المغفرة. ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] ممن عرفوا الحق واختاروا الباطلَ، وأيقنوا صدقَ النبيِّ ﷺ وأنكروه. وكان فريق منهم يحرفون الكلم من بعدما عقلوه، ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] التائهين عن السبيل وما اهتدوه، ممن غشيت أبصارهم عن نور الوحي فما أبصروه، واجعلنا اللهم ممن عرفوا الحقَّ فاتَّبعوه، وعرفوا الباطل فاجتنبوه، واهدنا صراطك المستقيم فإنه لا يهدي إليه إلا أنت، وكما قلت: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وصلِّ اللهم وسلم أفضل صلاة وأتم تسليم، على نبيِّ الهدى الهادي إلى صراطك المستقيم، سيدنا ونبينا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه، وأبلغه عنا أطيب تحية وأعظم تكريم. وبعد:

فإنه بحمد الله تعالى وعون منه وتوفيق، قدَّمنا كتاب «السؤال والجواب في آيات الكتاب»، وكان له بفضل الله تعالى الأثر الحميد، فنشكره سبحانه على فضله وإحسانه. ثم نتقدم اليوم بكتاب «آيات الهداية والاستقامة في كتاب الله تعالى»، فنواصل اللقاء مع الأحبة على بركة الله وفي ظلِّ كتاب الله، وفيضٍ من فضل الله، ومن الله نستمدُّ العونَ، ونستلهم الهداية والتوفيق والاستقامة. ولأهمية هذا الموضوع وشموله، فإننا نقدم تعريفاً لمعنى الهداية، ثم لمعنى

الاستقامة، ثم لمعناهما معاً، وسيكون منهجنا بإذن الله هو تتبع آيات الهداية والاستقامة في كتاب الله على نسق المصحف الشريف قدر المستطاع، ابتداءً من سورة الفاتحة ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ إلى ما يُيَسِّرُه الله تعالى:

أولاً ـ تعريف الهداية: قال في «معجم مقاييس اللغة» مادة (هدى): الهاء والدال والحرف المعتل، أصلان: أحدهما التقدم والإرشاد. والآخر بعثة «لطف» أي تحفة أو هدية، والأول كقولهم: هديته الطريق هداية، أي تقدمت لأرشده، وكل متقدم لذلك هادٍ. قال الشاعر:

إذا كان هادي الفتى في البلاد صَدْرُ القناةِ أطاعَ الأميرُ

وهو «للأعشى»، وينشعب عن هذا، فيقال: الهُدى: خلاف الضلالة، تقول: هديته هدى. ويقال: أقبلت هَوادِي الخيلِ، أي أعناقها. والهادية العصا، لأنها تتقدم مُمْسِكَها، كأنها ترشده. والأصل الآخر: الهدية ما أهديتَ من لَطَفٍ إلى ذي مودةٍ يقال: أهديت أهدي إهداءً. والْهَدْيُ، والهدى ما أُهدي من النعم إلى الحرم قربة إلى الله تعالى.

أما المهموز هدأ. فمن غير هذا القياس، وأكثره يدل على السكون، وهدأ هدوءاً أي سَكَنَ. وأَهْدَأَتِ المرأةُ صَبِيَّها بيدها لينام، أي سكنته، ومعلوم في فقه اللغة ارتباط المادة في معنى أعم، فهدى: بمعنى تقدم للإرشاد. وأهديت: قدمت الهدية يجمعها إرادة الخير وتقديمه للآخرين. وكذلك المهموز هدأ بمعنى سكن، لأن الإرشاد يُهدئ القلب، ويسكن النفس. والإهداء يورث المحبة: «تهادوا تحابوا». وكل إرشاد لخير فهو هداية وأعظم إهداء. ومن هنا كانت بعثة الرُسُل لأممهم هدايةً وإهداءً. ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]. وكعب بن عجرة رضي الله عنه لما سمع أعرابياً يسأل رسول الله ﷺ قائلاً: قد علمنا كيفية السلام في الصلاة فعلمنا يا رسول الله كيف نصلي عليك إذا نحن صلينا عليك في صلاتنا؟ فقال ﷺ قولوا: «اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد . . .» إلى آخر الصلاة الإبراهيمية. فأتى قباء فقال: يا أهل قباء ألا أهدي لكم بهدية؟ وذكر لهم الحديث.

أما الاستقامة: فهي الاعتدال في كل شيء مادياً ومعنوياً. والأصل فيها مادة قوم، والمقوم المعتدل، والقوامة الكمال والقيام بالواجب ﴿ٱلرِّجَالُ

قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤] ومنه: القوم لقيامهم بواجبات أنفسهم وغيرهم معهم. ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧] وفي القرآن: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾ [الكهف: ١ ـ ٢] والقوامة المطلقة لله تعالى هو الحي القيوم. والهداية بمعنى الدلالة، والإرشاد، فهي تستعمل للأمرين المتقابلين ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ٨ ـ ١٠]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٣]. أي بيَّنا له الطريقين، وأمرناه بالخير وحذرناه من الشر، ومن الثاني قوله تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات: ٢٢ ـ ٢٣] ومن هنا كانت الهداية المطلوبة هي هداية إلى الخير مقرونة بالاستقامة ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ وهي الهداية إلى الصراط الموصل إلى الله ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا﴾ [الأنعام: ١٦١] وهو صراط من أنعم الله عليهم الموعود في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء: ٦٦ ـ ٧٠]. ولقد عظم أمر هذه الهداية، حتى تعبدنا الله تعالى بسؤالها منه سبحانه في الصلوات كلها، وبها السعادة في الدنيا والفوز في الآخرة، ولا يهبها إلا الله ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧] وفي الحديث القدسي: «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم». ولك اللهم الحمد والمنة. وقالوا: الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وبالله تعالى التوفيق.

* * *



أبحاث تمهيدية

١ ـ أقسام الهداية:

إن المتأمل في نظام هذا الكون الفسيح، لَيدرك للهداية أنواعاً متعددة، وأن منها العام والأعم، والخاص والأخص. فمن العام: تلك الفطرة التي فطر الله الخلق عليها من جميع الحيوانات والطيور والحشرات، في منهج وجودها وتنظيم حياتها في دقة وإحكام كالنحل والنمل، وقد سماه الله وحياً: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل: ٦٨ ـ ٦٩] وهذه النملة تعرب عما هداها الله إليه من المعرفة في مقالتها البليغة ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨] وهذا الهدهد ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النمل: ٢٢ ـ ٢٤]. وكذلك سائر الحيوانات برية كانت أو بحرية، إنسية كانت أو وحشية، فهي بغرائزها تهتدي إلى نظام حياتها، وهو ما يسمى الإلهام، أو الغرائز، أو الوحي كما تقدم في حق النحل.

وإذا علمنا أن كل شيء في هذا الوجود إنما هو بتقدير العزيز الحميد، ذهبنا إلى أبعد من هذا فوجدنا حتى الأجنة في بطون أمهاتها تنمو وتتجه عند الولادة إلى الطريق السليم، فإذا برزت إلى الوجود التقمت الثدي وامتصت اللبن. وأبعد من هذا في الزرع والغرس، حتى يُرمى بالحبة إلى الأرض ولا ندري كيف استقرت، فإذا بالنبتة تتجه إلى أعلى، فتنشق لها الأرض، والجذر

يتجه إلى أسفل فيغيب في بطنها، والثمرة تسير في طريقها فتأخذ شكلها الذي قدره الله لها، وتصبغ بلونها وتتميز بطعمها وريحها، يُسْقَى بماءٍ واحدٍ وَنُفَضِّل بعضها على بعضٍ في الأكُلِ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤] وفي جواب موسى لفرعون ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٤٩ ـ ٥٠]، وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ١ ـ ٣] أي قدر ما خلق وهداه، ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩] تلك هي الهداية التي شملت الكون كله حتى الأفلاك في مسارها ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

والقسم الخاص من أقسام الهداية هو ما يختص بعموم البشر، من نصب الدلائل والبراهين لمعرفة الحق من الباطل، وتمييز النافع من الضار. ومن هذا القسم قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]. وقال: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: ١٦] وهذا في المحسوسات، ومنه العلوم النظرية والتجريبية، وقد وجه الله الإنسان للنظر في ذاته وكيف وجد، ليستدل بذاته على من أوجده ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١] ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الواقعة: ٥٨ ـ ٥٩] ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ . . .﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ١٨] ومن هذا القسم نصب الأدلة على وحدانيته سبحانه ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وله في كل شيء آية   تدل على أنه واحد

كما نصب الدلالات على البعث من نفس الإنسان: ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨ ـ ٧٩]. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧] ومما يختص بالإنسان ما يقصر عنه عقله ولا يدركه إلا بتوجيه سماوي فيما يتعلق بسعادته الدنيوية والأخروية ومناط التكليف الإلهي، وهذا القسم هو الذي أرسل الله به الرسل،

وأنزل فيه الكتب، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] وكقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣ ـ ٤] وذلك ليتحقق مناط التكليف في وجود الثقلين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦] وبيّن سبحانه عموم الرسالات ونتائجها في قوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

والقسم الأخص في أقسام الهداية هو خلق التوفيق في قلوب العباد، لسلوك الصراط السوي ولزوم طاعة الله ورسوله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١]. وأوضح هذه الهداية لهذا الصراط بقوله عقبه مباشرة: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣] وهذه أولية أولوية. وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣]. وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩] وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وقال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧] فالمنة لله تعالى على هدايتهم للإيمان. وكما جاء في حديث غنائم حنين لما جمع رسول الله ﷺ وخصهم بحديثه: «ما مقالة بلغتني عنكم» إلى أن قال: «ألم أجدكم ضُلالاً فهداكم الله بي؟» فقالوا: الله ورسوله أَمَنُّ. وقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾ [الحجرات: ٧ ـ ٨] وفي الحديث القدسي: «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدِكم» ودعاء القنوت «اللهم اهدنا فيمن هديت». وقوله:

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]
وقد جمع الله في الآية الآتية قسمي الهداية بمعنى الدلالة وبمعنى التوفيق، مشيراً إلى بداية الأمم، وذلك في آية البقرة ٢١٣ ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي على التوحيد والفطرة، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ يعني فاختلفوا فبعث، ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي لهدايتهم، وإرشادهم، ودلالتهم إلى الحق، ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾ أي بمقتضى الحق في هذا الكتاب فيما اختلفوا فيه ويعيدهم إلى الوحدة في الحق، ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ وبيّن سبب اختلافهم مع وضوح البينات، وأن اختلافهم ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ﴾ ثم بيّن امتنانه بالهدى الأخص وبالتوفيق ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ﴾ لأن هداية الدلالة قد وجدت ولكنهم أعرضوا عنها بغياً بينهم، فلم تبق إلا الهداية الخاصة، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣] وفي هذا المعنى مبحث الهداية العامة والهداية الخاصة وسيأتي إيضاح العلاقة بينهما فيما يأتي:

٢ ـ الرسالة والهداية:

الرسالة والرسل أمر ضروري لإسعاد البشر؛ لكي تتحقق الغاية من إيجاد الثقلين الجن والإنس في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦] وقد خلق الإنسان على الفطرة، وظل على منهج توحيد الله عشرة قرون، حتى دخلته النزاعات فاختلفوا، فبعث الله إليهم النبيين مبشرين ومنذرين كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي في أول الخلق على التوحيد الخالص، فوقع الخلاف بينهم لطول عهدهم، فبعث الله إليهم الرسل، كما قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [البقرة: ٢١٣]. وهكذا كلما طال العهد بالناس أرسل الله إليهم رسولاً يجدد لهم دعوة الله، ويهديهم صراطه المستقيم، حتى ختم الرسالات بخاتم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، قال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ

وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٣ ـ ١٦٥] فبهم قامت الحجة كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وذلك بعد بيان موقف الأمم من دعوة هؤلاء الرسل وهدايتهم إذ يقول سبحانه: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥] أي لإقامة الحجة عليهم، بهدايتهم وإرشادهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ﴾ [النحل: ٣٦] وهكذا بعد كل فترة كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ﴾ [المائدة: ١٩] وقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: ٢٤] وفي خصوص هذه الأمة قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾ [البينة: ١ ـ ٣] وهو نبينا محمد ﷺ يتلو القرآن، وقد جاء في المصحف قبلها مباشرة في سورة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ [القدر: ١] يعني القرآن يتلوه ﷺ على أولئك، وختمت به الرسالات كما في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: ٤٠] وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨] وعليه الحديث: «أُعطِيتُ خمساً لم يُعطهن أحدٌ قبلي...» إلخ، وكانت رسالته رحمة للعالمين كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ولقد بَلَّغ رسل الله رسالات ربهم، وصبروا على إيذاء أممهم، فهذا نوح عليه السلام لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وهذا الخليل عليه السلام صبر على إيذاء أبيه وعناد قومه حتى ألقوه في النار، وتداركته عناية الله بقوله: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]. وهذا كليم الله موسى تآمر الملأ عليه ليقتلوه، فخرج خائفاً يترقب، ثم رجع إلى فرعون يتلطف. وهذا سيد الخلق وخاتم

الرسل، يخرجه قومه، ويلجأ إلى الغار، فآواه الله ونصره، ولما أقدره الله عليهم قال لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وهكذا قامت حجة الله على خلقه برسله، جاؤوهم بالمعجزات الدالة على صدقِ رسالاتهم، وجاؤوهم بالبينات من ربهم: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣ ـ ٤]. ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقد أشهدهم رسول الله ﷺ على إتمام البلاغ، وأشهد الله عليهم في يوم الحج الأكبر: «ألَا قد بلغتُ». قالوا: نعم. قال: «اللهم فاشهد». وأنزل الله عليه ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. فقامت به الحجة، وأوضح لهم المحجة، وقال: «تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك». وقال: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً كتاب الله وسنتي». ومَن أوضحَ المحجةَ، وأقام الأدلة، فقد برئ من العهدة. وحقيقة الدلالة عند المتكلمين: كون أمر يفهم منه أمر فهم منه أم لا. كالنجوم نصبت دلائل وعلامات، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦﴾ [النحل: ١٦] فإذا لم يتم لشخص الاستدلال ولا الاهتداء بها، فهذا إما لجهل فيه، أو حجبها عنه بالسحب، أو لإعراضه هو عنها. كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] وقال تعالى مبيناً عماهم عن الهدى بسبب إعراضهم: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٦] فجميع الرسل بينوا لجميع الأمم كالسراج في ظلام الليل، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦] وكذلك الكتب السماوية جعلها الله نوراً وروحاً، قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]. وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤] وقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦] وقال في خاتم النبيين: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ

عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢] كما أعطى الله الإنسان وسائل التلقي وقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ٨ ـ ١٠]. وهنا مبحث في النظر بين هذه الهداية إلى صراط مستقيم والآية الكريمة ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص: ٥٦] وكقوله: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّۖ﴾ [النحل: ٣٧] فهنا هدايتان: هداية مثبتة لرسول الله ﷺ إلى صراط مستقيم، وفي قوله: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام: ١٦١]. وهداية منفية عنه ﷺ مثبتة لله تعالى، وكقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ مع قوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُۗ﴾ أشار والدنا الشيخ الأمين إلى طريقة الجمع بين هذه الآيات: بأن الهداية المثبتة لرسول الله ﷺ هي هداية الدلالة والإرشاد، والتي أداها على أكمل وجه، وترك الناس على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، وقد أبان ﷺ في حديثه المشهور: «ما تركت خيراً يقربكم إلى الله إلا بينته لكم وأمرتكم به، ولا شراً يباعدكم من الله إلا بينته لكم ونهيتكم عنه». وقال: «اعملوا، كلٌّ مُيَسَّرٌ لما خلق له». والهداية المنفية عنه: هي خلق التوفيق في قلوب العباد، وهذا لا يقدر عليه إلا الله وحده، ولهذا وجهنا المولى سبحانه إلى دوام سؤاله الهداية إلى الصراط المستقيم في كل ركعة من الصلوات الخمس كل يوم وليلة على ما سيأتي إن شاء الله تعالى.

٣ ـ الاستقامة في كتاب الله:

إن الله سبحانه جعل افتتاحية المصحف الشريف بسورة الفاتحة، ولذا سميت فاتحة الكتاب، وقد جمعت هذه الفاتحة مفاتيح جميع مقاصد كتاب الله، ولذا سميت أم الكتاب، وفرض الله تعالى علينا تثنيتها في كل ركعة من الصلوات الخمس وغيرها من النوافل، ولذا سميت السبع المثاني في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر: ٨٧] لعدد آياتها، ومن أهم آياتها بالنسبة لموضوع الهداية والاستقامة قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: ٦] وهو أعظم طلب يطلبه العبد من ربه في

أعظم موقف، وهو قائم قانت بين يديه، وقد جعل الله تعالى مقدمة هذا الطلب أعظم الوسائل وأقصى العبودية خضوعاً بين يدي السؤال، ابتداء من الحمد والثناء كل الحمد وأعظم الثناء ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ والحمد هو الثناء على المحمود لكمال ذاته وليس ذلك إلا لله وحده، ثم إعلان الإيمان بربوبيته سبحانه للعالمين، والإقرار بأن جميع العوالم في أرض وسماء، وفي بر وبحر، ومن حيوان وإنسان، ومن ملك وجان، كلها مربوبة لله وحده ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، رحمن الدنيا ورحيم الآخرة وسعت رحمته سبحانه كل شيء، أي إن ربوبيته للعالمين ربوبية رحمة وإصلاح وشفقة ومودة وإحسان. ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ وهو يوم الجزاء، يوم البعث والحساب، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧] ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: ٨٩]. يوم يقول كل إنسان حتى الأنبياء والمرسلون: نفسي نفسي. ويقول المولى سبحانه في ذلك الموقف: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝١٦﴾ [غافر: ١٦] وبعد هاتين المقدمتين: الله رب العالمين. الله مالك يوم الدين. تتجه كل من الدنيا بعوالمها والآخرة بمواقفها لله وحده، إذ لا يكون الاتجاه إلا بالرجوع والإنابة إلى الله في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ ففيه الإعلان بالخضوع إلى الله والالتزام إليه بالعبودية والاعتراف أنه حتى العبادة هي حق لك يا الله، لا قدرة لنا عليها إلا بالاستعانة فيك ومنك وحدك، على حد قوله ﷺ: «يا معاذ إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. . .» الحديث.

وهنا بعد تلك المقدمات العظيمة، ونتائجها الفاضلة الجسيمة، يتوجه العبد إلى الله بطلب الهداية والاستقامة ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ ومن تلك المقدمات لهذه المسألة نعلم مدى خطرها وعظيم جدواها، لأنه لو كانت هناك حاجة للإنسان أعظم فائدة منها، لكانت أحق بها هنا، والمتأمل يجد أن هذه المسألة وهذا الطلب أعم وأهم ما على الإنسان، يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: إنها أهم على الإنسان من طلب الرزق والنصر، لأن من هُدِي نُصر ولو هُزم

ومات وهو على هداية من الله كان مآله السعادة، وكان شهيداً. وفي الحديث: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين. قال الله: أثنى عليَّ عبدي. فإذا قال: الرحمن الرحيم. قال: مجدني عبدي» إلى «فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين. قال تعالى: هذه بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل». ليسأل اهدنا الصراط المستقيم، والاستقامة في كل شيء بحسبه، والخط المستقيم هو أقرب موصل بين نقطتين، وفي القصد والدوام والإحسان.

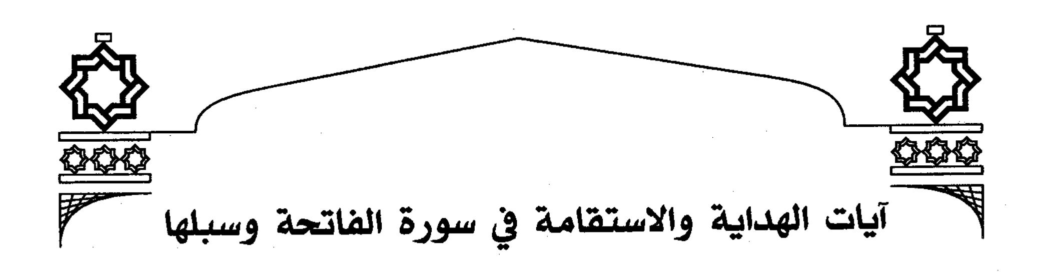
والاستقامة كما قيل: وسط بين طرفي الإفراط والتفريط، كما قال تعالى في عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧] والاستقامة وسط بين الجبن والتهور ممثلة في الشجاعة، ووسط في الشح والتبذير ممثلة في الكرم، وهكذا كان التوجيه الإلهي في قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء: ٢٦ ـ ٢٧] وبعدها بآية واحدة قال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩] فالاستقامة: الوسط والاعتدال والفضيلة بين الطرفين، وهو مضمون ما بعدها في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي أهل إنعامك وفضلك، وهم المنوه عنهم في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء: ٦٩ ـ ٧٠] فهؤلاء هم رفقة هذا الصراط المستقيم، ثم بيَّن طرفي الانحراف عن منهج الاستقامة في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

ومعلوم أن **المغضوب عليهم** المذكورين في هذه الآية هم اليهود، وكانوا كذلك لأنهم علموا الحق وجاءتهم رسلهم بالبينات، وأوضحوا لهم الطريق، ولكنهم تولوا وأعرضوا استكباراً، كما قال تعالى: ﴿ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧] وكما قال تعالى عنهم في حق نبينا ﷺ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا

يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦].

والضالون هم النصارى، لأنهم عبدوا الله على جهالة، ولهذا قال العلماء: كل من كتم الحق ولم يعمل به فيه شبه من اليهود، وكل من عمل على جهالة فيه شبه من النصارى. وكانت الاستقامة هي العمل على هداية وبصيرة، وهو صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. ومن هنا كرَّم الله تعالى هذه الأمة بأن جعلها وسطاً بين تلك الأمم كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾ [البقرة: ١٤٣] والوسط هم العدول الأخيار. وللإمام ابن تيمية رحمه الله الرسالة الواسطية، بيَّن فيها فضل وسط هذه الأمة بين الأمم في العقائد والعبادات وغير ذلك، وقد ظهر هذا الفضل وشرف هذا الاعتدال في قضية عظيمة بين الأمم الثلاث: اليهود والنصارى والمسلمين، تلك هي قضية عيسى وأمه مريم عليهما مِنَ الله الصلاة والتسليم، فها هم اليهود أول ما جاءتهم به تحمله ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم: ٢٧ ـ ٢٨] فلم تحرِ جواباً، وأشارت إليه، وكانت براءتها من منبع تهمتها ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم: ٣٠] إلى آخر جوابه المعجز، بينما النصارى قالوا فيه: ابن الله، أو هو الله، وألّهوه وأمه، فقالوا: ثالث ثلاثة. كما قال تعالى عنهم: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ﴾ [المائدة: ١٧]. وقوله عنهم: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ﴾ [المائدة: ٧٣] وكذبهم الله بقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ . . .﴾ [المائدة: ٧٣]. وجاءت هذه الأمة بالقول الحق: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ﴾ [النساء: ١٧١]. أما مناهج الاستقامة وسبلها ففي الصفحات الآتية إن شاء الله تعالى.

* * *



آيات الهداية والاستقامة في سورة الفاتحة وسبلها

١ ـ سبيل الهداية:

يأتي الإنسان إلى الحياة لا يعلم شيئاً، ولكن لديه وسائل العلم والمعرفة، ويولد على الفطرة، فيكون قابلاً للتوجيه، قادراً على السلوك الذي يوجه إليه. قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨] فقد يستطيع بحواسه هذه ـ السمع والأبصار والفؤاد ـ أن يدرك كل ما حوله، يستطيع أن يهتدي إلى وسائل حياته وتنظيم معيشته استجابة لفطرته، واستجابة لغرائز حب البقاء، وحب التملك، إلا أن الهداية إلى تحقيق الغاية من وجوده إلى الدنيا، لم يكن ذلك لفكره ولا لسمعه ولا لبصره، وإنما ذلك لله الذي خلقه وحدد الغاية من وجوده، والتي هي محض عبوديته لله وحده، والمنصوص عليه في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾. وكان من رحمة الله تعالى بعباده أن أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وجعل في الرسل الأسوة الحسنة، وفي الكتب الهداية والاستقامة، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [النحل: ١٦١] وكذلك قوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣ ـ ٤]. وهذه مقدمة مُسَلَّمٌ بها، من أن هداية المهتدين إنما هي من رب العالمين، وحيث إن هذا الموضوع هو موضوع آيات الهداية والاستقامة في كتاب الله، فتكون بدايته مع بداية كتاب الله في نسق المصحف الشريف، وقد جاءت بدايته بسورة الفاتحة المشتملة على أول طلب الهداية والاستقامة، وقد بيّن الحديث القدسي عظم منزلة هذه الهداية وفضل هذه الاستقامة، كما

جاء عنه ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل». قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا، يقول العبد: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ يقول الله تبارك وتعالى: حمدني عبدي. ويقول العبد: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يقول الله: أثنى عليَّ عبدي. ويقول العبد: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾. يقول الله: مجدني عبدي. ويقول العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾. فهذه الآية بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. يقول العبد: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾. فهؤلاء لعبدي، ولعبدي ما سأل». أخرجه مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الموطأ في باب القراءة خلف الإمام، والقسمة هنا طرفاها العبد وربه، والمقسوم هو فاتحة الكتاب، ومحل الاقتسام:

أ ـ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ حق لله تعالى، فيه إخلاص العبادة لله وحده بجميع أنواعها، وفيه ربط العبد بالله في جميع استعانته، وفي الحديث: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله». وهنا تتحقق الغاية لوجود الإنسان من تحقيق العبودية لربه.

ب ـ والذي للعبد هو هذا الطلب ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾. وللعبد ما سأل، وعد بتحقيق الطلب، وعده سبحانه صدق، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠] وقوله: أستجب: مجزوم في جواب الأمر: ادعوني، بتقدير: ادعوني إن تدعوني أستجب، فهو في قوة الشرط والجزاء، ولهذا كان ابن عمر يقول: إني لا أهتم بالإجابة، فإن الله قد وعد بها، ولكني أهتم بالدعاء، ومن ثَمَّ فأي دعاء أعظم من هذا؟ وأي سؤال أهم من طلب الهداية والاستقامة؟ إنه سؤال إلزامي، وبين يدي رب العالمين، وسبقته مقدمة الحمد والثناء والتمجيد لله، واقتسم الله فيه فاتحة الكتاب، إنه شرف للعبد ما أعظمه! وعطاء من الله ما أوسعه! يقف العبد بين يدي الله يناجيه، ويستعينه ويستهديه، والمولى يستجيب إليه فيعطيه. بقي علينا أن نبحث عن تحقق هذا الوعد الأكيد، ولو وقفنا وقفة تأمل وإمعان في نسق كتاب الله، وفي نظمه وتلاوته، وفي رسمه ودلالته، لوجدنا في أول نص، وفي أول سطر في أول

ورقة من المصحف بعد موضوع السؤال مباشرة، بعد ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ لكان أول ما نجد هو تلك الهداية، وذاك الصراط المستقيم، ما تلا في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ﴾ [البقرة: ١ ـ ٢] أي ولا شك، بل أمر يقيني قطعي، ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ هو الهدى المنشود، وهو الصراط المستقيم الموعود، سواء على قراءة: ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى﴾ أي اشتمل على الهدى أو ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ أي هو بعينه هدى للمتقين، أي هؤلاء الذين حمدوا الله، وأثنوا عليه ومجدوه، واعترفوا له بالعبودية، وأفردوه بالربوبية، واستعانوا به وحده، والذين سألوه، وَعَدَهم بأن يحقق لهم ما سألوا «لعبدي ما سأل» فتحقق أن الهداية المنشودة هي هذا الكتاب الكريم، وقد نص سبحانه بصريح النصوص على ذلك في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩] وهذا التبيان، وتلك الهداية، وهذه الرحمة، على أكمل وأقوم وأتم مثال، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ٩﴾ [الإسراء: ٩] وهكذا كانت الكتب السماوية للأمم السابقة، كما قال تعالى في الماضي والحاضر، في أول آل عمران: ﴿الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾ [آل عمران: ١ ـ ٤]. وقد أجمعت الأمة أن من طلب الهدى في غير الكتاب أضله الله، ومن تمسك به وسلك سبيله فأولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون، وقد قالت عائشة رضي الله عنها: كان ﷺ خُلُقه القرآن.

٢ ـ مواقف الناس من هداية الكتاب:

بيّن الله تعالى في أوائل المصحف الشريف انقسام الناس أمام الهداية الإلهية في كتابه العزيز إلى ثلاثة أقسام، ثم وضع المنهج السليم لمن أراد السلامة من تلك الأقسام الثلاثة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ وهؤلاء هم **القسم الأول** الذين يؤمنون بالغيب،

ويقيمون الصلاة، ومما رزقناهم ينفقون، وهم المتملكون من هداية الله، المعتلون الصراط المستقيم إلى مرضاة الله.

والقسم الثاني: هو المقابل لأولئك، وهو الذي جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ [البقرة: ٦ ـ ٧]. وقد أجمل الله أمرهم في آيتين: آية أفادت أنه سواء عليهم الإنذار وعدمه فهم لا يؤمنون، وآية أخرى بينت سبب هذه التسوية، ألا وهو سد نوافذ الهداية، وروافد المعرفة التي هي الحواس والقلب، فأصيب القلب بالختم عليه، أي لا يسمح بكفر أن يخرج منه، ولا يسمح لإيمان أن ينفذ إليه، فهو مغلق على ما هو فيه، فلا يعي شيئاً، وكذلك الختم على أسماعهم، فلا يسمعون سماع استجابة، ولا سماع تأمل وموعظة، فلا يستجيبون لداعي الهدى، وعلى أبصارهم غشاوة، حائلاً تغشيها فلا يبصرون النور والهدى، وهذه هي وسائل الهداية كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ [النحل: ٧٨]. فهذه الحواس هي طريق إعمال الفكر والنظر في أسباب وعلامات الهداية، فإذا كان هؤلاء الكفار قد ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وقد جعل على أبصارهم غشاوة، فلا سبيل إلى هدايتهم، فكان كفرهم سبب منع هدايتهم، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣] وقد بيّن تعالى أن هذا الختم على الحواس بسبب إعراضهم عن هدى الله الذي أنزله لعباده، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٦]. وقد ندرك أن كل من جانَبَ الصراط المستقيم، وضل هداية الطريق، فهو قد أُصيب بغشاوة على بصره، فلا يعتبر بغيره، ولا تنفعه نصائح قومه.

أما القسم الثالث: إزاء هداية الله فبينه سبحانه بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [البقرة: ٨ ـ ٩] وبيّن تعالى موجب هذا

التردد وضعف شخصيتهم أمام أنفسهم والمحيط الذي يعيشون فيه فيظهرون عكس ما يبطنون، والسبب هو كما قال تعالى عنهم: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وهنا يلتقي هذا القسم مع القسم الذي قبله في علة القلب، فالأول قد ختم على قلبه، وقد فرغ منه، وهذا القسم يحمل قلباً مريضاً، فلا هو سليم يتلقى الهدى، ولا هو مغلق على الكفر، ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ أي في قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ والواقع أنهم ما هم بمؤمنين، وقد جاءت الآيات تكشف من حالهم ومآلهم إلى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ وقد ضرب الله عليهم مثلين: مثلاً بالنور يضيء لهم، فيمشون فيه، ثم يذهب الله بنورهم ويتركهم في ظلمات لا يبصرون، ووصفهم بقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ ونجدهم هنا أيضاً شاركوا الكفار في تعطيل حواسهم: صم لا يسمعون، بكم لا ينطقون، عمي لا يبصرون. مما جعلهم متساوين مع الكفار تماماً في قوله تعالى عنهم: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾. وقد فضحهم الله في سورة تحمل اسمهم: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾ [المنافقون: ١ ـ ٢]. وإلى هنا يتم التقسيم الثلاثي لعامة الناس أمام هداية الله لخلقه: مؤمنون مهتدون، وكافرون معلنون، ومنافقون مذبذبون ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ وهذا القسم الأخير ملحق بالقسم الثاني في درك جهنم، ولم يسلم من الأقسام الثلاثة إلا القسم الأول الذي بادر بالإيمان والعمل الصالح.

وبعد هذا التقسيم الثلاثي نجد أول نداء في المصحف الشريف لكافة الناس، لم يخص مؤمنهم ولا كافرهم ولا منافقهم، بل ناداهم جميعاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١ ـ ٢٢]. وبتأمل مضمون هذا النداء، نجده نداءً إلى مضمون ما تقدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾، وإلى مضمون ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝﴾، ثم بيّن ـ سبحانه ـ موجب هذا التكليف بأنه حق لله: ﴿رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وما بعدها من أسباب معايشكم، ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ وأسكنكم إياها: الأرض تقلكم، والسماء تظلكم، والماء ينزله فيخرج به من الثمرات رزقاً لكم، وهذا مضمون قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي خالقهم ومربيهم، فكان حقيقة الهداية هي عبادة الله تعالى وحده.

وهناك موقف آخر ليس بين الكفار والمنافقين، ولكن بين اليهود والنصارى المتقدم ذكرهم في الفاتحة ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، وهذا الموقف يمثله قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ أي كلٌّ منهم ادعاها لنفسه ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ ولا برهان لهم، ثم رد عليهم تلك الأماني بقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝﴾ [البقرة: ١١١ ـ ١١٢]. بيّن بطلان كل منهما وعلى ألسنتهما: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ١١٣] فهذه شهادة كل منهما على الآخرين، ثم بيّن سخط الفريقين على المسلمين بقوله: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ أي لن ترضى اليهود إلّا باتباعهم، ولا النصارى إلا باتباعهم، وفي كلتا الحالتين لن يرضى عنك جميعهم، ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠]. ومثله قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۝ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝﴾ [البقرة: ١٣٥ ـ ١٣٧]. إنها هداية الله بما أنزل من كتبه على رسله.

٣ ـ الهداية هبة من الله تعالى:

تقدم أن حقيقة الهداية إلى الصراط المستقيم، هي عين كتاب الله لا ريب فيه هدى للمتقين، وتقدم أن الناس أمام هذه الهداية ثلاثة أقسام: مؤمنون

وأولئك هم المفلحون، وكافرون وضالون. ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨]. ومنافقون مخادعون إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا: إنا معكم إنما نحن مستهزئون. وقد بيّن الله تعالى أن سبب ضلال الكفار وخداع المنافقين راجع إلى قلوبهم ما بين مختوم عليها وبين مَرَضٍ يلازمها، وبتأمل آيات الكتاب نجد واضحاً أن الهداية هبة من الله تعالى، يتفضل بها على من يشاء من عباده مِنَّةً وإحساناً، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢].. وقال: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]. وهو القادر على هداية الناس جميعاً، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣]. وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ . . .﴾ [الرعد: ٣١].
وييئس هنا قيل بمعنى يعلم، وأنشدوا البيت لمالك بن عوف النضري:

أقولُ لهم بالشِّعْبِ إذ يأسرونني ... أَلَمْ ييأسُوا أني ابنُ فارسِ زهدمِ

وعلى هذا فالمعنى ظاهر من أن المراد: ألم يعلم الذين آمنوا بأن الله قادر على هدايتهم جميعاً، ولو يشاء لهداهم، أي ولكن يهدي من يشاء، وقيل: ييأس من اليأس، أي أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان الكفار، لعلمهم بأن الله لو أراد هدايتهم لهداهم، والمدلول واحد، وهو أن الله سبحانه لو أراد هدايتهم لهداهم، علماً بأن الله لم يتركهم هملاً، بل أرسل الرسل، وأنزل الكتب لهداية الجميع، واقرأ قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣]. فهنا رسل ومنزلة معهم كتب وقع الخلاف فيها، ومن الذين أتوه سابقاً، وحدث اختلافهم بعد البينات، وكان اختلافهم هذا بدافع البغي والعناد، فجاءت هبة الله وعنايته بالمؤمنين ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟

فِيهِ﴾ وجاء الحكم الحق ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾. فهذه الهداية للذين آمنوا مِنَّةً من الله عليهم، كما قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧]. وهذا أعظم منة استوجبت حمد وثناء المؤمنين في الدنيا والآخرة، وهذه مقالتهم في الجنة كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف: ٤٣]. تلك هي العاقبة الحميدة للمنة الجليلة، يحمدون الله تعالى عليها، ونلاحظ أنهم ربطوا هذه المنة وشكرها والثناء على موليها سبحانه وبين مجيء رسل ربنا بالحق، أي بالهداية وما أعد الله لأهلها، وهداية الله تعالى حقيقتها نور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده، وتأمل هذا السياق من سورة النور: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٨﴾﴾ [النور: ٣٤ ـ ٣٨].

هذه الآيات الخمس صورة واضحة لهبة المولى هدايته لخلقه، وآثارها عليهم، بدأت بأن الله أنزل آيات مبينات وموعظة للمتقين، والآيات هي مصدر الهداية، ثم صورت حقيقة الهداية في قلوب المؤمنين مثل نوره، أي نور الإيمان في القلوب كمشكاة، وهي مثل الطاقة والكوة فيها مصباح، والمشكاة تحفظ نوره، هذا المصباح مغلف بزجاجة، وهذا الغلاف الزجاجي لصفائه وصقله ولقوة نور المصباح كأنه كوكب دري، وهو المعروف عند الناس بأنه حجر مشع يضيء بذاته، وهذا المصباح يُمَوَّن بزيت شجرة مباركة هي شجرة الزيتون، قد نبتت في أحسن موقع ومناخ من بستانها بين الشرق والغرب، فلا

هي شرقية تتسلط عليها الشمس عند الشروق، ولا هي غربية تنزل عليها عند الغروب، بل هي بين بين، أجود ما تكون ثمرتها، وأصفى ما يكون زيتها، يكاد زيتها لصفائه يضيء ولو لم تمسسه نار. تلك المسميات في هذا البيان: المصباح، الزجاج، الكوكب الدري، صفاء الزيت؛ كلها مصادر نور، نور على نور، يهدي الله لنوره، نور الإيمان والهداية لمن يشاء، ثم يعقب هذا بمنهج هؤلاء الذين منحهم الله نور هدايته، بأن في الأرض بيوتاً أذن الله أن ترفع، وهي المساجد، وتعمر بذكر الله والتسبيح من أولئك، يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال، لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجمعة: ٩ - ١١]. وخاتمة الآيات الخمس هنا ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ وهو مثل قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ في سورة الجمعة.

أيها القارئ الكريم، ليكن دأبك صباح مساء طلب الهداية من الله، وليكن سعيك دائماً للأخذ بأسباب الهداية المومأ إليها بقوله تعالى هنا: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ وكن ممن تعلق قلبه بالمسجد، وفي الحديث القدسي: «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم». اللهم اهدنا فيمن هديت، وخذ بنواصينا إلى الحق، واهدنا لأقوم الطرق، لا يهدي إليها إلا أنت.

٤ ـ أسباب الهداية:

تقدم بيان أن الهداية منحة من الله، وقد جعل الله للهداية أسباباً وطرقاً موصلة إليها، وتقدم أن مركز الهداية هو القلب، وأنها نور في هذا المركز، وعليه جاء قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ . . .﴾ [التغابن: ١١ ـ ١٢]. فجعل الله تعالى الإيمان بالله سبباً لهدايته سبحانه للقلب، وإذا هدى الله قلب العبد أناره بالإيمان فصلح، وإذا صلح القلب صلح كل شيء من صاحبه، ثم أشار إلى نتائج ذلك ولوازم

الإيمان بالله فقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾. أي إن الطاعة نتيجة الإيمان، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]. فهو مثل قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ ولكن هنا نَفَى عنهم الإيمان إن لم يطيعوا كل الطاعة، وينقادوا كل الانقياد، ويسلموا كل التسليم، وفي الآية بعدها جاء قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ أي من الطاعة والانقياد والتسليم، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾﴾ وعطف عليه قوله: ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ وبيّن تعالى مدى إنعام الله عليهم بذلك في قوله بعدها معقباً على ما قبلها: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء: ٦٩ ـ ٧٠]. إنه إعجاز القرآن، إذ يبين ما به تتحقق الهداية إلى الصراط المستقيم بطاعة الله وطاعة رسوله، وما يعود على المؤمنين من رفقة وصحبه الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، أليس هذا السياق هو عين السياق في أول نص للهداية في سورة الفاتحة؟ أما طاعة الله ففي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ وأما الرفقة الفاضلة ففي ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ومن أسباب الهداية: الإنابة إلى الله ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧].

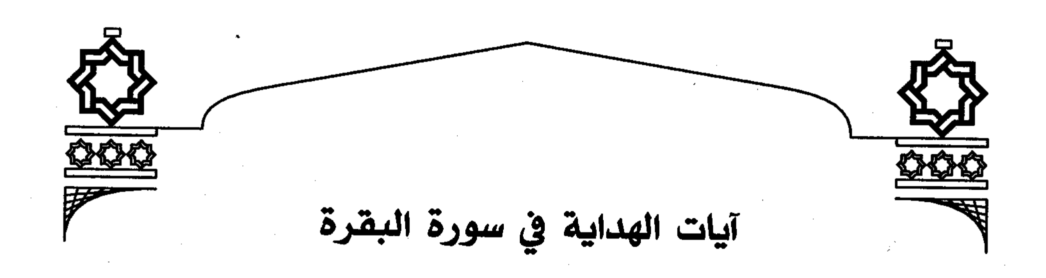
ووصف المهديين هنا بالإنابة، يشعر بسبب ضلال الكفار، وهو موقفهم المتعنت، ومطالبتهم بإنزال آية من الله، أليس في القرآن منتهى الآيات؟ ثم بيّن سبحانه حالة من أناب وحقيقة حالهم، فقال بعدها مباشرة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرعد: ٢٨ ـ ٢٩]. وتلاحظ أيضاً ربط الهداية بالقلب في طمأنينته بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب المؤمنة المستنيرة، وليست تلك التي ختم الله عليها، ولا التي فيها مرض، ومثلها في الإنابة قوله: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا

﴿تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: ١٣]. ومن أسباب الهداية الإيمان بالله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس: ٩ ـ ١٠]. ومثلها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧].

ومن أسباب الهداية الاعتصام بالله، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠١ ـ ١٠٢]. ومن أسباب وعلامات الهداية شرح الصدر للحق: كما قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأنعام: ١٢٥ ـ ١٢٦]. فقد جعل الله تعالى في هذا السياق: أن من شرح الله صدره للإسلام أنه قد هُدِي إلى صراط الله المستقيم، لأن الهداية كما أسلفنا نور يجعله الله في قلب المؤمن، ومن كان في قلبه نور من الله كان سلوكه ومنهجه في غاية الاستقامة، ومثل ذلك قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾ ثم بيّن تعالى عكس أولئك بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢]. وهم على العكس ممن هم على نور من ربهم، ثم بيّن سبحانه مصدر الهداية بقوله عقبهما مباشرة: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣]. فكان سبب الهداية أن شرح الله صدورهم للإيمان، وبهذا كانوا على نور من ربهم، وربط هذه الهداية ووجود هذا النور بما أنزل من أحسن الحديث كتاباً متشابهاً، وآثار هذا الكتاب عليهم تقشعر منه جلودهم، وتلين له قلوبهم إلى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء، ومن أسباب الهداية تلاوة القرآن الكريم الذي هو عين الهدى للمتقين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ

رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [النمل: ٩١ ـ ٩٢]. فجعل في شخصية رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة في عبادته رب البلد الحرام الذي له كل شيء وهو الله سبحانه كما قال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. ثم في تلاوة القرآن، فإن عليه ﷺ أن يتلو القرآن الذي جاء به هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، وهذا هو جماع الأمر في الهداية، وقد بين سبحانه قوة تأثير القرآن فيما ينزل عليه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]. وهو الذي ما إن سمعته الجن إلا آمنوا به واهتدوا كما جاء قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [الجن: ١ ـ ٢]. ولم يقتصر أمر الجن عند سماعه أن آمنوا به، بل ولّوا إلى قومهم منذرين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣١]. ولقد كان الجن أحسن جواباً، كما هم أسرع استجابة، كما قرأ ﷺ سورة الرحمن، كان كلما قرأ عليهم ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ يقولون: ولا بشيء من آلاء ربنا نكذب. اللهم اجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا، ونور أبصارنا، وأنت على كل شيء قدير.

* * *



آيات الهداية في سورة البقرة

١ ـ المنهج التفصيلي لمجمل الهداية في كتاب الله:

تقدم أن كتاب الله تعالى هو ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وهذا عنوان مجمل، وقد جاء تفصيله على مدى سوره وآياته، وتقدم بيان موقف الناس منه، حيث قسّم الله الأمة إلى ثلاثة أقسام: مؤمنين، وكافرين، ومنافقين، ثم جاء النداء الأول لعموم الناس ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ وهو مقتضى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ ثم أقام الأدلة على ربوبيته سبحانه بخلق الناس حاضرهم وماضيهم ومستقبلهم تابع لهم. وهو مقتضى ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم أقام الأدلة على صحة رسالة نبينا محمد ﷺ المبلغ عن الله تعالى، ثم بدأ بإيراد بداية هذا الإنسان ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] وتمام قصته وتكريمه بالعلم، وتشريفه بسجود الملائكة، وإسكانه الجنة، مما يضع قاعدة: العلم قبل كل شيء. وفضل المتعلم على جميع بني جنسه، وقد بَوَّب البخاري «باب العلم قبل العمل»، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ۝١٩﴾ [محمد: ١٩]. وقد كرم العلم كل من اتصف به، كالهدهد لما علم موقع سبأ وما هم عليه، فكان موضع غضب نبي الله سليمان وتوعده بالذبح أو التعذيب، فعفا عنه لِما جاءه به من علم هؤلاء القوم. والكلب المعلَّم أحل الله صيده بقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٤] وهكذا مناهج الحياة تسير في موضع العلم، فبالعلم تكون الهداية، وبالجهل تكون الغواية، ومن ثَمَّ جاء الخبر عن الخطيئة الأولى، ونسيان آدم عهد الله إليه بالنهي عن اقتراب الشجرة، ونتيجة ذلك؛ فكان خروجه من الجنة، ولكنها معصية عن زلة وليست عن عصيان وإصرار، فسرعان ما أناب إلى الله ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ

﴿١٢٢﴾ [طه: ١٢٢] بخلاف معصية إبليس: أُمر بالسجود مع الملائكة فأبى، وكان إباؤه عن سبق إصرار وعناد، حتى حاجَّ ربه قائلاً: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦] فكانت النتيجة بيان فلسفة المعصية والطاعة، وأن المعصية إذا كانت عن زلة قدم فإن المؤمن سرعان ما ينتبه ويرجع إلى الله منيباً إليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١] أما إذا كانت عن سبق إصرار وعناد فقد يؤديه إصراره إلى عدم التوبة عياذاً بالله، وعندئذٍ لا يعلم مصيره إلا الله.

ثم يأتي منهج الحياة الجديدة لآدم عليه السلام بعدم هبوطه إلى الأرض في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٧ ـ ٣٨] ومعلوم أن هذا الهدى المذكور هنا هو الهدى الذي جاءت به رسل الله كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ ...﴾ [الحديد: ٢٥]. وبعد بيان بداية الإنسان في مرحلته الأولى ومنهج حياته بعد هبوطه إلى الأرض، جاء بيان بني إسرائيل ومواقفهم من رسل الله إليهم، وتعداد النعم عليهم، ونجاتهم من عدوهم، ومعاينة المعجزات، وإقامة الأدلة لهم، وآخر تلك النعم والأدلة قوله: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [البقرة: ٥٣]. مردوا على العصيان وتحريف آيات الكتاب. ثم جاء أخذ الميثاق عليهم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة: ٨٣]. فهذا منهج متكامل ابتداء من عبادة الله وحده، وأركان الإسلام، وحقوق الوالدين وذوي القربى، والتكافل الاجتماعي مع اليتيم والمسكين، ومع عموم الناس بالقول الحسن، إلا أنهم تولوا معرضين ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ وهو مقتضى ما تقدم ختم الله على قلوبهم وكانت نتيجتهم ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]. وهذا أشد ما يكون تحذيراً من الإعراض عن كتاب الله تعالى.

ومن بني إسرائيل في رؤوس أقلام عنهم، إلى الخليل ﷺ، وهو الجد المشترك بين العرب في إسماعيل، وبين بني إسرائيل في إسحاق ويعقوب، في منهج عملي لتربية القادة والقدوة، وبالتالي المثالية الإنسانية، فقال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ﴾ [البقرة: ١٢٤]. الابتلاء: وهو الامتحان، والكلمات: هي التكاليف الشرعية، وإتمامهن: الوفاء بما كلف به. وقد بيّن تعالى ذلك في قوله: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾﴾ وبعد أن حطمها خاطبهم فيها: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾ أي أنتم تصنعونها فأنتم أفضل منها ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي فهو المستحق للعبادة، فأرادوا إيذاءه، والله عصمه منهم ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ وتوجه إلى الله ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ فرزق الولد وعلى كبر، ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ أمِر بذبحه ﴿قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ وهنا أقصى مناهج الطاعة والامتثال، وأبعد أنواع التكاليف والابتلاء: والد يُكَلَّفُ بذبح ولده، وولد يمتثل أمر ربه، درس لكل والد، وعبرة لكل ولد، وتكون النتيجة ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ أي قام فعلاً لينفذ أمر الله، ولكن رحمة الله أوسع، ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ أي الذي ابتلى إبراهيم به ربّه ﴿وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ فإبراهيم وهو جد العرب، وابنه الذبيح إسماعيل ضرب أروع المثل في الطاعة، فكان على العرب عند بعثة سيد الخلق رسولاً من أنفسهم أن يبادروا بالإسلام. وهذا إسحاق نبي من الصالحين كان على ذريته وهم أبناء يعقوب ولد إسحاق أن يبادروا إلى الطاعة كذلك. ولكن كما قال تعالى: ﴿وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ أي معاً ﴿مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات: ١١٣].

فهذا عرض لبدء الخليفة، وبيان شرف الإنسان وموجب تكريمه، ثم عرض شأن أهم الأمم بني إسرائيل وحالهم من أنبيائهم، ثم الإتيان بالجد المشترك للعرب ولبني إسرائيل معاً، وبيان منهج تكوينه ابتلاء بالتكاليف، ووفاء للواجبات، فكان أمة وإماماً. وأوحى الله لنبينا باتباعه ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣].

٢ ـ الهداية إلى التجارة الرابحة:

تقوم الحياة على قانون المعاوضة، سواء في التجارة أو الصناعة أو الزراعة وسائر المعاملات. وبقدر ما تعطي، بقدر ما تأخذ، حتى مع الحيوانات تعطيك بقدر ما تعطيها. وهكذا سنة الله في هذه الحياة.

والمتأمل نصوص القرآن الكريم، والسنة المطهرة، يجد الحياة بمثابة السوق القائم للخلق، وأغلى سلعته هو الإنسان إن هو أحسن بيعها، وأدنى السلع إن هو أساء استبدالها. وقد جاء في الحديث الطويل: «الطهور شطر الإيمان». في آخره: «والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها». أي في كل غدوة نهار صفقة بيع للإنسان. بيع إجباري لجزء من عمره، فإن أحسن بيعها في طاعة الله أعتقها؛ أي باعها بمقتضى حجية القرآن له، وإن أساء استبدالها أوبقها؛ أي: أهلكها. أي: كان القرآن حجة عليه. إن هذا هو التصور الحقيقي للإنسان في هذه الحياة، والنصوص في ذلك عديدة، وقد عني القرآن الكريم بهذه القضية، وجاء في أوائل المصحف الشريف إبراز نوع من الشراء الرابح وغير الرابح في معرض تقسيم الخلق أمام كتاب الله، ونوع الاختيار بين الدنيا والآخرة، وبين العذاب والمغفرة في منهج الضلال والهدى. فكانوا أقساماً ثلاثة:

١ ـ قسم التزم منهج الهدى بالإيمان بالغيب ولوازمه: من إقامة أركان الإسلام، والإيمان باليوم الآخر، وكان لهم الفلاح والفوز، أي آثروا الآخرة على الدنيا.

٢ ـ وقسم على العكس من ذلك: كفروا بما جاءهم من الحق، وسواء عليهم إنذارهم وعدم إنذارهم، وختم على قلوبهم، وجعلت غشاوة على

أبصارهم، خسروا الدنيا والآخرة، لأنهم لا الدنيا دامت لهم، ولا الآخرة حصلت لهم، ولهم عذاب عظيم.

٣ ـ والقسم الثالث: قسم حاول الاستبدال، ورغب المربح، لكنه وقع في الغش والتدليس: يزيف سلعته، ويبخس كيلها، ويخسر ميزانها.

يقول: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [البقرة: ٨ ـ ٩]. ولخطر هذا القسم على المسلمين أطال القرآن الكريم الإيراد فيه، ليكشف زيف سلعته، ويظهر خفي غشه، ويبطل طرق خداعه، لأنه يخادع من لا تخفى عليه خافية. وكما قيل: أخلص العمل فإن الناقد بصير. ولهذا كانت النتيجة أنهم يخدعون أنفسهم وهم لا يشعرون. لا يشعرون بأن خداعهم عائد على أنفسهم، سواء في الدنيا بما هم فيه من مخاوف وقلق من أن ينكشف أمرهم، ومن عدم الركون إليهم، لا من هؤلاء ولا من هؤلاء، فهم فاقدو الثقة من الطرفين. أو كان خداعهم عائداً عليهم في الآخرة: يوم تبيض وجوه وتسود وجوه. يوم يطردون عن حوضه ﷺ فيطفأ نور الوضوء من أعضاء الوضوء: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ [الحديد: ١٣ ـ ١٤]. وهناك ينكشف القناع، ويبطل ما كان منهم من خداع.

وفي السياق عنهم: يكشف الله عن دخيلتهم: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة: ٩ ـ ١٠]. وهذه حالة معنوية في مرضى القلوب كالحالة الطبية سواء. لما مرضت قلوبهم ولم يبادروا بالإقلاع عما هم عليه، وطال الزمن، استفحل المرض، وتمكن من قلوبهم حتى عجزوا عن معالجته. فالداء يسري وصاحبه لا يدري، حتى في حالة تنبيههم على ظواهر المرض وأعراضه، يغالطون ولا يستجيبون. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ـ أي بخداعهم وتزييفهم وإغواء غيرهم ـ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي في زعمهم، والواقع

أن كل من غشَّ فيعمل فهو يعلم أنه يغش، ولكن في زعمه أنه يعمل لمصلحة نفسه، وتناسى ما سيكون بعد ذلك. ومرة أخرى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ ثم هم إن دُعُوا إلى المنهج السليم، وأن يكونوا مع المؤمنين، استنكفوا، وتعاظموا في أنفسهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ وهكذا مرضى القلوب ضعاف النفوس، من خدعوا بالمظاهر المزيفة، وتجملوا بثوب العارية من مال زائل، أو جاهٍ مؤقت، أو منصب محدود، يرون أنفسهم هم الناس، ولا يرون لعامة الناس معهم شيئاً. وقد عرض بعض السادات على النبي ﷺ أن يصرف عنه ضَعَفَةَ المسلمين، لئلا يجالسهم عند النبي ﷺ، وجاء قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨]. لقد أفرطه في حق هؤلاء، لغفلة قلبه ومرضه، وفرَّط في حق نفسه. وتلك حالة سابقة في الأمم:

فمع نبي الله نوح: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ إلى قوله تعالى عنه: ﴿أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود: ٢٧ ـ ٢٩].

وفي سورة الشعراء كانوا أصرح عبارة، وأشد إفراطاً ﴿۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾ [الشعراء: ١١١ ـ ١١٥].

وقد أعلن هرقل لأبي سفيان حين سأله عن النبي ﷺ، وأبو سفيان ببيت المقدس: عمن يسبق إلى اتباعه الأغنياء أم الفقراء؟ فأخبره أنهم الفقراء. فقال له هرقل: وكذلك هم أتباع الرسل. وذلك لحصافة عقله، بخلاف هؤلاء الذين كان أمرهم فرطاً.

ثم جاء في سورة الأنعام إيضاح هذا المفهوم: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ﴾ [الأنعام: ٥١ ـ ٥٣] أي يتنقصون

ضعاف الناس على امتنان اللهِ عليهم بنعمة الإيمان، ولكن يأتي الجواب حالاً: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥١ ـ ٥٣]. وهم الذين شكروا نعم الله عليهم في إيجادهم من العدم، وتيسير سبل الحياة، وصحة وسلامة أنفسهم، فقابلوه بالإيمان والطاعة: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ٣ ـ ٤]. فأعظم أنواع الشكر هو الإيمان بالله، وأعظم أنواع الظلم الشرك بالله. وفي أول نداء في كتاب الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ وبين موجبات ذلك فيما بعد النداء: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾. وعدد نعمه عليهم في جعل الأرض فراشاً، والسماء بناء، وإنزال الماء، وإنبات النبات إلى آخره. فالذين آمنوا بالله هم أول من شكر نعمة الله، والذين تبطرهم النعمة، وتطغيهم العافية، ويزدرون ضعفة الناس المؤمنين، فيهم شَبَهٌ من أولئك الذين وصفهم الله في قلوبهم مرض. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [البقرة: ١٣].

٣ ـ خداع المنافقين في تجارتهم:

بعد كشف ما خفي من أمر المنافقين، وبيان حقيقتهم في دخيلة نفوسهم، جاء السياق في بيان منهجهم في تعاملهم مع المسلمين ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ١٤]. ويلاحظ في الأسلوب المعجز ببيانه: ففي حق المؤمنين جاء ﴿وَإِذَا لَقُوا۟﴾، وفي حق شياطينهم من الإنس جاء ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟﴾. أي أنهم يجاهرون بالقول عند لقاء المؤمنين، ويسرون إلى شياطينهم في حالة الخلوة عن المؤمنين، فهم يظهرون الإيمان عند المؤمنين، ويخفون عليهم كفرهم. وعند شياطينهم يعلنون الكفر، ولا يخفون ادعاء الإيمان، ويعتذرون عنه بأنهم مستهزئون.

ويبين لنا الله تعالى: أنه يستهزئ بهم، ويمهلهم، ويمد لهم الأجل زيادة في خداعه إياهم: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة: ١٥]. وهنا وقفة طويلة، ونداء متواصل يجب أن يظل دائماً في آذان أولئك الذين

يخادعون الناس في أي عمل من الأعمال ويخادعون الله، كمن وَلِي عملاً فخدع صاحب ذلك العمل، سواء كان العمل خاصاً لشخص بعينه، أو كان العمل عاماً لعامة الناس. أياً كان ذلك العمل، وأياً كان ذلك الخداع كأصحاب المهن والمقاولات، فيخدع المرة تلو الأخرى ولا ينكشف أمره، ثم إذا به يفاجأ بخسائر كل مخادعاته، وكالمستأمن يختلس ويزيف، أو يرتشي، أو غير ذلك، ولا ينكشف أمره بادئ ذي بدء، ويمد الله لهم في طغيانهم، ويمهلهم لعلهم يتذكرون، لعلهم يتوبون، لعلها في الأولى كانت زلة، أو تحت تأثير وإلحاح ما دفعه إلى ذلك، ثم يرده دِينُه وينبهه ضميرُه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١] وتأمل ما قبلها: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَـٰنِ نَزۡغٌ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾ أي إن الإنسان معرض لنزغات الشيطان، وحمايته من نزغاته اللجوء والاستعاذة بالله ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾. وهذا هو حال المؤمنين ﴿إِذَا مَسَّهُمۡ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾، ومدركون الحقائق، فسرعان ما يرجعون إلى الصواب. وانظر ما بعدها في بيان من لم يتذكر ولم يصغ لنداء الضمير، ووازع الإيمان، تبين الآية بعدها حال هؤلاء في قوله تعالى: ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ والضمير في (إخوانهم) يعود على أول السياق: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ [الأعراف: ١٩٨].

فهؤلاء الذين خادعوا في أعمالهم: سواء الخاصة أو العامة، وأمهلوا ليتراجعوا وليتذكروا فيبصروا، إمَّا أن يستجيبوا لنداء الضمير وواجب الحق، فيدركوا الحقائق، ويصلحوا ما أفسدوا، ويقلعوا عما استزلهم الشيطان إليه. وإمَّا استمروا على ما هم عليه، وإخوانهم يمدونهم في الغي. وقد لعن رسول الله ﷺ من ساعد صاحب عمل يستوجب اللعن. كما في شأن الخمر: الشارب والحامل والصانع والمشتري والحاضر... إلخ، وكما في الربا: الآكل والموكل والكاتب والشاهد. وكما في الرشوة: الراشي والمرتشي. وفي ذلك يقول الشاعر، وصدق فيما قال:

لا السامعَ الذَّمَّ شريكٌ لقائلِهِ ومُطْعِمَ المأكول شريكُ الآكل

فكل مخادع في عمله، بين أحد شخصين:

شخص: زلت به قدم أمام نزغة شيطان، فاستيقظ ضميره، وتذكر عواقب أمره، وخاف عقاب ربه، فأبصر ورجع، والله سبحانه أعطاه المهلة ليعتذر عن خطئه، ويلجأ إلى ربه مستعيذاً من عدوه، وكل بني آدم خطاؤون وخير الخطائين التوابون.

أو شخص: تعمد الخداع، واستمرأ المادة، ولم يستجب لأي نداء، ولم يتذكر أو يخشَ أي عاقبة، ولم يبال بأي عقاب، وعملاؤه يمدونه في الغيِّ ولا يقصرون في أنواع الإغراء والإمداد، لأن لهم مصالح في ذلك، فهو سائر على طريق أولئك الذين يخادعون الله ورسوله، ويستهزئون بالنذر، وبكل وعد أو وعيد، هم ضمن الذين يَستهزئ الله بهم، ويمدهم في طغيانهم يعمهون.

والمتأمل تاريخ العالم الحاضر، ليجد في الآونة القريبة، كم من قضية مخادعة كان ظن أصحابها أنها لا تنكشف، سواء من قضية اختلاس أموال، أو غش وتدليس، أو على مستويات عالية من أرباب مناصب لها حصانة، فتخدعهم حصانتهم، ثم هم لم يشعروا إلا بتقديمهم للمحاكمة، وتُوَجَّهُ إليهم التهم التي عقوبتها إما الإعدام، وإما السجن المؤبد، وإما دون ذلك. وعليه فإن العاقل يجب عليه أن يستشعر أن الخداع كالسراب، لا بقاء له، وأنه هو الخاسر مهما كانت نتيجته، سواء كان في الدنيا كما أشرنا، أو كان في الآخرة كما جاء في ختام هذا السياق بالحكم على هؤلاء المخادعين: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ [البقرة: ١٥ ـ ١٦]. وضرب لهم المثلين الآتيين، والموقف هنا في هذه الصفقة الواقعة من المستهزئين المخادعين كان أمامهم طريقان: طريق الضلالة والغواية والخداع والمراوغة والظلام. وطريق الهداية والرشاد والنور والنصح والإخلاص. وهما طريقان مختلفان مفترقان لا يلتقيان أبداً. **والأول**: يدعو إليه إخوان الشياطين، **والثاني**: يدعو إليه كتاب رب العالمين، وعباد الله الصالحون. وهنا يأتي قانون المعاوضة: فمن أخذ بأحد الطريقين، يكون قد استعاض به عن الآخر. وهنا تتنوع الصفقات،

ويعظم الربح، وتفدح الخسارة، وفي حق هؤلاء يقول تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾. والبيع والشراء أصله في الماديات، وجاء عن يوسف عليه السلام: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ ... وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ ...﴾ [يوسف: ٢٠ ـ ٢١] إلخ. ثم نقل إلى المعنويات بجامع الاستبدال في كل. كما قال الراجز:

قد اشتريت الجمة برأس أزعرا   وبالثنايا البيض الدردرا

كما اشترى المسلم إذ تنصرا

فهؤلاء استبدلوا الضلالة بالهدى، أي أسلموا الهدى وتركوه، وأخذوا الضلالة واختاروها، فكانوا في صورة المبتاع، والباء تدخل على المتروك الذي بمنزلة الثمن، تقول: اشتريت الكتاب بقلم. فكلاهما سلعة مستبدلة بأخرى، والخارج من يدك هو الثمن، فكانت هذه الصفقة خاسرة، وفي الحكم الصادر عليهم ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ فيها توجيه هام، لأن عدم الربح موضوع، وعدم الهداية موضوع آخر، واجتماعهما يدل على أن التاجر معرض للربح والخسارة، فإن كان على هدى في أمر تجارته، فربح فيها وعمله سليم. وإن قدر أن خسر فلا لوم عليه، لأن عمله سليم على هدى من أمره. أما إذا كان لا يحسن التجارة، ولم يهتد إلى طرقها، فإن قدر فربح فلظروف غير عادية، وإن خسر فهو لضلاله وعدم اهتدائه لأصول التجارة، فيكون موضعَ لوم وتأنيب، فيجمع على نفسه الخستين: ضلالة المنهج، وخسارة المتجر. وسيأتي بيان التجارة الرابحة إن شاء الله تعالى.

٤ ـ بين نصح العلماء وصدق الخلفاء:

ساق القرطبي في تفسيره ١/٣٣٧ على الآية الكريمة من سورة البقرة ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾ [البقرة: ٤١]. تحت عنوان (المسألة الرابعة) قال: روى الدارمي في مسنده ـ وساق السند إلى الضحاك بن موسى ـ قال: مر سليمان بن عبد الملك بالمدينة ـ وهو يريد مكة ـ فأقام بها أياماً، فقال: هل بالمدينة أحد أدرك أحداً من أصحاب النبي ﷺ؟ قالوا له: أبو حازم. فأرسل إليه، فلما

دخل عليه قال له: يا أبا حازم ما هذا الجفاء؟ قال أبو حازم: يا أمير المؤمنين وأي جفاء رأيت مني؟ قال: أتاني وجوه أهل المدينة ولم تأتني. قال: يا أمير المؤمنين أعيذك بالله أن تقولَ ما لم يكن، ما عرفتني قبل هذا اليوم ولا أنا رأيتك. قال: فالتفت إلى محمد بن شهاب الزهري فقال: أصاب الشيخ وأخطأت. قال سليمان: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم خربتم الآخرة وعمرتم الدنيا، فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب. قال: أصبت يا أبا حازم، فكيف القدوم غداً على الله تعالى؟ قال: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه. فبكى سليمان وقال: ليت شعري، ما لنا عند الله؟ قال: أعرض عملك على كتاب الله. قال: وأي مكان أجده؟ قال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾. قال سليمان: فأين رحمة الله يا أبا حازم؟ قال أبو حازم: ﴿رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. قال سليمان: يا أبا حازم فأي عباد الله أكرم؟ قال: أولو المروءة والنهى. قال سليمان: فأي الأعمال أفضل؟ قال أبو حازم: أداء الفرائض مع اجتناب المحارم. قال سليمان: أي القول أعدل؟ قال أبو حازم: قول الحق عند من تخافه أو ترجوه. قال: أي المؤمنين أكيس؟ قال: رجل عمل بطاعة الله ودل الناس عليها. قال: فأي المؤمنين أحمق؟ قال: رجل انحط في هوى أخيه فباع آخرته بدنيا غيره. قال سليمان: أصبت، فما تقول فيما نحن فيه؟ قال: أو تعفيني يا أمير المؤمنين. قال: لا. ولكن نصحية تلقيها إليَّ قال: يا أمير المؤمنين إن آباءك قهروا الناس بالسيف، وأخذوا هذا الحكم عنوة على غير مشورة من المسلمين ولا رضاهم، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة، فقد ارتحلوا عنها فلو شعرت ما قالوه وما قيل لهم. فقال له رجل من جلسائه: بئس ما قلت يا أبا حازم. قال: كذبت، إن الله أخذ ميثاق العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه. قال سليمان: كيف نصلح؟ قال: تَدَعُونَ الصلفَ، وتمسكون بالمروءة، وتقسمون بالسوية. قال: فكيف لنا بالمأخذ به؟ قال: تأخذونه من حله وتضعونه في أهله. قال سليمان: هل لك أن تصحبنا فتصيب منا ونصيب منك؟ قال: أعوذ بالله. قال: ولم ذاك؟ قال: أخشى أن أركن إليكم شيئاً قليلاً فيذيقني الله ضعف الحياة وضعف الممات. قال سليمان:

ارفع إلينا حوائجك. قال: تنجيني من النار وتدخلني الجنة. قال سليمان: ليس ذاك إليّ. قال أبو حازم: فليس لي إليك حاجة غيرها. قال: فادع لي. قال: اللهم إن كان سليمان وليك فيسره لخير الدنيا والآخرة، وإن كان عدوك فخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى. قال سليمان: قط ـ يعني كفى ـ قال أبو حازم: قد أوجزت وأكثرت، إن كنت من أهله. قال: أوصني. قال سأوصيك وأوجز: عظم ربك، ونزهه أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك.

فلما خرج من عنده بعث إليه بمال، وكتب إليه: أنفقه ولك عندي مثله كثير. فرده عليه وكتب إليه: يا أمير المؤمنين، أعيذك بالله أن يكون سؤالك إياي هزلاً أو رَدِّي عليك بذلاً ـ أي راجياً بَذْلَكَ وعطاءك ـ وما أرضاه لك فكيف أرضاه لنفسي. وذكر له موقف موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين، وسقى للجاريتين، ثم تولى إلى الظل وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]. وسمعتها إحدى الجاريتين، ودعاه أبوهما وكان بين يديه العشاء فقال: هلم إلى العشاء. فقال موسى: معاذ الله. فقال له: ألست جائعاً قال: بلى، ولكن أخشى أن يكون هذا عوضاً لما سقيت لهما. ونحن أهل بيت لا نبيع شيئاً بملء الأرض ذهباً، فإن كان هذا المال عوضاً عما حدثتك به فالميتة ولحم الخنزير في حال الاضطرار أحل من هذه، وإن كان لحق في بيت المال فلي فيه نظراء، فإن ساويت بيننا وإلا فليس لي فيه حاجة. قال القرطبي معقباً على ذلك: هكذا يكون الاقتداء بالكتاب والأنبياء، انظروا إلى هذا العالم الفاضل، لم يأخذ على عمله عوضاً، ولا على وصيته بذلاً، ولا على نصيحته صفداً ـ يعني عطاء ـ بل بَيَّنَ الحق وصدع، ولم يلحقه في ذلك خوف ولا فزع. قال ﷺ: «لا يمنعن أحدكم هيبة أحد أن يقول أو يقوم بالحق حيث كان». وفي التنزيل ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

وإنا أمام هذا الحديث الشيق، والنصيحة الخالصة، والزهد والورع، وتوقير الخلفاء للعلماء نقول: اللهم ارزق المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ولاة كسليمان، يستنصحون العلماء، ويستنيرون بما أفاض الله عليهم من نور البصيرة، وضياء اليقين. وأن يرزق العالم الإسلامي في مشارق الأرض ومغاربها علماء كأبي حازم، يصدقون الله في القول والعمل، ويخلصون النية

في نصح ولاة أمر المسلمين. ويوم أن كان الولاة أخياراً، والعلماء أبراراً، كانت الأمة عزيزة الجانب، موفورة الكرامة، آمنة مطمئنة، وما ذلك على الله بعزيز. وقد قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. وقال ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً: كتاب الله، وسنتي». وقد أوجب ﷺ النصح لولاة المسلمين في عموم النصيحة. في قوله ﷺ: «الدين النصيحة»، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم».

والنصح لله: إخلاص العبادة له وحده.

ولرسوله ﷺ: نصرته في حياته، وامتثال أمره، واجتناب نهيه، والعمل بسنته من بعدها، وحفظها ونشرها، والذب عنها والدفاع عن أهلها، وعدم التشكيك فيما صح منها، ولا تزييف ما لم يثبت منها، ومن النصح لرسوله ﷺ: محبته، وإفراده بالاتباع.

ومن النصح لأئمة المسلمين: التعاون معهم على تحقيق مناهجهم، وتطبيق تعاليمهم، وطاعتهم فيما فيه طاعة لله، وإن ظهر منهم ما شذ وخالف فإنه يتلطف معهم في بيانه، ويسلك معهم سبيل الحكمة في بيانه، ومن النصح لهم عدم مظاهرة خصومهم عليهم، وعدم الإعلان عن أسرارهم إلى غير ذلك.

والنصح لعامة المسلمين: إرشاد ضالهم، وتعليم جاهلهم، ومساعدة محتاجهم، والقيام لهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن لا يألو جهداً في جلب الخير لهم، ودفع الضر عنهم، سواء في دينهم أو في دنياهم.

وأرجو أن يكون حديثي هذا من هذا القبيل، نصحاً لله ولرسوله، ولهؤلاء الذين نوهنا عنهم في السابق ممن أوجدوا فرقة ونزاعاً بين شباب المسلمين، بسبب اجتهاداتهم الشخصية من غير اقتداء بسلف، ولا اتباع لأثر، والله الهادي إلى سواء السبيل.

٥ ـ النص الثاني مع الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ

﴿فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة: ٨٤ ـ ٨٦].

الخطاب موجه لليهود المعاصرين للنبي ﷺ، بدليل الآية قبلها: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ...﴾ وبعدها مباشرة ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ ...﴾ إلى آخر السياق. ومعلوم أن الميثاق هو العهد الموثق الذي يلتزم به من أُخذ عليهم.

واليهود لم يوفوا بأي ميثاق أُخذ عليهم، بل كانوا إما نقضوه صراحة، أو احتالوا عليه. وعندهم مبدأ: الغاية تبرر الوسيلة. وإن نقضهم المواثيق هو الذي جلب عليهم كل عناء في السابق، كما وقع من بني النضير وبني قريظة، حتى أجلاهم الرسول ﷺ وسباهم كما هو معروف.

والسياق هنا في نقضهم الميثاق الذي كان قد أُخذ عليهم في التوراة، والذي بسببه اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة. وتفصيل ذلك كما قال ابن كثير رحمه الله: يقول الله تبارك وتعالى منكراً على اليهود الذين كانوا في زمن النبي ﷺ بالمدينة، وما كانوا يعانون من القتال مع الأوس والخزرج، لأن الأوس والخزرج قبل أن يكونوا أنصاراً كانوا كفاراً وثنيين، وكانوا على محاربة بينهما، وكانت قبائل اليهود معهم في المدينة، فكانت بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء مع الخزرج، وبنو قريظة مع الأوس. فإذا نشبت حرب بين الأوس والخزرج قاتل مع كل منهما حلفاؤه من اليهود، أي يلتقي اليهودي وجهاً لوجه مع اليهودي في صفين متعاديين. وعند المسابقة والتحام الصفوف قد يقتل اليهودي الذي مع الأوس أخاه اليهودي الذي في صف الخزرج، وكذلك العكس. وذكر أنه محَرَّمٌ عليهم في دينهم ومأخوذ عليهم المِيثاق على ذلك، وكذلك إخراجهم من بيوتهم، إذا خرج حليف فريق مع فريقه، فإن اليهود الآخرين حلفاء الفريق الآخر، ينتهبون بيوتهم؛ من أثاث ومتاع وأموال، ومن بقي في بيته أخرجوه واستولوا على بيته بما فيه. فإذا انقضت تلك

الحرب، ورجع كل يهودي إلى قبيلته، وكان في القتال أساري ومن أولئك الأسارى يهودي، فجاء دور المفاداة، قام كل منهم يفادي أسراه. سواء كان في أيدي اليهود أو الأوس والخزرج، وفداء الأسارى منصوص عليه في التوراة. فكانوا في بعض أعمالهم مخالفين لما في التوراة، وهو قتال بعضهم بعضاً وإخراج بعضهم من ديارهم، فخالفوا التوراة. وبعض عملهم منصوص عليه، وهو لزوم مفاداة أسراهم. فقال تعالى منكراً عليهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني في مفاداة الأسارى ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ يعني في القتل والإخراج.

وعليه: فقوله تعالى: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ على أن المرء لا يقتل نفسه ولا يخرج نفسه من بيته، هو أنهم لما كانوا أهل ملة واحدة، كانوا بمنزلة النفس الواحدة، كما في الحديث: «مثل المؤمنين في تَوَادِّهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». وأيضاً نظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]. وإذا كان اليهود قد أخذ عليهم الميثاق أن لا يقتلوا أنفسهم، ولا يخرجوا أنفسهم من ديارهم، فقد أُخذ كذلك على المؤمنين في قوله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه». أي لأخوة الإسلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. وقوله ﷺ: «المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه». فاشتركت هذه الأمة فيما أخذ على اليهود فيه الميثاق.

ثم يسجل القرآن عليهم إقرارهم والتزامهم بقوله: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾. أي أن عملهم ذلك المخالف لِما أُخذ عليهم فيه الميثاق، أَتَوْهُ على علم وعن عمد وسبق إصرار، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ يعني اليهودي يقتل اليهودي، لوجود كل منهما في الصف المعادي. ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم . . .﴾ ـ وهم حلفاء أعداء حلفائكم ـ ﴿مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾ ولهذا جاء الإنكار عليهم لسبق علمهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ ونقل ابن كثير أنهم لما سئلوا: كيف تقاتلون بعضكم، وإذا أُسِرَ

واحدٌ منكم فاديتموه؟ قالوا: إنا نستحي أن تستذل حلفاؤنا. أي أنهم خالفوا دينهم، ونقضوا عهدهم، وضيعوا الميثاق المأخوذ عليهم لا لشيء إلا حياء من حلفائهم. وهذه أكبر، كان عليهم أن يستحوا من الله، قبل أن يستحوا من حلفائهم، ولو أنهم اعتذروا لحلفائهم بما أخذ الله عليهم من عهد وميثاق، لكان لهم العذر، بل قد فعلوا مثل ذلك: لما نقضوا العهد مع المسلمين في غزوة الخندق، وأتاهم نعيم بن مسعود وسعى بينهم وبين الأحزاب، وحذر كلاً منهما من غدر الآخر، فإنه لما أرسل إليهم أبو سفيان على أن يناجزوا المسلمين من الغد. قالوا: إنه يوم السبت وقد علمتم ما حل بقومنا في يوم السبت... إلى آخر الخبر. والذي يهمنا هنا: أنهم تناقضوا مع التوراة، وكان علماؤهم يعلمون ذلك. جاء عن عبد الله بن سلام أنه اشترى يهودية من السبي، ومر (برأس الجالوت) فقال له: يا رأس الجالوت: هل لك في عجوز من أهل دينك تشتريها مني؟ قال: نعم. فساومه عليها بضعف ثمنها فلم يبعه، فرفض شراءها. فقال: والله لتشترينها مني أو لتكفرن بدينك. وقرأ في أذنه نص التوراة في مفاداة الأسير اليهودي فقال له: إن عبد الله بن سلام قال: نعم. فاشتراها بالثمن الذي طلبه، ثم رد عليه نصفه.

ومن هنا ندرك مدى حرص اليهود على إطلاق أسراهم، ليس فقط أمراً عسكرياً، ولكن عهداً وميثاقاً مأخوذاً عليهم.

وهنا وقفة طويلة في أعقاب نقض اليهود ميثاقهم، والإنكار عليهم في أن يؤمنوا ببعض الكتاب ويكفروا ببعض. علماً بأن هذه الأمة قد شاركت في أخذ العهد عليها أن المؤمنين إخوة، والمسلم على المسلم حرام، ومأخوذ عليهم العهد بالعمل بكتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ، ثم ها هو ما يقع بينهم ما يجل عن الوصف من حروب مدمرة، وعهود منقوضة. وكم من هدنة لا اعتبار لها. فالمسلم يقتل المسلم، والجار المجاور يقاتل على حدود جواره، وكم من أهل ديار يخرجون منها، وكم من أسير مسلم إلى الآن لم يجد من يفاديه، حتى تبادل الأسرى يتباطؤون فيه، فهل يعود المسلمون إلى سالف عهدهم ومنهج سلفهم، فتتوحد كلمتهم، وتتحد صفوفهم، وتحفظ عليهم دماؤهم؟ وإلا فالحذر والله مما جاء في ختام السياق: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ

مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ثم بيّن تعالى نوع صفقة هؤلاء ومدى خسرانها: ﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾. وتقدم عن المنافقين أنهم اشتروا الضلالة بالهدى، وفي اليهود اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، لأن موضوع المنافقين في قولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ وموضوع اليهود في أمور الدنيا إخلاف، وسلب الديار، ومجاملة حلفائهم حياء منهم.

ومرة أخرى نتوجه إلى العلي القدير أن يجمع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها على كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ في إطار من الإخاء والرحمة.

٦ ـ ممن كتم البينات والهدى ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾:

تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَـٰتِ وَالْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَـٰبِ...﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى قوله: ﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَـٰلَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ وتبين أن صفقاتهم كلها كانت خاسرة كما تقدم في قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

وفي هذه الصفقة كانت على أنفسهم فأهلكوها، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ الشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة: ١٠٢].

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَـٰطِينُ﴾. وجود الواو يدل على ارتباط بما قبل هذا السياق، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ اللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَـٰطِينُ﴾ [البقرة: ١٠١ ـ ١٠٢]. فهنا عملية استبدال

مشعرة بحقد وحنق، وعن علم وعناد، والطرفان الواقع فيهما الاستبدال أولهما: مجيء رسول من عند الله مصدقاً لما معهم، وجاءهم بكتاب يعلمون أنه حق وصدق، فما كان منهم إلا أن نبذه فريق منهم، والنبذ: الطرح. وأغفلوه ولم يحاولوا حتى النظر فيه، ولم يتركوه بين أيديهم لعلهم ينظرونه، أو يتأملون ما جاء فيه، بل طرحوه وراء ظهورهم مؤكدين عزمهم عدم الالتفات إليه، مما ييئس منهم نهائياً، وكأنهم لا يعلمون مسبقاً عنه، ولا عمن جاء به، وهذا غاية الجحود. والجاحد: المعاند في كل زمان ومكان، يكون من طبعه المكابرة، فيغمط الحق، ويشايع الباطل ولو كان فيه هلاكه. فلعداوتهم للإسلام، وحسدهم للمسلمين، نبذوا ما جاءهم به رسول الله ﷺ من كتاب مصدق لما معهم، ولديهم الدلائل القاطعة على صدقه وصحة ما جاء به. كما قال تعالى عنهم: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]. ولكنه العناد والحسد، يتركونه وينبذونه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون. أي يتجاهلون أمره، ويتبعون ما تتلو الشياطين. بئس البدل، وبئس ما يستبدلون.

وهنا يمكن أن نقف وقفة خفيفة للتنبيه على ما يكون من بعض الأشخاص عند الاختلاف والتنازع، ويكون الحق واضحاً جلياً، ولكن الحسد يكون موجوداً قوياً، فيحول بين الحق وظهوره. كما كان في بادئ الأمر من أبي جهل في شأن النبي ﷺ، إذ قال: كنا وبني هاشم كفرسي رهان: أطعموا وأطعمنا، وحملوا وحملنا. فقالوا: منا نبي، فماذا نقول؟ لا والله لا يكون هذا أبداً. وقد جاء عنه ﷺ: «إن أبا جهل فرعون هذه الأمة». أعتقد أنه ليس لفرط طغيانه وكفره فحسب، بل ولوجود شبهه بفرعون موسى في قوله تعالى عنه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤]. وقد يقع هذا ـ عياذاً بالله ـ ممن ينتمي إلى الإسلام في حالة الاختلاف والنزاع، لغلبة الهوى وحب الغلبة، فليحذر كل عامل من ذلك. ومما ينقل عن الشافعي قوله: وددت ظهور الحق ولو على يد الخصم.

فاليهود نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، وكتموا ما كانوا يعلمون عنه قبل مجيئه، واستعاضوا عنه اتباع ما تتلو الشياطين على ملك سليمان، وإن كان هذا المتلو لم يُبيّن لنا، إلا أنه أشير إلى جنسه في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ

سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي بما كانوا يتلونه على ملك سليمان زعماً منهم وتضليلاً للناس. وأصل ذلك: أن اليهود لم يؤمنوا برسالة نبي الله سليمان، ويقولون: هو ملك وليس رسولاً. ويزيدون في كفرهم فيقولون: وملكه الموجود إنما أقامه بالسحر، فسخر الجن، واستخدم الرياح، وتعلم منطق الطير، كل ذلك حصل له بالسحر؛ كما يزعمون. فأبطل الله زعمهم، وسجل عليهم هذا الموقف الكاذب، وبرأ نبيه سليمان عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام من تزييف تهمة السحر. وبيّن سبحانه أن الكفر إنما صدر عن الشياطين بما يعلمونه للناس من السحر، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت. على التفصيل الآتي:

وقبل إيراد ذلك التفصيل نشير إلى أصل هذه القضية، حيث وقع لبس على بعضٍ من الناس في أمرين: **أولهما**: في شأن السحر. **وثانيهما في شأن** الملكين وما أنزل عليهما، وما أسند إليهما من تعليم السحر الذي هو كفر، ومجيئهما فتنة:

أما شأن السحر: فقد انقسم فيه الناس قسمين:

أ ـ قسم ينفيه كمؤثر حقيقي في الأعيان، ويقولون: إن مسمى السحر إنما هو تخيلات في أعين الناس كما جاء عن سحرة فرعون: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]. ولم تكن تسعى حقيقة، ولكن سحروا أعين الناس كما في سورة الأعراف ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف: ١١٦]. وقد ناقشهم الفخر الرازي.

ب ـ وقسم يثبته ويقسمه إلى ثلاثة أقسام كما جاء عند القرطبي. والأقسام هي:

الأول: أعمال تنشأ عن خفة اليد، يخفى على العوام أصلها.

الثاني: أعمال شعوذة تسحر أعين الناس، ولا تغير من حقائق الأشياء.

الثالث: سحر بمعونة فسقة الجن بتعزيمات ونفث وما إلى ذلك، يكون له تأثير فعلي على ماهيات الأشياء من إنسان وحيوان. وأقول:

أما القسم الأول: وهو ما يحدث من خفة الحركة، أو بعض الآلات، فهذا كثير. وفي الدراسة الأولية كانت الوزارة ترسل شخصاً كنا نسميه (الحاوي)

يأتي بحركات نظنها سحراً، بل ونجزم بها. ثم يعود ويفعلها ببطء ويكشف لنا خفيها؛ من ذلك مثلاً على ما أذكر: أخرج من جيبه سكيناً ذات نصل حاد، وأظهر الانفعال في نفسه، ثم طعن بتلك السكين في ذراعه حتى غيب النصل. فأشفقنا عليه، ثم رفعها بسرعة ولحسها بلسانه فلم نر دماً. ثم أفهمنا أن مقبض السكين مجوف وأن النصل قد ارتد إلى داخل المقبض، ولم يتغيب في ذراعه، وأخذ يحرك النصل بإصبعه إلى المقبض، وغيرها كثير. ومما أدركته من شخص يتعيش بهذه الأعمال: أخرج ما يسمى بالملقاط، وممسك بطرفيه درهماً، ثم وضع طرفيه في كفه وأطبق أصابعه على الدرهم، ثم سحب الملقاط وليس في طرفيه الدرهم، وظلت كفه مطبوقة موهماً أن فيها الدرهم، ثم بحركات سريعة وضع طرفي الملقاط في أذنه، ثم رفع الملقاط وفي طرفيه الدرهم، وفتح كفه عن لا شيء موهماً أن الدرهم انتقل من كفه إلى أذنه. والحقيقة أن الدرهم لم يكن في كفه لأنه لم يفارق الملقاط، لأن أحد طرفيه مجوفٌ والدرهم يختفي داخله يحركه من إبهامه مثل الطرفين. فمثل هذا ليس سحراً بالمعنى الشرعي.

٧ ـ بقية أقسام السحر:

تقدم القسم الأول الذي هو عبارة عن خفة اليد والاحتيال ببعض الآلات، وليس هذا من القسم المصطلح عليه عند الفقهاء.

القسم الثاني: هو ما فيه التمويه والتأثير، وتغيير صور الأشياء في أعين الناس، دون تغيير حقيقة ماهياتها. وهو ما حدث من سحرة فرعون. وقالوا: إنهم غمسوا حبالهم وعصيهم في (الزئبق) وألقوها في الشمس، وبواسطة مادة الزئبق وتفاعله بحرارة الشمس، كان يتحرك على أجرام تلك الحبال والعصي، وهي أيضاً تتحرك وينزلق بعضها على بعض بواسطة الزئبق. ومهما كان عملهم فإنها لم تكن تسعى بالفعل. بل كان يخيل للنظارة أنها تسعى، وأنهم كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦].

وقد ذكر الفخر الرازي أنواعاً من خداع العين بسبب الحركة، ومثَّل لذلك بما لو أخذت سطح (الرحا) ورسمت خطوطاً مستقيمة عليه ابتداء من مركزه

في الوسط إلى حافته على شكل ما يسمى في الدائرة (بالوتر)، أو مثل الأسلاك التي في إحدى عجلتي (الدراجة)، فإن كانت الخطوط بلون واحد وأدركت الرحا بسرعة فسترى سطحها كله بهذا اللون دون فراغ بين الخطوط. وإن كانت الخطوط بألوان مختلفة فسترى السطح وكأنه ملون كله بتلك الألوان دون أن ترى الفراغ الذي بين الخطوط، وذلك لسرعة الحركة، فلا تستطيع العين أن تفصل في رؤيتها بين تلك الخطوط، وتصبح تلك الخطوط لسرعتها كأنها متلاصقة. ومن هذه النظرية التسجيل على الشريط المصور، فإنه توجد عليه لقطات صغيرة متعددة للمنظر الواحد، ولتحرك الشريط بسرعة تتوالى تلك اللقطات الصغار فتشكل أمامك صورة واحدة، ففي حركة اليد إلى الفم مثلاً عشرات اللقطات لكل جزئية من حركة اليد، وبسرعة مرور الشريط أمام العدسة تظهر لك من مجموع تلك اللقطات حركة كاملة في امتداد اليد، وتناولها الطعام أو الشراب إلى الفم.

وهذا القسم في ذاته ليس سحراً يغير الحقائق، ولكن إذا كان في تخييله وسحره الأعين يَدَّعِي به صاحبه أنه قادر على تغيير الحقائق، أو الإتيان بخوارق العادات، فإنه يؤدب ويمنع سداً للذريعة. وقيل: إن لم يَكُفَّ قتل. وساق القرطبي وابن كثير رحمهما الله قصة الساحر عند الوليد بن عقبة، قال ابن كثير: وقد روي من طرق متعددة أن الوليد بن عقبة كان عنده ساحر يلعب بين يديه، فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيرد إليه رأسه. فقال الناس: سبحان الله، يحيي الموتى! ورآه رجل من صالحي المؤمنين المهاجرين، فلما كان الغد جاء مشتملاً على سيفه، وذهب الساحر يلعب لعبه ذلك. فاخترط الرجل سيفه فضرب عنق الساحر. وقال: إن كان صادقاً فليحيي نفسه. وتلا قوله تعالى: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣]. فغضب الوليد إذ لم يستأذنه في ذلك، فسجنه ثم أطلقه والله أعلم. من ابن كثير، وذكر طريقاً آخر وأن الذي قتل الساحر هو (جندب)، وهذا مما يستدل به من يقول بقتل الساحر. وهذا فيه تفصيل حسب نوع السحر.

ومما يموهون به على الناس استخدام بعض خواص الأشياء، ويدعون أنها خوارق عادات: ما ذكره الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في خبر الطائفة (البطائحية)،

وهم جماعة يدخلون في النار ويخرجون ولا تحرقهم. وقال: إنهم يدهنون بشحم الضفدع، وباطن قشر النارنج، وحجر الطلق، وغير ذلك (المجموع ١١/٤٥٩).

ونحن نشاهد الآن خيوطاً بيضاء، أو نشجاً من تلك الخيوط في المكائن في مواضع بيت النار، ولا تتأثر تلك الخيوط بلهب النار، ويقال لها: خيط النار، أو خيط ضد النار.

والخواص في الأشياء لا ينكرها إلا مكابر، ويستشهدون بحجر المغناطيس، أو الحديث الممغنط عن طريق التيار الكهربائي، وكذلك ما يعرف من (حجر اليود) إذا وضع في وعاء زجاجي فهو كغيره من الأحجار، لا تحس له حرارة قط، ولو وضعته في قطعة خشب أشعل فيها النار حالاً، وإذا وضعته على قطعة معدنية حديد أو نحاس إن كانت صقيلة اسودت حالاً، وإذا لمستها وجدت حرارة شديدة، وإذا ترك إلى الهواء تبخر وطار حتى يتلاشى، وإذا وضعته في وعاء من الزجاج وأقفل بغطاء زجاجي مكث شهوراً لا يتطاير ولا يسخن الزجاج. وغير ذلك مما يحكونه عن خواص بعض الأحجار التي يكتشفونها بالتجارب، فعن طريقها قد يحتال بعض الناس بها، ويوهم العوام وكل من لم يعرف حقيقتها، أنه أتى بسحر خارق للعادة.

القسم الثالث: من أقسام السحر ـ وهو المعنى إذا أطلق اسم السحر ـ مما له تأثير في الأجسام، سواء الإنسان أو الحيوان. قد أثبته أهل السنّة، ونفاه المعتزلة. والآية التي معنا دليل إثباته، حيث أثبتت أنهم يتعلمون من السحر ما يفرقون به بين المرء وزوجه. فقد يكون الزوجان على وفاق ووئام، ولكن العدو وصاحب الغرض الفاسد يغيظه هذا الوفاق، فيسعى لما يفسد ما بينهما. وتثور الخلافات، وتقع الكراهية، وتنتهي بالطلاق والفرقة. وكذلك في غير الفرقة من أمراض وعلل ونحو ذلك، لعموم ما في سورة الفلق من الاستعاذة من النفاثات في العقد، واقتران النفث في العقد بالحسد في هذه السورة يشعر بأنه كما أنه يقع بالحسد مضرة وإيذاء للمحسود، حتى قال ﷺ: «علامَ يقتلُ بعضُكم أخاه؟ هلَّا كَبَّرْتَ». وبيَّن ﷺ صلاح ذلك والوقاية منه: أن من رأى شيئاً أعجبه فخاف عليه من أثر العين، أو خاف من شخص معروف

بالحسد، فإنه يبادر بالتكبير ثلاثاً، فإنه يسلم من شر الحاسد إذا حسد.

إذاً للسحر حقيقة، كما أن للعين حقيقة. وقد قال ﷺ: «لو أن شيئاً يسبق القدر لسبقته العين». إلا أنهم يقولون: إن الحسد قد يغلب صاحبه ولا يستطيع رده، وقد يكون في نفسه، أو في ولده، أو في ماله ولا يملك رده. وقد بيّن ﷺ علاج العين، وهو أنه إذا عرف العائن، فإنه يطلب منه أن يتوضأ للمعيون، ويغسل مناعم جسمه، ويحتفظ بهذا الماء، ثم يغافل المعيون ويؤتى من جهة رأسه، ويراق عليه بدون لمسه، فإنه ينتفض للمفاجأة، وفي انتفاضته تلك يُذهب الله عنه ما به من أثر العين.

أما السحر: فإنه لا يتأتّى إلا عن قصد وتعمد، وجهد يبذله الساحر. ولهذا جاء عنه: أنه إن تحقق أمره، أنه يقتل. وقيل: إن قتل بسحره قتل، وإن أتلف عضواً اقتص منه.

وإذا عرفنا أنواع السحر عند الناس وأقسامه الثلاثة:

١ ـ خفة اليد والاحتيال ببعض الآلات. فهذا وإن سمي سحراً لخفائه، ولكن ليس داخلاً في الآية الكريمة.

٢ ـ استخدام خواص الأشياء والتمويه على الناس. فهذا يُعَزَّز، لأنه يفسد عقائد الناس، ويشمله مسمى السحر لخفاء حقيقة فعله على الناس. وهو من نوع سحر موسى، حيث خيل للناس أن حبالهم وعصيهم أنها تسعى، وما هي تسعى ولكن سحروا أعين الناس.

٣ ـ أما القسم الثالث: فهو موضوع الآية، وصاحبه هو الذي بئس ما سوى به نفسه، وسيأتي بيان حكمه في تعلمه، وتعليمه، والعمل به، وما يترتب عليه إن شاء الله.

٨ ـ صحة ما قيل في هاروت وماروت من التأويل:

اعلم أيها المسلم ـ رحمني الله وإياك، وهدانا سبل السلام وإياك، وثبتنا على طريق الحق من كتاب الله، وسنّة رسول الله ﷺ، ومن اتبع ما جاء به من أصحابه الكرام، وتابعيهم بإحسان، وسلف الأمة عليهم من الله تعالى الرحمة والرضوان ـ اعلم أن قضية السحر بصفة عامة، وقضية هاروت وماروت بصفة

خاصة، قد شغلت حيزاً كبيراً في كتب التفاسير، وخاصة أكثرها تداولاً وأقربها تناولاً مثل: تفسير الإمام ابن جرير، وتفسير العلامة ابن كثير، ومثله تفسير وموسوعة القرطبي رحمهم الله تعالى. فكلها أوردت ما قيل في هذه القضية جملةً وتفصيلاً، ما صح من أقوال وما لم يصح، والمتأخر ينقل عن المتقدم.

ومعلوم أن أسبق تلك الموسوعات هو تفسير ابن جرير: والكل يصدر بكلامه. وقد جاء عنده على تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌۖ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة: ١٠٢ ـ ١٠٣]. فقال ابن جرير ما نصه: والصواب من القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ﴾ أن ذلك توبيخ من الله لأحبار اليهود الذين أدركوا رسول الله ﷺ فجحدوا نبوته، وهم يعلمون أنه رسول الله مرسل. وتأنيبٌ منه لهم في رفضهم تنزيله، وهجرهم العمل به وهو في أيديهم، يعلمونه ويعرفون أنه كتاب الله، وأتباعهم وأتباع أوائلهم وأسلافهم ما تلته الشياطين في عهد سليمان... إلخ، وهذا الذي صوبه هذا الإمام هو مدلول أول السياق في الآية قبلها ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ ...﴾ إلخ [البقرة: ١٠١ ـ ١٠٢]. يعني أنه في الوقت الذي نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، مع علمهم صحته وصدقه، فإذا هم يتبعون ما تتلو الشياطين على ملك سليمان، وكان الأولى بهم والأصلح لهم أن يأخذوا ما جاءهم به الرسول من عند الله ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾. ويؤيد هذا ما جاء في نهاية السياق وهو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌۖ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ ثم ناقش مدلول حرف (ما تتلو) وانتهى إلى أن الشياطين كانوا يسترقون السمع،

ويأتون إلى أحبارهم وكهانهم، فيلقون إليه ما سمعوا، حتى إذا وثق الناس بهم، أخذوا يزيدون على الكلمة مئة كلمة من عندهم، فكان الناس يكتبون ذلك ويقولون: الجن يعلمون الغيب. فجمع سليمان ﷺ كل ما كان بأيدي الناس، وجعله تحت كرسيه حيث لم يكن أحد من الجن يستطيع الدنو من كرسيه وإلا فإنه يحترق، فلما مات سليمان وذهب من كان يعلم نبوة سليمان، جاء إبليس في صورة إنسان إلى نفر من بني إسرائيل وقال لهم: إن تحت كرسي سليمان كنزاً لا ينفد، ودلهم عليه، فلما استخرجوه قال لهم: إنه كان بهذا يسخر الريح والجن وغير ذلك. أي أن سليمان لم يكن نبياً وكان ملكاً أخضع ملكه بهذا السحر. فلما بُعث ﷺ، وذكر من الأنبياء سليمان اعترض اليهود، وقالوا: إنه كان ساحراً وليس نبياً. فأكذبهم الله بقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾.

وناقش مدلول حرف (ما) في (وما أنزل) هل هي نافية أو موصول؟ والملكين جبريل وميكائيل، أو هاروت وماروت؟ وأيضاً: هاروت وماروت شخصان من الناس أم ملكان؟ وعلى أنهما شخصان من الناس تعلما السحر من الشياطين أو على أنهما ملكان نزلا بتعليم السحر للناس فتنة كما نزل إبليس فتنة. وساق ما خلص إليه من هذا كله. وبعده ساق الأخبار التي يتناقلها الناس عن هاروت وماروت، ونزولهما إلى الأرض للحكم، وما نسب إليهما من الحيف لصالح امرأة. والنتيجة لذلك، ما قيل غير ذلك. وساقها على سبيل الحكاية لا على سبيل التأويل للآية. والذي اختاره هو ما جاء في قوله: فإذا فسدت هذه الوجوه التي دللنا على فسادها فتبين أن معنى (ما) التي في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ بمعنى (الذي) وأن هاروت وماروت مترجم بهما عن الملكين، ولذلك فتحت أواخر أسمائها. إلى أن قال: فإن التبس على ذي غباء ما قلنا، فقال: فكيف يجوز لملائكة الله أن تعلّم الناس التفريق بين المرء وزوجه؟ أم كيف يجوز أن يضاف إلى الله تبارك وتعالى إنزال ذلك على الملائكة؟ قيل له: إن الله جل ثناؤه عَرَّف عباده جميع ما أمرهم به، وجميع ما نهاهم عنه ثم أمرهم ونهاهم بعد العلم منهم، بما يؤمرون به وينهون

عنه، ولو كان الأمر على غير ذلك، لما كان للأمر والنهي معنى مفهوم، فالسحر مما قد نهى عباده عنه، فغير منكر أن يكون جل ثناؤه علّمه الملكين اللذين سماهما في تنزيله، وجعلهما فتنة لعباده كما أخبر عنهما، يقولان لمن يتعلم منهما: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ ليختبر بهما عباده الذين نهاهم عن التفريق بين المرء وزوجه، وعن السحر. فيمحص المؤمن بتركه التعلم منهما، ويخزي الكافر بتعلمه السحر والكفر منهما. ويكون الملكان في تعليمهما من عَلَّما ذلك لله مطيعَين، إذ كانا عن إذن الله لهما بتعليم ذلك. ولا يصيرهما سحر من سحر بعد نهيهما إياه وقولهما له: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾. إذ كانا قد أَدَّيَا ما أمرا به بقولهما ذلك.

وبقي هنا السؤال: ولِمَ هذه الفتنة؟ وهل كان هذا هو مبدأ وجود السحر؟.

ومعلوم أن السحر كان موجوداً من قبل كما حكى الله تعالى عن سحرة فرعون، أما كونهما فتنة: فلم يكونا فتنة لبادئ الأمر، ولكن كما سمعتُ من والدنا الشيخ الأمين، وما تقدم من ادعاء اليهود على نبي الله سليمان، أنه كان ملكاً وليس نبياً، ولم يسخر الله له الريح ولا الجن، وإنما سخرها سليمان بالسحر. ونهاهم الله فلم ينتهوا، فأنزل إليهم ملكين بسحر حقيقي لا تخييلي، وقال لهم: هذا السحر عندكم، فإن كنتم مصرين على الكفر بنبوة سليمان مصدقين بالسحر، فخذوا السحر وأوجدوا مُلكاً كملك سليمان بالسحر في زعمكم. وهذا نظير ما تحدى الله العرب به أن يأتوا بسورة من القرآن، مع أنه بلغتهم، وقالوا: يُعلِّمُهُ بشر. فلما عجزوا، ثبت أنه من عند الله. وكذلك اليهود تحداهم بوجود السحر أن يوجدوا ملكاً كملك سليمان، فلما عجزوا ثبت أنه نبي مرسل، وآتاه الله مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعده.

أما ما يقال عن الملكين سوى ذلك، فهو باطل، والحق هو ما قدمناه.

٩ ـ المنهج التفصيلي في الهداية توحيد الأمة كلها بالالتفاف حول البيت:

بعدما بيّن الله تعالى ارتباط العرب وبني إسرائيل بالخليل إبراهيم عن طريق ولديه إسماعيل جد العرب، وإسحاق جد بني إسرائيل، جاء مباشرة بتفصيل

الجانب الأول عن طريق البيت العتيق، فقال في نفس السياق: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٤ ـ ١٢٥]. وفي آل عـمـران: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ﴾ [آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧]. فهذا البيت هو سجل تاريخ مكاني، ارتبط به إبراهيم في تاريخ زماني قديم من أول ما جاء بأهله من الشام إلى الحجاز في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥ ـ ٣٧]. ومن ذلك التاريخ ارتبط إبراهيم بالبيت المحرم، ولِمُهمة إقام الصلاة، وقد بيّن تعالى أثر هذا البيت في حياة الناس في قوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾. والمثابة المرجع والمأوى والتوجه، فالمقيمون فيه آمنون به، والخائفون يأوون إليه فيأمنون، ومن دخله كان آمناً، والبعيدون يتوجهون إليه كل يوم خمس مرات في صلواتهم، فيثوبون إلى الله في ذل العبودية، وعزة الطاعة، وشرف الـتـوجـه، ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة: ١٤٤].

ويربط الأمة بإبراهيم في هذا البيت، ليتم الربط زماناً ومكاناً، ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ﴾ ثم ربط إبراهيم بالناس: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ ثم هذه دعوات إبراهيم تبين لنا أن الإسلام دين ودنيا، ففي الوقت الذي طهر فيه البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود، وهي كل أنواع العبادات، فها هو ذا يدعو ربه بتهيئة الرزق لـهـؤلاء والأمـن والأمـان ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ومعلوم أن الرزق لن يُصَبَّ عليهم من السماء صباً، بل لا بد من سعي وأخذ بالأسباب، وهكذا يجمع الإسلام الحسنيين: في الدنيا بالسعي

والكسب الحلال، وللآخرة بالطواف والاعتكاف والركوع والسجود. وقد تحفظ إبراهيم عليه السلام هنا فقال: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ لأنه لما طلب الإمامة لذريته عندما قال تعالى له: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ أي أيضاً اجعل منهم أئمة فقال الله له: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. فلما دعا لهذه البلدة بالرزق تحفظ وقال: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾. فأعلمه الله أن أمر الرزق وأحوال الدنيا ليست كالإمامة والقدوة، فهي - أي الدنيا - للمؤمن والكافر، فقال له: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾. يعني سأرزق أهله من الثمرات من آمن منهم ومن كفر. ولكن الكافر سيكون متاعاً قليلاً في الدنيا، وهكذا منهج الهداية في كتاب الله أن لا يخدع أحد بما يعطي الله الكافر في الدنيا، كما قيل: إنه سبحانه يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب.

وفي بناء البيت وموضوعه ترتبط هذه الأمة برسولها محمد ﷺ ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ منتهى الإخلاص في العمل، ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾. هكذا نجد تجديداً للرسالة من بعد بني إسرائيل وأنبيائهم، رسالة جديدة في ذرية إسماعيل منهم، وإعلان جديد من إبراهيم أن منهج الهداية معه ﷺ، هو آيات الله والكتاب والحكمة، ثم يقرر سبحانه صحة هذا المنهج والالتزام به في قوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ أي خسرها وأضاعها سفهاً وحماقةً وجهالةً، ثم بيّن مكانة إبراهيم عند الله: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وبيّن موجب هذا الاصطفاء من أنه اتباع منهج الاهتداء ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ وقد كان إبراهيم عليه السلام أميناً وحريصاً على إبلاغ هذه الدعوة إلى ذريته جيلاً بعد جيل، حتى يتلقاها محمد ﷺ في زمنه ولقومه وأمته، فوصى بها أبناءه ليوصوا بها أبناءهم ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ فهي أعظم وأغلى وصية يوصيها والد لأولاده. وقد حفظ الأبناء وصية أبيهم، فحملوها لبنيهم، وها هو يعقوب عليه السلام حفيد

إبراهيم من ولده إسحاق عند احتضاره قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾. فكان من أول الأوليات، وأوجب الواجبات على كل من العرب وبني إسرائيل، أن يقولوا كما قال أبناء يعقوب لأبيهم، وعاهدوه عليه عند احتضاره، ولكن ماذا كان من بني إسرائيل؟ بعدوا عن هذا كله، وقالوا: كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا. وليس في هذا اهتداء. ولكن كما قال تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾. ثم أمر الله نبيه أن يدعوهم إلى المنهج الحق: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة: ١٣٦ ـ ١٣٨]. إنها دعوة مجدّدة لجميع الأمم ليؤمنوا بجميع رسل الله، وإنها صبغة الله المتميزة، فلا هي يهودية طغت عليها المادة، ولا هي نصرانية غلبتها الرهبانية، ولكن وسطاً منطوية تحت ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ وبعدها ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾.

١٠ ـ استقامة هذه الأمة وتوسطها بين الأمم:

بعد سياق الحِجَاج بين بني إسرائيل وبين ما أنزل الله تعالى على نبينا محمد ﷺ، وإلزام اليهود والنصارى بما عاهدوا عليه يعقوب إذ حضر يعقوب الموت، وما أخذ عليهم من العهد بأن يعبدوا الله وحده، وبعد تجديد دعوتهم أن يقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلى نبينا ﷺ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم، بدون أن يفرقوا بين أحد منهم، ليتحدوا في دعوة إلهية واحدة، ولكنهم أبوا وانشقوا على أنفسهم ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ﴾ وهو ما بينه تعالى عنهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾. ومقالتهم ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ﴾ فهذا من شقاقهم في الآخرة اعتقاداً، ومن منطوق شهاداتهم

على أنفسهم فهم في ضلال، وليسوا على هدى، فكان المنهج السليم والصراط المستقيم ما جعل الله تعالى عليه هذه الأمة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، واسم الإشارة (كذلك) يدل على قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ ومعلوم أن الصبغة هي اللون المميز، وصبغة الله هي المنهج الذي تميز به المؤمنون، وهو هنا الاعتدال والاستقامة والسمع والطاعة، والمسلم متميز ويجب أن يظل متميزاً بذاته، فلا يذوب في غيره متميزاً في صلاته وصيامه وزكاته وحجه، في كل شعائره، متميزاً في آدابه وأخلاقه، في صدقه وأمانته ووفائه، متميزاً في نصحه وإخلاصه، متميزاً في صبره وجهاده وتحمله ومثابراته، متميزاً في مأكله وشرابه من الطيب الحلال، متميزاً في سمته وشكله، فكما كان إبراهيم أمة، يجب أن يكون كل فرد من المسلمين أمة متكامل الصفات الحميدة، ومتكافل الأخلاق الفاضلة، وصدقت أم المؤمنين رضي الله عنها في وصف سلوك ومنهج رسول الله ﷺ في خلقه العام: (كان خلقه القرآن) فبهذه الصبغة المتميزة لعموم الأمة على سبيل الإجمال والتعميم، كانت هذه الأمة على سبيل الإجمال والعموم أمة وسطاً، بين تفريط اليهود، وإفراط النصارى، ليكونوا بوسطيتهم الماثلة في استقامتهم شهداء على الناس، شهادة عملية وشهادة قولية، ويكون الرسول عليهم شهيداً فيما بلغهم عن الله من استقام على كتاب الله، ومن فرط فيما أوجب الله عليه، ثم أوجب الله على هذه الأمة التي انتهت إليها أمانة الدعوة إلى الله، وختمت برسالتها الرسالات، أوجب الله عليها الجهاد لإعلاء كلمة الله، ومهد له بالدعوة إلى الصبر والاستعانة عليه وبيان منازل الشهداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

ثم وطنهم على نتائج القتال الدنيوية من الشدائد، وأنه ابتلاء لعظم أجورهم ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ أي أن هذا النوع من الابتلاء قد يتعرض له كل إنسان، والعبرة بالنتيجة، وهي الصبر، ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ يعني نحن عبيده ونحن بنو عبيده، نواصينا بيده ماضٍ فينا قضاؤه،

مبتدؤنا منه، ومنتهانا إليه، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٢ ـ ١٥٧]. ثم بيان أن الجهاد والابتلاء إنما هو لتقرير ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣]. وحالاً يوجه الأنظار إلى آيات الله الكونية الشواهد على إفراد الله تعالى وتوحيده ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤]. وبعد تقرير العقيدة وإقامة الأدلة عليها يأتي تشريع الحلال والحرام ابتداء من المأكل والمطعم قوام الحياة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢ ـ ١٧٣].

وتتوالى التشريعات اجتماعية وجنائية وفردية، فيأتي تشريع القصاص والوصية عند الاحتضار، والصوم في رمضان الذي شهد نزول القرآن هدى للناس، والأهلة للتوقيت، وتفاصيل الركن الأكبر وهو حج البيت، ثم القضاء على أم الخبائث ومعها الميسر ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩] ثم كفالة الأيتام وإصلاح شأنهم: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. ومن ثم يأتي إلى أم قضايا المجتمع وهي تكوين الأسرة، وكيف تنشأ؟ فيضع المبدأ ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١]. ويستمر السياق أكثر من عشرين آية في بيان منهج الحياة الزوجية: من وفاق واختلاف، ومن إمساك أو فراق، وكفالة الطفل الرضيع وعُدد النساء، مناهج متكاملة للحفاظ على بناء البيوت وحماية الأسر الكريمة، ومن بعده منهج الإنفاق كيفةً ومصرفاً، وعوضاً وجزاءً ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾. والمنهج القويم في الحفاظ على نفوس الفقراء ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ إبدال الإنفاق بالكلمة الطيبة ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ

﴿يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ﴾ [البقرة: ٢٦١ ـ ٢٦٣]. ومن الإنفاق وآدابه إلى تحريم الربا وتقبيحه ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ...﴾ [البقرة: ٢٧٥]. ثم أبطله نهائياً، ثم جاءت أطول آية في كتاب الله لتوثيق الديون المؤجلة ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ...﴾ [البقرة: ٢٨٢] إلى آخره.

وأخيراً عود على بدء، عود إلى الإيمان ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ...﴾ [البقرة: ٢٨٥] إلى آخر السورة.

تأمل أيها المسلم الكريم حقيقة ما قدمنا في ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ تليها ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ جواب لطلب الهداية، وقد اشتملت سورة البقرة وحدها على أصول أبواب الهداية: عقيدة، وعبادة، ومعاملة، ومنهج الأمم كلها، وشتى نواحي حياة هذه الأمة، بما يكفل سعادتها، وهكذا بقية كتاب الله، تتميم لمناهج الهداية، وبيان لما أجمل هنا على ما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

١١ ـ مع من يكتمون الهدى عن الناس:

هذا الصنف ممن اشترى صفقة خاسرة، بل صفقات متعددة، بعضها مرتب على بعض: الأولى: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩﴾﴾ [التوبة: ٩]. الثانية: ﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦]. الثالثة: ﴿وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥]. ومن أصرح النصوص في ذلك ما جاء في سورة البقرة في موضعين:

الأول: قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة: ١٥٩ ـ ١٦٠].

والموضع الثاني: بعد اثنتي عشرة آية، اشتملت على حكم من لم يتب منهم، ومات على كفره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ ثم جاء بإعلان وحدانية الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾. أي ومن رحمته أن فتح باب التوبة أمام الذين يكتمون ما أنزل من البينات والهدى، وحذر من تسويف التوبة حتى الموت على الكفر، ثم أقام الوحدانية لله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦١ ـ ١٦٤]. ثم عاب على أولئك الذين يتخذون من دون الله أنداداً بعد بيان ودلالة تلك الآيات الكونية على وحدانيته سبحانه، ثم كشف الحقيقة لهؤلاء السادة والأتباع، حين يرون العذاب فتبرأ المتبوعون ممن اتبعوهم في الدنيا، فيما كتموا من الآيات والهدى، وتقطعت بهم الأسباب، وحكى مقالة الأتباع: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ ثم يأتي تشريع ما أحل الله من الطيبات، والتحذير من اتباع خطوات الشيطان إلى ست آيات، ثم يأتي بالنص المتمم للنص الأول والمعقب عليه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾ [البقرة: ١٧٤ ـ ١٧٥].

وبتأمل النص في الموضعين: نجد الأول يرتب اللعن ـ عياذاً بالله ـ على أوسع مجال، من الله، ومن جميع اللاعنين: من إنْسٍ وجن وملائكة، كما في الآية بعدها فيمن مات على كفره ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ لمن كتم ما أنزل الله من البينات والهدى. ولم ينص على سبب الكتمان، ولكأنه بمثابة الإخبار والتحذير، وقد أعقب هذا بإفساح المجال للتوبة من ذلك والإقلاع عنه، ومع التوبة الإصلاح بالبيان، والإعلان عما كانوا قد كتموه، والتصريح بالحق الذي أنزله الله.

وهذا بيان لحقيقة توبة كل صاحب باطل: أن يعلن للناس ـ وخاصة مَنْ

كان مسبباً في إضلالهم من العوام، سواء من أحبار اليهود فيما كتموه، أو ممن اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً ممن استزلهم الشيطان، فأفتى أو دعا إلى ما كان يعلم بطلانه، أو كان قد اقتحم باب الفتوى بغير علم، أو كان قد اجتهد فرأى رأياً ثم تبين له خطؤه فيه ـ فإن على هؤلاء المبادرة بالتوبة إلى الله، بالإقلاع عما هم عليه، ثم إصلاح ما أفسدوا بالبيان عن أمرين: **الأول**: عن خطئهم فيما مضى. **والثاني**: عن الصواب الذي يجب العمل به. وبهذا يتوب الله عليهم، وهو سبحانه التواب الرحيم، وهذه قضية أولية عامة يندرج في مضمونها كل من كتم حقاً، أو شايع باطلاً، ابتداءً من الغش في السلعة، لأنه كتم ما أنزل الله من الهدى في صحة المعاملات، ومثلهم التدليس وكل ما يتوصل به إلى كتمان حق، وكذلك غمط الحق بين اثنين من شهادة زور، أو حكم بغير الحق عمداً أو جهلاً، حتى المحكوم له؛ إن علم أن ما حُكم له به ليس حقاً له، فكل أولئك قد أفسح الله أمامهم باب التوبة والإصلاح، حتى السارق والمغتصب يصلح ما مضى، فيرد المسروق في صفة هدية، ويرد المغصوب بالوجه الذي يبرئ ذمته من الله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾. وتقدم موضوع التوبة بما يغني عن إعادته هنا.

والذي يهمنا في هذا الموضع أن الله تعالى قد شمل برحمته كل من أناب إليه، وتاب عما كان منه، وأصلح ولو كان بالكفر والكتمان، وكذلك في هذا النص: الإشعار بتحذير كل من يكتم ما أنزل الله من البينات، وهي الدلائل من كتابٍ أو سنةٍ وهو في معرض البحث والاستدلال، سواء كان في أمرٍ يقدمه للناس مكتوباً أو مشافهة، أو في معرض البحث العلمي من الآخرين كما يقول بعض العوام فيمن يقول: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤﴾ ويسكت عما بعدها، لأن هذا يعتبر كتماناً وزيادة، وهي نصرة الباطل والتدليس على من معه في البحث، وتضليل للآخرين، وهذا ـ عياذاً بالله ـ قد يزينه الشيطان لشهوة الانتصار ولو مؤقتاً ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النمل: ١٤]. وكذلك الإشعار بالتحذير الشديد من ترويج البدعة بكتمان السُّنة، لأن البدعة ضلالةٌ، والسنة هداية كما في الأثر: خير الكلام كلام الله، وخير الهَدْي هَدْيُ محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة،

وكل ضلالة في النار، وعليكم بالجماعة. أي في منهجها وهديها، وقد قالوا: ما أميتت سنة إلا بإظهار بدعة، ولا انتشرت بدعة إلا بإماتة سنة. والقيد في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ زيادة في التحذير. لأن ما بينه الله تعالى للناس، لما فيه صلاح معاشهم ومعادهم، وأولئك الذين يكتمون هذا المبيّن، والذي بينه الله، يرتكبون جرائم متعددة:

الأولى: في حق أنفسهم لتجرئهم على الله.

الثانية: في حق الكتاب المنزل واجب الظهور والعمل به، فيكتمونه ويعطلون العمل به. كما جاء في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ [الصف: ٨]. ونور الله هنا يصدق حساً ومعنًى، وكذلك يطفئون بأفواههم، **فالحِسِّي**: نور الشمس، ومن يريد إطفاءها بفيه ينفخ عليها على الشمعة. **والمعنوي**: نور الوحي في الكتب السماوية، ومن يريد إطفاءه سواء بكتمانه وإخفائه وتعطيل العمل به، أو في تحريفه وصرفه عن المراد به شرعاً.

والثالثة: الجرم في حق الله تعالى: حيث أنزل آيات حجة وبرهاناً لجميع الناس وعلى مر الأجيال، وهدى وإرشاد لطريق الحق والسعادة، وتحقيق ما خلق الله العباد لأجله من عبادته وحده لا شريك له. وبهذا كان الوعيد في حقهم شديداً، وكان فضل الله أيضاً عليهم عظيماً بإفساح المجال أمامهم للتوبة والإصلاح، وهو سبحانه التواب الرحيم.

١٢ ـ مع أصحاب الصفقات الثلاث:

أصحاب تلك الصفقات هم الذين يكتمون الهدى عن الناس، والذين تقدم عنهم الحديث على سبيل الإجمال ضمن النص الأول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ ...﴾ إلى آخر النص من سورة البقرة. [الآية: ١٦٠].

والنص الثاني الذي فيه تفصيل تلك الصفقات الثلاث هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ

﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ [البقرة: ١٧٤ ـ ١٧٦]. فاشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، والضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة.

يلاحظ في النص الأول: أنه موجه إلى الذين يكتمون ما أنزل الله من أمرين: هما البينات والهدى، وأنهما بعدما بيّنهما الله في الكتاب، فهما إذاً من جزئيات الكتاب الذي يشتمل عليهما.

وفي النص الثاني: نجده موجهاً إلى الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب. فهل: حرف مَنْ: تبعيضية لما في الكتاب، فيكون كالنص الأول. أم: هي لجنس الكتاب؟ إلا أن هذا يُرد عليه: أنهم لم يستطيعوا كتمان كتاب من جنس الكتب، ولكن من كتم بعضاً من الكتاب فكأنما كتم الكتاب كله، كمن يكفر ببعض الرسل: فكأنما كفر بالرسل كلهم. ويكون الزائد هنا: تهويل جرمهم، وبيان السبب وأنواع الصفقات التي نوهنا عنها فيما تقدم، وتلك الصفقات هي:

الأولى: في قوله تعالى: ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

والثانية: في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾.

والثالثة: في قوله تعالى: ﴿وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾.

وتفصيل ذلك كما اتفق عليه المفسرون رحمهم الله كالآتي:

أولاً: قوله تعالى: ﴿يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ اتفقوا على أنها نازلة في أحبار اليهود، كانوا يكتمون ولا يزالون يكتمون من الكتاب المنزل عليهم ـ أي التوراة ـ ما فيه من صفة النبي ﷺ وبعض الأحكام: كتغيير حكم الزنا الثابت عندهم في التوراة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤]. فالصد عن سبيل الله بكتمان ما أنزل الله من الكتاب.

وجاء صراحة في سورة المائدة: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ

رِضْوَانَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦].

وقد جاء عن ابن عباس تسمية من نزلت فيهم من علماء اليهود: منهم كعب بن الأشرف، وكعب بن أسد، ومالك بن الصيف، وحيي بن أخطب. نقل ذلك الفخر الرازي. كانوا يأخذون من أتباعهم الهدايا. . . إلى آخره. ومعلوم أن كعب بن الأشرف ممن سعى عند قريش لحرب المسلمين في وقعة الأحزاب، ولما سأله المشركون عن الإسلام وعما هم عليه، وقالوا: أنتم أهل دين سابق، ولديكم كتاب، فأخبرونا ما جاء به محمد، أم كما جاء في سورة النساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء: ٥١]. ويكتمون عنهم ما أنزل الله من الكتاب عليهم من صحة نبوة نبينا محمد ﷺ، ومن صحة رسالة الإسلام، رغم ما أخذ عليهم من الميثاق على بيانه للناس كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران: ١٨٧]. ويعتبر كل ما أخذوه في مقابل هذا الكتمان، سواء من رشوة، أو هدايا الأتباع، أو مصالح عاجلة أياً كانت. إنما هو ثمن قليل، لأنه في مقابل ما فاتهم من عظيم نعم الله لو نفذوا ميثاق الله عليهم ببيان ما كتموه. وجاء مصداق ذلك في العاجل، فقد شُردوا بالإجلاء، وقتلوا، وسبيت نساؤهم وذراريهم وأموالهم في عاجل من الزمن، نحو الثلاث سنوات فقط، لأن غزوة الأحزاب كانت في الرابعة، وإجلاء بني قريظة كان في يومها وحينها بعد حصارهم بضع عشرة ليلة، وكان فتح خيبر سنة ست أو سبع من الهجرة. وهذا بيان خسران الصفقة: الأولى صفقة اشتراء ما يكتمون من الكتاب.

والصفقة الثانية: في قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي استبدالهم ما هم عليه في أصل الأمر قبل بعثة نبينا محمد ﷺ، وما يعرفون من صفاته كما قال تعالى عنهم في ذلك: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ والمعروف عندهم هو والذين معه بالمثل المضروب لهم في آخر سورة الفتح: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ

﴿وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ...﴾ [الفتح: ٢٩]. إلى آخر السورة. بل إنَّ سُكْناهم المدينة إنما هو في انتظار بعثته ﷺ وهجرته إلى المدينة، وكانوا يستفتحون به على الأوس والخزرج: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]. وكتموا ما عندهم من صفاته، واشتروا به ثمناً قليلاً، واشتروا الضلالة بالهدى، سواء ضلالتهم أنفسهم، أو ضلالة الآخرين معهم، وهذا كله كما قدمنا في عاجل أمرهم، أما آجله ففي:

الصفقة الثالثة: في قوله: ﴿وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ﴾ لما كانوا على هدى قبل البعثة، كان مصيرهم إلى المغفرة، فلما جاءت البعثة وكان منهم ما كان، فاشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، والضلال بالهدى، كانوا مستبدلين العذاب بالمغفرة. ويؤكد هذا أنه منهم عن علمٍ وعمد، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]. ولما كانوا قد فعلوا ذلك كله من الاستبدال عن علم وقصد، وعمداً لم يتعقبه بالتوبة، وتعقبه بتأكيد العقوبة: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾. وسواء كان (ما أصبر) كما يقول بعض المفسرين: تعجبية، أي حالهم حال يتعجب منه، لأن العاقل لا يفعل ذلك. أو أنها بمعنى الجرأة على أعمال توردهم النار.

وهنا وقفة في نهاية هذا العرض، لنخرج بأمرين هامين:

الأول: الحذر واليقظة من هؤلاء الذين باعوا دينهم بدنياهم، وهدايتهم بضلالهم، واقتحموا أبواب النار على بصيرة، من أن يفتنونا عن ديننا، كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [النساء: ٤٤ ـ ٤٥]. فهم يريدون للمسلمين أن يضلوا السبيل. ونظيره ما تقدم من قوله تعالى عنهم: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾. ورد الله عليهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥]. ومع اختصاص الله سبحانه برحمته من يشاء فهم يحاولون لو يردّون المسلمين كفاراً لا لشيء إلا الحسد، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ

ٱلْحَقُّ...﴾ [البقرة: ١٠٩]. وكما قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ...﴾ [المائدة: ٤٩]. هذا من جانب المحاذرة من أهل الكتاب.

والأمر الثاني: تحذير بعض من يستهويهم الشيطان فيقع منهم بعض ما وقع من أولئك، فيكون فيه شبه منهم، ويتوجه إليه الوعيد الذي توجه إليهم. وسيأتي التنبيه على بعض ما يجب التحذير منه إن شاء الله.

١٣ ـ ربط الحاضر بالماضي فيمن يكتمون الهدى عن الناس:

تقدم الكلام على الآيتين الكريمتين من سورة البقرة النازلتين في علماء اليهود، وهما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ [البقرة: ١٦٠]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ [البقرة: ١٧٤]. ونوهنا على العداوة الواقعة في قلوب أهل الكتاب، ووجوب الحذر منهم.

بقي ما يلزم به ربط الحاضر بالماضي، وهو ما يقوله علماء الأصول: إن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب. فالآيتان الكريمتان ـ وإن كانتا قطعاً نازلتين في حق اليهود ـ فإنهما بمدلولهما يتناولان من يكون في مثل حالهم: فمن يكتمون ما أنزل الله من الكتاب، وما أنزل الله من البينات والهدى، ويشترون به ثمناً قليلاً، أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار، ولا يكلمهم الله يوم القيامة.. إلى آخر ما جاء في حق أولئك إذا كانوا مستحلين ما يأكلون.

ومما لا شك فيه أن كل مَن كتم شيئاً من كتاب الله، أو سنّة رسول الله ﷺ، أو بدل هَدْياً بضلال، وسنّة ببدعة، فهو موجه إليه هذا الوعيد الموجه لعلماء اليهود والنصارى. وقد جاء عنه ﷺ: «مَن سُئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار». ما لم يكن فيه فتنة على ضعاف العقول، قاصري الفهم، كما في الأثر: حدثوا الناس بما يعقلون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟ والخطر الشديد إنما يكمن في أحد أمرين:

أولهما: من يكتم مما علم شيئاً لحظ نفسه، إما نصرة لرأيه وترويجاً لهواه،

كأصحاب الأهواء والمبتدعات لما في ذلك من إماتة السنن وترويج للبدع، وقد قال مالك رحمه الله: من سن سنة وظن أنها حسنة، فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة، لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. وما أكمله الله فليس بناقص، وما أتمه الله فلا يقبل زيادة. وتقدم التنبيه على ذلك.

الأمر الثاني: فهو أخطر ما يكون حينما يشترون به ثمناً قليلاً، وأشده خطراً ما كان مداهنة للحكام فيما يرغبونه، إما طوعاً حرصاً على مصالح مادية، وإما كرهاً. والقسم الأول: إن كان فيه إحقاق باطل، أو إبطال حق فيقال فيهم ما قال تعالى: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ لكونهم باختيارهم يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً.

أما القسم الثاني: فلأنهم مُكْرهون فينظر إلى موضوع ما أكرهوا عليه ونوع الإكراه، ولهذا حد أعلى، أما الحد الأدنى فهو في الكماليات، وأما الأعلى فكما قال ﷺ: «إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان».

والعلماء في ذلك قسمان: قسم لا تأخذه في الله لومة لائم، وقسم يخشى الفتنة في نفسه وفي دينه. والوسط الواجب مراعاته التبصر في العواقب، وما يكون مظنة في النتيجة في نطاق ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. وعلى حد شعرة معاوية رضي الله عنه، إذ قال: لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطت، إن شدوا أرخيت، وأن أرخوا شددت. وعلى حد الأثر: «سددوا وقاربوا».

وقد شهد تاريخ الإسلام العديد من رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه؛ كأحمد بن حنبل، والعز بن عبد السلام، وابن تيمية، وأمثالهم رحمهم الله جميعاً. وقد ساق القرطبي ١/ ٣٣٧ من مسند الدارمي حديثاً بين سليمان بن عبد الملك حين مر بالمدينة، وبين أبي حازم سنفرده بكلام مستقل لعظيم فائدة مضمونه، وصدق لهجته، ووضوح منهجه، وصورة حسن معاملة ولاة الأمور لعلماء المسلمين.

وفي هذا العصر وما نشاهد ونسمع من أشخاص عمدوا إلى شواذ من الأقوال قد اندثرت، ومسائل قد أميتت، ومذاهب قد هجرت، فأثاروا ما

اندثر، وأحيوا ما أميت، وأعادوا الدعوة لما هجره سلف الأمة. فأحدثوا قلاقل وزعازع، وأطلقوا سهام الفرقة. وقد تقع بين الناس الفتنة، ورحم الله عمر بن الخطاب ﷺ إذ يعلن وهو على المنبر: (أُحرِّجُ على كل مسلم يحدّث بحديث العمل ليس عليه). ومن أخطار بعض المعاصرين: من يعمد إلى أصل أصيل في مصادر المسلمين الذي أجمعت الأمة على صحته، واجتمعت على قبوله والعمل به، فيخالف الإجماع المنعقد أكثر من ألف سنة، فيثير الشكوك حوله. وليس هذا من الترف العلمي ولا مما تدعو حاجة المسلمين إليه. أو يطلعون على الناشئة بمسائل لا وجود لها منذ أكثر من ألف سنة، فينادون بها، وليس هذا سبق علمي قد جهله علماء السلف، وأدركه هؤلاء بعد ألف سنة.
أو يعمدون إلى مسائل أجمع عليها علماء المسلمين في جميع مجالات العلم: أصوله وفروعه، في التفسير والحديث والفقه، حتى أصبحت عند العامة والخاصة من الأوليات، ومما لا يسع أحد ولا يعذر بجهلها، لارتباطها بالطهارة التي هي شرط في صحة الصلاة التي هي عماد الدين، فيجرؤون فيخالفون في حكمها، وليس لهم سلف من علماء الأمة، ولا بقول شاذ.
ويخطئون جمهور العلماء لأكثر من ألف سنة، ومرة أخرى أقول: ليس هذا من الترف الفكري لأنه في أساسيات دينية، ولا من السبق العلمي لأنه ليس خافياً ولا مجهولاً لدى علماء السلف. وهل يتهم هؤلاء بادعائهم علم ما لم يعلمه علماء القرون الثلاثة المشهود لها بالخير ولم يعلمه كل من جاء بعدهم؟ نعيذهم بالله من ذلك، إنهم ليعرفون للعلماء قدرهم، ويجلون منزلتهم، ولكن مما قرأنا وسمعنا إنما أوتوا من قبل أنفسهم، أن أعطوا أنفسهم حق الاجتهاد، والاجتهاد المطلق. وإني لأخشى على هؤلاء وأشفق بهم من قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٧ ـ ٨]. وإني لأعوذ بالله أن يكون في قلوب هؤلاء الذين يقولون بشواذ المسائل زيغ، أو أن يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، وإنما

أدعوهم إلى التأني والتثبت فيما يقولون، فإنْ كان في أمر موجود من قبلهم ولعلماء المسلمين فيه قول ومذهب، أن يحسنوا الظن بسلف الأمة، وأن يسعهم ما وسعهم. وإن كان في أمر مستحدث وليس له أصل يرد إليه، أو كان فيه قياس الشبه يدور حول أصول مختلفة، فالأسلم والأصح في مثل ذلك ألا يكون رأياً فردياً، وأن تطرح قضيته للبحث سواء في مجالس العلم، أو مجامع العلماء. ويظل للرأي فيها مجال حتى يستقر الحكم فيها. أمَّا قديم ثابت نلغيه ونخالف إجماع الأمة فيه، فإنها فرقة وفتنة، والله الهادي إلى سواء السبيل.

١٤ ـ التجارة الرابحة:

تقدم بيان حال الذين اشتروا الضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة، والحياة الدنيا بالآخرة، ومدى خسارتهم، حيث اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً.

وهنا بيان حال الصنف الآخر من الناس، وهم المؤمنون حقاً الذين باعوا أنفسهم لله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ [البقرة: ٢٠٧]. وهذا التبعيض بحرف (من) في مقابل البعض الآخر المتقدم على تلك الآية في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ...﴾ [البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٧]. فالبعض الأول يحسن قوله حتى يعجب السامع، ثم هو يؤكد ذلك بأن يشهد الله على ما في قلبه، والحال أنه ألد الخصام. وتلك حال أهل النفاق: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ [المجادلة: ١٦]. وكما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ﴾ إلى قوله: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ﴾ [المنافقون: ٤]. ويصدق عليهم قول الشاعر:

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ... ويروغ عنك كما يروغ الثعلب

هذا منطوقه، أما فعله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ﴾. سواء كان إهلاكاً مباشرة بتسلطه تسلط الجبابرة، أو بسببه

وسبب عصيانه كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١]. وكما قالوا: الشر يعم، والخير يخص، كما أهلك الله قرية قوم لوط بما فيها من عصاة وحيوان، بل وأموال، فجعل عاليها سافلها على من كان فيها.

ثم هذا الصنف إن هو وعظ وقيل له: اتق الله. لم يستجب، وكأن في أذنيه وقراً. بل وزيادة: ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ أي ليست عزة إباء وشيمة. فلم يعد يُرْتَجى صلاحه، فحسبه جهنم.

ثم يأتي في المقابل البعض الآخر ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾. ويشري هنا بمعنى يبيع كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]. ويشري بمعنى يشتري أيضاً ولو ضمناً، لأن كل إنسان امتثل أوامر الله، وأوامر رسوله ﷺ، وأعمل نفسه في مرضاة الله ورسوله، بامتثال الأوامر قدر استطاعته، واجتناب النواهي، وكانت سريرته كعلانيته، وكان من المصلحين في الأرض، وليس من المفسدين، وإذا وعظ اتعظ، وإذا ذكّر بالله تذكر كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]. فهذا الصنف من الناس يصدق عليه الأمران: شرى بمعنى باع، ومن باع نفسه لله لاشك فهو رابح، وهو بهذا قد بلغ أعلى مقامات العبودية، لأنه أسلم نفسه لله على حد قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢]. ويصدق عليه أيضاً أنه اشترى نفسه وافتداها من جهنم، ومن عمل على تخليص نفسه من ذلك المصير لا شك رابح. ويوضح ذلك على حد الأمرين قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ ثم أعقبهم بتلك الصفات الحميدة: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة: ١١١ ـ ١١٢].

قال ابن كثير: يخبر الله تعالى أنه عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم

وأموالهم إذ بذلوها في سبيله بالجنة، وهذا من فضله وكرمه.

وقال الحسن البصري وقتادة: بايعهم الله فأغلى ثمنهم.

ورُوي عن محمد القرظي، أن عبد الله بن رواحة ﵁ قال لرسول الله ﷺ ليلة العقبة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت. فقال: «أشترطُ لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم». قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: «الجنة». قال: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل. فنزلت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ ...﴾.

وتأمل مدى فضل الله على المؤمنين في هذه الصفقة: اشترى منهم ما هو أصلاً ملكه، وضمن لهم الثمن والعوض، سواء قَتَلُوا وغَنِمُوا وظَفَرُوا بعدوهم وعادوا سالمين غانمين، أو قُتِلوا واستشهدوا في سبيل الله. فتكون المعاوضة حاصلةً على كل من الأمرين: الامتثال والطاعة والخروج في سبيل الله، أو الاستشهاد بالفعل، كما في الصحيح عنه ﷺ: «تكفل الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيل الله وتصديق برسول الله بأنه إن توفاه الله أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى منزله الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة».

ثم أكد سبحانه ذلك بأنه وعد عليه سبحانه ـ وهذا وعد تفضل ـ وعد به على نفسه، ومؤكداً هذا الوعد في كتبه المنزلة على رسله لأممهم، أنزله حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله؟ لا أحد، لأنه لا يعجزه الوفاء، ولا يمنعه مانع من عطاء. وعلى هذا فمِنْ حق مَنْ عقد تلك الصفقة مع الله أن يستبشر ببيعة الذي بايعه.

ثم الحكم القاطع وذلك هو الفوز العظيم.

ثم نعت هؤلاء بما بعدها: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾. أي متصفون بأداء أنواع العبادات من توبة متجددة، وقد قال ﷺ: «توبوا إلى الله فإني أتوب إلى الله في اليوم مئة مرة» والعبادة في عمومها من ذكرٍ واستغفار وصلاةٍ وسياحة ـ يعني صيام ـ ثم هم يعملون على صلاح العباد: آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، حافظين بذلك حدود الله، فهم ورثة الأنبياء في القيام بأمر الله، وليسوا ببيعهم أنفسهم إلى الله، ووعدهم

بالجنة، تركوا الأعمال الأخرى الخيرية، بل هم فيها أيضاً مجتهدون. وقد جاء في سورة الصف السياق مبيناً ومفصلاً في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ ثم بيّن سبيل إظهار هذا الدين، ونصرة هذا الرسول ﷺ بما أعقبه بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٠ ـ١٤]. ونعيد مرة أخرى التنبيه على أن الرسول ﷺ جعل الدنيا سوقاً، والسلعة فيها هي الإنسان، وأنه يباع فيها إجباراً عليه في قوله ﷺ: «كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها، أو موبقها».

نسأل الله تعالى أن يوفقنا للعمل الصالح، والبيع الرابح، وأن يجعل حياتنا مع المؤمنين التائبين العابدين، الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر، الحافظين لحدود الله بفضله وإحسانه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

١٥ ـ أسباب الهداية ومعطياتها:

تقدم في أوائل الكتاب أن الهداية هبة من الله، سواء هداية البيان كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢]. فإنزال هذا الكتاب، وجعله نوراً لهداية مَنْ شاء سبحانه، هبة من الله تعالى. وتأمل قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣]. فالناس كانوا أمة واحدة على الفطرة: جاء عن ابن عباس عشرة قرون، ثم وقع فيهم الخلاف، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب، أي الكتب بالحق، ليحكم كل نبي بين الناس بما أنزل الله. وكان ذلك سبب هداية الله للذين آمنوا، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ

صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾. ونظيرها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦].

ففي أول الآية: خطاب خاص لأهل الكتاب لسبقهم، ولوجود كتاب الله لديهم، وما أحدثوا من إخفاء بعض ما أُمروا به.

وفي آخر الآية: يؤكد لهم أنه قد جاءهم من الله نور وكتاب مبين. ومفهوم هذا النور وهذا الكتاب المبين: أن من لم يسر في نوره، ويعمل ببيانه، فهو في ظلمة وجهالة.

ثم الآية بعدها عامة لهم ولغيرهم، تبين سبب الهداية ونتيجتها: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي بالنور وبالكتاب، وإفراد الضمير في قوله: (به) يدل على أن المسميات الثلاثة: قد جاءكم رسولنا. وقد جاءكم من الله نور، وكتاب مبين. أنها كلها متلازمة، فالرسول معه رسالة، وهي الكتاب المبين، والكتاب هو النور، وبالمجموع يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم، وهو مضمون هذا الكتاب المبين كما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة: ١، ٢]. وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وفي هذا النص: أنه سبحانه يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام. ورضوانه يفسره ما ارتضاه سبحانه، وهو دين الإسلام الذي أنعم به على هذه الأمة في قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣]. واتباع ما ارتضاه يؤدي إلى رضاه سبحانه كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

ففي الآية الأولى: يهديهم ربهم سبل السلام، والنجاة من المهالك،

ويخرجهم من جهالات الضلال إلى نور الهداية والرشاد. وهذه هي السعادة في الدنيا.

وفي الآية الثانية: بيان النتيجة في الآخرة: رضوان الله تعالى عنهم، ورضوانهم هم عن الله، أي بما أعد لهم من حسن الجزاء والمآل ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾. ولوضوح وسلامة هذا المنهج، يتوجه النداء العام لعموم الناس، لاتباعه ﷺ رجاء هدايتهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ ثم بيّن عظمة من أرسله سبحانه بقدرته وسعة ملكه وعزة سلطانه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾. المنفرد سبحانه بذلك كله، والمستحق على خلقه إفراده بالألوهية كما تفرد بهذه الربوبية لهذا الملك الواسع، ثم بين قهرهم وإذلالهم بالموت ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ وهذا وحده من آثار القدرة والقهر، ما يكفي لسرعة إنابتهم إليه، لاستسلامهم طوعاً أو كرهاً لقدرته: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٨٧]. ولن يستطيعوا إرجاعها بل ولا إمهالها. وإذا كان هذا واقع حالكم ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. يشهد الله تعالى لرسوله ﷺ أنه يؤمن بالله وبكلماته. كما قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. ومع الإيمان والتصديق الاتباع: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٨]. بهذا الإيمان وبهذا الاتباع، واتباعه ﷺ دليل محبة الله تعالى، وهو اتباع لله ﷻ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١]. وكما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: ٥٤]. فقد رتب الله تعالى هداية الأمة على طاعته ﷺ، وضمن طاعته ﷺ طاعة الله تعالى، كما جعل الله سبحانه هذه الهداية لمن أناب إليه سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ ثم بيّن سبحانه صفات المنيبين إليه بعدها مباشرة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرعد: ٢٨ ـ ٢٩].

وفي نهاية هذا السياق لتلك النصوص نأتي إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩]. قال ابن كثير: يعني الرسول وأصحابه وأتباعهم إلى يوم الدين. وهدايته سبحانه في (ولنهدينهم سبلنا) قال: لنبصرنهم سبلنا، أي طرقنا في الحياة الدنيا والآخرة. وأعتقد أن جهادهم في الله يعم كل اجتهاد، والهداية إلى سبل الله تعم كل سبيل. فمن جاهد في طلب العلم فتح الله عليه وهداه سبل تحصيله، ومن جاهد في طاعة الله، وفقه الله للعمل بما علم، وعلمه ما لم يكن يعلم، وألهمه الله من عنده كما في قصة الذي قرأ الفاتحة على سيد الحي الذي ابته العقرب فشفي في الحال، فسأله ﷺ: «وما يدريك أنها رقية؟» قال: شيء نُفث في روعي. وقد قال ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله». وحديث: «ولا يزال يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به...» إلى آخره. ومن جاهد العدو لتكون كلمة الله هي العليا، سواء بلسانه أو بسنانه، بكلمة يقولها أو يكتبها، فإن الله يهديه سبل النصرة:

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تذييل مشعر ومؤكد بأن العبرة في ميادين الجهاد كلها إنما هي بالإحسان، لأن الإحسان غاية مراقبة الله، ودوام ذكره، وطلب مرضاته، كما قال ﷺ: «تعبد الله كأنك تراه...» الحديث.

وختام ذلك كله قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۚ﴾ [التغابن: ١١ ـ ١٢]. ونسأل الله الهداية والتوفيق.

١٦ ـ من أسباب موانع الهداية:

تقدم في السابق بيان أن الله سبحانه أعطى كل شيء خلقه ثم هدى. أي هدى كل مخلوق لما خلقه إليه، وآيات ذلك ما هو مشاهد في عالم الحيوان والنبات والطيور والحشرات، وكذلك الإنسان، كما أشار إليه في قوله تعالى عن الإنسان: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ٨ ـ ١٠]. أي أعطاه وسائل النظر والتفكر والعبر، والنطق بما هو

مطلوب منه، وبيّن تعالى ما من أجله خلقه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

وتأمل ـ رحمني الله وإياك ـ منهج آدم عليه السلام في حياته الجديدة التي أهبط إليها إلى الأرض في قوله سبحانه: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٦]. نجد أن المولى سبحانه عندما حكم على أبوينا آدم وحواء ومعهما عدوهما إبليس أن يهبطا إلى الأرض، أخبرهم جميعاً بما بينهم من العداوة بعضهم لبعض، قال ابن كثير رحمه الله: آدم وذريته، وإبليس وذريته.

ثم أخبرهم عن منهج حياتهم أنه سبحانه سيأتيهم منه هدى. بيان وإرشاد على أيدي رسله، ومنطوق كتبه. فمن اتبع هذا الهدى وعمل بما جاءتهم به رسل الله، فلا يضل في الدنيا لأنه على هدى، ولا يشقى في الآخرة لأنه عمل بما جاءته به الرسل.

ومن أعرض عن ذكر ربه فلم يأخذ بهدى الله الذي أتته به رسل الله، فإن له معيشة في حياته ضنكاً، حساً أو معنى على ما سيأتي، ومصيره: يحشره الله على صفة ما كان حاله من رسل الله وهديه، أعمى لا يبصر، فيتساءل: رب لِمَ حشرتني أعمى وقد كنت في الدنيا بصيراً، أبصر ما حولي؟ فيجاب بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الحال ﴿أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا﴾ في كتبي على لسان رسلي، وفيها هداك، ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ تعاميت عنها، وكأنها لم تأتك. والجزاء من جنس العمل ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾: أي تترك وتهمل. وفي هذا بيان واضح أن من أعرض عن شيء وتركه قصداً، كان كمن عمي عنه ولم يبصره، لأن قلبه أغفله وانصرف عنه. وحقيقة العمى هو عمى القلب، وعمى البصيرة، وليس عمى العين والبصر. قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾ [الحج: ٤٦].

وبهذا يكون سبحانه جمع في هذا المنهج البشارة والنذارة، لعهد طويل على مدى عمر الحياة الدنيا، لآدم وذريته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

والنص صريح في أن من أعرض عن هدى الله فجزاؤه في الدنيا معيشة ضنكاً، ومآله في الآخرة أن يحشر أعمى.

ولأهمية هذا المقام، ووجوب العناية وبالغ الاهتمام، فقد جاء عن ابن كثير رحمه الله كلام حسن جداً، نسوقه للفائدة، قال رحمه الله في تفسير تلك الآيات: يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس؛ ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ أي من الجنة كلكم بعضكم لبعض عدو: آدم وذريته، وإبليس وذريته ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾: الأنبياء والرسل والبيان: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ قال ابن عباس: لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة. ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ أي خالف أمري وما أنزلته على رسولي، أعرض عنه وتناساه، وأخذ من غيره هداه. أقول: إن هذا هو عمل من اعتاض عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بالنظم الأخرى، التي فرضها عدو الإسلام على المسلمين: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾. ضنكاً في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره. بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء. فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة. وقال الضحاك: هو العمل السيئ، والرزق الخبيث، وقيل: يضيق عليه قبره.

والواقع الملموس أن من لم يكن على هدى من ربه، ويقين من أمره، فهو في خواء روحي، لا يستقر له قرار، فإن أصاب نعمة لم يشكر، وإن أُصيب بنقمة لم يصبر. فهو في حرج وضيق من نفسه. بخلاف المؤمن بالله، المتوكل على الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن: ١١]. ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾: أي إلى الصبر والرضى والطمأنينة، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧]. فقوله تعالى هنا: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ تساوي ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ بل هو في سعادة ورضى واطمئنان لكل ما واجهه في حياته، مؤمناً أنه بقدر الله وتقديره.

ويجمع عقلاء العالم أن حقيقة السعادة في الدنيا، هي في الإحساس بالرضى، ولا يكون الرضى إلا مع التقى. وصدق الشاعر إذ يقول:

ولست أرى السعادةَ جَمْعَ مالٍ ... ولكنَّ التَّقِيَّ هو السعيدُ

فكم من غني أطغاه غناه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦ ـ ٧]. وقد بين لنا المصطفى ﷺ حقيقة الحياة، والغاية فيها: «من أصبح معافىً في بدنه، آمناً في سربه، عنده قوت يومه وليله، فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها». وقال الشاعر في تهوين أمر الدنيا وترفع النفس عنها:

الجوعُ يُطْرَدُ بالرغيفِ اليابسِ ... فعلامَ تَكْثُرُ حَسْرتِي ووساوِسِي

وقال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٢٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي بين الحق والباطل، وهو الهدى الذي أرسل به رسله. ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٨ ـ ٢٩]. وقال أيضاً: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝١٥ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟﴾ [التغابن: ١٥ ـ ١٦]. فجعل سبحانه السلامة من الفتنة في التقوى والسمع والطاعة، وهو بمعنى ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ وبين لنا أن من أسباب عدم الهداية هو الإعراض عما أنزل الله من الهدى، وأن مآل كل من أعرض عن هدى الله الذي أنزله: هي تلك العيشة الضنك في الدنيا، والشقاء النفسي والعذاب الأخروي. وقد نص القرآن الكريم على أن الله حجب هداه عن كل من الكافرين والظالمين والفاسقين، ومن هو مسرف كذاب. وكل هذه الأصناف مندرجة تحت عنوان ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ وسنلم بهذه الأقسام فيما سيأتي إن شاء الله.

١٧ ـ من أسباب حجب الهداية:

من أسباب حجب الهداية عمن أضلهم الله كفرهم بالله. وجاءت نصوص الكتاب صريحة بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

كما يكون من أسباب حجب الهداية الظلم. وجاءت أيضاً نصوص الكتاب كثيرة: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وكذلك الفسق بأنواعه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

وأيضاً الإسراف في الكذب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.
ومثلهم الخونة: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾.

ولتفاوت تلك الصفات وتنوعها نسوق كل صنف منها معاً إن شاء الله:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

١ ـ من ذلك ما جاء في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة: ٢٦٤]. يحذر الله المؤمنين من مبطلات الأعمال الصالحة، ويضرب لهم الأمثلة، وينص على مبطل العمل وهو أيضاً يحجب الهداية، وهو المن على الفقير بما يعطيه من مال الله، وفي هذا المن إيذاء للفقير، وكسر خاطر المسكين. ويبين سبحانه أن موجب هذا المن هو حب الظهور، وضرب لهم المثل: كالذي ينفق ماله رئاءَ الناس. والرياء: هو إرادة الظهور عند الناس بالأعمال الصالحات التي ما كان ينبغي أن تكون إلا لله. ثم بيّن سبحانه أن المرائي بعمله لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، لأنه لو كان يؤمن بالله واليوم الآخر لأخلص العمل لله رجاء ثواب الله يوم يلقاه.

ثم ضرب المثل العلمي لإحباط عمله كمثل صفوان، حجر أملس عليه تراب، أي على سطحه، فأصابه مطر شديد وابل، فغسل ذلك الحجر من ذلك التراب، وذهب بالتراب وانكشف وجه الحجر صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا، وضاع عليهم عملهم، والله لا يهدي القوم الكافرين الذين جحدوا نعمة الله عليهم، وبدلاً من أن يصرفوا نعمة الله في طريقها، وجهوها بوجاهة الناس، وأيضاً كفروا كفران جحود أن للمساكين حقاً في تلك الأموال التي بأيديهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ [المعارج: ٢٤ ـ ٢٥]. فكان عليهم أن يعطوا السائل حقه بدون منة عليه، ولا

أذى له، ثم أرشدهم سبحانه إلى ما هو أولى بهم وليس فيه كفران النعمة: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٣]. لما فيها من الحفاظ على نفسية المسكين. ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإسراء: ٢٨]. ولما كان الإنفاق رئاء الناس جحدواً لنعمة المال، وإشراكاً في القصد، كان شركاً أصغر، فكان محبطاً للعمل الذي يقع فيه. ولشدة خفائه جاء الدعاء: «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم».

٢ ـ ثم جاء النص الثاني من سورة المائدة ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ... ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

يبين تعالى حال أهل الكتاب لو أقاموا ما في كتبهم التوراة والإنجيل، وعملوا بما فيهما، ولم يكتموا بعضها، لكان جزاؤهم سعة الرزق في الدنيا، وأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم. وهذا توسعة في الصورة لسعة رزق الله: فتمطر السماء، وتنبت الأرض، يأتيهم رزقهم رغداً، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦]. ثم أمر الرسول ﷺ أن يبلغ رسالة الله، ولا عليه من أولئك، وضمن الله له العصمة من الناس، وقد جاء عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: سهر رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقالت: ما شأنك يا رسول الله؟ قال: ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة. فجاء سعد بن مالك ليحرس رسول الله ﷺ فنام ﷺ، ولما نزلت: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾. أخرج النبي ﷺ رأسه من القبة وقال: يا أيها الناس انصرفوا، فقد عصمني الله. فكان عليه ﷺ البلاغ، وأهل الكتاب إذا لم يؤمنوا بما أنزل إليك، ولا أقاموا ما أنزل إليهم، فالله لا يهدي القوم الكافرين. وكذلك يقال لكل من لم يقم ما أنزل الله من الكتاب وجاء به ﷺ من السنة.

٣ ـ النص الثالث: في قضية الشهور والنسيئة وعمل الكفار من التقديم

والتأخير. قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ الآيـة: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [التوبة: ٣٦ ـ٣٧]. النسيء: التأخير. وأصل ذلك: أنهم كانوا يقدمون ويؤخرون في الأشهر الحرم التي يحرم فيها القتال، وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، فيستطيلون الأشهر الثلاثة المتوالية، فيؤخرون المحرم، ويأتون محله بصفر، فيستحلون القتال فيه ليواطئوا عدة ما حرم الله من القتال في المحرم، بزعمهم أنهم أخروه وحل محله صفر. وكان من الحكمة في كون تلك الأشهر حرماً، لأنها مرتبطة بالأسفار لأداء فريضة الحج ذهاباً وإياباً. وقد حرم الله عليهم الاعتداء على آمّين البيت الحرام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ . . .﴾ [المائدة: ٢]. فكان النسيء من عمل الكفار زيادة في كفرهم، لأنهم يغطون ويخفون حرمة شهر المحرم، ويأتون محله بشهر صفر. ومعلوم أن الزمن لا يتأتى نقله، والتغيير في التسمية لا يغير الحقائق، فأضافوا كفراً إلى كفرهم، وعن عمد وقصد لمصالحهم المزعومة، والاعتداء على الآمنين: ﴿ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ ونحن كذلك، لأن كل من غيّر وبدل في أحكام الله، وجاء بحكم بدل حكم أو عملاً بدل عمل، كمن قال: الصوم رياضة نفسية يسد عنها كذا. أو قال: الصلاة رياضة بدنية يغني عنها كذا. والحج رحلة مادية يعادلها رحلة كذا. فكل أولئك داخلون في هذا الإطار. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

النص الثالث: من سورة النحل ابتداء من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ

﴿اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۝١٠٧﴾ [النحل: ١٠٤ ـ١٠٧]. تضمن هذا السياق حجب الهداية عمن لم يؤمن بآيات الله، لأنه لايستهدي بها، ثم هو بسبب ذلك يفتري الكذب على الله. وهذا من أظلم الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ . . .﴾ [العنكبوت: ٦٨]. ومن كفر بعد إيمانه ظاهراً وباطناً فعليه غضب من الله. وأن الواقع لهم هو أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، وكان ذلك عن قصد وعمد، فحجب الله عنهم الهداية: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ نسأل الله السلامة والعافية. وصدق الله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝١٦ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾ [الأعلى: ١٦ ـ ١٩].

١٨ ـ من أسباب حجب الهداية «الظلم»:

كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ والنصوص في ذلك جاءت كثيرة لتنوع الظلم، وتفاوت مراتبه. لأن حقيقة الظلم هي وضع الشيء في غير موضعه، وأقصى مراتبه الشرك بالله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. لأن صرف شيء من حق الله تعالى لغيره هو وضع الشيء في غير موضعه، وكان عظيماً لأنه في حق من حقوق الله. وسنلم بحول الله تعالى بتلك النصوص بإيجاز وإجمال إن شاء الله حسب ورودها مرتبة في سور القرآن ابتداء من سورةِ البقرة، وانتهاء بسورة الجمعة:

أولاً: من سورة البقرة: قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ أي لما آتاه الله الملك، طغى وحاج إبراهيم عليه السلام في ربه، فجحد وادعى لنفسه الألوهية. وهنا قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾. وبمقتضى تلك الربوبية القادرة والقاهرة يستوجب عبادته وحده، ولكن الخصم عنيد وجاهل، أجاب إبراهيمَ: إن كان الإحياء والإماتة علامة الربوبية فأنا أحيي وأميت. ادعى لنفسه صفات الربوبية، فهو مع كذبه وعجزه أشرك نفسه مع الله في تلك الصفات ادعاء. ولما رأى إبراهيم عليه السلام لجاجته وجهالته، آتاه بما يسكته ويبهته أمام قومه، فقال له: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الذي هو ربي

وأعبده ﴿يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾ وهذا عمل مشاهد يومياً من قبل أن يولد الخصم، وطلب منه أن يغاير هذا الوضع فيأتي بها من المغرب. ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. وهذا أقصى أنواع الظلم: أن يدعي لنفسه ولو بالباطل بعض صفات الرب سبحانه، فكان ظلمه سبب حجب الهداية عنه.

ثانياً: من آل عمران: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [آل عمران: ٨٥ ـ ٨٦]. فبين تعالى هنا أن الدين الصحيح هو دين الإسلام، ولهذا فمن ابتغى ديناً غيره فلا يقبل منه. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]. وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. فمن أعرض عن تلك النصوص وترك ما ارتضاه الله نعمة لعباده، وابتغى ديناً غيره، كان لا شك ظالماً. ومن طلب الهُدَى في غير كتاب الله أضله الله. ثم عجب الله من هؤلاء ومن إعطائهم الهدى لقوم كفروا بعد إيمانهم، وشهدوا أن الرسول حق، وجاءتهم البينات، هم أهل الكتاب، قد كفروا برسول الله ﷺ بعد إيمانهم به، وعرفوه بصفاته المنصوص عليها في التوراة والإنجيل، وشهدوا أنه حق مرسل خاتم النبيين، ومأخوذ عليهم العهد والميثاق ليؤمنن به ولينصرنه، وجاءتهم البينات على صحة رسالته، فمن كان هذا شأنه فهو لا شك ظالم بإخفائه شهادة الحق، وكتمه ما عنده من البينات، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

ونقول: إن كل من كتم حقاً بعد أن عرفه، أو جحد شيئاً بعد أن أقر به، أو أخفى علاماتٍ وبيناتٍ تنير السبيل وتقيم الحجة، فهو ظالم محجوبة عنه هداية الله ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

ثم بين تعالى جزاء هذا الصنف بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾ ومع عظيم جرمهم، وأليم عقابهم، أفسح لهم المجال، وفتح لهم باب التوبة رحمة بهم، ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾

[آل عمران: ٨٧ ـ ٨٩]. وإصلاحهم هو الإيمان بعد الكفر، والإقرار بعد الجحود، والاعتراف بعد الإنكار، وإظهار معالم الحق ليهتدي بها الناس، فيكونوا اهتدوا وهدوا غيرهم.

النص الثالث: من سورة المائدة ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [المائدة: ٥١]. قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ينهى الله عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى الذين هم أعداء الإسلام وأهله، ثم أخبر تعالى أن بعضهم أولياء بعض، ثم تهدد وتوعد من تعاطى ذلك ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وتلاحظ في قول ابن كثير في اليهود والنصارى أنهم الذين هم أعداء الإسلام وأهله. أي احترازاً من اليهود والنصارى الذين هم ليسوا أعداءً للإسلام ولا لأهله كالمعاهدين، وأهل الذمة، والذين عرفنا مسالمتهم. وهذا ما يشهد له قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة: ٨]. فأجاز الله ـ سبحانه ـ للمسلمين أن يبروا هذا القسم، وأن يقسطوا إليهم، ومن ذلك حفظ أموالهم ودمائهم وأعراضهم، لأنهم مسالمون. ثم جاء بقوله: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الممتحنة: ٩]. فكما في سورة المائدة الحكم على من يتولاهم بأنه منهم ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فكذلك في سورة الممتحنة: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾. وذلك أن الواجب على كل مسلم أن يعامل أهل الكتاب معاملة المثل، فلما كان البعض منهم معادياً للإسلام وأهله، توجَّب على كل مسلم أن يعاديهم وتكون عدالة. كما قيل: المساواة في الظلم عدالة، وأن الظلم لا تكون معه عدالة أبداً، اللهم إلا في مثل أن يفرض سلطان ما غرامة على المواطنين، ويسوي بينهم فيها. فيقال المساواة في المعاملة عدالة: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ﴾ [الشورى: ٤٠]. ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٩٤]. فإذا جاء شخص مسلم إلى شخص معاد للإسلام وأهله فوالاه وأحسن إليه، كان ظالماً، لأنه وضع الموالاة والإحسان في غير موضعه. ومثل هذا الشخص

بسبب ظلمه حجب الله عنه الهداية، فليس هو على هدى من أمره. ويقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ﴾. ويلاحظ في قوله تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾. فيه لفت نظر المسلمين بأنه إذا كانوا وهم على كفرهم بعضهم يوالي بعضاً، أي لا يوالونكم معشر المسلمين، وفي هذا تنبيه على أمرين:

الأول: يلزمكم وأنتم أهل دين الإخاء والموالاة والوحدة أن يوالي بعضكم بعضاً.

والثاني: أن لا توالوهم كما أنهم لا يوالونكم. وعليه: وإن كان العالم الإسلامي لم يكف يده عن بعض أهل الكتاب الذين ليسوا أعداء للإسلام، إلا أن الأولى أننا إذا وجدنا بديلاً عن أولئك من المسلمين، فيكون تعاملنا مع المسلم أولى، إذا كانا سواء في الكفاءة والأمانة والنصح، أما إذا قدر وكان غير المسلم أكثر كفاءة في ذلك، فلا شك أن المصلحة تقدمه على غيره. حتى يوجد البديل عنه من المسلمين.

١٩ ـ من أسباب حجب الهداية: الفسوق والكذب والخيانة:

تقدمت نماذج من أسباب حجب الهداية من الكفر والظلم وفيها النصوص العديدة. ومن الأسباب أيضاً الفسوق. والإسراف في الكذب والخيانة. ونجمل ذلك كله هنا إن شاء الله:

أولاً: الفسق: كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ والفسق لغة الخروج عن الجادة السوية. يقال فسقت النواة عن الرطبة. بمعنى خرجت. وقيل:

فواسق عن قصدهن جواير

والفسق يشمل كل خروج عن طاعة الله، فيتدرج تحته من الشرك إلى الصغائر، ولكن غالب استعماله في كبائر الذنوب، كما جاء من معانيه في الشمول، قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ﴾ يعني أمور النساء. ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ أي عصيان ﴿وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]. وقد قابل الله بين الفسق والإيمان في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾ [السجدة: ١٨]. ومن الفسق بمعنى الكفر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾

[البقرة: ٩٦]. وكذلك النفاق، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [التوبة: ٨٤].

ومن الفسوق بمعنى دون الكفر قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾﴾ [الحجرات: ٧]. فالعطف يقتضي المغايرة وقد عطف الفسوق على الكفر فكان مغايراً له.

وقد يطلق الفسوق على الكذب، كقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ . . .﴾ [الحجرات: ٦].

وأشد الفسق وأعظمه جرماً، وأول حدوثه كان من عدو الله إبليس، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ . . .﴾ [الكهف: ٥٠].

ومما تقدم يظهر مدى خطورة الفسق، والخروج عن طاعة الله ومخالفة أمره، فكان من أسباب حجب الهداية.

وقد جاء النص على ذلك في خمسة مواطن من كتاب الله، شملت أنواع العصيان في العقائد والأفعال والأقوال، مما يلزم على كل مسلم أن يحاذر تلك المواطن التي جاءت فيها تلك النصوص، وهي: **أولاً**: من سورة المائدة. **ثانياً**: سورة التوبة. **ثالثاً**: سورة الصف. **رابعاً**: سورة المنافقون. أما في التوبة ففي قضية من أخطر القضايا يتعلق بالأمانة، وبأداء الشهادة على وجهها، والتحذير من شهادة الزور. وذلك في حالات الضرورة والاضطرار ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [المائدة: ١٠٦]. كل هذه التحفظات يوقفان بعد الصلاة، قيل صلاة العصر، لأنها في آخر النهار، تذكرهم بآخر العمر منهم، وبوفاة الموصي. فيقسمان بالله أنهما صادقان على ما شهدا به على الميت في السفر، حينما أوصى لم يغيروا شهادتهما، ولم يشتريا بها ثمناً، ولا يحابون أحداً ولو كان ذا قربى، ولا يكتمون شيئاً مما أشهدهم عليه. إلى قوله

تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ﴾ أي أقرب وأولى. ﴿أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ يعني على حقيقتها. ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟﴾ إن هما غيّرا، أو بدلا، أو كتما ﴿أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ١٠٨]. أي من خرج بالشهادة عن وجهها وهي بذلك تكون شهادة زور، تبطل الحق، وتوقع الباطل، وتضلل القضاء. وكل ذلك خروج عن طاعة الله. وقد جاء عنه ﷺ في التحذير من الكبائر والموبقات: لما جاء عند شهادة الزور وكان متكئاً فجلس فقال: «ألَا وشهادة الزور، ألا وقول الزور» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت. فهؤلاء ـ عياذاً بالله ـ تسببوا في حجب الهداية عن أنفسهم. ويقال أيضاً: إلا الذين تابوا وأصلحوا.

الموطن الثاني: من سورة التوبة: في موضعين:

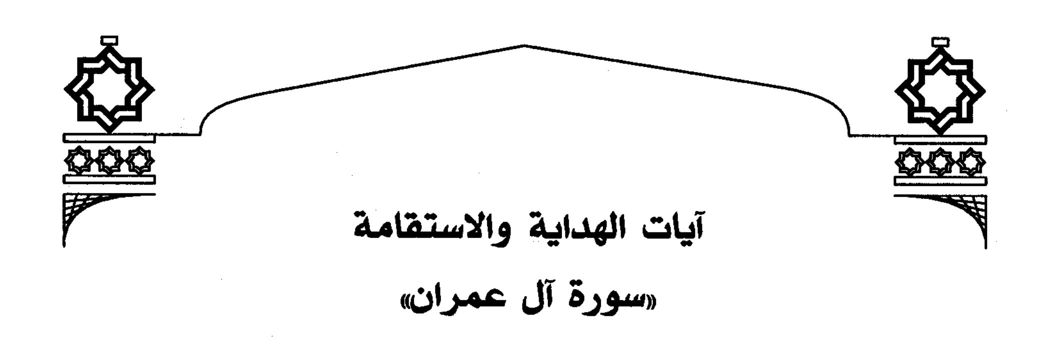
أ ـ ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤]. وبتأمل كل تلك الأصناف: نجدها جمعت كل مطالب الإنسان في حياته: من الضروري والكمالي، كما شملت دائرة الأقارب: الآباء والأبناء والإخوان، وكذلك مصادر المتعة في الحياة: الزوجات، والمساكن الفسيحة، والأموال من أي نوع كانت، ودفع المخاوف عن خسائر التجارة. كل ذلك مما عظمت متعته، وازينت زخارفه، لا ينبغي أن يؤثرها المسلم على محبة الله ورسوله، وجهاد في سبيله، لأن مصدر إنعامها من الله، ويجب التصرف فيها وفق ما جاء به رسول الله، ولا حفاظ عليها إلا بالجهاد في سبيل الله. وقد جاء الحديث: «والله لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده، ووالده، ونفسه، والناس أجمعين». وهذا هو منطلق الإيمان، وقاعدة السمع والطاعة ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

ب ـ الموطن الثاني: في موضوع مغاير تماماً لهذا الموضوع: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [التوبة: ٨٠]. فهؤلاء هم

المنافقون، كان ﷺ يستغفر لبعضهم، فكانت النهاية أنهم محجوبون عن استغفار الرسول ﷺ لهم مع بيان السبب في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ونظيرها في سورة المنافقون: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾﴾ [المنافقون: ٦].

والموضع الأخير في سورة الصف: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف: ٥]. وكذلك يقال لكل من يؤذي رسول الله ﷺ في أصحابه، وآله، وأتباعه، وفي كتاب الله وسنة رسوله بردها أو التنقص منها. وقد رَتَّب زَوَغان قلوبهم على زوغانهم ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ والعكس بالعكس مع الإيمان: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ﴾ [التغابن: ١١]. أي أن الطاعة تجلب الطاعة، والمعصية تسوق إلى معصية. ومن الأسباب أيضاً: الكذب على الله في سياق أول (الزمر) ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ - يعني في زعمهم - ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٢ - ٣]. كهؤلاء في دعواهم. وكذلك يقال لكل من اتخذ وسطاء بينه وبين الله، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦].

* * *



آيات الهداية والاستقامة

«سورة آل عمران»

١ ـ إن المتأمل هذه السورة الكريمة، ليجد تقارب افتتاحيتها مع السورة التي قبلها ـ سورة البقرة ـ ويجد التشابه الكبير، حيث بدأت بالحروف المقطعة التي بدأت بها ما قبلها «آية» ثم جاء ذكر الكتاب والكتب قبله ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ وهو قدر مشترك بين السورتين: ففي أول البقرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ وهنا في آل عمران ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ١ ـ ٤]. وفي البقرة جاء التقسيم الثلاثي أمام دعوة الله: مؤمنون، كافرون، منافقون، وهنا كذلك. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾. وأشار إلى المنافقين الذين يخفون الكفر ويظهرون الإسلام بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾ وجاء بدليل قاطع على علمه المحيط بالإنسان من أول لحظة في وجوده ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾ [آل عمران: ٤ ـ ٦]. فإذا كان لا يخفى عليه حالكم وأنتم أجنة مغيبون في ظلمات الأرحام، فكيف يخفى عليه شيء من حالكم وأنتم في فسحة هذا الكون؟ ثم جاء بتقسيم المؤمنين خاصة إزاء هذا القرآن الكريم: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾ [آل عمران: ٧]. إنه تشابه كبير في افتتاحية السورتين بالحديث عن الكتاب هدى، وانقسام الناس أمامه، وهذا مصداقٌ وبيانٌ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ

﴿جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣]. ويلاحظ أن التقسيم هو منهج العصمة والسلامة من الزلل والزيغ، حيث إن القرآن كلام الله، منه المحكم وهو مرجع الأحكام والأم الذي يؤول إليه العلم، ومنه أُخَرُ متشابهاتٌ، والتعبير عن المتشابهات بلفظ ﴿أُخَرُ﴾ يدل على القلة، وبيَّن اللهُ تعالى أن هذه القلة من المتشابهات قد انقسم الناس إزاءها إلى قسمين:

قسم في قلوبهم زيغ: وهذا الوصف يساوي وصف المنافقين في البقرة ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وهو مرض الزيغ، فيتبعون ما تشابه منه، ويتركون المحكم، وهذا منهم في زعمهم ابتغاء تأويله، والحق أنه ابتغاء الفتنة، لأن حقيقة تأويلها لا يعلمها إلا الله، ولهذا جاء الأثر: «إذا رأيتم من يتبع المتشابه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم». ونحن نقول أيضاً: إن من تتبع المتشابه من الحديث النبوي وترك محكمه ومفصله وواضحه، فهو من هؤلاء الذين يثيرون الفتنة في الناس. ولهذا روى ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن عمر بن الخطاب أنه قال: أُحَرِّج على كل مسلم أن يحدث بحديث ليس العمل عليه. والواقع أن تتبع المتشابه إما لسطحية العلم، وإما لغرض خاص.

ولهذا جاء بيان القسم الثاني وهم الراسخون في العلم، الذين وصفهم الله بمخافته: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ هؤلاء العلماء الذين يحجمون عن خوض غمار المتشابهات، يعلنون أمرين أساسيين: الأول الإيمان به، والثاني التسوية بين المحكم والمتشابه في التنزيل، ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ﴾ وهذا هو منطق العقل ومنطلق الإيمان ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ثم هم من فرط خوفهم من الله ومن زيغ القلوب يقولون في الضراعة: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾. وقد كان ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: أنا من الراسخين في العلم، سلوني عما شئتم في كتاب الله. وكذلك نقل عن الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقوفه في مكة وقال: يا أهل مكة سلوني عما شئتم أخبركم به من كتاب الله. يعني ـ بضميمة السنة ـ وهذا موضوع آخر. إلا أنه يهمنا في هذا التوجيه القرآني الكريم أن نرد المتشابه إلى المحكم، ثم يأتي ما يشبه عمل المقارنة بين منح الحياة وزينتها، وما هو خير منه عند الله في قوله

تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾. ومعلوم أن الدنيا تأنيث الأدنى، والحياة بكل ما فيها في دار الدنيا، أما المقابل والبديل ففي قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ أي المرجع. ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ ويبين تعالى أن هذا هو مسلك المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ وعود على أولي العلم في إكرام مقام ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ . . .﴾ [آل عمران: ١٤ ـ ١٩]. أي هذا المعلن عنه بشهادة الله سبحانه، ثم بشهادة الملائكة في الملأ الأعلى، ثم بشهادة أُولي العلم من البشر بوحدانية الله لا إله إلا هو العزيز الحكيم. فهذا هو الدين عند الله وهو الإسلام، وبعد بضع آيات يبين حقيقة الإسلام عملياً ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣١ ـ ٣٢]. أي ليس الأمر متروكاً لهم إن كانوا يحبون الله أو لا يحبون، بل إلزام لهم ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ﴾.

ثم يأتي عرض قضية عيسى ومريم مع مقدمة اصطفاء الله لآدم ونوح ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤]. ومن كان موضع اصطفاء الله فهو مبرأ من كل قبيح، ويستمر العرض لزكريا ويحيى ومريم وعيسى وما جاء به ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨ ـ ٤٩]. وفي نهاية ما جاءهم به يعلنها مبيناً طريق الاستقامة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران: ٥١]. وبعد كشف مواقف أهل الكتاب عموماً، وإبداء ما هم عليه ضد الإسلام في العديد من الآيات انتهى إلى قوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ

﴿أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [آل عمران: ٨٣ ـ ٨٤]. ثم يلغي جميع الأديان سوى الإسلام ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ . . .﴾ [آل عمران: ٨٥]. وهذا نهاية المطاف معهم.

٢ ـ الهدى في الاعتصام بالله من «آل عمران»:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ﴾ [آل عمران: ١٠٠ ـ ١٠٥].

في بداية هذا السياق تحذير المؤمنين من طاعة بعض الذين أوتوا الكتاب، أنهم إن أطاعوا ذلك البعض تكون النتيجة العودة إلى الكفر بعد الإيمان، وهذا وإن كان في صدر الإسلام، إلا أن الكفر كما قيل: لم يسالم الإسلام أبداً.

كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩]. وكما نهى تعالى عن طاعة فريق من أهل الكتاب، نهى كذلك عن اتخاذ بطانة من غير المسلمين عموماً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران: ١١٨]. فعاملوهم بحذر وبقدر الحاجة، ثم يعجب الله السامع من ذلك: وكيف تكفرون؟ أي بطاعة هذا الفريق فيما يردكم فيه عن إيمانكم، والحال أن لديكم من منهج الهداية وطريق السعادة ما يغنيكم ويميزكم، وأنتم تتلى عليكم آيات الله، وأي هدى تريدون من الناس مع تلاوة آيات الله عليكم، العالم بمصالح عباده، الحكيم فيما يوجههم؟ وكذلك فيكم رسوله،

وما أشكل عليكم تردونه إليه وتسألونه فيه، يأتيكم بالجواب السديد، والقول الرشيد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩﴾ [النساء: ٥٩]. ثم بيَّن سبحانه أن عدم طاعة بعض أهل الكتاب، وعدم اتخاذ بطانة من غير المسلمين، هو الوحدة والترابط، وبالتالي فإن طاعة أولئك وموالاة غير المسلمين فإنه تفكك وذوبان في ذاتية الغير، وضياع للأمة حيث لا تجد نفسها، وتتجاذبها متطلبات الأعداء، ولا نجاة من هذا التفكك، ولا صيانة من هذا الذوبان، إلا بهدي كتاب الله، والاعتصام بحبل الله، ومن يعتصم بالله في طاعته، وطاعة رسوله، واتباع هديه، فقد هُدِي بهذا الاعتصام إلى صراط مستقيم، وهو صراط الترابط والتضامن والوحدة الكاملة، التي تحقق للأمة الإسلامية أهدافها.

ثم التحذير مرة أخرى من طاعة أعداء الإسلام فيما لا يتفق مع الإسلام، والتحصن بتقوى الله أقوى ما يستطيعون حتى الموت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٠٢ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾. إن جميع أساليب البيان وسطور المعاني لا تستطيع أن تفي بغرض هذا التوجيه الإلٰهي الكريم، ونلاحظ صورة الاعتصام، والتمكن من المعصم، وحزم الحبل، وكونه حبل الله، وصورة الاجتماع ﴿جَمِيعٗا﴾ والنهي عن التفرق، جزئيات في مجموعها جعل الأمة في كيان واحد متماسك، ليست له آحاد كما قال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر». ومن الجانب الثاني الحسي يقول ﷺ: «المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضاً». وقد ضرب الله لهذه الأمة مثلاً لأهل الإنجيل ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ﴾ [الفتح: ٢٩]. فالبنيان يشد اللبنات بعضها إلى بعض، فيكون منها الحصن الحصين، لا يقوى العدو على اقتحامه، والزرع المتآزر الملتف بعضه حول بعض لا تثنيه الرياح، ويحمي بعضه بعضاً، فيستغلظ ويستوي ويقوى عوده، فيغيظ الكفار في التفافه، وتماسكه، وحسن روائه، وطيب ثماره، وكما قيل:

الوحدة قوة. قد أدرك الشاعر الفطن لهذه الصورة قوتها، ومدى فعاليتها، فصوَّرها في قوله:

تَأْبَى الرماحُ إذا اجْتَمَعْنَ تَكَسُّراً وإذا افترقْنَ تَكَسَّرَتْ آحادا

وكما في الحديث: «إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية». ولكي تكتمل الصورة أمام سلفنا الصالح، يعيد لهم السياق ذاك الماضي الذي أتى عليهم متفككين متخاصمين متفرقين، وما أنعم الله عليهم به من ألفة بعد بغضة، ومودة بعد كراهية، ومن تجمع بعد فرقة، فيذكر بهذه النعمة العظمى ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ﴾ أي في الماضي ﴿أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾. فأصبحتم بنعمته فقط ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣]. وللقرآن في هذا الموضوع منهج كامل قد جمعناه في محاضرة بعنوان (منهج الإسلام في كيفية المؤاخاة بين المسلمين) وبيَّنا فيه أنه منهج يقوم على أمرين:

الأول: ـ وهو أهمها ـ هذه الآية ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾، لأنه لا توجد قوة على وجه الأرض تستطيع تأليف القلوب إلا من عند الله.

والأمر الثاني: رد البشر إلى أصل الخلقة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣]. وجعلهم إخوة في الجنس والنشأة، ثم آخى بينهم في الإيمان ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ ويوم أن كان المؤمنون معتصمين بحبل الله، كانت لهم القوة والهيبة، وحين دخلتهم دخائل الأعداء ففرقت جمعهم، وخالفت بين قلوبهم، وطبق عليهم مبدأ (فرق تسد) عندها تمزقت الأمة إلى أمم، ودولة الإسلام إلى دول. وقد عادت إلى المسلمين صحوتهم، فتنادوا بالتضامن الإسلامي.

وقد ختم هذا السياق ببيان الهداية ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ثم يقيم عامل الضمان لصيانة هذه الأمة مدة بقائها، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ ويحذر من التفرق ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ﴾. وهذا وإن كان مراداً به أهل الكتاب لمَّا جاءهم نبينا محمد ﷺ، إلا أنه عام في هذه الأمة، وهم تتلى عليهم آيات الله، وفيهم رسوله ﷺ وسنته من بعده.

٣ ـ خيرية هذه الأمة:

في آخر الفقرة السابقة كانت آية الأمر بالمعروف خاتمة منهج الاعتصام بحبل الله، في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾. وهي أيضاً بداية منهج يضع هذه الأمة في أعلى قمة خيرية الأمم، ويبلغهم الغاية ويحقق الهدف، وإذ الفلاح هو الشق في الأرض ومنه الفلاح يشق الأرض للزرع، فالمفلحون هم الذين يشقون طريقهم إلى الغاية المنشودة حتى يصلوا إليها، ومما يعظم أمر هذا العمل أن جعل الله القائمين به أمة أي قدوة، وأن بهم قيام الأمة في الوقت الذي جعل الله الذين ينفرون في طلب العلم والتفقه في الدين ليعودوا وينذروا قومهم، جعلهم الله طائفة أي قطعة من الجماعة، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]. لأن خصوص الأمر بالمعروف أهم من عموم التفقه في الدين، فكل آمر بالمعروف ناه عن منكر فقيه حتى يكون على بينة من أمره، وليس كل فقيه آمراً ناهياً. وقد أشارت الآية الكريمة: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾، والخير عام في كل عمل صالح ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾﴾ [الزلزلة: ٧]. ثم عطف عليه الأخص ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ وعطْفُ الخاص على العام يدل على شدة العناية به وأهميته: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٨]. فإن جبريل من الملائكة، ولكن لأهميته عطف على عموم جنسه ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤]. والروح هو جبريل. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو قوام الأمة وقوامتها على نفسها بنفسها، فهي تتحمل مسؤولية ذاتها، وتحافظ على سيادتها، وهو سر استمرارية مسيرتها بعد انتقال رسولها عنها، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كانت هذه الأمة خاتمة الأمم، ورسالتها خاتمة الرسالات لمحافظتها على مقومات البقاء والدوام؛ من الاستمرار في الدعوة إلى الخير، والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ففي الدعوة إلى الخير النماء والازدهار، وفي النهي عن المنكر صيانتها عن عوامل الفناء، وكل مجتمع توفرت له عوامل النماء والازدهار، وسلم من دواعي الفناء والدمار،

لا شك يستطيع مواصلة سيره، وتحقيق هدفه، وفوزه وفلاحه، ولعظم هذا الأمر فقد حمَّل النبي ﷺ مهمة هذا العمل جميع أفراد الأمة، كلٌّ في مجاله ومكانته واقتداره: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» والتغيير باليد تغيير فوري فعْلِي، لا يمهل المنكر ولا أهله، فيجتثه من جذوره، والتغيير القولي بين مبادرة إلى الإنكار والتقبيح والاستنكار مما يجعل المرتكب كالجاني على المجتمع والمعادي له، وقد يكون من التغيير باللسان إبلاغ من له القدرةُ على التغيير باليد، فيكون أسهم فعلاً في تغيير المنكر عملياً، أما التغيير بالقلب فهو وإن لم يؤثر على صاحب المنكر، إلا أنه سيبقي الإحساس بالمنكر شعوراً حياً، ويجعل صاحب هذا القلب الحي بعيداً عن ارتكاب هذا العمل الذي استنكره قلبه من الآخرين، فيكون عنصراً صالحاً في ذاته إلى أن يستطيع تغيير المنكر بلسانه أو بيده، وهكذا يظلُّ ظِلُّ هذا الأمر وارفاً على هذه الأمة بجميع مستوياتها.

وفي متابعة هذا السياق وبعد خمس آيات فقط، نجد هذا العمل العظيم قد وضع هذه الأمة في أعلى مستويات خيرة الأمم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. حكم معلَّل، خيرية بمؤهل، وليست كالدعاوى الكاذبة، التي ادعتها اليهود والنصارى: ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُا اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]. وهم يقتلون الأنبياء بغير حـــق. ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]. إنها خيرية عملية، مقوماتها: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾. وفي قوله تعالى: ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾. ولم يقل جاءت، أو خرجت، ما يشعر بأن عناية الله شملتها، وهداية الله أخرجتها، ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وهذا الإخراج بما أنزل لهم من آيات الهداية: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الحديد: ٩]. فكنتم خير أمة أخرجت أي بهداية من الله. ويشير السياق في آخر الآية إلى قضية مقارنة، فقال: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ أي ولأدركتهم هذه الخيرية التي أنتم عليها. وهذا يبرز لنا المقارنة بين هذه الأمة في هذا الفضل، وبين

أولئك الذين عطلوا هذا العمل الوارد في قوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨ ـ ٧٩]. فهؤلاء بنو إسرائيل لعنوا على لسان رسلهم، وهي أشد عقوبة تنزل بأمة، وموجب هذه العقوبة هو تعطيل ما قامت به الأمة اليهودية في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو أنهم كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه، فضلاً عن تعطيل الأمر بالخير والأمر بالمعروف، فعطلوا الأمر بالمعروف وسكتوا على تفشي المنكر، فكان عقابهم هذا اللعن المسجل، وكان منهم القردة والخنازير ـ عياذاً بالله ـ، بل إنهم استحقوا تجديد اللعنة عليهم بكتمانهم ما علموا عن الإسلام ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة: ١٥٩]. ومن نفس الموضوع وفي حقهم يقول تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ . . .﴾ [آل عمران: ١١٢].

وهنا يقال لكل من عطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: فإنه سيصاب بمثل ما أصيب هؤلاء، ولما فتحت القسطنطينية وقف أبو أيوب رضي الله عنه يبكي، فقيل له: اليوم يوم فرح بالنصر وأنت تبكي؟ قال: هؤلاء كانوا أقوى منكم عدة، وأكثر عدداً، وأوفر مالاً، لكنهم لما حادوا عن نهج دينهم ورسلهم وكفروا بالله، صاروا إلى ما ترون، وكذلك كل من حاد عن دين الله، ولكن المولى بعدله وعزته، يضع الحق في نصابه ﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران: ١١٣ ـ ١١٤]. أي بإقامتهم هذا الأمر الذي به رفع الله هذه الأمة: من الإيمان بالله واليوم الآخر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاستقامة على هذا المنهج الذي به صلاح الأمم، فكانوا من الصالحين، وهكذا في كل زمان ومكان لا يتغير منهج الله، ولا تختلف سننه سبحانه.

٤ ـ ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران: ١٣٨]:

في هذه الآية الكريمة، ذكر البيان والهدى والموعظة، ومعلوم أن العطف يقتضي المغايرة، ولهذا قال الفخر الرازي: ولا بد من الفرق بين البيان، وبين الهدى، وبين الموعظة، وقال: فيه وجهان:

الأول أن **البيان**: هو الدلالة التي تفيد إزالة الشبهة بعد أن كانت الشبهة حاصلة، فيكون البيان عاماً في أي معنى كان.

وأما **الهدى**: فهو بيان لطريق الرشد ليسلك دون طريق الغي.

وأما **الموعظة**: فهي الكلام الذي يفيد الزجر عما لا ينبغي في الدين وهو الهدى...

ويلاحظ أن هذه الثلاثة المذكورة منقسمة في الأشياء إلى عام وخاص، فالبيان مسند لعموم الناس ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ والهدى والموعظة مسندان لخصوص المتقين ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾. ومن هنا ينشأ السؤال: ما مرجع اسم الإشارة (هذا)؟ فروى القرطبي وأبو حيان عن بعض السلف أنه يشير إلى القرآن. وقال الفخر الرازي: إلى كل ما تقدم من أمره ونهيه والآيات البينات. وكل هذا صحيح، ومما يشهد لرجوعه إلى القرآن، هو أن القرآن بيان وهدى كما في أول المصحف ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾. وكما جاء في ترجمة إنزاله في شهر رمضان: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]. ولكن هذا كله على سبيل الإجمال، وبما أننا في هذا المنهج (آيات الهداية والاستقامة) انتهينا من تقديم المنهج الإجمالي ونحن الآن في إيراد المناهج التفصيلية، فإننا نجد في هذه الآية مع تحديد مرجع اسم الإشارة ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ على أن البيان هو الدلالة التي تفيد إزالة الشبهة بعد أن كانت الشبهة حاصلة، فإننا بالرجوع إلى أول السورة نجدها تتحدث عن أكبر شبهة كانت في بني إسرائيل، كانوا لا يزالون مختلفين فيها، وكان المسلمون أحوج ما يكونون عن بيانها وإزالة الشبهة عنها، ألا وهي قضية مريم وابنها عيسى عليه السلام، وقد أبان عنها السياق بكل وضوح، لا للمسلمين فقط، ولكن لبني إسرائيل أنفسهم، وبعد هذا البيان

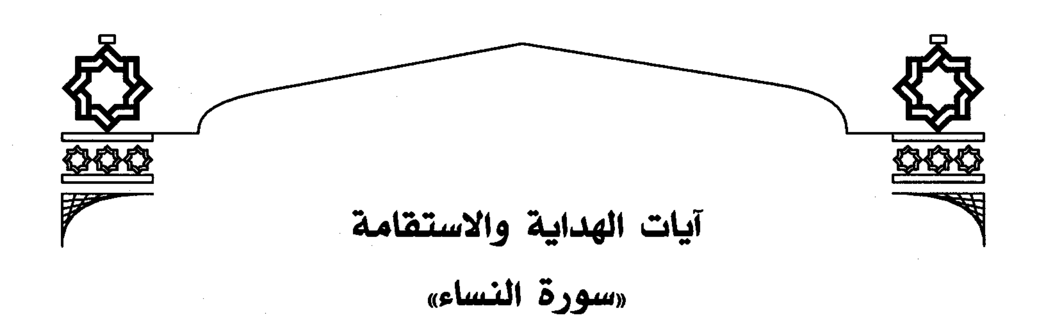
لم يعد عيسى عليه السلام مصدر شبهة، فلا هو كما زعم اليهود في اتهامهم مريم بقولهم: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾. ولا هو كما زعم النصارى: ﴿ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾. بل تبين للجميع أنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وأن كيفية وجوده هو كما قال تعالى في هذا البيان: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩].

واستمر البيان لحال بني إسرائيل والتحذير منهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران: ١١٨]. فهذه أيضاً قضية خطيرة بالنسبة للمسلمين، قد كشف الله لهم عنها، وبين من حالة أعدائهم ما كان خافياً في صدورهم من العداوة والبغضاء، ما كان للمسلمين أن يعلموها، وجاء التنصيص على هذا البيان في نهاية الآية ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ ثم تأتي مسألة عظيمة في معاملات الأمة، التبست على المشركين وأهل الكتاب جميعاً، وهي مسألة التعامل الربوي حيث كانوا يقولون: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾. ورد الله عليهم مقالتهم بقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة: ٢٧٥]. وهنا يبين مدى خطورة هذه المسألة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران: ١٣٠ ـ ١٣١]. فبيَّن تعالى بشاعة الربا وجشع المرابي في صورة هلعه ونهمه، يلتهم أموال الناس أضعافاً مضاعفة عما يحق له، مما تأباه المروءة قبل أن يحرمه الإسلام. ثم بين لهم سوء عاقبته في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾. وليس في هذا السياق ذكر للكفر، ولكن وضع للكافرين موضع للمرابين، مما يوحي بأن مستحل الربا يعادل الكافر، زجراً لهم وبياناً لخطره، وهو نظير قوله تعالى قبل عدة آيات: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾. ثم قال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]. وقد ظهر مصداق هذا البيان الإلهي في أكل الربا أضعافاً مضاعفة في تعامل البنوك واحتساب الربح المركب، وقد أُلِّفت في مضار الربا اقتصادياً ودينياً المؤلفاتُ العديدة، ومهما كتب عن الربا، فلن يأتي كما جاء في سنة رسول الله ﷺ، ولا ما جاء في كتاب الله تعالى.

وقد جاء عن رسول الله ﷺ ما يشبه المقارنة بين الإيمان والربا في حديثين متقابلين، الأول: «الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق». بينما الحديث الثاني: «الربا بضع وسبعون شعبة، أدناها مثلُ أن يأتيَ الرجل أمه علانية». فَلَكأنَّ شُعَبَ الربا بعدد شعب الإيمان، وكل شعبة ربا تحبط شعبة من الإيمان، وصدق الإمام أبو حنيفة في قوله: أخشى الكفر على المرابي.

أما في كتاب الله وفي هذا السياق فهي أيضاً شبه المقارنة بين المرابين وعقابهم، وبين المتقين وثوابهم، فالمرابون لهم نار أعدت للكافرين، والمتقون لهم جنات عرضها كعرض السموات والأرض، وذلك في الآية بعدها: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي في حالة يسرهم وعسرهم، ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٤]. وضعهم في قمة الكمال والإحسان: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥ ـ ١٣٦]. وهذا هو منهج الهداية المنوه عنه في قوله: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى﴾ ابتداء من قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾ إلى نهاية صفات المتقين ثم جاءت الموعظة في لفت النظر إلى ما خلا من الأمم ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧ ـ ١٣٨]. ومحل الموعظة في سنن مَن قبلنا هو الاعتبار بحالهم مع رسل الله إليهم، وما وقع بالمكذبين، وقد مَرَّ بنو فرعون وقومه، وهذه مدائن صالح يمرون عليها مصبحين وبالليل، وتلك بحيرة لوط، وكما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١].

* * *



آيات الهداية والاستقامة

«سورة النساء»

١ ـ قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٦ ـ ٢٨]. ثلاث آيات متواليات، اشتملت على ثلاث إرادات لله تعالى بأمور متعددة لهذه الأمة.

الآية الأولى: تضمنت إرادته سبحانه البيان لنا وهدايتنا سنن من قبلنا، ويتوب علينا.

والآيتان بعدها: متممتان لمضمونها، والتطلع هنا لمدلول البيان والهداية هنا.

وقد تقدم أن البيان والهداية قد يترادفان ويكونان بمعنى واحد، ويذكران للتأكيد، وقد ينفرد كل من البيان والهداية بمعنى مستقل، والصحيح أن البيان هنا هو ما تقدم من بيان الحلال والحرام في قضية الزوجية والمحرمات في النكاح، وكشف النقاب عن قبح ما كانوا يقدمون عليه من نكاح ما نكح الآباء، ثم أعقبه بعموم المحرمات في منهج مكتمل، وذلك من بداية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [النساء: ٢٢]. وذلك أنهم كانوا يجيزون ذلك، وقد جاء الإسلام والبعض منهم على زوجة أبيه، فنهاهم عن ذلك، وبين لهم قبحه وسوء فعلته، ووصفه بثلاث صفات:

الفاحشة، وفحشه لأن زوجة الأب بمنزلة الأم، والنكاح يقبح بين الولد وأمه، حتى أن بعض الحيوانات لا تفعله.

الثانية **المقت**: وهو بنص مقرون باستحقار، وهذا بسبب الفعل القبيح المنوه عنه.

وساء سبيلاً: أي طريقاً في عرف الناس.

فهذا عمل مرفوض عقلاً لفحشه، وشرعاً لمقته، وعادة لإساءته، وهذا غاية في البيان لمن كان يقتحم هذا الباب.

ثم أعقبه بتتمة المنهج في تحريم النساء ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ بدأ بالأمهات لأنهن أعظم وأجل وأشد تحريماً وأنسب لما ذكر من تحريم زوجات الآباء، ثم عطف البقية على الترتيب ﴿وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾. ومن بديع هذا السياق البداءة بالأصل في الأم، ثم الفرع في البنت، ثم الحواشي في الأخوات، ثم حواشي الأب في العمات، ثم حواشي الأم في الخالات، ثم الطبقة الثانية من الحواشي في بنات الأخ، ثم بنات الأخت. وهذا هو الأصل في المحرمات بطريق النسب.

ومن ثم ألحق به الفرع وهن المحرمات من الرضاعة، وهو سبب طارئ ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ وهذا سبب مباشر عن طريق المخالطة والمشاركة في تلك الرضعات، وجاء الحديث في تعميم المحرمات من الرضاع بمثل المحرمات من النسب: من البنت والعمة والخالة وبنت الأخت «يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب». وأما شروط هذا التحريم فمجملها أن تكون الرضاعة قبل الفطام، أما مقدار ما ينشر المحرمية فعند مالك: مطلق رضعة، وعند الشافعي: خمس رضعات، وعند أحمد: روايات مشهورها كالشافعي. وتحقيق ذلك في كتب الفقه، ولا رضاع في الكبر. وتحريم الرضاعة لأنها امتداد لتكوين الجنين في الرحم.

ثم جاء للمحرمات بأمر اعتباري لا عن ولادة، ولا عن رضاعة، ولكن لعقد النكاح الطارئ، لأنه يوجد شبه نسب أو رضاع: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ ولكأنَّ عقد الزواج قد زاوج بين الزوجين فأصبحا كالشخص الواحد، أو كالأخوين، فصارت أم الزوجة بمنزلة أم الزوج.

﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ والربيبة بنت الزوجة من زوج آخر قبله أو بعده، وشبهتها هي أيضاً شبهها بابنته من تلك الزوجة، لأن ابنته منها أخت لابنتها من غيره، فهي أخت ابنته، فكانت بمنزلة ابنته، وتحريم الربيبة مشروط بالدخول بالأم، فإذا عقد على الأم ولم يدخل

بها جاز له أن يتزوج بابنتها بعد طلاق أمها، وفي المقابل ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ﴾ لأنها تصبح مساوية لابنه وابنته، والقيد بالأصلاب احترازاً من الأبناء بالتبني، والذي ألغاه الإسلام ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٥].

ثم جاء بعامل إنساني كريم: ﴿أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ٢٣]. بالنسبة لما سلف منهم للعذر بالجهل قبل البيان، وقد زادت السُّنَّة في هذا القسم أن يجمع بين المرأة وخالتها، أو بين المرأة وعمتها، لأن المرأة مع الخالة هي المرأة مع بنت أختها، والمرأة مع عمتها هي المرأة مع بنت أخيها، وبنت الأخت وبنت الأخ كبنت الأخت كذلك.

ثم جاء إلى أعم من هذا كله وهن الزوجات اللاتي في عصمة أزواجهن ومحصنات بالأزواج: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ﴾ وللإحصان في القرآن عدة معان: الزواج كهذه الآية. العفة: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ [الأنبياء: ٩١]. والحرية: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ [النور: ٤].

وبعد بيان هذه الأقسام في التحريم بالنسب، وبالرضاع، وبالمصاهرة، وبالإحصان، ختمه بهذا التأكيد وبمصدر التشريع ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ أي قائم عليهم وشاهد على هذا البيان ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾. ثم جاء بصور الاستثناء رحمة بالأمة: ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ يعني الحرائر ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم﴾ أي يتزوج بالأمَة المملوكة لغيره، ونكاح الأمة مشروط بشرطين: أن يعجز الزوج عن طَوْل الحرة، وأن تكون هي مؤمنة، وشرط ثالث في موطن آخر في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ﴾ [النساء: ٢٥]. وذلك تجنباً لاسترقاق الولد لسيد تلك الأمة.

وفي نهاية هذا السياق يأتي نص البيان والهداية ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ فيما حرم عليهم من النساء كذلك. وهنا مبحث شرع من قبلنا، وسيأتي في سورة الأنعام ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]. ثم تأتي الإرادة الثانية من الله أن يتوب علينا، وإرادة الذين يتبعون الشهوات أن تميل عن ذلك ميلاً عظيماً، لنحذرهم ولا

نحقق إرادتهم فينا، والآية الثالثة منة ورحمة ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ أي ويضع عنا الإصر ولا يحملنا ما لا طاقة لنا به، ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾. وهذا وصف يلائم التخفيف: العبدُ ضعيفٌ، والرب لطيف.

٢ ـ الهداية في التوبة:

من أهم آيات الهداية، تلك الآيات الثلاث من سورة النساء، من قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ أعقبها قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾. ثم جاءت الثالثة مباشرة ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [الآيـة: ٢٦ ـ ٢٨]. وتقدمت الإشارة إلى محل البيان المذكور في الآية الأولى في قضايا الزواج ممن تحل أو تحرم، وتوبة الله تعالى على من كان خالف ذلك قبل الإسلام: كزواج أكثر من أربع، أو نكاح ما نكح آباؤكم، أو الجمع بين الأختين. . . . الخ. واقتران تلك الآيات الثلاث هنا دلالة قوية على ارتباط تلك الدلالات بعضها ببعض، وكلها نعم وإنعام من الله تعالى لعباده ورحمة بهم، وقد روى الفخر الرازي في تفسيره عن ابن عباس أنه قال: ثمان آيات في سورة النساء هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ و﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٧] و﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٢٨] و﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: ٣١]. و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [النساء: ٤٨]. و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]. ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠]. و﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء: ١٤٧]. وذلك لعظيم إنعام الله تعالى على عباده في كل آية من هذه الآيات الثمان، والذي يرتبط بموضوعنا هداية واستقامة: الآيات الثلاث الأولى: الهداية، والبيان، ثم التوبة والتخفيف.

ولعل أوسع وأشمل وألزم ما يكون للأمة، بل والأمم جماعات وأفراد هو موضوع التوبة، وبيان ذلك بما يأتي:

أولاً: التوبة فمن ضروريات الإنسان المسلم، لأنه ملتزم بتكاليف المولى له، والتكاليف أوامر ونواه، والإنسان بجبلته ليس كاملاً، ولم يعط العصمة، فالخطأ من خصائصه، فإذا استقام، كان بتوفيق من الله، وكان جديداً عليه.

قال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]. وقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾. ثم جاء بعدها بالمعادل والبديل الدائم والأفضل: ﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: ١٤ ـ ١٧].

وما كان لهؤلاء أن يقاوموا زينة الحياة الدنيا، ويسلموا من سلطان الشهوات إلا بالتوبة، وما كان لهم أن يبادروا إلى التوبة ويعرضوا عما تمليه الغرائز إلا بفضل من الله وحب يحل محل هذا الحب، وزينة تقاوم تلك الزينة، وهذا ما جاء في قوله تعالى في سورة الحجرات: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي حسب ميولكم ورغباتكم ﴿لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾ [الحجرات: ٧ ـ ٨].

من هذا كله كانت توبة العبد إلى ربه من ضرورياته من جهة، وكانت من إنعام الله تعالى عليه من جهة أخرى.

أما كونها من ضروريات العبد: فلعجزه وعدم بلوغه الكمال المطلق، حتى الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه، فقد كان منهم ما يعتذرون عنه يوم القيامة على ما جاء في حديث الشفاعة العظمى، فآدم يقول: نهاني ربي عن الأكل من الشجرة فأكلت. وإبراهيم يعتذر، وموسى وعيسى[(١)] كل يعتذر ويذكر موجب اعتذاره، حتى يأتوا إلى النبي ﷺ وتكون له الشفاعة العظمى والمقام المحمود،

---

(١) حديث الشفاعة العظمى: أخرجه البخاري (٤٧١٢) ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة، وفيه أن عيسى ﷺ «لم يذكر له ذنباً». اهـ. (المصحح)

لكنه أيضاً عوتب في الحياة الدنيا عتاب الكمال والمثالية في الإذن لبعض من استأذنه: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ . . .﴾ [التوبة: ٤٣]. وفي استمهال السائل ليفرغ ممن هواهم عليه لمصلحة المسلمين: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ [عبس: ١ ـ ٢]. سبحان الله، حتى في عبوسة الوجه يعاتب عليها سيد الخلق! نعم لأنه قد وصل في مكارم الأخلاق أعلاها وأعظمها رتبة، وقد غُفر له ﷺ ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومع ذلك يقول ﷺ: «أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه، فإني أتوب إلى الله مئة مرة». وموجبات التوبة أمور تسببها، كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين. فكانت توبته ﷺ زيادة في أجره.

وقد قال الخليل عليه السلام في توبته إلى الله: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٢٨﴾ [البقرة: ١٢٨]. فأي ذنب كان لإبراهيم عندئذٍ وهو يرفع القواعد من البيت؟ بل وهو المعتبر وحده بمثابة أمة بأكملها؟! إنه رفع الدرجات، وعظمة منزلة التوبة عند الله.

ولعظم منزلة التوبة عند الله، وأنه سبحانه يحب التوابين كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. وقد جاء عنه ﷺ قوله: «للهُ أشدُّ فرحاً بتوبة عبده من أحدكم حين يتوب إليه من أحدكم، كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليه طعامه وشرابه، فأيس منها؟ فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح». رواه مسلم.

ومن هنا كان المولى سبحانه وهو الغني، «يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها». رواه مسلم من حديث أبي موسى الأشعري عن رسول الله ﷺ. ولا يتعاظم على الله تعالى في باب التوبة شيء فإن رحمة الله تعالى وسعت كل شيء، وقد أخبرنا ﷺ عمن كان قبلنا مَنْ قَتَلَ تسعاً وتسعين نفساً، فاستفتى في التوبة أولاً، وكان الذي أفتاه جاهلاً، فقال له: ذنبك أعظم من توبتك فقتله وأكمل به مئة، ثم نازعته نفسه للتوبة فاستفتى ثانياً، وكان الذي استفتاه عالماً، فقال له: ومن يحول بين العبد وربه؟ تب إلى الله يقبل توبتك، ونُصِحَ

بالخروج عن بلده محل معصيته إلى بلد آخر يعبد الله هناك، وفي الطريق وافته المنية، فاختصم فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، كلٌّ يريد أن يتولاه ويقبض روحه، فملائكة الرحمة بسبب توبته، وملائكة العذاب بسبب ما قبل التوبة، فبعث الله إليهما ملكاً على صورة إنسان فاحتكموا إليه، فقال قيسوا ما بين البلدين، فأوحى الله للأولى: تباعدي، وللثانية: اقتربي، فكان أقرب إلى الثانية قدر ذراع، فتولته ملائكة الرحمة. وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

٣ ـ من هَدْي القرآن: (التوبة أعظم من كل ذنب):

تقدم في السابق الكلام على قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النساء: ٢٧]. من جهة أهمية التوبة للإنسان، وتفضل المولى سبحانه بها عليه، ومحبته سبحانه لتوبة عباده مهما عظمت ذنوبهم. ولسعة وتعدد مواقع التوبة، بقي الحديث عنها على ضوء ما جاء في كتاب الله وهدايته من النواحي الآتية:

١ ـ التسلسل الزمني للتوبة مع تسلسل وجود الإنسان، ابتداءً من أبينا آدم إلى نهاية هذا العالم حين تطلع الشمس من مغربها، وتشتمل هذه الناحية توبة الأفراد والأمم والأنبياء وعامة الناس.

٢ ـ شمول التوبة لجميع المعاصي: من الشرك، والكفر، والنفاق، وقتل النفس، والزنا، والقذف، والسرقة، والمحاربة، ثم العموميات بدون قيد بنوع معين.

٣ ـ أثر التوبة على الذنوب في استبدالها السيئات حسنات.

٤ ـ شروط التوبة ووقت قبولها بالنسبة لكل شخص.

٥ ـ فرق ما بين التوبة في الأمم الماضية والتوبة في هذه الأمة.

أما التسلسل الزمني للتوبة مع تسلسل وجود الإنسان: فمع أبينا آدم عليه السلام في هذا السياق الشامل: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ

إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٥ ـ ٣٧]. وقوله تعالى في سورة طه: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢١ ـ ١٢٢].

ومع أول توبة من أول بشر، نقف وقفة تأمل وموعظة وبيان لما أسلفنا من أن التوبة من لوازم الإنسان، وأنها نعمة ومنحة من الرحمن، فهذا أبو البشر آدم عليه السلام وأمنا حواء أقرب من كان من الإنسان إلى الله، خلقه الله بيديه، وأسجد الملائكة إليه، وخلق له من نفسه زوجة يسكن إليها، وأباح له الجنة مسكناً ومعيشة ورغداً حيث شاء، ومع ذلك لم يسلم من مطاوعته نفسه وزلة إبليس، فأكلا من الشجرة وأُخرجا من الجنة، أليس غيره أولى بهذا؟ فلو أن إنساناً سلم من المعصية لمعاينة آيات ربه لكان آدم عليه السلام.

ثم كون التوبة منحة، ففي هذا الاجتباء: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾. وذلك بعد أن ألقى الله إليه كلمات وتلقاها آدم فتاب الله تعالى عليه. وقد بين سبحانه تلك الكلمات في سورة الأعراف في نفس السياق من قوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٢ ـ ٢٣]. الموعظة هنا أن التوبة لا يتعاظم عليها ذنب، فإن معصية أبينا آدم مهما كانت صورتها وأسبابها في حالة نسيان وإغواء من الشيطان، إنها معصية استوجبت إخراجه من الجنة، وإهباطه إلى الأرض، ومع ذلك فإن التوبة هي التي تعيده إلى الجنة بهداية الله إياه.

ثم بعد أبينا آدم إلى ما قص الله علينا من **دعوات الرسل لأقوامهم**: ما جاء في سورة هود، قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾، وبعدها بآيةٍ واحدة قال: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود: ٥٠ و٥٢]. وهذا مثل قول نبي الله نوح عليه السلام لقومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢].
ولا شك أن هذا من آثار التوبة العاجلة في الدنيا قبل الثواب في الآخرة على ما سيأتي إن شاء الله، وكذلك ثمود في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود: ٦١]. ثم مدين وشعيب قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود: ٨٤ ـ ٩٠].

ثم مع اليهود والنصارى: أما التوبة مع اليهود فكانت شديدة وشاقة، وذلك في مقابل عبادة بعضهم العجل في غيبة موسى عليه السلام كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة: ٥٤]. إنها أشد وأصعب نوع من التوبة، وقد بين سبحانه أنه لو كتب هذا النوع على هذه الأمة ما فعلوا إلا قليل منهم، قال تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء: ٦٤ ـ ٦٨]. إنه التخفيف من الله تعالى على هذه الأمة كما في الإرادة الثالثة ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ﴾ على ما سيأتي إن شاء الله. تلك التوبة مع اليهود.

أما التوبة مع النصارى خاصة ومعهم اليهود عامة: فقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ﴾. وبعدها مباشرة: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ

كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾. ثم ندبهم إلى التوبة من مقالتهم تلك بعد ذلك مباشرة: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: ٧٢ ـ ٧٤].

إلى أن جاءت هذه الأمة فجاءتها التوبة جملة وتفصيلاً، ومن الجملة ما جاء في أوائل سورة هود بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ١ ـ ٣].

أما تفاصيل التوبة لهذه الأمة في كتاب الله:

٤ ـ تتمة الحديث عن قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ وبيان مواطن التوبة في كتاب الله:

بعد تقديم الكلام على قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ وجاء قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾. وتقدم بيان مهمة التوبة في جميع الأمم والتسلسل الزمني للتوبة من لدن أبينا آدم عليه السلام وجميع الأنبياء مع أممهم.

وهنا الحديث في بيان مواطن التوبة في كتاب الله وشمولها بالنص عقب بيان كل كبيرة نهى الله عنها، مما يعطينا برهاناً قوياً على ما قدمنا من أن التوبة منحة من الله تعالى لعباده ورحمة بهم، وبيان تلك المواطن كالآتي:

أولاً ـ مواطن الشرك والمشركين: لقد ندب الله المشركين للتوبة مع عظم عملهم كما قال في وصية لقمان لابنه ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. لأنه محادة لله سبحانه، وقد سئل ﷺ: أي الذنب أعظم قال: «أن تتخذ مع الله نداً وهو قد خلقك». مع ذلك يندب الله المشركين للتوبة والعودة إليه، ويجعل توبة المشركين ماحية ما قبلها، ويبدأ التائب عملاً جديداً قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ

وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٦ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ۝٨٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ۝٨٨ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝٨٩﴾ [آل عمران: ٨٥ ـ ٨٩]. فهؤلاء كفروا بعد إيمانهم وهم أهل الكتاب، وعرفوا أن الرسول ﷺ حق بمقتضى ما جاءهم من البينات، واستحقوا اللعنة ـ عياذاً بالله ـ على أوسع نطاق من الله وملائكته والناس أجمعين، مخلدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون، ومع ذلك يشملهم الله تعالى برحمته ويقبل توبة التائبين منهم: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝٨٩﴾ وغفور رحيم تأتي على ماضيهم، لأن مستقبلهم لم يأت بعد، حتى لو مات أحدهم إثر توبته لوجد الله غفوراً رحيماً، وكم مِن تائب دخل الجنة وهو لم يسجد لله ولا سجدة، أسلم ودخل في صفوف المجاهدين فاستشهد فدخل الجنة.

وفي الموطن الثاني من كتاب الله في التوبة على المشركين قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥﴾ [التوبة: ٥]. فهؤلاء من مشركي العرب، صدرت في حقهم براءة الله ورسوله، وأعطوا مهلة السياحة في الأرض أربعة أشهر، وفي تلك المهلة يندبهم إلى التوبة، ويعرضها عليهم: ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [التوبة: ٣]. وتأتي الآية بعدها: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ﴾ إلى آخرها.

فهؤلاء كانت لهم عهود، فنبذت إليهم عهودهم، وكان لهم أمان، فردّ أمانهم عليهم وأُعطوا المهلة يبلغون مأمنهم في ديارهم، وبعد المدة يُقتلون حيثما وُجدوا، ويؤخذون أسارى، ويحاصَرون ويُقعد لهم في الطرقات بالرصد تضييقاً عليهم، ومع ذلك كله فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، فإن التوبة تعصم دماءهم من القتل، وتعفيهم من الأخذ، وتفك عنهم الحصار، وتفسح لهم الطرق من الرصد، وتخلي سبيلهم: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾. ولم يقتصر حالهم عند تخلية

سبيلهم بعد تصعدهم إلى أعظم، وأدخل من ذلك وهو أن تمنحهم أخوة المؤمنين، كما جاء بعد إظهار مكنون نفوسهم قبل التوبة، من حقد وفسق وصدهم عن سبيل الله، وأنهم لا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمة، كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ [التوبة: ٨ ـ ١٠]. عدة جرائم تسجل عليهم، كل واحدة أكبر من أختها، ومع هذا كله يقول تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

لم تقتصر آثار التوبة على المغفرة كما تقدم، بل جعلت لهم حقوق الإخاء الثابت في قوله تعالى من سورة الحجرات: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. فتصبح لهم حقوق المؤمنين فيما لهم وعليهم، ويبين مدى كونهم من المؤمنين ما جاء في توبة المنافقين الآتي بيانها. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء: ١٤٥ ـ ١٤٦]. معلوم أن النفاق أخطر من الكفر الصريح، لأن الكافر يعلن عن حقيقة كفره بإيمان زائف: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]. ولهذا كانت منازلهم في الدرك الأسفل من النار، ومع هذا فإن توبة من تاب منهم، تخرجه من ذاك الدرك ومن النار كلها، وتضعه في صفوف المؤمنين، أما ما يحصل عليه مع المؤمنين: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. وقد يسترعي الانتباه هنا ما جاء عطفاً على توبة المنافقين من تلك القيود التي هي: وأصلحوا، واعتصموا، وأخلصوا دينهم لله. بينما في توبة المشركين مجرد إقام الصلاة وإيتاء الزكاة فقط. قال أبو حيان رَحِمَهُ اللَّهُ: إن تلك القيود جاءت رداً على المنافقين ثلاثة: فالتوبة أولاً من النفاق عامة ومجملة، وجاء بالتفصيل وأصلحوا أعمالهم بعد فسادها بنفاقهم، واعتصموا بالله بعد اعتصامهم بالكفار وموالاتهم، وأخلصوا دينهم لله بعد أن كانوا يراؤون بأعمالهم المؤمنين. ولهذه المفاهيم الخفية يمكن أن يقال: إن

غاية توبتهم جعلتهم مع المؤمنين، ولم يقل سبحانه عنهم: فأولئك مؤمنون. تحذيراً لهم من أن تكون توبتهم هذه أيضاً نفاقاً. فقال: ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ وحققوا تلك الشروط والتي بها تتحقق توبتهم، فأولئك مع المؤمنين، وإنه ـ سبحانه ـ سيعطي المؤمنين يوم القيامة أجراً عظيماً، فإن كانوا قد حققوا التوبة وصاروا حقاً مع المؤمنين فسوف يشاركون المؤمنين فيما أعطاهم الله من فضله. وهنا تظهر فظاعة جريمة النفاق، وتتضح كذلك فضيلة التوبة، وعلى هذا: فإذا كانت التوبة تشمل المشركين الوثنيين عُبَّادَ الصنم والكفار من أهل الكتاب الذين عرفوا الحق وشهدوا أن الرسول حق وكفروا بعد ما جاءتهم البينات، والمنافقين الذين أنزلهم نفاقهم في الدرك الأسفل من النار، فلأن تشمل العصاة من أمة محمد ﷺ في جميع المواقف من باب أولى، وسيأتي بيان ذلك مع جميع الكبائر والصغائر إن شاء الله.

٥ ـ شمول التوبة جميع الكبائر والصغائر:

تقدم في السابق بيان وهَدْي الكتاب الكريم شمول التوبة للمشركين وكفار أهل الكتاب والمنافقين، وهنا بيان شمول التوبة لعموم الكبائر والصغائر لهذه الأمة المحمدية، وذلك كالآتي:

أولاً: إن أعظم كبيرة بعد الإشراك بالله هي جريمة القتل، وهي قد وكل الله أمرها لولي الدم، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ﴾ [البقرة: ١٧٨]. وهذه الكبيرة لم يأت نص بالتوبة في حقها بالنسبة للقصاص، لأنه حق للعبد، ولكن لَمَّا كان فيها اعتداء على نفس خلقها الله، كانت التوبة فيها لحق الله في تشريع الكفارة حين يكون القتل خطأً لا عمداً، ولا قصاص فيه بل فيه الدية، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ﴾ إلى آخر الآية. ثم جاء بعدها: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا

نَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٢ ـ ٩٤]. فلم يذكر سبحانه توبة القاتل العمد في حق أولياء الدم، لأن حقهم القصاص، أو العفو إلى الدية أو التنازل عنها، ويبقى بعد ذلك حق الله تعالى، فتكون توبته في كفارته ثم في الإصلاح بعد ذلك.

ثانياً: المحاربون لله ورسوله وقطاع الطريق على المسلمين ويسعون في الأرض فساداً. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَـٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة: ٣٣ ـ ٣٤]. فهؤلاء شقوا عصا المسلمين، وخرجوا على السلطان القائم بأمر الأمة، وحاربوا الله ورسوله، فأخذوا المال، وأرهبوا الناس، ومع ذلك فتح الله لهم باب التوبة، فمن تاب منهم قبل أن يقدروا عليه. فلا سبيل إليه وأن الله غفور رحيم، إلا أن هذا إن كانت هناك حقوق للآدميين فعليه ردها، أو تنازل أهلها عنها.

يلي ذلك الحرابة الصغرى وهي السرقة، وهي أخذ المال خفية، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [المائدة: ٣٨ ـ ٤٠]. فهؤلاء أخذوا المال خفية، واستحقوا القطع نكالاً من الله، مع ذلك إذا لم يطلع عليهم السلطان، وتاب من بعد ظلمه واعتدائه على حقوق الناس، وأصلح في عمله، فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم، وقد يلفت النظر مجيء قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾. مجيء هذه الآية هنا بعد الأمرين اللذين هما قطع يد السارق وقبول توبته، مع أن هذه الآية في موضوعها قضية مستقلة لا تتوقف لا على السرقة وأحكامها ولا على التوبة وآثارها، وكان ممكن إيرادها في أي موطن من كتاب الله، فإن مجيئها هنا ليرشد إلى أن في الحكم

بقطع يد السارق شدة، وفي التوبة عليه غاية الرحمة، فثير تساؤلاً: علام شددت عقوبة السرقة، وإلام قبلت توبته؟ فيخبر سبحانه وبأسلوب التعليم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. وبمقتضى هذا الملك يتصرف كيف يشاء ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ ولو بقطع يده، ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ بتوبته.

والموطن الآخر في حق فاحشة الزنا على شناعتها، وفحشها، قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ ...﴾ [النور: ٢]. وفي سورة النساء: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾ [النساء: ١٥ ـ ١٦].

ويتبع هذا أيضاً توبة قاذف المحصنات الغافلات: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [النور: ٤ ـ ٥]. ثم تأتي القضية التي بلغت شناعتها أن تجرأ فيها العبد على الله وعلى رسوله، حتى أذن الله بالحرب، ولا ينقذه منها إلا التوبة، وذلك في السياق الآتي: الذي صور القضية بأوضح ما يكون، وهي قضية الربا، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ أي أن هؤلاء في مقابل أولئك، وإن المرابي لا يؤتي الزكاة، لأنها تبرع بدون عوض، وهو لا يقرض إلا بفائدة فضلاً عن التبرع، ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾. لأن المراباة تتنافى مع حقيقة الإيمان، ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وهذا أقصى أمر الجرأة على الله وعلى رسوله. ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾. ثم

يندبه إلى إنظار المعسر: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾. ويتدرج معه في الإحسان ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥ ـ ٢٨٠]. لم يدركه بالرحمة والسلامة من حرب الله ورسوله إلا التوبة، ومن توبته الاكتفاء بما أقرض برأس المال فقط، بل وينظر المعسر ويتصدق على المعدم، حتى يغطي ما فات في السابق.

وفي نهاية هذه النوعية يأتي هذا السياق العام في قوله تعالى: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ وهو شدة العذاب، ثم رحمهم الله بالتوبة: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾ وعَطْفُ الإيمان على التوبة هنا من إضاعة الصلاة، يشعر بأن إضاعة الصلاة تستوجب تجديد الإيمان، ثم بين وصف الجنة التي وعدهم بها: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِالْغَيْبِ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾ [مريم: ٥٩ ـ ٦٢]. فما أوسع فضل الله على عباده إذ يفسح لهم المجال بالتوبة ليدخلهم فسيح جناته فله الحمد والمنة.

٦ ـ أعظم توبة في الإسلام:

قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَٰثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٧ ـ ١١٩]. هذه التوبة عن هذا الحدث الذي أسهر المدينة خمسين ليلة، وشغل المهاجرين والأنصار جميعاً، وأوقع أقصى أنواع القلق والاضطراب والحرج والخوف بأولئك النفر الثلاثة الذين خلفوا عن غيرهم، ينتظرون أمر الله، وطال بهم أجل الانتظار خمسين ليلة يعيشون في عزلة وانفراد وهم بين أهليهم، ويقاسون قسوة الغربة وهم في ديارهم، قاطعهم القريب والبعيد، فوصل بهم الحال إلى ما وصف الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ

عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾. وانسدت أمامهم طرق اللجوء ومنافذ الحلول، وعلموا أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فصبروا حتى فرّج الله كربتهم، وكشف عنهم ما نزل بهم بالتوبة عليهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

إن هذا الحدث العظيم محل هذه التوبة العظيمة، لا يستطيع تصويره إلا من وقع به وعايشه بنفسه، وها هو الصحابي الجليل كعب بن مالك، وهو أحد الذين حضروا بيعة العقبة، والذي لم يتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة قط إلا بدراً حيث لم يعزم فيها على أحد، ولم يعاتب الله فيها من تخلف، ولكنه قدر عليه أن يتخلف عن حضور غزوة تبوك، وكانت في وقت شدة وعسرة، وكان كعب أوفر ما يكون استطاعة، ولكن التسويف وعدم الإسراع في الإنجاز أضاع عليه السفر، وخرج ﷺ والمسلمون إلى تبوك وهو لم يزل يقول: أتجهز وألحق بهم. ولكنه لم يقدَّر له ذلك، وافتقده ﷺ في تبوك، وسأل عنه، ولما قفل ﷺ راجعاً، قال كعب: أخذت أفكر فيما أعتذر به لرسول الله ﷺ، ولكني أجمعت على صدقه، وكان قد تخلف نحو الثمانين رجلاً، وجاؤوا يعتذرون إلى رسول الله ﷺ فيقبل منهم ظاهر أمرهم، ويكِل سرائرهم إلى الله، وأخيراً جاء كعب إلى رسول الله ﷺ وهو في المسجد، فجلس بين يديه، وهنا تتفاعل حقيقة الإيمان والصدق مع الله ورسوله ومؤثرات التخلف عن رسول الله بدون عذر، فيعلنها كعب: والله يا رسول الله إني لأجد في نفسي لو جلست أمام غيرك لوجدت لي مخرجاً، لقد أوتيت جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك حديثاً كذباً لترضين عني، وليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك صدقاً تجد عليّ فيه، إني لأرجو عقباي من الله فيه. ولا والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدقت فيه، فقم حتى يقضي الله فيك». وهنا تبدأ شدة القضية، لقد وكل أمرها إلى الله يقضي فيها بحكمه هو سبحانه، ومن ثم نهى رسول الله ﷺ الناس من كلامه هو وصاحبيه معه: مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية.

قال كعب: فقام معي رجال من بني سلمة، فاتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت أن تكون اعتذرت إلى

رسول الله ﷺ بما اعتذر به المخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك، فوالله ما زالوا بي حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا أحد غيري؟ قالوا: نعم رجلان، قالا مثل مقالتك، وقيل لهما مثل ما قيل لك. فذكرا لي رجلين صالحين فيهما أسوة.

إنه التجلد لمواجهة الموقف، ولكن أي موقف هو؟ قال كعب: فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا، حتى تنكرت لي نفسي والأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فاستكان صاحباي، أما أنا فكنت أَجْلَدَهُما أخرج إلى الأسواق، وأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف بالأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، ويسارقه النظر، وهنا أشد ما تكون الحيرة، إذ يقول مالك: ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ وإذا التفت نحوه أعرض عني. أي أنه ﷺ: لم ييئسه من الصلة، ولم يقترب منه فيتركه بين الرجاء والخوف، حتى طالت عليه الجفوة من القريب والبعيد، وهناك أتاه خطاب من ملك غسان يدعوه إليه، فاعتبرها مالك من البلاء والامتحان، حيث طمع فيه عدو الإسلام، ثم تطور الموقف إلى نوع من العزلة حيث أمر النبي ﷺ باعتزالهم النساء، فلحقت زوجة مالك بأهلها، وكملت لهم خمسون ليلة وهم يعانون هذه الشدة، ويقاسون هذه القسوة: من غربة في وطنهم، وجفوة من أقاربهم، وعزلة من عامة المسلمين وخاصتهم. إنها لأشد عقوبة من السجن ونحوه، ولكن الذين صدقوا الله هم بإيمانهم أقوى من الشدائد، إنها بمثابة التمحيص والتنقية، فهم كما قال تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وبعد هذه المقاساة وتلك المعاناة، ووصل بهم ما وصف الله من حالهم: قد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم، فإذا هو قد صلى الصبح وهو على ظهر بيت من بيوت أهله، إذ سمع صوت صارخ، أو في عالي جبل سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر. فيخر ساجداً شكراً لله. وأذن رسول الله ﷺ بتوبتهم حين صلى بهم الفجر، فأتى

رسول الله ﷺ والناس جلوس حوله بالمسجد، قال: فسلمت على رسول الله ﷺ، فقال لي ووجهه يبرق من السرور: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك». فقال: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: بل من عند الله. فأراد مالك أن يتصدق بماله كله إتماماً لتوبته، فنهاه رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله قد نجاني بالصدق وإن من توبتي إلى الله أن لا أحدث إلا صدقاً ما حييت. وأنزل الله تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ . . .﴾ [التوبة: ١١٧ ـ ١٢٠]. وليس من تعليق على هذه التوبة أكثر من تلك الشدة التي مروا بها، ثم اعتبار رسول الله ﷺ يوم هذه التوبة خير يوم مر عليه، مع أنه شهد العقبة وكل الغزوات، ثم نتيجة صدقهم يجعلهم الله قدوة يُحتذى بهم، وندب المؤمنين أن يكونوا معهم في صدقهم، ثم ما كان من ترقب المدينة كلها لهذه التوبة، ثم عتاب أهل المدينة كلهم في التخلف عنه ﷺ، وما كان لهم أن يتخلفوا. اللهم اجعلنا من الصادقين ومُنَّ علينا بالتوبة يا أرحم الراحمين.

٧ ـ شروط صحة التوبة في كتاب الله:

بما أن التوبة بمعنى (الأوبة) والرجوع إلى الله تعالى بعد الإعراض والتولي والعصيان، وهي استجابة ليقظة الضمير، ورغبة في المغفرة والهداية والاستقامة على ما يرضي الله تعالى، وهي دلالة صدق وبداية عهد جديد فيما بينه وبين الله، مهما كلفته ثمناً لذلك. ولقد جاءت الغامدية إلى رسول الله ﷺ تائبة بصدق، وردها حتى تضع حملها، ثم ردها حتى تفطمه، وكل ذلك تذهب ثم تعود بنفسها، وقال في حقها ﷺ: «لقد تابت توبة لو قسمت على سبعين رجلاً لوسعتهم». وفي رواية «على أهل المدينة أَلَا ترون أنها جاءت بنفسها إلى الله».

وقد تقدم في العنوان السابق «أعظم توبة في الإسلام» التعقيب عليها من الله

تعالى بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾. وذلك أنهم صدقوا الله في توبتهم إلى الله.

ونصوص القرآن في شروط التوبة هي في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾﴾ [النساء: ١٧ ـ ١٨]. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام: ٥٤ ـ ٥٥]. وبتأمل هذه النصوص نجد النص الأول يبدأ بأداة الحصر «إنما» وأن التوبة على الله، ومعلوم أنه ليس على الله حق إلزام لأحد، وإنما هو حق إكرام وشمول رحمة الله لخلقه، وجعلها سبحانه للذين يعملون السوء بجهالة، وهذا هو الشرط الأول. ومعنى الجهالة هنا: هو جهالة السفه والطيش التي يقابلها الحلم والعقل، وليست الجهالة التي هي عدم المعرفة التي يقابلها العلم، وهي من الجاهلية التي كانوا فيها قبل الإسلام، لأن المعصية وعمل السوء لا يكون إلا بدافع من جاهلية، ومن هذا قول الشاعر:

أَلَا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا فنجهل فوقَ جَهْلِ الجاهلينَ

وقد أورد ابن كثير في تفسيره عن كلٍ من مجاهد، وقتادة، وابن عباس، أن كل معصية هي عن جهالة، خطأً كانت أم عمداً، فإن الله تعالى يغفرها بالتوبة. ويؤيد ذلك ما جاء في عمومات الاستغفار من الله تعالى: «يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل». وما جاء في الخبر: من أن إبليس لما توعد قائلاً: وعزتك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم. فقال الله ﷻ: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني.

والقيد الثاني قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾. هذا القرب ليس له حد، فهل هو قرب ما فعلوا من سوء بجهالة؟ بمعنى أنهم عقب فعل السوء

ينتهون حالاً فيتوبون. كمن قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١﴾ [الأعراف: ٢٠١]. أم هو قرب ما قبل الموت وقبل المعاينة؟ روى ابن كثير عن ابن عباس (ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت). قال عكرمة: (الدنيا كلها قريب). وجاء عن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر». رواه الترمذي وابن ماجه. وهذا هو مضمون القصر المنصوص في أول الآية: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ مع قوله تعالى في الآية بعدها: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾. لأن الذين يعملون السيئات ويصرون على عملها دون رادع ولا زاجر، ولا تذكر ولا موعظة ولا خوف من الله، حتى إذا حضر أحدهم الموت، وعاين الملك لنزع الروح، وأيس من الحياة، وأيقن بلقاء الله، فإنه حينئذٍ لم يكن توبة رغبة وندم، ولكنها رهبة وذلة، وحينئذٍ لا فضل له في ذلك، وهذا ما حدث من فرعون كما قال تعالى عنه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. وأجيب حينذاك بقوله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١﴾ [يونس: ٩٠ ـ ٩١].

قال العلماء: السبب في عدم قبول التوبة في تلك اللحظة أن أصل التوبة انتباهة قلب، ويقظة ضمير، واستجابة إيمان بالله واليوم الآخر، حيث يكون الجزاء والحساب. وهذا أمر غيب، فكل توبة قبل معاينة الموت كانت عن صدق إيمان ولوازمه، أما عندما يعاين الموت وتتراءى معالم الآخرة، فلم يبق هناك غيب بالنسبة إليه، لأنه قد عاين ما كان غائباً، فلا تكون توبته في محلها، وكذلك الذين يموتون وهم كفار.

وهنا تساؤل عمن يموتون من المسلمين وهم على ما كانوا عليه من المعاصي، فيقال: إن هؤلاء أمرهم إلى الله تعالى، فإذا أحس في نفسه بالضعف، وتوالت عليه شواهد الوفاة، وهو لم يزل في رمق ويرجو شفاء وعاقبة، أو لم يرج فتاب إلى الله، فإن الله تواب رحيم. وهذا أبو طالب عم النبي ﷺ في حالة النزع يجلس إليه الرسول ﷺ يقول له: «يا عم قل كلمة

أحاج لك بها عند الله». فلو قالها آنذاك لكانت حجة له. وفي الحديث الصحيح: «من كان آخر كلامه في الدنيا (لا إله إلا الله) دخل الجنة». وهو المعروف بحسن الختام، نسأل الله ولنا ولجميع المسلمين حسن ختامنا.

فإن قدر ومات إنسان فجأة، وكان على شيء من تلك السيئات، فإن أهل السنة والجماعة مجمعون على أنه موكول لأمر ربه وتحت المشيئة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]. وهذا هو مدلول النص الأول. أما النص الثاني فهو يفسح الآمال أمام العباد في سعة رحمة الله، حيث أمر الله تعالى نبيه نبي الرحمة بقوله: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ﴾. أي رجع بعد ما أذنب وأقلع عما كان عليه من المعاصي، ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ سبحانه وتعالى، وهكذا تم تفصيل متطلبات التوبة، كما أعقبه سبحانه بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام: ٥٤ ـ ٥٥]. وتتضح، ولم يبق لأحد عذر.

وقد تحصل من هذا كله أن من لوازم التوبة ما قاله العلماء:

أولاً: الإقلاع عن الذنب ثم التوبة من بعده.

ثانياً: العزم الأكيد على عدم العودة، والندم الشديد على ما كان منه سابقاً.

ثالثاً: ملازمة صالح الأعمال دليلاً على صدق توبته، كما في توبة أولئك الذين أضاعوا الصلوات ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ . وفي قوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ﴾ فإنه في كل شيء بحسبه، فيصلح ما كان قد أفسد، ويلتزم الإصلاح والصلاح في المستقبل، كما لو كان مثلاً يسيء الكيل والوزن، فإن إصلاحه بعد توبته أن يصلح مكياله وميزانه، أو كان يؤخر الصلوات أو يتخلف عن الجماعات، فإن إصلاحه بالمحافظة على الجماعة وأداء الصلوات في أوائل أوقاتها، أو كان يتعامل بالربا، فإن إصلاح توبته الاكتفاء برأس ماله لا يظلم ولا يُظلم، أو كان على أي عمل من الأعمال السيئة، فإن توبته منه إصلاح ما كان عليه ليصبح مسلماً حقاً أميناً مؤتمناً.

وليس من لوازم التوبة العصمة بعدها، فإن الخطأ ملازم للإنسان، ولكن من لوازمها الإقلاع والعزم على عدم العودة والندم على ما كان مهما يكون منه، فلا يندفع وراء الهوى، ولا يقع تحت وطأة اليأس.

٨ ـ آثار التوبة على صاحبها:

إن أول أثر من آثار التوبة هو: رد الفعل لما كان عليه قبلها، من يقظة الضمير، وانتباهة الشعور بواقع حياته، وما هو عليه من عصيان لله، وانحراف عن طريق الهداية إلى طوق الغواية، فيتبصر عواقب أمره ونهاية سعيه، فإذا به يؤوب إلى الله تائباً.

ومن ثَمَّ، ذلك الأثر العظيم الذي عقب التوبة والإنابة والرجوع إلى الله: من الطمأنينة والارتياح والهدوء، وإننا لنشاهد الجاني إذا ما ارتكب جناية، وهرب من السلطة، واختفى عن وجه العدالة، فإنه يظل خائفاً يترقب قلقاً، إن نام كان فزعاً، وإن استيقظ كان جزعاً، يسكن بالنهار ويختفي، ويتحرك بالليل ويتنقل، يطارده جرمه كما تطارده السلطة، وقد يضيق ذرعاً بنفسه، وتضيق به الأرض بما رحبت، وتضيق عليه نفسه، ولا يجد ملجأ ولا مخرجاً مما هو فيه إلا أن يتقدم ويسلم نفسه ليد العدالة، ليلقى جزاء جرمه.

إلا أن التائب حينما يحس بصحوة ضميره وحيوية شعوره، ويعلم أن لا ملجأ من الله إلا إليه، ويوقن بسعة رحمة الله وأنه غفور رحيم، فإنه بتوبته إلى الله يذهب عنه قلقه، وينقلب خوفه أمْناً، واضطرابه استقراراً، ومن ثم يأنس بفضل الله وتوفيقه.

هذه آثار ملموسة، ونتائج محسوسة، ومع هذا أيضاً فقد جاءت نصوص القرآن تهدي إلى ما هو أوسع وأبعد من هذا كله، منها ما يختص بالدنيا، ومنها ما يختص بالآخرة:

فمن الأول: ما جاء في قوله تعالى عن نبي الله هود مع قومه عاد: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ۝٥٢﴾ [هود: ٥٢]. لقد رتب على الاستغفار والتوبة إلى الله أنه ـ سبحانه ـ يرسل السماء عليهم بالمطر مدراراً، ويزدهم قوة إلى

قوتهم. ومعلوم أن من لوازم إرسال السماء مدراراً إنبات الأرض، وبالإنبات سعة الرزق، فتخصب المراعي لحيواناتهم، وتخصب الزروع بحبوبهم وثمارهم، فإذا ما أخصبوا ونمت حيواناتهم، نموا وتكاثروا وكثر عددهم، فزادت قوتهم ووفرت سيادتهم. وهذا نظير قوله تعالى عن نبي الله نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢]. ونلحظ في آية هود قوله تعالى معقباً على ندائهم للتوبة: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾. فإن فيه ما يشبه القسمة إلى قسمين:

قسم: استجابوا للنداء، وبادروا بالتوبة، وأقلعوا عما كانوا عليه من قبل.

وقسم: لم يستجب، فلم يتب، وظل على ما كان عليه من التولي والإجرام. والربط بين التولي والإجرام إشعار بأن المجرم دائماً مولٍّ مدبرٌ هاربٌ، ولكن إلى أين؟ وإلى متى؟

وكذلك ما جاء عن ثمود قال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود: ٦١].

ومثله ما جاء عن شعيب عليه السلام: دعا مدين إلى الاستغفار والتوبة وأعقبه بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]. إن مقتضى قريب مجيب: أنه ـ سبحانه ـ يستجيب دعوتهم، ويحقق رغباتهم، ومقتضى رحيم ودود: أنه ـ سبحانه ـ يرحمهم، ويتودد إليهم بوافر النعم وعظيم العطاء.

ومن أشمل ما جاء في آثار التوبة وأعظمها: قوله تعالى في أول سورة هود: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ [هود: ٢ ـ ٣]. فقد رتب ـ سبحانه ـ على التوبة والاستغفار أن يمتعهم متاعاً حسناً، وأي أثر أعظم من هذا المتاع الحسن بكل معانيه ومعطياته، ويطمعهم في واسع فضله سبحانه بقوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾. ثم يلفت النظر هنا أيضاً مجيء القسمة: قوم استجابوا وفازوا بوعد الله الحسن وفضله الواسع، وقوم حذرهم من التولي

والابتعاد عن فضل الله، فيحذرهم ما يخافه عليهم من عذاب يوم كبير.

والآثار في بيان نتائج التوبة عاجلاً كثيرة، وما أوردناه فيه الكفاية.

أما ما جاء في آثار التوبة يوم القيامة: فإن الآية العظيمة في قوله تعالى من سورة الفرقان: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٣ ـ ٧٠]. يلاحظ في الإضافة هنا عباد الرحمن، مع أن الخليقة كلها عباد الله تعالى، إلا أن الإضافة هنا للرحمن ـ سبحانه ـ تشعر بمعاني الرحمن بهم، ولذا فقد أضفى سبحانه على المعنيين بالإضافة هنا من معاني الرحمن، فهم إن مشوا على الأرض مشوا هوناً وبرفق المتواضع، وإذا خاطبهم الجاهلون وأساؤوا في تخاطبهم كانوا بمن جهل عليهم رحماء، قالوا: سلاماً، وإذا آواهم المبيت، قاموا يتطلبون رحمة الله سجداً وقياماً، يستعيذون بالله من عذاب جهنم، ويسألونه نعيم الجنة برحمته وفضله، وهكذا في أعمال الخير. وفي المقابل لا يشركون بالله، ولا يقتلون النفس المحرمة، ولا يزنون، وتلك هي عظائم الجرائم، من يفعل شيئاً منها ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾، بمضاعفة العذاب ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ﴾، ولعل هذا أقصى وعيد على أكبر الذنوب.

ثم يأتي فضل التوبة بعد هذا كله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ فإن توبته تَجبُّ ما قبله، وتمحو ما عمله، ويبدل الله سيئاته حسنات. قال بعض المفسرين: أي بعد توبته تتبدل أعماله السيئة حسنة، فمِنْ شِرْك إلى إيمان، ومن زنا إلى تعفف، وهكذا. وقال الآخرون: بل هذا يوم القيامة يبدل الله ما هو مسجل عليه من الذنوب العظام إلى حسنات، يجازى عليها بالإحسان، ويدل عليه قوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. وعليه

الحديث «يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ولقيتني لا تشرك بي شيئاً، أتيتك بقرابها مغفرة». وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

٩ ـ التوبة تخفيف من الله:

بعد قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾. جاء قوله تعالى للمرة الثالثة: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٦ ـ ٢٨]. وتقدم الكلام على الهداية والبيان والتوبة، والحديث هنا عن التخفيف، وعن خَلق الإنسان ضعيفاً.

فأولاً: ارتباط تلك الآيات الثلاث وتناسق السياق، إنه ـ سبحانه ـ أراد الهداية بالبيان، ومن هداه الله فقد تاب عليه، ومن هداه وتاب عليه يحذره ممن يتبعون الشهوات، لأنهم على عكس ما يريده الله لعباده، فإنهم كما قال تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [النساء: ٨٩]. وكما قال عنهم: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥]. وقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩]. ونحو ذلك من الكشف عن حقائق وقائع أعداء الإسلام والمسلمين حسداً من عند أنفسهم.

ووصف خلق الإنسان بالضعف وصف مناسب للتخفيف عنه بسبب ضعفه، وهنا نلحظ أن وصف الضعف موجه لخلق الإنسان لا للإنسان نفسه، وذلك واقع فعلاً، إذ أنه خُلق من نطفة أمشاج، وجاء إلى الدنيا وهو عاجز عن كل مقومات حياته، حتى تداركه الله تعالى بلطفه، ويسر أمر الحياة إليه، فهو من هذه الناحية لا شك ضعيف، ولكنه بعد أن شب واستوى، وبلغ أشده، وأُلهم رشده، لم يعد في ذاك الضعف المطلق، صار بعقله أقوى الكائنات، وقد جاء في الأثر «أن الله تعالى لما خلق الجبال وأرسى بها الأرض، قالت الملائكة: وهل خلقتَ يا ربنا خلقاً أقوى من الجبال؟ قال: نعم، النار ـ أي لأنها تذيب

الحجارة ـ فقالوا: وهل خلقتَ خلقاً أقوى من النار؟ قال: نعم، الماء ـ أي لأنها تطفئ النار ـ فقالوا: وهل خلقتَ خلقاً أقوى من الماء؟ قال: نعم، الهواء. لأنه يهيج أمواج المياه، قالوا: وهل خلقتَ خلقاً أقوى من الهواء؟ قال: نعم، الإنسان يتصدق بصدقة فيخفيها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه». وهذا الأثر وإن كان في سنده ما فيه، إلا أن الواقع يؤيده، لأن الله قد أقدر الإنسان على الجبال يفتتها، وعلى النار يسخرها، وكذلك الماء والهواء، وكلها مسخرة لخدمة الإنسان في حياته، وإنما الضعف يظهر في الإنسان أمام التكاليف الشرعية ومدى طاقته بالقيام بها، ولذا من أعظم منة الله ونعمه على هذه الأمة ما تضمنه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾. وما ذاك إلا لضعف الإنسان عن كل ما يمكن أن يكلف به، وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وهذه الآية الكريمة ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ هي فعلاً من ألطاف الله بعباده، ويعظم أثر هذه النعمة أنه لم يحدد هذا التخفيف بذكر متعلقه، ليكون تخفيفاً عاماً شاملاً. ولو تتبعنا جميع التشريعات الإسلامية لوجدنا تحقق ذلك في جميع التكاليف سواء في العبادات أو المعاملات أو الاجتماعيات، وابتداء من الركن الأعظم في الإسلام وهو الصلاة، اشتراط الله للقيام إليها الوضوء، فإذا شق على الإنسان استعمال الماء لعدم وجوده أو لعدم استطاعته استعماله، خفف عنه إلى التيمم. والقيام إلى الصلاة: من أركانها، فإذا عجز عن القيام خفف عنه إلى القعود. وهذه الزكاة: لم تفرض إلا على الغني الواجد، والصيام: مَن لحقته مشقة المرض أو حاجة السفر وعجز عن الصوم خفف عنه إلى أيام أُخَر. وهذا الحج: لم يوجبه سبحانه إلا على من استطاع إليه سبيلاً. ومثله الجهاد: أسقطه عن الأعمى والأعرج والمريض وهكذا سائر العبادات وقد شمل ذلك كله قاعدة الفقه: (المشقة تجلب التيسير).

وفي سياق هذه الآيات الكريمات، وما جاء قبلها من بيان المحرمات في النكاح، ووجوب تزوج المحصنات، فإنه ليس كل الناس قد يجد طَوْلاً للحرائر، وقد يدركه العنت لعجزه عن ذلك، فيضعف أمام غريزته وجبلته، فقد

خفف الله عنه وأباح له التزوج من الفتيات المؤمنات ﴿مِّمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم﴾ ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾. لأن التزوج بالأَمَة المملوكة أيسر كلفة من الحرة، ومن أعظم ذلك حديث: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» فهو تخفيف على هذه الأمة مما كان على من قبلنا، إذ كانوا يؤاخذون بالنسيان ويعاقبون عليه، ويحاسبون على الخطأ بل وما أكرهوا عليه.

ومرة أخرى مع هذا البيان، وهذا الهدي، وتلك التوبة والتخفيف، فإننا نجد ما يشبه الطلب وجزاءه، إذ كأن الدعوة إلى التوبة من جزائها التخفيف، وهذا شبيه بما في سياق تشريع الصيام: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾. يأتي بعدها مباشرة: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٦ - ١٨٧]. ولكأنه أحل لهم ما كان محرماً بعد أن استجابوا له فيما دعاهم إليه، كما أننا نجد شبه المعادلة بين ما يريده الله تعالى لنا، وما يريده الذين يتبعون الشهوات، فإرادة الله لنا التوبة، ومن ثم التخفيف رحمة بما يلحقنا من ضعف. بينما إرادة الذين يتبعون الشهوات: يريدون الميل والانحراف العظيم عن جادة الاستقامة، وعن منهج الهداية. وهنا تنبيه دقيق، وهو مجيء الشهوات بلفظ الجمع، ليعم كل شهوة ضلال وغواية: شهوة الجنس، شهوة التسيب من الواجبات، شهوة اللهو واللعب، شهوة التكسب غير المشروع، وهذا يعطي العامل دليل التحذير الشديد، وهو مما نشاهد مصداقه في حياتنا العملية، وعلى سبيل المثال:

١ ـ الذين يتبعون شهوة الجنس: يدعون إلى وسائله من التبرج والاختلاط غير السليم، وتحرر المرأة من كل قيودها، لتبعد عن حصنها فيتسهل الوصول إليها.

٢ ـ الذين يتبعون شهوة الكسب الحرام: يدعون إلى إباحة الربا، ويدّعون الضرورة في التعامل.

٣ ـ الذين يتبعون شهوة السلطة، والسلطة التي للتسلط: يدعون إلى مصادرة الحريات، وفرق بين سلطة التسلط وبين سلطة الإصلاح وقمع الظالم ونصرة المظلوم، وفرق أيضاً بين حرية التسيب وحرية تراعي حقوق الآخرين.

وهنا يقف الداعي إلى الله: أيها المسلمون، أيها العقلاء، هلم إلى هدى الله، وحذار من أولئك دعاة السوء، واستظلوا بشرع الله ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾.

١٠ ـ الهداية إلى منهج الحكم في الإسلام:

١ ـ جانب الحكام: الآيات التي تناولت الحكم في الإسلام كثيرة، ولكن المنهج الذي نريد أن نسوقه هنا يعتبر منهجاً متكاملاً، يضع أصول التحاكم، ويرسم المنهج القويم الذي يحقق التثبيت على الحق، وحصول الأجر العظيم في الآخرة، وهداية الصراط المستقيم سواء في الدنيا وفي الآخرة إلى الجنة، كما أنه يحقق العدالة لجميع الطوائف غير المسلمة المقيمة تحت حكم المسلمين، مما لم يشهد التاريخ له مثيلاً، ولم تنعم الإنسانية بنظيره من قبل، وقد حكم القاضي شريح ليهودي على الإمام علي رضي الله عنه في الدرع لعدم توفر البينة.

وهذا المنهج المتكامل قد وازن بين الحاكم والمحكوم فيما يجب على كل منهما تجاه الآخر، ثم بين نتائج التزام كل منهما بهذا المنهج، أو إرادة التفلت عنه، ليكون الفرد والمجتمع على بينة من أمره على كلتا الحالتين: الالتزام أو التفريط. يبدأ هذا البرنامج من قوله تعالى في سورة النساء: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: ٥٨]. هذا الجانب الأول الذي يخص الحكام على ما سيأتي تفصيله. ومن الجانب الثاني قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩].

فيبدأ الجانب الأول بأمر من الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾. ومعلوم أن أمر الله يقتضي السمع والطاعة والالتزام، وموضوع الأمر: ﴿أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾. والأمانات: جمع الأمانة، يصدق على كل ما يؤتمن عليه الغير، سواء في الأمانات الفردية بين الأشخاص التي تجعل قاعدة الأمة في أفرادها

أهل أمانة فيما بينهم، سواء في أمانات الودائع أو في أمانات التعامل: في المبيعات، في وفاء الكيل والوزن، وفي المعاشرات بين الزوجين يؤدي الزوج أمانات الزوجة والزوجات، وما ائتمنه الله عليه في قوامته الزوجية من رعاية وصيانة ووفاء بالحقوق، خاصة إذا تعددت عنده الزوجات، وتؤدي الزوجة أماناتها وما ائتمنها الله عليه من حقوق الزوج في نفسها بالتعفف، وفي ماله بالحفظ والتدبير، وفي أولاده بالرعاية والتربية، وفي كل ما غاب عنه في بيته، حتى والديه وخدمه وجيرانه وضيوفه وعرضه، منها ومن غيرها على حد «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»، ويؤدي الزوجان معاً الأمانات للأولاد فيما لهم من حقوق مادية ومعنوية، وهذا مجال واسع حتى إن الله قد ائتمن الزوجة على أحوالها في حالتي الاجتماع والافتراق من الحيض والحمل، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ...﴾ [البقرة: ٢٢٨]. قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَكَّل الله أمر النساء إليهن، وائتمنهن على ما في أرحامهن من حيضة في العدة، أو حمل، وأن لا يلحق بزوجها ما ليس منه، ولا تخفي عنه ما هو منه. ومعتبر كل ذلك من الأمانات التي أمر الله بها أن تُؤَدَّى إلى أهلها، وإن كان سبب نزول الآية: إنما هو في مفتاح الكعبة، كما هو المشهور، ولكن كما يقول الأصوليون: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ولكن الجديد والأهم هنا أن سبب هذا النزول يعلي من شأن هذا المنهج، ويعظم من مثالية الإسلام، حيث أمر برد الأمانات إلى أهلها وإن كان صاحب الأمانة غير مسلم، لأن عثمان بن طلحة آنذاك كان مشركاً، وكان مفتاح الكعبة عنده، ويريد علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن يأخذه، فنزَّل الله تعالى على رسوله الأمر برد الأمانة إلى صاحبه، فيناديه ويسلمه المفتاح، ولما علم عثمان أن المفتاح أعيد إليه بوحي من الله، أعلن إسلامه في حينه.

ولقد وضع النبي ﷺ مبدأ في الأمانة إلى أبعد حد في قوله ﷺ: «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك». وكذلك في جانب التكاليف: فإن العبادات أمانة كالطهارة للصلاة، وكالصيام والزكاة والنذور والأيمان، وما لا يطلع عليه إلا الله. إنها كلها أمانة ائتمن الله العبد عليها.

ومن هذا المنطلق تكون هذه الآية قد وضعت قاعدة في الأمة تكون منطلقاً للحكم ممن تولاه من هذه الأمة حكماً عادلاً ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾. لأن الحكم أخص من عموم الأمانة، والحكم بين الناس فيه العموم وفيه الخصوص، فمن العموم: كل من حكم بين اثنين في قليل أو كثير سواء تحاكما إليه أو كان هو مسؤولاً عنهما. فالمدرس حاكم بين طلابه، والوالد حاكم بين أولاده، والقاسم حاكم بين من يقسم لهم، والزوج صاحب الزوجات حاكم بين زوجاته، وكل هؤلاء مطالبون بالحكم العادل، وأهم ما يكون هنا الحاكم بين الناس في الخصومات، لأنها محل المشاحة والخصومة وفض النزاع، ولا بد أن يكون على مبدأ العدالة، سواء في القول كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢]. أو في الفعل كما تقدم، وفي سورة الشورى ينص القرآن على إعلانه ﷺ بهذا الأمر في قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ ثم يصرح بموجب هذا العدل حتى مع غير المسلمين ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ﴾ [الشورى: ١٥]. أي إن العدل واجب طاعةً لله، ويختم سبحانه هذا السياق الحكيم الملزم لكل من دخل بين اثنين في حكم أو كان مؤتمناً على أمانة أياً كانت ولو استأمنه على كلمة سر فيما بينه وبينه يختمها سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾. أي سميعاً لأقوالكم فيما تصدرون من أحكام، وما تتكلمون به بين الخصوم، بصيراً لما تستأمنون عليه، بصيراً لما تؤدون من أمانات، ونعم الموعظة وعظكم إياها في أداء الأمانات والعدل في الأحكام. وإن الآية لتنذر وتبشر، لأن الكل تحت رعاية السميع البصير ـ سبحانه ـ وهي نعم الموعظة للجانب الأول جانب الأمناء والحكام.

١١ ـ جانب المحكومين في منهج الحكم في الإسلام:

بعد بيان جانب كل مؤتمن في أداء الأمانات إلى أهلها، وكل حاكم يحكم بين الناس في أمر صريح من الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ

﴿أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ وكان في هذا الأمر إعذار وإنذار في التعقيب على السياق بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾. والتزم به رسول الله ﷺ والمسلمون كما في قوله تعالى عنه ﷺ: ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾. فاستوفى جانب الحكام، جاء في مقابله بجانب المحكومين فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ۝٥٩﴾ [النساء: ٥٩]. في هذا النداء للمؤمنين إلزام بطاعة الله وطاعة الرسول معاً، مع أن طاعة الله تستوجب طاعة الرسول، وطاعة الرسول هي طاعة لله، فهما طاعتان متلازمتان، ولكن إعادة الفعل ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ بالنسبة للرسول ﷺ تفيد أن للرسول ﷺ حق الطاعة استقلالاً، ولو لم يأت النص في القرآن مما يعطي السُّنَّة حق التشريع عن الله تعالى، كما جاء في تحريم الجمع بين المرأة وعمتها، أو هي وخالتها، وتحريم الحمر الأهلية... إلخ.

كما أن عدم إعادة فعل الطاعة بالنسبة لأولي الأمر وعطفهم على طاعة الرسول، يدل على أن طاعتهم إنما هي تابعة لطاعة رسول الله ﷺ، ولذا جاء النص «لا طاعة لمخلوق في معصية الله». ومعلوم أن الطاعة ابتداء هي لله تعالى، وهي عامة في كل الأوامر والنواهي، إلا أن الطاعة هنا إلزام بما تقدم الأمر به الموجه للحكام في أداء الأمانة، والحكم بين الناس بالعدل، وذلك لتتم المعادلة بين الطرفين، طرف الحاكمين فيما ألزمهم به، وهنا طرف المحكومين فيما يلتزمون به من طاعة للأوامر وامتثال للأحكام.

وبتمام المعادلة بين الطرفين تستقر العدالة، ويلتئم النظام لهذا العالم في ظل منهج العدالة في الحكم الإسلامي، وكما وعظ الحكام في إلزامهم بالعدل بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ﴾ وأنذر وأعذر بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾. كذلك هنا، ربط وجوب الطاعة والتزام المحكومين بقبول حكم الله ورسوله وأولي الأمر، ربط ذلك بأهم قوام المخاطبين المؤمنين وهو في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾. أي إنَّ من لوازم الإيمان بالله قبول الحكم والطاعة لما شرع الله، ومن لوازم الإيمان باليوم الآخر وهو يوم الجزاء والحساب، وفيه الثواب وفيه العقاب، فهو أيضاً أسلوب ترغيب وترهيب،

ترغيب في الطاعة والامتثال، وترهيب من الرفض والعصيان، وفي غضون ذلك وضع المنهج أيضاً للرجوع في حالات النزاع، ولا يكون نزاع قط إلا بين المحكومين وأولي الأمر، أما بينهم وبين الله، أو بين رسوله ﷺ فلا، لأن الله تعالى هو المشرع لعباده، ورسوله هو المبلغ عنه، فبقي ما بين أولي الأمر وبين المحكومين، لأن الكل عباد الله، ومعلوم أن ولاة الأمر ليسوا معصومين، وأن المحكومين ليسوا ملزمين بطاعة عمياء، وأحداث الحياة تتجدد، ومن حق ولاة الأمور أن يرسلوا للناس ما به يتم النظام وتتحقق المصالح، ورغبات الناس ليست موحدة، فلا بد من وقوع تنازع فيما لا نص فيه عن الله ولا عن رسوله، وهذا الرد يضمن دوام الترابط والتآلف والتعاون بين طبقات المجتمع، لأن مردهم جميعاً إلى الله وإلى رسوله، وقد التزموا بالإيمان بالله واليوم الآخر، ومعلوم أن الرد لله إنما هو لكتابه الذي أنزله من عنده، كما أن الرد لرسوله ﷺ هو الرد إلى سنته، وبالتالي فالرد إلى الله ورسوله رد للعلماء الذين يعلمون مدلول الكتاب والسنة، وليس للعوام في ذلك دخل، وقد ورد بعد عدة آيات من هذه السورة قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ...﴾ [النساء: ٨٣]. والاستنباط هو استخراج الخفي من المسائل، ولا يكون إلا للراسخين في العلم، كما جاء عن ابن عباس وعن الشافعي ﷺ القول: أنا من الراسخين في العلم، فسلوني عما شئتم من كتاب الله. وعلى هذا يكون مرد الأمة حال التنازع إنما هو إلى العلماء لبيان حكم ما وقع التنازع فيه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهكذا تظل الأمة مستنيرة بنور العلم، مستظلة بظل العدل، مستهدية مستقيمة.

وهذا المنهج أيضاً في فض النزاع عام فيما بين جميع أفراد الأمة، بمعنى أن كل أمر من أمور الناس إن تراضيا عليه ووافق حكم الله فبها ونعمت، وإن اختلفا وتنازعا فيما بينهما فمرد النزاع بينهما إنما هو لله ورسوله ماثلاً في علماء الأمة، فيكون الحق محفوظاً، والعدل مضموناً، والكل مرده إلى الله. ومن هنا يعلم أن كل من رد حكم النزاع إلى غير هذا المنهج، كان متناقضاً مع إعلانه الإيمان بالله واليوم الآخر على ما سيأتي في نهاية هذا المنهج عند

قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]. وهنا يأتي التذييل على منهج الحكم بالعدل والسمع والطاعة، ثم الرد إلى الله ورسوله في حالات النزاع بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾. وذلك إشارة إلى الرد إلى الله والرسول، و(خير) خبر للمبتدأ وكلمة أفعل تفضيل، حذفت الهمزة تخفيفاً، أي خير من النزاع، وخير من الرد لا إلى الله ورسوله من عادات وتقاليد ورؤساء، ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ الأول المرجع أي مآلاً ومرجعاً في الدنيا بالصلاح، وفي الآخرة بالفلاح.

١٢ ـ بيان حال المعرضين عن حكم الله ورسوله:

بعد رسم منهج التحاكم في الإسلام في الأمر برد الأمانات إلى أهلها والحكم بين الناس بالعدل، ومقابل ذلك إلزام المحكومين بالطاعة لله وبالطاعة لرسوله ﷺ وأولي الأمر، ورد مواضع النزاع إلى الله ورسوله، وأن ذلك مرتبط بالإيمان بالله واليوم الآخر، وأنه خير وأحسن تأويلاً، أي منهج متكامل مع ضماناته لخير النتائج عاجلاً وآجلاً. فلم يبق لمؤمن ولا مؤمنة عذر في الإعراض عن هذا المنهج الإسلامي، ولا موجب للتوقف عن قبوله.

جاء السياق مبيناً حال من أعرض ورفض هذا التحاكم في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦٠ ـ ٦١]. وفي هذا السياق لموقف المنافقين، يعجب الله رسوله ﷺ وكل من يسمع هذا السياق من حال أولئك الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل الله من كتب وتشريع. والتعبير في حقهم بالزعم مشعر بعدم صدق إيمانهم، ومحل التعجب ما بين زعمهم الإيمان وبين إرادتهم أن يتحاكموا إلى الطاغوت، والطاغوت كل من جاوز حده، وهو هنا كل من نصّب نفسه حكماً على غير شرع الله، لأنه تجاوز حده بوضع نفسه في هذا الموضع، لأن هذا التحاكم مرفوض، وقد أمروا أن يكفروا بكل تحاكم لا إلى الله ورسوله، لأن الحكم حق من حقوق الله ﴿إِنِ

﴿ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ [الأنعام: ٥٧]. وقد بين تعالى أن من وراء هذا التحاكم للطاغوت هي غواية الشيطان، وذلك في قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾. وذلك أن التحاكم إلى الطاغوت يستلزم الإعراض عن التحاكم إلى الله ورسوله، وهذا معناه الكفر والجحود، وهذا أعظم ما يسعى إليه الشيطان، ثم من ناحية أخرى فإن الحكم بمنهج الله خير وأحسن تأويلاً، لعلمه سبحانه بمصالح العباد في الحياة الدنيا وفي يوم المعاد، والتحاكم لغير منهج الله ليس مضمون المصالح، ولا مستلزماً فض النزاع، وليس التحاكم إلى طاغوت بأولى من طاغوت غيره، ما دام المرجع إلى الرأي وللهوى فيه دخل، وقد وقع مصداق ذلك في قصة تحاكم اليهودي والمنافق، إذ رغب اليهودي التحاكم إلى رسول الله ﷺ لعلمه أنه يحكم بالعدل، ولا يميل مع الخصم، ولا يقبل الرشوة، بينما رغب المنافق التحاكم إلى كعب بن الأشرف اليهودي. وأخيراً تحاكما إلى رسول الله ﷺ، فحكم إلى اليهودي، فقال المنافق: نذهب إلى أبي بكر، فذهبا إليه، فحكم أيضاً لليهودي، فقال المنافق: نذهب إلى عمر. فذهبا إلى عمر فوجداه عند باب بيته، فلما قص المنافق دعواه قال اليهودي: يا عمر لا تتعب نفسك، فقد جئنا إلى أبي القاسم فحكم لي، ثم جئنا أبا بكر فحكم لي. فسأل عمر المدعي: أحقاً ما يقول هذا؟ فقال المنافق: نعم، وأريد أن تقضي أنت بيننا. فقال عمر: انتظرا حتى آتيكما، ودخل بيته وجاء بسيفه فضرب عنق المنافق وقال: هذا حكم من لم يرض بحكم رسول الله ﷺ. ثم جاء أهل القتيل إلى رسول الله ﷺ يشتكون عمر، فسأله رسول الله ﷺ وأخبره، ونزل جبريل عليه السلام في الحال وقال: إنه الفاروق فرق بين الحق والباطل. فقال ﷺ لعمر: أنت الفاروق. وفي سبب النزول أقوال أخرى كلها تدور حول إرادة التحاكم إلى غير ما أنزل الله، والآية عامة في كل زمان ومكان، وكل قضية صغيرة كانت أو كبيرة بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ﴾ أي المتحاكمين ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي في كتابه، وهو المشار إليه في قوله تعالى من سورة الحديد: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ أي عموم الناس في كل زمان ومكان ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ﴾ [الحديد: ٢٥]. ومنه حماية وتنفيذ

أحكام الكتاب وعدالة الميزان. وكذلك تعالوا إلى الرسول ﷺ ومن بعده إلى سنته ﷺ لدى العلماء والقضاة بالكتاب والسنة ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾. أي يصدون عن الرسول ﷺ صدوداً شديداً، وهذا فيما إذا كان الحق عليهم، أما إذا كان الحق لهم أسرعوا إلى رسول الله ﷺ، وقد كشف الله حقيقة هؤلاء في سورة النور في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النور: ٤٦ ـ ٥٠]. وبهذا كشف الله ما يخفون في نفوسهم: مرض القلوب، وارتياب في إيمانهم، وظن السوء بالله أن يحيف عليهم.

وبيَّن سبحانه هنا في سورة النور صريح موقف المؤمنين، وحسن سيرتهم، وقوة وصدق التزامهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾. ثم بيَّن سبحانه نتيجة هذه الطاعة في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: ٥١ ـ ٥٢]. نِعْمَ موقف المؤمنين من منهج التحاكم في الإسلام، ونِعْمَ نتائج هذا الموقف.

ولما وقع من المنافقين ما وقع من الإعراض، وأوقعهم الشيطان في شر أعمالهم، وقتل عمر رضي الله عنه ذلك الرجل، جاؤوا إلى رسول الله ﷺ يعتذرون، ولكنهم في نفس اعتذارهم يضيفون ذنباً إلى ذنبهم الأول، فقال تعالى عنهم: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وهي قتل ذلك المعرض عن حكم الله، وكذلك كشف ما كان يخفيه من النفاق، ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾. أي في زعمهم أن لدى أبي بكر سعة من الوقت يستمع، وقد يحاول الصلح توفيقاً بين الخصمين. هكذا زعموا، ولكن الله بيَّن الحقيقة بقوله عنهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي كما أعرضوا سابقاً عن المجيء إليك ﴿وَعِظْهُمْ﴾ أي لجهلهم ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٢ ـ ٦٣]. ومن

الإعراض عنهم عدم قبول اعتذارهم، وعدم الاطمئنان لهم، لأن في قلوبهم مرضاً، وموعظتهم في أنفسهم، أي لإصلاحها، والقول البليغ الزاجر عن فعلهم هذا، وهذا من مكارم الأخلاق والدعوة إلى الله بالحكمة الحسنة.

١٣ ـ تدارك خطأ المنافقين في إعراضهم عن حكم الله:

بعد عرض المنهج الإسلامي في رد الأمانات والحكم بين الناس بالعدل، وإيجاب السمع والطاعة لله وللرسول وأولي الأمر، ثم إعراض المنافقين وما لحق بهم بسبب ذلك، وما أصابهم بما قدمت أيديهم، وكشف حالهم. جاء بيان تدارك المنافقين لخطئهم في إعراضهم السابق، وإفساح المجال أمامهم للعودة إلى الله وإلى رسوله، وإصلاح ذات نفوسهم، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء: ٦٤]. لا شك أن إرسال الرسل، الغرضُ منه قبل كل شيءٍ التزام طاعتهم ممن أُرسلوا إليهم، وإن منطوق ﴿أَرْسَلْنَا﴾ ليتضمن رسالة مع من أرسل، وهي مهمة هذا الرسول، وقد أخذ الفخر الرازي من هذه الآية أن كل من أرسله الله لقومه، أن معه رسالة جديدة، وليس هو تابعاً لمن قبله على ما كان عليه غيره، وإن كان جميع الرسل على نهج واحد مجمل كما جاء في الحديث «نحن معاشر الأنبياء أبناء علات، ديننا واحد». وأسلوب الحصر هنا (ما: وإلا) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا﴾ مع قوله: ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ يفيد لزوم الطاعة. وقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ يدل على أن تلك الطاعة كائنة بإذنه سبحانه، أي بتوفيقه لمن أراد له الخير والسعادة، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨ ـ ٢٩]. وكقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣]. فالسعيد من وفقه الله لطاعة رسله وامتثال أوامره. وهذا تعريض بأولئك المنافقين بأنهم حرموا هداية الله، وحرموا السعادة، وأن إعراضهم ذلك لم يكن خارجاً عن إذن وقدرة وعلم الله سبحانه، وإنما هو حرمان لهم، من أن يكون سبحانه قد أذن لهم في طاعة رسول الله ﷺ، وهذا والله يعتبر تبكيتاً وازدراء لهؤلاء

العصاة، وإعلاماً لهم أنهم ما كان من عصيان أتوه تمرداً على الله، ولا تحدياً لقدرته، إنما هو حرمان لهم من أن يكون سبحانه قد أذن لهم في طاعة رسل الله، وحقاً وصدقاً: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ثم بعد هذا البيان والتقريع والتعرض بهم، قال ـ سبحانه ـ مبيناً طريق إصلاح خطئهم: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ أي هؤلاء الذين أعرضوا سابقاً عن حكم الله، وأرادوا التحاكم إلى الطاغوت، وقد أمروا أن يكفروا به. وقد وقع من المصائب جزاءً لما قدمت أيديهم، وأُعْلِموا أن واجب الرسل عليهم التزام طاعتهم، ولو أنهم بعد هذا كله رجعوا لأنفسهم، وعلموا خطأهم، فاعترفوا به. والاعتراف بالخطأ والإحساس به هو بداية إصلاحه فعلاً، ومن إعلان اعترافهم بخطئهم وإحساسهم بأنهم ظلموا أنفسهم ولم يظلموا خصمهم، ومن هذا المنطلق جاؤوك تائبين، واستغفروا الله، طلبوا المغفرة لما سبق منهم، واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً.

وهنا نجد في إصلاح خطئهم عدة نقاط:

أولاً: شعورهم بأنهم ظلموا أنفسهم.

ثانياً: مجيئهم إلى الرسول.

ثالثاً: استغفارهم الله تعالى.

رابعاً: استغفار الرسول لهم.

وبهذه الأربعة: يجدون الله تواباً رحيماً.

والسؤال يأتي في هذه الأربعة: أما شعورهم بأنهم قد ظلموا أنفسهم، فهذا في شعورهم ووجدانهم. كذلك في استغفارهم الله عما كان منهم، فهذا فيما بينهم وبين الله. فما الحاجة إلى مجيئهم لرسول الله؟ وما الحاجة إلى استغفار الرسول لهم؟ والله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]. ويجيب العلماء عن ذلك بما مضمونه:

١ ـ أما شعورهم بأنهم كانوا قد ظلموا أنفسهم، فهذا الشعور خفي ولا بد من إظهار ما يدل عليه، فكان مجيئهم لرسول الله هو الدليل على ذلك.

وأما استغفار الرسول لهم، فإن أصل ظلمهم أنفسهم هذا كان ذاك الإعراض منهم، والتولي عن حكم الله ورسوله، وهذا تقصير منهم في حق

رسول الله ﷺ، وتفريط في حق الرسالة التي تستوجب عليهم الطاعة، فكان مجيئهم إليه ﷺ مقابل إعراضهم، وكان استغفاره إليهم وعن طلبهم تجديد عهد، واعتراف والتزام بحق رسالته ﷺ، ولهذا رتب الله تعالى أن يجدوا الله تواباً رحيماً على تلك النقاط الأربع، ويؤيد هذا أنه سبحانه قال: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾. ولم يقل: واستغفرت لهم. ليظهر معنى الرسالة في هذا الموقف. وهنا يذكر بعض المفسرين قضية الأعرابي كما يقول ابن كثير: نقل الشيخ أبو منصور الصباغ في كتابه الشامل الحكاية المشهورة عن العتبي قال: كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ...﴾. وقد جئتك مستغفراً لذنبي، مستشفعاً بك إلى ربي، ثم أنشأ يقول:

يا خيرَ من دُفِنَتْ في القاع أَعْظُمُهُ ... فطابَ من طيبهِنَّ القاعُ والأكَمُ
نفسي الفداءُ لقبرٍ أنتَ ساكِنُهُ ... فيهِ العفافُ وفيهِ الجودُ والكرمُ

ثم انصرف الأعرابي، فغلبتني عيني فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: يا عتبي ألحق الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له. أوردها ابن كثير وسكت عنها، ولم يبين سندها ولا مصدرها، ولم يذكرها الفخر الرازي ولم يشر إليها. وقد أوردناها للتنبيه على أن هذه القصة لم يثبت لها سند في كتب السنة، وقال كثير من العلماء عنها: إنها لا أصل لها. ثم إني أتساءل عن بيتيه تلكما حيث يقول: يا خير من دفنت في القاع أعظمه. إن أعظمه ﷺ لم تدفن، لأن الأرض محرم عليها أن تأكل لحم الأنبياء، ثم إنه ﷺ حي في قبره، كما هو معلوم في محله، وحال البرزخ أمر غيب علينا، ثم إن الذين قالوا لا أصل لها قالوا: كم من إنسان قبل هذا الأعرابي سمعوا هذه الآية ولا يسلم أحد من أن يظلم نفسه، فلم ينقل ولا عن واحد قط أن فعل هذا الفعل مع أن الغرض من أهم أغراض كل مسلم وهو أن يغفر الله له، ولهذا يرجح العلماء أن هذا المجيء وهذا الاستغفار، كان في حال حياته ﷺ، وهذا لا شك فيه ولا ريب أن استغفاره ودعاءه مستجاب، وقد جاء بيان هذا الموضوع في عموم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن

﴿رَبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ...﴾ [آل عمران: ١٣٥ ـ ١٣٦].

١٤ ـ الرضا بحكم رسول الله ﷺ دليلُ صدق الإيمان:

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]. والضمائر المتكررة في: يؤمنوا، ويحكموا، ولا يجدوا، ويسلموا. كلها عائدة على من كان معهم الحديث أولاً في السياق السابق من بداية قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا أَن يَكْفُرُوا بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: ٦٠]. ويستمر السياق إلى هذا النص ﴿فَلَا وَرَبِّكَ ...﴾ الآية.

وكما يقال: إن العبرة بعموم اللفظ، فهي بحكمها تنطبق على كل من سلك مسلك أولئك ممن جاء بعدهم، وبتأمل مستهل هذا النص نجد الْقَسَمَ الصريح، و(لا) تأتي لتأكيد القسم كما قال الشاعر:

فلا وأبيك ابنة العامريـ ـي لا يدعي القوم أني أفر

وبالنظر إلى صيغة القسم نجد: ﴿وَرَبِّكَ﴾. فالمقسم به الرب سبحانه مضافاً إلى كاف المخاطب وهو الرسول ﷺ، ومعلوم أن رب النبي محمد ورب إبراهيم وعيسى وموسى ورب العالمين هو رب محمد ﷺ، والسؤال يأتي: لماذا أقسم سبحانه برب محمد ﷺ دون غيره؟ وما هي المناسبة لهذا التخصيص؟ والجواب من جهتين:

الأولى: تكريم للنبي ﷺ، وبيان الله تعالى لنبيه أن إعراضهم عن التحاكم إليه لم ينقص من قدره ﷺ عند ربه، ويؤخذ هذا الوجه من قوله ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «إني لأعلم ما إذا كنت راضية عني أم لا. فقالت: وكيف ذلك؟ قال: إذا كنت راضية قلت: ورب محمد، وإذا كنت غير راضية قلت: ورب إبراهيم. قالت: نعم، ولكن والله لا أهجر إلا اسمك».

والجهة الثانية: تهجين عقلية وآراء أولئك المعرضين عن تحكيم رسول الله ﷺ، وذلك في إظهار علو منزلته ﷺ عند ربه، حيث اختاره ليقسم

بالرب سبحانه مضافاً إليه هو، بمثابة أن يقول لهم: لقد أعرضتم عن صفوة خلقي وأكرم مخلوقاتي. وقد نوهنا على إلزامهم بالمجيء إليه يستغفرون الله، ويستغفر لهم الرسول، لأن في إعراضهم عن التحاكم إلى الله وإلى الرسول فيه غضاً من حق رسالته ﷺ، فكان مجيئهم إليه واستفساره لهم دليل على أسفهم والعودة لإقرارهم بالإيمان برسالته، ولو فعلوا ذلك لوجدوا الله تواباً رحيماً، فكذلك هنا يقسم سبحانه برب محمد ﷺ تعظيماً لشأنه، وتنبيهاً لمن غض من مكانة رسالته وأحقيته في الحكم بينهم.

ثم يأتي المقسم عليه، وفي نفس الموضوع الأول وهو الحكم والتحاكم، فيقول تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ ينفي عنهم الإيمان بالكلية، ويخرجهم من عداد المؤمنين، حتى يحملهم إلى أقصى غاية وهي التحاكم إليك، وجاء ﴿يُحَكِّمُوكَ﴾ بدلاً من (يتحاكموا إليك)، لأن التحاكم قد يكون نتيجة الرضا وقد لا يكون. أما التحكيم فهو إعلان الرضا والقبول مقدماً، بمجرد ما ارتضوه محكماً، قد أعلنوا رضاهم بما يحكم به، وقوله: ﴿فِيمَا شَجَرَ﴾ هذه المادة تدل على التداخل والتشابك، مثل تشابك أغصان الأشجار المتجاورة، والشجار: الخصام فيما يتداخل من حقوق. وما شجر بينهم: ما تشابك وتداخل بينهم من حقوق بأي سبب ما. ولما كان التحكيم قد يشتبه بالتحاكم إليه، رفع الاشتباه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾. أي أن هذا التحكيم المشروط في صحة إيمانهم، هو الذي يقع عن رغبة وطواعية، وإذعاناً وسعةً ورحابة صدر، إيماناً منهم بأنه الحق والعدل والصلاح، وعين الإحسان الذي يرجونه، فيأخذون الحكم بنفس راضية، وقلب مطمئن دون ما حرج في أنفسهم مما قضيت، فلا يكون قبولهم رهبة، ولا رضاهم خشية مما وقع لصاحبهم على يد عمر الفاروق، ولا مجانبة لقضية المجتمع الإسلامي، لا لشيء من ذلك كله، ولكن رضا بما قضيت إيماناً بأنه الحق والعدل المؤيد من الله، وما لا يقر صاحبه على باطل.

ثم قال تعالى مبيناً نهاية الرضا بقوله: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾. ولم يقل: ويستسلموا استسلاماً. لأن التسليم لا يكون إلا عن قناعة وصدق الرغبة

وإيمان القلب، أما الاستسلام فقد يكون عن عجز وضعف، كاستسلام الأسير وكل مغلوب على أمره، أما التسليم فهو القناعة بصدق القضية وعدالتها. فيكون قبوله للحكم ظاهراً وباطناً. وجاء الحديث: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به». أي إن ميوله ورغباته وما تهواه نفسه يجري تبعاً لما جاء به ﷺ. ونظير هذه الآية الكريمة ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ ما جاء في سورة الأحزاب قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦]. وقد نزلت هذه الآية الكريمة في قضية من أخطر القضايا اجتماعياً وشخصياً، إذ هي في أمر تزويج زينب بنت جحش وهي قرشية ابنة عمة رسول الله ﷺ على زيد بن حارثة الذي كان ﷺ تبناه قبل البعثة لبعد ما بينهما من فارق النسب، ما تعارفوا عليه من الشرف والمكانة، فكان المجتمع لا يستسيغ مثل هذا الزواج، لعدم التكافؤ في مقاييسهم، ومن الناحية الشخصية: إن الأمر يخص زينب في نفسها وفي ذاتها، فكيف تزوج على شخص هي ليست راضية به؟! ومن هنا عظمت المسألة، وأحرجت زينب ما بين خطبة رسول الله ﷺ إياها لمن كان متبنيه، وبين شخصيتها في نفسها، ومقابلة مجتمعها. ولكن ليقضي الله ما كان في قدر الله حول الابن بالتبني، رفضت زينب ورفض أخوها، حتى نزلت الآية، فوافقت ووافق أخوها وتم حكم الله. فهنا ينفي سبحانه أن يكون للمؤمن وللمؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أنَّ لأحدهم الخيرة من أمره، بل يكون التسليم المطلق، وهكذا قال العلماء في كل حكم عن الله وعن رسول الله ﷺ، فإنه يوجب الرضا والتسليم، وإلا ففي ادعاء الإيمان نظر.

١٥ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء: ٦٦ ـ ٦٨]:

يقول الفخر الرازي: لا زال الكلام موصولاً مع المنافقين الذين كان

الحديث معهم، يعني أن الضمائر الموجودة هنا في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ﴾، و﴿ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾، ﴿أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم﴾. إلى آخره، راجع إلى ما يرجع إليه الضمائر في السياق الأول في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾. وقال غيره: هي عامة في جميع المكلفين. ولكن آخر الآية يشهد للقول الأول، ولا مانع أن يندرج تحتها غيرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي فرضنا وأوجبنا عليهم في التكاليف ﴿أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم﴾ ابتلاءً وامتحاناً، كما كتب أولاً على بني إسرائيل قتلهم أنفسهم في التوبة من عبادة العجل في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة: ٥٤]. وكذلك الخروج من ديارهم، كما كان في بداية الإسلام إلى أن فتحت مكة كما جاء في حق المهاجرين: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر: ٨]. وكان ذلك مرتبطاً بموالاة المؤمنين كما قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ . . .﴾ [الأنفال: ٧٢]. وهذا الموقف مع المنافقين بمثابة اللوم والتعنيف والتقريع لهم، كأنه يقول لهم: لستم كاليهود الذين تسرون الولاء لهم، إذ قتلوا أنفسهم في توبتهم من اتخاذهم العجل، ولستم كذلك كالمؤمنين الذين تعلنون موافقتهم، إذ خرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً بصدق وإيمان. فأنتم لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء، منافقون في الأفعال، كما أنتم منافقون في الأقوال، إلا القليل منهم.

ثم يبين سبحانه نتيجة ما لو فعلوا ما يوعظون به سواء من بداية السياق وهو مجيئهم إلى الرسول ﷺ تائبين من الإعراض عن تحكيمه، ويستغفرون الله ويستغفر لهم الرسول، أو من هذه المواقف فيما لو كان كتب عليهم أن اقتلوا أنفسكم، أو اخرجوا من دياركم، أي بالعزم والإذعان لكل ما يوجبه الله

عليهم، وقد جاء عن عدد من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، عمر وأبي بكر وبلال أن اليهود تحدثت في إعراض بعض المنافقين عن تحكيم رسول الله، فقالوا: لقد كتب الله علينا أن نقتل أنفسنا فامتثلنا، وأنتم جاءكم رسول وآمنتم به واتبعتموه وتعرضون عنه؟ فكل كان يقول: والله لو أن رسول الله ﷺ أمرني بقتل نفسي لفعلت، والحمد لله لم يأمرنا. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «إن الإيمان في قلوب الرجال أمثال الجبال». وهذا أشبه ما جاء في قوله تعالى في مثل الكلمة الطيبة كلمة التوحيد لا إله إلا الله أصلها في قلوب المؤمنين كشجرة طيبة، أصلها ثابت، وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين. فهؤلاء لو أنهم فعلوا ما يؤمرون به، ويوعظون على فعله من امتثال الأوامر، واجتناب النواهي عموماً، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من هذا التردد وهذا الروغان والحياد، خيرٌ لهم في دينهم، وخيرٌ لهم في دنياهم، وخيرٌ لهم في أخراهم ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ على الدين الحق، وعلى الهدى المستقيم. وهنا يلحظ من قوله تعالى: ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ بعد ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ يلحظ تزعزع موقف المنافقين، وقيامهم على أرض زلقة لا تثبت عليها أقدامهم، أو على أرض مهتزة لا يستطيعون الثبات فوقها. وهذا يعطينا الدليل على أن قوة المؤمن تكمن في قوة عقيدته وقوه ثباته في إيمانه، وإذا حصل الثبات في العقيدة حصل تبعاً له الثبات في السلوك، والاستقامة في المنهج، والمضي قدماً إلى الغاية المنشودة دون ما تردد أو توقف، وحصل على كل خير.

وبعد أن بين سبحانه نتيجة ما لو عملوا ما يوعظون به في الدنيا من شدة التثبيت، أعقبه بأمرين عظيمين:

الأول: ﴿وَإِذًا﴾ أي إذ فعلوا ذلك إيماناً وتثبيتاً ﴿لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. أي على فعلهم ما يوعظون به، وعلى ثبات عقيدتهم.

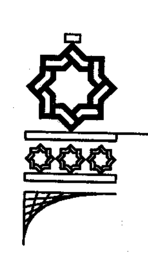
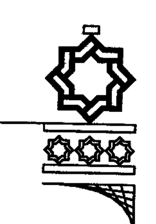
الثاني: وهو جماع الأمر وعنصر هذا الموضوع، قوله تعالى: ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ ولكأنهم دون فعل ما يوعظون به ليسوا على صراط مستقيم.

ولو اعتبرنا مفهوم هذا العطاء مع مفهوم ما قبله، لوجدنا المنافقين غير ثابتين على قاعدة سليمة، وغير مهديين إلى صراط مستقيم، فهم في زعازع

وقلاقل، وفي قلق واضطراب يدورون في حلقة مفرغة، لا يعلمون لهم مبدأ من غاية، كما نجد هذه النتيجة بمثابة الضوء الكاشف لحقيقة ما عليه المؤمن المتثبت من أمره، السالك جادة الصواب، والمهدي الصراط المستقيم.

وعوداً على ما بدأنا به من أول الحديث على آيات الهداية: من أنه أعظم ما يكرم الله به العبد هو هذا العطاء، عطاء الهداية إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين. ونفس الموقف جاء ختام هذا السياق قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء: ٦٩ ـ ٧٠]. ولكأنه إعلان على رؤوس الأشهاد بعد طول العرض لأخطر قضايا المجتمع، وهي قضية التحاكم والطاعة لولاة الأمور، طاعة لله ولرسوله، سواء من جانب الحكام في أداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بين الناس بالعدل، وأيضاً من جانب المحكومين في طاعة الله وطاعة رسوله وأولي الأمر، ثم النقاش الحاد مع المنافقين في توليهم وإعراضهم، وبيان طريقة إصلاحهم لخطئهم، ثم التوبيخ والتقريع فيما لو كلفوا بقتل أنفسهم، أو خروجهم من ديارهم، فضلاً عن أمر أبسط بكثير من ذلك، وهو التحكيم فيما شجر بينهم من حقوق لا تتعداهم، وتشاحت فيها نفوسهم، ثم بيان نتيجة ما لو فعلوا ما يوعظون به، وأخيراً الحكم العام الشامل في حق كل من يطيع الله والرسول: من حسن الإنعام عليه، وحسن الرفقة الذين يسلك معهم طريق الفوز والفلاح والهداية والرشاد.

* * *

آيات الهداية والاستقامة في سورة المائدة

١ ـ من آيات الهداية والاستقامة مع أهل الكتاب:

قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦)﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦]. كان الكلام ذلك مع المنافقين في منهج التحكيم، ومؤاخذتهم على ما صدر منهم من الإعراض عن حكم الله ورسوله، وتوجيههم لتدارك خطئهم، وهنا الحديث مع أهل الكتاب عن هدى الإسلام وبيانه، ونور الوحي وسبل السلام والرضوان والهداية إلى الصراط المستقيم. والآية الأخرى بعد هذه بثلاث آيات فقط قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩)﴾ [المائدة: ١٩]. فالآيتان تتفقان على مجيء الرسول ﷺ لأهل الكتاب ليبين لهم، والأولى تتعلق بموضوع البيان، وهو كثير مما كانوا يخفون من الكتاب، والثانية تتعلق بزمن مجيئه بالنسبة إليهم على فترة، أي بعد مدة فترت فيها الأذهان والهمة بالأعمال، وليكون لهم بشيراً ونذيراً، بشيراً لمن أطاعه، ونذيراً لمن عصاه. وإقامة للحجة عليهم أن يقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير.

وموضوع الهداية والاستقامة إنما هو في الآية الأولى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾. وينقسم هذا النص إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: مجيء الرسول ﷺ يبين لهم كثيراً مما كانوا يخفون من الكتاب عندهم.

القسم الثاني: مجيء نور من الله وكتاب مبين إليهم.

القسم الثالث: النتائج المترتبة على ما جاءهم، وهي: يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، وإخراجهم من الظلمات إلى النور بإذنه سبحانه، وهدايتهم إلى صراط مستقيم.

ولما كان القسم الثالث هو الغاية والمطلب لكل عاقل، وإليه يسعى كل مسلم، وجب أن نتبين موجباته ومسبباته فيما اشتمل عليه القسمان الأول والثاني:

فالأول: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾. مع أنه ﷺ قد جاء لهم ولغيرهم، للعرب والعجم، أهل الكتاب وأهل الأوثان، للناس كافة. إلا أن تخصيصهم بالخطاب ﴿قَدْ جَآءَكُمْ﴾ يستلفت أنظارهم لشدة الاهتمام بهم من جهة، والتأكيد عليهم من جهة أخرى، لأنهم أهل الكتاب، وكانوا يعرفونه وينتظرون مجيئه وقد جاءهم. وقوله: ﴿رَسُولُنَا﴾ إضافة تشريف وتكريم، وإفهام لهم بعلو منزلته ﷺ بالنسبة لمن أرسله. ومعلوم أن الرسول وصف مشتق من الرسالة، فلا يكون رسولاً إلا برسالة، وبمقتضى تلك الرسالة يبين لهم كثيراً مما كانوا يخفون من الكتاب، لأن رسالته ورسالة من جاءهم قبله مرجعها واحد، فيكون بيانه لهم إنما هو بلاغ عن الله، وهذا يكفي في إثبات صحة رسالته، وموجب لتصديقه واتباعه.

وقوله: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ﴾ له دلالتان:

الأولى: أنهم قد تجرؤوا وأخفوا الكثير.

والدلالة الثانية: أنه يبين البعض من هذا الذي يخفون.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: أي الذي نُسبوا إليه، وبه صاروا أهل كتاب. أي أنهم لم يحفظوا الأصل الذي نُسبوا إليه، بل أخفوا كثيراً منه، وتلك من أكبر فضائحهم، وأشد نقيصة في حقهم. وهنا السؤال: ماذا يخفون؟ أو ما الذي

بيّنه ﷺ مما كانوا يخفون من خصوص الكتاب الذي عندهم، وشرفوا على غيرهم بانتسابهم إليه؟ هنا يذكر المفسرون أمثلة لا على سبيل الحصر، ولكن للبيان والإيضاح، من ذلك ما أخفوه على العرب من صفات الرسول ﷺ حين سألهم العرب عن أمر النبي ﷺ وما هم عليه، فقالوا لهم: بل أنتم في الوقت الذي كانوا يقولون للأوس والخزرج: قد أظَلَّ زمان آخر نبي يبعث من الحرم، ويهاجر إلى المدينة فنتبعه ونقاتلكم معه. وهم أيضاً ما سكنوا المدينة إلا في انتظاره وترقب مجيئه، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]. وقد نص سبحانه على أنهم يجدونه ﷺ مكتوباً عندهم في التوراة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. فكل من اليهود والنصارى يجدونه مكتوباً عندهم في كتابهم، وقد أخفوا ذلك، وأيضاً أوضح من ذلك ما جاء مسمى باسمه في قول عيسى عليه السلام لهم: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]. ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]. ومما أخفوه أيضاً صفته مع صفة أصحابه المثبتة في كل من التوراة والإنجيل في قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي كتاب اليهود ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ أي كتاب النصارى ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩].

لطيفة: ومن لطائف الإعجاز القرآني في هذين المثلين: أن خص اليهود بمثال الشدة على الكفار رحماء بينهم، وأنك تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، في الوقت الذي خص النصارى بمثال الزرع النامي الملتف الذي يعجب الزراع. إذ في الأول: مثل الاجتهاد في جهاد الكفار والتراحم بينهم واجتهادهم في عبادة الله. وفي الثاني: عمل زراعة واستثمار والتفاف وتآزر.

كلاهما في موضعه إعجاز لأن اليهود: طغوا في الماديات، وأقفروا في الروحانيات، حتى إنهم احتالوا على ما حرم الله فأكلوه. فبيَّن لهم في صفات أصحاب محمد ﷺ المثل الأعلى في العبادة وابتغاء فضل الله ورضوانه.

أما النصارى: فكانوا على عكس اليهود، فرطوا في الماديات حتى ضاعت حقوقهم، وأفرطوا في الرهبانية، فبين لهم في صفات محمد ﷺ والذين معه في الزرع والإنماء والتعاون والتآزر. رغم ما أخفوه، ولم يصرحوا به، فقد بينه ﷺ وسيأتي زيادة بيان لما أخفوه من الكتاب إن شاء الله.

٢ ـ تتمة بيان قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾:

تقدم أن مما كانوا يخفون من الكتاب الذي عندهم من التوراة والإنجيل معاً صفات النبي ﷺ وصفات أصحابه معه، وأن مما أخفوه من التشريعات تشريع الرجم على الزاني المحصن. قال أبو حيان: يروى عن محمد بن كعب القرظي: أول ما نزل من هذه السورة ـ يعني سورة المائدة ـ هاتان الآيتان، ثم نزل سائر السورة بعرفة في حجة الوداع، وساق ما وقع في رواية عكرمة رحمه الله قال: أتى اليهود الرسول ﷺ يسألونه عن الرجم، فاجتمعوا في بيت، فقال: «أيُّكم أعلم»؟ فأشاروا إلى ابن صوريا، فقال: «أنت أعلمهم؟» قال: سل عما شئت. قال: «أنت أعلمهم؟» قال: إنهم يقولون ذلك. قال: فناشدتك الله الذي أنزل التوراة على موسى والذي رفع الطور، فناشده بالمواثيق التي أخذت عليه حتى أخذه أفكل ـ يعني الرعدة ـ فقال: إن نساءنا نساء حسان، فكثر فينا القتل، فاختصرنا فجلدنا مئة مئة، وحلقنا الرؤوس، وخالفنا بين الرؤوس على الدبرات، أحسبه قال: الإبل. قال: فأنزل الله ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾. (٣/ ٤٤٧).

وروى القرطبي في سورة النساء آية ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ الآية. قال عندها: روى أبو داود عن جابر بن عبد الله قال: جاءت اليهود برجل وامرأة منهم زنيا، فقال النبي ﷺ «ائتوني بأعلم رجلين منكم». فأتوه بابني صوريا، فنشدهما «كيف تجدان أمر هذين في التوراة»؟ قالا: نجد في التوراة إذا شهد أربعة أنهم رأوا ذكره في فرجها مثل الميل في المكحلة رُجما.

قال: «فما يمنعكما أن ترجماهما»؟ قالا: ذهب سلطاننا فكرهنا القتل. فدعا رسول الله ﷺ بالشهود فشهدوا فرجمهما. وقيل: الشهادة في الزنا من أربعة لأنها تقع على شخصين فلكل منهما اثنان. وفي صحيح البخاري رحمه الله (ج١٢ صفحة ١٢٨ باب الرجم في البلاط) وذكر من رواية ابن عمر رضي الله عنهما قال: أُتي رسول الله ﷺ بيهودي ويهودية قد أحدثا جميعاً، فقال لهم: ما تجدون في كتابكم؟ قالوا: إن أحبارنا أحدثوا تحميم الوجه والتجبية. قال عبد الله بن سلام: ادعهم يا رسول الله بالتوراة، فأُتي بها، فوضع أحدهما يده على آية الرجم وجعل يقرأ ما قبلها وما بعدها. فقال له ابن سلام: ارفع يدك فإذا آية الرجم تحت يده، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما.

ومهما يكن من تلك الروايات فإنها متفقة على أنهم يخفون حكم الرجم لذهاب سلطانهم وكثرة القتل فيهم، فعطلوا حداً من حدود الله ليتكاثروا. ولعلنا ننبه هنا على أن اليهود يسعون لكثرة العدد ولو من طريق حرام، بينما المسلمون في بعض البلاد يسعون لتقليل العدد ولو من الطريق المشروع. على كلٍّ لقد أخفوا حكم الرجم على شعبهم، واكتفوا بما أحدث رهبانهم.

ومما أخفى اليهود وبيَّنه الله تعالى على لسان رسوله ﷺ ما كان قد وقع على البعض من أسلافهم من المسخ قردة وخنازير، وهو ما قصه الله تعالى في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [البقرة: ٦٥ ـ ٦٦]. واعتداؤهم في السبت هو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأعراف: ١٦٣]. وكان ذلك منهم أن الله قد أخذ عليهم الميثاق في قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾ [النساء: ١٥٤]. فامتحنهم الله في الحِيتان. ولكنهم احتالوا على صيد الحيتان التي امتحنهم الله فيها، إذ كانت يوم السبت الممنوعين عن الصيد فيه تأتيهم الحيتان شُرَّعاً، وأيام غير السبت لا يرونها، فذهبوا فاحتالوا فألقوا شباكهم يوم الجمعة حتى إذا جاءت الحيتان شرعاً يوم

السبت علقت في الشباك، وتركوها إلى يوم الأحد فأخذوها وقالوا: لم نصطدها يوم السبت، فعاقبهم الله على ذلك أن جعل منهم قردة وخنازير، وكان ذلك كما قال تعالى عنهم: ﴿نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾. فكان اليهود يخفون ذلك على الناس لما فيه من خزي عليهم.

وهنا لطيفة: وهي لئن كان اليهود امتحنوا في الصيد صيد الحيتان يوم السبت فرسبوا وحشروا ومسخوا قردة وخنازير، وكذلك امتحن الله أصحاب طالوت لما فصل بالجنود قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ . . .﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وكان سبب امتحان اليهود بالحيتان تأتيهم شرعاً يوم السبت خاصة: هو أنهم كانوا لا يعملون يوم السبت، ولم يقاتلوا حتى عدواً تحريماً للعمل يوم السبت، فامتحنهم الله بمجيء الحيتان يوم سبتهم، فلم يصبروا وسارعوا إلى الاحتيال على ما حرم الله عليهم أخذاً لهم بما سنُّوه لأنفسهم.

أما سبب ابتلاء وامتحان أصحاب طالوت: فإن هذا يرجع إلى حقيقة معرفة السمع والطاعة وثقة القائد بجنوده، لأن تنصيب طالوت ملكاً عليهم، لم يكن باختيارهم، ولكنهم لما قالوا: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ﴾. إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة: ٢٤٦ ـ ٢٤٧]. فهنا يمتحنهم طالوت قبل أن يلقى بهم عدواً، وقد خسروا ورسبوا في هذا الامتحان كما رسبوا في امتحان الصيد بشربهم منه إلا القليل منهم، بينما هذه الأمة المحمدية قد امتحنت في الصيد في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ﴾ وبعدها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ﴾ [المائدة: ٩٤ ـ ٩٥]. فلما خرجوا لعمرة الحديبية كان الصيد يخالطهم، وتناله أيديهم ورماحهم، ولكن لم تمتد يد واحد منهم لصيد قط، فكانت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، وكان اليهود يخفون حادثة الصيد

في السبت لِما لحقهم من جرائها من عقوبة، حتى بينها رسول الله ﷺ، وبالتالي فإذا كان ﷺ يبين لهم ما كانوا يخفونه، فهذا أكبر دليل على صدقه وصحة رسالته صلوات الله وسلامه عليه.

٣ ـ مع أهل الكتاب في آيات الهداية:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦].

وقد تقدم الكلام على بعض من هذا الكثير الذي كانوا يخفونه من الكتاب: كصفته ﷺ وصفة الذين معه في التوراة والإنجيل، وقصة سبتهم ومسخهم قردة وخنازير، وتحريفهم للكلم عن مواضعه، إلى غير ذلك مما قصه الله تعالى في القرآن الكريم.

وهنا جاء قوله تعالى بعد موضوع الرسول: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾. وللعلماء في مدلول هذا النور أقوال متلازمة، وليست متباينة، فبعضهم يقول: النور هو الرسول ﷺ، والبعض يقول: النور هو الكتاب. إلا أن العطف يقتضي المغايرة، والكتاب معطوف على النور. وبتأمل ذلك نجد أن كلاً من الرسول والكتاب موصوف بأنه يبين لهم، كما قال تعالى: ﴿رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ﴾. وفي الكتاب قال: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾. مبين: مفعل بمعنى فاعل. ومعلوم أن الرسول يستلزم المجيء برسالة ممن أرسله، والكتاب يستلزم إنزاله على من يبلغه ويبين بمقتضاه، فالرسول والكتاب متلازمان. بقي النور، فهو دائرٌ بين (الرسول) وبين (الكتاب) فهل المراد بالنور هو الرسول ﷺ بما ينير لهم الطريق ويهديهم سبل السلام؟ أم هو الكتاب بما اشتمل عليه يستنيرون به أيضاً سبل السلام؟ أم هما معاً: الرسول والكتاب؟

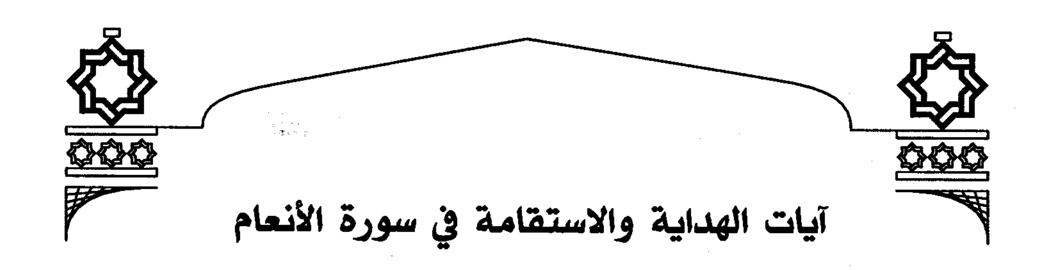
لقد جاء وصف كل من الرسول والكتاب بأنه نور. فمن وصف الرسول ﷺ بأنه منير: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾

﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦]. ومن صفات الكتاب بالنور وهو كثير: قوله تعالى في خصوص القرآن الكريم: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى: ٥٢]. فهنا وحي، والوحي روح، وهنا كتاب وإيمان، ثم قال: ﴿جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ والنور يهدي به سبحانه من يشاء، فهل هو الكتاب أم هو الإيمان؟ ثم قال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. فأثبت الهداية للنور، وأثبتها أيضاً للرسول ﷺ. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ إلى قوله تعالى في آخر الآية: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ يعني النبي ﷺ ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ وقطعاً إنه الوحي الذي أنزل عليه من ربه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٨﴾ [التغابن: ٨]. وكذلك صريح قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا﴾ [النساء: ١٧٤].

وكل هذه النصوص في خصوص القرآن الكريم، ثم جاء عموم الكتب الأخرى كذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١]. وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤]. والتوراة هي الكتاب الذي جاء به موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وفي حق الإنجيل قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦]. وفي هذا العرض وبعدها مباشرة جاء قوله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ﴾. أي ولا يخفون منه شيئاً إذ أن مما فيه إيجاب اتباع محمد ﷺ، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾. ثم عقب على التوراة والإنجيل معاً بقوله تعالى بعدها مباشرة: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي من التوراة والإنجيل والكتب والصحف لعموم نَصّ من الكتاب، أي جنس الكتاب ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٧ ـ ٤٨].

فهذه نصوص كلها تصف الكتب المنزلة بأنها نور، بل جاء وصفها بما وصف به النبي ﷺ بأنها منيرة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ [آل عمران: ١٨٣ ـ ١٨٤]. فذكر سبحانه الكتاب بأنه منير كما ذكر سبحانه الرسول ﷺ بأنه سراج منير. وقد وصف الله تعالى نور الإيمان في قلب المؤمن بقوله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: ٣٥]. وهذا المثل أجمع المسلمون على أنه مضروب لنور الإيمان في قلب المؤمن الذي أنار الله به بصيرته، وهداه بهذا النور، وهدى إليه من شاء من عباده. وهذا يفسر مجموع ما وصف به الرسول ﷺ والوحي المنزل والكتب السماوية كلها أنها بمجموعها نور جاء إلى العباد من ربهم يهدي به الله من اتبع رضوانه، أي على ضوء هذا النور الذي ارتضاه في قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣]. يهديهم سبل السلام والنجاة في الدنيا والآخرة، ويخرجهم من ظلمات الجهالة والغي والضلال، إلى نور الإيمان والمعرفة والهداية، وقد بين الله تعالى أثر هذا النور في قلب المؤمن على سلوكه ومنهجه في الحياة بقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر: ٢٢]. فالمحروم من هذا النور في حيرة وضلال، بل هم أموات وإن كانوا يأكلون ويشربون، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ ...﴾ [الأنعام: ١٢٢]. وهذا النور هو نور الوحي يستنير به في عباداته لله، وفي معاملاته مع الناس، ويتأسى به في وحدته، ويستهدي به في حيرته إلى أن يلقى الله على هدى ورشاد.

* * *



آيات الهداية والاستقامة في سورة الأنعام

١ ـ آيات الهداية في سورة الأنعام: أسبابها وموانعها:

وردت الهداية في سورة الأنعام في ست مواطن، وهي في مجموعها تشكل منهجاً كاملاً للهداية بسلبياته وإيجابياته، مبينة أسبابها وموانعها ونتائج كل منهما، ثم جاء النص الأخير فيها جامعاً شاملاً مما أطلق عليه وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه، ولارتباط تلك المواطن بعضها ببعض سنقسمها إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أسباب وموانع الهداية.

القسم الثاني: نتائج كل منهما، السبب والمانع.

القسم الثالث: المنهج الأخير الشامل والجامع.

ونصوص القسم الأول: الأول منها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي . . .﴾ [الأنعام: ٥٦ ـ ٥٧]. ففي هذا النص: يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يعلن للمشركين أنه نُهي، ومعلوم أن الذي ينهاه: هو الله سبحانه، والمنهي عنه: أن يعبد الذين يدعون من دون الله، (الذي) من صيغ العموم يشمل كل معبود من دون الله حجراً أو شجراً أو كوكباً، أياً كان جنسه، ونوع عبادتهم إياه، ثم بين مصدر عبادتهم ودوافعها بقوله: ﴿قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ وهذا يساوي قوله: إن عبادتكم لمن تعبدون من دون الله محض هوى واختلاق، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣]. وكقوله تعالى في سورة النجم، ما يجمع الجانبين: جانب اتباع الهوى، وجانب اتباع الهدى قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ

﴿٢٠﴾ أي وهي كبريات أصنامهم، ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي اختلقتموها، ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي في عبادتكم إياها، ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩ - ٢٣]. فاتباع الهوى ينشأ عنه الضلال، والضلال ضد الهداية، وإذا جاء بعد آية الأنعام قوله: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ [الأنعام: ٥٧]. أي على هدايةٍ ونورٍ واستقامة. فتبين من هذا النص موانع الهداية، وهو اتباع الهوى.

يأتي النص الثاني مبيناً أسباب الهداية، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنعام: ٧١ - ٧٢]. فيه أيضاً يأمر الله تعالى رسوله أن يقول للمشركين وعلى سبيل الاستنكار والاستبعاد مع بيان بطلان ما هم عليه: ﴿أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾؟ وهذه قضية عقلية، ومسلك اجتماعي لدى جميع العقلاء، وهو أن الرغبة والرهبة سر حياة الإنسان، وسَعْي كل عاقل لأحد هذين الأمرين: إما لتحصيل مرغوب فيه، أو لدفع مرهوب منه، أي لجلب نفع أو لدفع ضر، ولذا قيل:

إذا أنت لم تنفع فضر فإنما ... يراد الفتى كيما يضر وينفع

أي يضر عدوه، وينفع صديقه. والمعبود من حيث هو إنما لجلب نفع، أو لدفع ضر، وآلهتهم لا تملك نفعاً تجلبه فتُعبد رغبةً في نفعها، ولا تملك ضراً فتُعبد اتقاءً لضرها. وبهذا رد الله تعالى على المشركين عبادتهم لغير الله، وعاب عليهم سفههم، لأنهم يعبدون ما لا يملك نفعاً فيرجى، ولا يقدر على ضر فيخشى، وذلك في نصوص كثيرة: منها في سورة المائدة: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: ٧٦ - ٧٧]. فعاب عليهم عبادتهم من لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، وبين أن سبب ذلك

غلوهم في دين الله، واتباع أهواء قوم قد ضلوا من قبل، وقال مستهزئاً بهم في سورة الأنبياء في قصة إبراهيم عليه السلام لما كسر أصنامهم في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾. وفي نهاية المحاجة يأتي قوله: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٥٨ ـ ٦٧]. بل جاء أبعد من هذا وهو توبيخهم على عبادتهم من لا يملك لنفسه نفعاً ولا يدفع عن نفسه ضراً. كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا . . .﴾ [الرعد: ١٦]. وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان: ٣]. وقد أوضح الله قضية عجز آلهتهم، وسفاهة عقولهم في عبادتها وضلالهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: ٧٣]. إلى غير ذلك من الآيات في هذا المعنى، ولذا جاء بعدها في سورة الأنعام: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾، أي لا يتأتى هذا أبداً، ثم ضرب مثلاً لذلك بقوله: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ فأجابها فأصبح ﴿فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ لا يعلم عن نفسه أين هو في تيه الضلال، ودوّامة الحيرة، بينما ﴿لَهُ أَصْحَابٌ﴾ ناصحون ﴿يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ الحق الذي لا ضلال معه، ثم بين السبب القوي لتحصيل الهداية وضمانها بقوله: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي ونستسلم وننقاد، ونجيب داعي الله إلى هداه، لا أن تستهوينا الشياطين، والاستسلام لرب العالمين هو الأمر الفطري، لأنه الرب المالك المتصرف، كما قال حكيم الجاهلية: وأسلمت وجهي لمن أسلمت له الأرض تحمل صخراً ثقالاً، وأسلمت وجهي لمن أسلمت له المزن تحمل عذباً زلالاً. وجاء ضمان هذا الاستسلام وموجب هذه الهداية بقوله:

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي لنهيها عن الفحشاء والمنكر، ولصلتها العبد بالله، ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ [الأنعام: ٧١ ـ ٧٢]. وهذه جامعة شاملة، لأن حقيقة تقوى الله إنما هي امتثال أوامره واجتناب نواهيه، وهذا عن الهداية والاستقامة.

٢ ـ نتيجة الهداية:

جاء النص في سورة الأنعام قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾. وجاء بعدها ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ . . .﴾ [الأنعام: ٨٢ ـ ٨٣]. فما تلك الحجة المشار إليها؟ الواقع أن تلك الحجة بمثابة المقدمة لنتائج عظيمة جاءت بعد تلك المقدمة، ولكي نلم بالموضوع بصورته المتكاملة نرجع إلى أول الحوار بين إبراهيم عليه السلام مع أبيه مع قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾. ثم ساق المشاهد التالية ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا . . .﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآيــــة. ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام: ٧٤ ـ ٨١]. تلك المقدمة، وتلك هي الحجة التي أعطاها إبراهيم على قومه كما سيأتي، وقد نلاحظ مقارنة بين معبود الفريقين، وتهديد كل منهما الآخر بمعبود، فالمشركون يحذرون إبراهيم من آلهتهم، وإبراهيم يرد عليهم بقضية عقلية، إن كان للمعبود سلطة ترهب فهلم نحتكم إلى العقل، أنتم تعبدون وتشركون مع الله ما لم ينزل الله به عليكم سلطاناً، أي آلهتكم لا سلطان عليها، فهي إذاً باطلة، فكيف أخافها؟ وأنتم لماذا لا تخافون معبودي وهو الله الذي فطر السموات والأرض؟ فأي الفريقين أحق بالأمن: أنا وأنا أعبد الله وحده، أم أنتم وأنتم تشركون بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً؟ والجواب ملحوظ قطعاً، ولكن وبعد هذا جاء بالجواب مصرحاً به، لأن قومه أهل غباوة

نوعاً ما، كما في قضية النمرود لما قال: أنا أحيي وأميت. فصرح هنا بالمفهوم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهو إبراهيم، لأنه كان أُمَّة. ويتدرج معه كل مؤمن، ولم يلبسوا إيمانهم بظلم، والظلم هنا بمعنى الشرك، كما قال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. وكون الشرك ظلماً لأن حقيقة الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، والمشرك بالله الذي يعبد غير الله ويرغب ويرهب قد وضع العبادة في غير محلها، لأن عبادة المخلوق لا ينبغي أن تجعل إلا للخالق وهو الله تعالى، وكذلك الرغبة والرهبة لا تكون إلا لمن يملك النفع، ويقدر على دفع الضر، وهذا ليس لغير الله، وقد تقدم توبيخ من يعبد ما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً. ولذا نبه هنا سبحانه على حقيقة موقف إبراهيم عليه السلام ومن يتبعه من المؤمنين الذين آمنوا إيماناً خالصاً، ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟﴾ أي يخلطوا ويداخلوا إيمانهم بظلم، إن هؤلاء هم الذين لهم الأمن، وإنهم لا يخافون معبودات المشركين، لأنها معبودات بظلم وبغير حق وليس لديها مؤهلات العبادة. ومع هذا الأمن فهم مهتدون، أي بهذا الإيمان الخالص وأنهم في رعاية ربهم وحفظه وعلى شرعه ودينه ونهجه.

ثم بين تعالى أن هذه المقدمات هي تلك الحجة التي آتاها الله إبراهيم عليه السلام على قومه في بيان صحة العقيدة في الإيمان بالله، وبيان بطلان ما عليه أولئك المشركون، وبين تعالى علو منزلة إبراهيم عليه السلام بحسن عقيدته فقال: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣]. وقوله تعالى هنا: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ بيان لفضل الإيمان على أهله في رفع درجاتهم، وعلو مكانهم، كما قال تعالى عن نبيه إدريس عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم: ٥٦ ـ ٥٧]. وهنا لفتة لكل مؤمن، وبالأخص لكل طالب علم وداعية إلى الله، ليعلم مكانته عند ربه وإلى أي مدى يمكن رفع درجاته عند الله. وكنت أسمع من والدنا الشيخ الأمين رحمه الله يقول: من أعطاه الله القرآن وعلمه، ثم ظن أن أحداً أغنى منه فهو غلطان.

ثم بين تعالى إنعامه على إبراهيم عليه السلام بالذرية الصالحة المباركة، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ﴾ تلك الذرية التي جعل الله فيها النبوة والكتاب، كما في سورة الحديد: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا

وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦]. وفي الصافات: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ [الصافات: ١٠٩ - ١١٣]. وهنا تتابع ذكر تلك الذرية وذكر أنبياء الله ورسله الذين كانوا أئمة الهدى، فقال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾. ذكر هنا ستة عشر نبياً ثم عطف عليهم قوله: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾. ثم بين تعالى أن هذا المنهج الذي عليه هؤلاء الرسل وآباؤهم وذرياتهم وإخوانهم أنه هو هدى الله فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ . . .﴾ الآية. وبين أنهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾. وفي الآية بعدها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٨٤ - ٩٠]. وهذا نهاية الرحلة النبوية من لدن نوحٍ وإبراهيم وذريته، إلى خاتم المرسلين ﷺ، فبهداهم اقتده. ليعلم المؤمن مَن سبقه إلى هدى الله، ومن معه إلى يوم الدين، من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

بينما جاءت نتائج من تَنَكَّبَ طريق الهداية، واستهوته الشياطين في الأرض حيران، في قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأنعام: ١٤٠]. وبين سبحانه مصدر هذا السفه في قتل أولادهم في قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]. وقوله من سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

وهنا لفتة لكل من حاول منع الأولاد أو تحديدهم، أن أقل ما يلحقه هو الخسران والسفه، وأنه مرتكب خطأً كبيراً، وأن فرق ما بين الهدى والضلال في هذا السياق كفرق ما بين مَن جعل الله في ذريتهما النبوة والكتاب ممن هداهم الله واجتباهم، وبين من قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم.

٣ ـ الهداية والاستقامة فيما يحل من بهيمة الأنعام:

جاء قوله تعالى من سورة الأنعام ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأنعام: ١٢٦]. واسم الإشارة هنا يشير إلى مذكور قبله، وقيل فيه: إنه القرآن كله على حد قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾. وقيل: كل أمر ونَهْي. وقيل: ما تقدم في هذه السورة وما قبله، وكلها أقوال من حيث المعنى صحيحة، ولكن اسم الإشارة كما هو معلوم في علم الوضع موضوع بالمعنى العام لموضوع له خاص يتعين بالإشارة إليه. وبالتأمل فيما سبق نجد أقرب ما يمكن اعتباره هو قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: ١١٥]. وما جاء بعدها من بيان وتشريع ما يحل وما يحرم من بهيمة الأنعام في قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ ...﴾. وبعدها: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ...﴾ الآية. وبعدها: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ الآية. إلى قوله: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ﴾ [الأنعام: ١١٥ ـ ١٢٦]. فيكون الصراط المستقيم هو تلك الكلمات والآيات التي فصلت لقوم يذكرون.

والبحث هنا في معنى: ﴿تَمَّتْ﴾، و﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾. والتفصيل ﴿لِلْـَٔايَٰتِ﴾ و﴿صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾. فمعنى ﴿تَمَّتْ﴾: لزمت، ووجبت، وثبتت. بدليل ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾. وتمامها: هو كمالها. ونظيره قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ...﴾ [المائدة: ٣]. وكلمة ربك قُرِئت بالإفراد كما تقدم. وقُرِئت بالجمع (كلمات ربك). وقيل: المراد منها القرآن كله. وقيل: ما تقدم من السور قبلها. وقيل: الأوامر والنواهي في التكليف والوعد والوعيد. وكلها أقوال من حيث المعنى صحيحة، ولكن الآية التي قبلها مباشرة يمكن أن تكون مبينة لذلك، وهي قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ

﴿مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝١١٤ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا . . .﴾ [الأنعام: ١١٤ ـ ١١٥]. فتكون كلمة ربك ضمن الكتاب المفصل.

وبقي بيان قوله: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ وهذا هو المنهج الذي نريد الحديث عنه في موضوع ما يحل من بهيمة الأنعام وما يحرم، والسبب والحكمة.

أما التفصيل فسنوجزه هنا بإذن الله بقدر ما يتسع له هذا الكتاب.

أولاً: أصل المشروعية ثم ما يطرأ عليه: وأصل التشريع الإباحة والحِلِّيَّة في قوله تعالى في أول سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾ [المائدة: ١]. فنصت الآية على أنه أحلت لنا بهيمة الأنعام، واستثنى منها ما يتلى علينا، وحُرِّم الصيد على المُحْرِم، وأن الله تعالى يفعل ما يريد، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٣]. وذلك أنه من تصرف المالك في ملكه، وتشريع الخالق لخلقه.

وفي الآية الثالثة بيَّن سبحانه ما يطرأ على بهيمة الأنعام فيوجب تحريمها فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ﴾. وفي آخر هذه الآية أيأس الكفار من دين الإسلام، أي أنهم لن يستطيعوا إيقاف انتشاره وتمامه، وأظهر تمام نعمته على المسلمين في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾. وبعدها مباشرة وفي الآية الرابعة من السورة قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ . . .﴾ [المائدة: ٣ ـ ٤]. وإذا كان أحل لهم الطيبات وحرم عليهم الميتة وما لحق بها، فما حرم عليهم خبيثاً، إذ أن قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ﴾ يفيد أن العكس بالعكس، أي أن ما حرم يكون خبيثاً، وهذه هي القاعدة الشرعية، فكل خبيث محرم، وكل طيب حلال، وكما جاء في وصف النبي ﷺ عند أهل الكتاب ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وقد ينشأ هنا سؤال: ما مقياس الطيب والخبيث؟ فيقال:

أولاً: كل ما نص الشرع على أنه حلال فهو طيب، وكل ما نص الشرع على أنه حرام فهو خبيث. وما تجدد بعد نصوص الشرع، قال الفقهاء: ينظر أولاً إلى أثره على طاعمه، فإن كان مضراً فهو خبيث، وبالتالي فهو حرام، وإن كان نافعاً فهو طيب حلال. وإن كنا لا نعلم ضره من نفعه، فإن استطابته نفوس أواسط الناس كان مباحاً، وإن استقذرته كان خبيثاً. وهكذا.

والسؤال الآخر: ما هو خبث الميتة حتى حرمت؟ والجواب هو: ما يعلمه العقلاء والأطباء من أن الحيوان يجري في عروقه الدم، ونسبة الدم في كل حيوان تساوي واحداً من أحد عشر، أي أقل من العشر بقليل، ومعلوم أن الدم يغذي الجسم بما يتناوله من طعام، ثم هو يعود من الجسم محملاً بفضلات الغذاء في الدم، وهي ما يحمله من ثاني أوكسيد الكربون وهو غاز سام، فيمر الدم بالقلب فيدفعه القلب إلى الرئة، فتخرجه وتستبدله بالأكسجين الذي هو ضروري للحياة سواء الحيوان أو النبات أو كل كائن حي. فإذا ما ذكي الحيوان سفح دمه كله، وخلص الجسم من عنصر ثاني أكسيد الكربون السام، وبقي لحم الحيوان طيباً. أما إذا مات حتف أنفه، أو خنق، أو تردَّى من شاهق فدقت عنقه، أو انتشر مخه، أو انقطع نخاعه، أو شق بطنه، أو نطحته دابة أكبر منه، أو افترسه السبع ولم يدرك وفيه حياة ويذكى، مات كل ذلك محجوزاً دمه فيه بما في ذلك الدم من عوامل المضرة، فكان تركه وتحريمه مصلحة للإنسان، وكان سبب تحريمه ظاهراً محسوساً.

أما القسم الثاني من هذه المحرمات فهو المنصوص عليه ضمن هذا المنهج كما أسلفنا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١]. وما في قوله تعالى من هذه السورة: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥]. وهذان القسمان: ما لم يذكر اسم الله عليه، وما أهل لغير الله به خبيثان لفسقهما، وبيان ذلك أن الحيوان خلقه الله ورزقه وسخره لعبده، فكان واجب العبد عند ذبحه أن يسمي الله شكراً لله على تسخيره إليه، وإباحته له، وكذلك لا يذبحه قرباناً لغير الله، لأنه عين الفسق والظلم كما في الحديث القدسي: «أنا والعالم في

نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي». ففاعل ذلك ضال، ولذا ختم هذا السياق بقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأنعام: ١٢٥ ـ ١٢٧].

٤ ـ المنهج الجامع لجوانب الهداية والاستقامة:

قال تعالى: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣]. تشتمل هذه الآيات الثلاث على ما اشتملت عليه الكتب السماوية من التشريع في الأصول والفروع، وأجمع علماء التفسير على أنهن محكمات، وعني بهن العلماء كل عناية، لأهمية ما اشتملت عليه، وحاجة الأمة إليه.

وقد جاء عند أبي حيان عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: هذه الآيات هي المحكمات التي ذكرها الله في سورة آل عمران، أجمعت عليها شرائع الخلق، ولم تنسخ قط في ملة. ويعني بالآيات المحكمات في آل عمران قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ﴾ [آل عمران: ٧]. فالمحكمات هن أم الكتاب، أي مرجع كل متشابهة إليهن لاشتمالهن على أصول التشريع. وهذه الآيات الثلاث من هذا القسم المحكم.

وقال أبو حيان: وقد قيل: إنها العشر كلمات المنزلة على موسى عليه السلام.

ونقل أبو حيان أيضاً عن كعب الأحبار قوله: هذه الآيات مفتتح التوراة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ إلى آخر الآية.

وروى ابن كثير بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ هذه الآيات ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ إلى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. وروى أيضاً بسنده إلى عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم يبايعني على ثلاث؟ ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ - حتى فرغ من الآيات -، فمن وفى فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله به في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخر إلى الآخرة فأمره إلى الله إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه». قال: رواه الحاكم في مستدركه وقال: صحيح الإسناد.

وبهذا تظهر مدى أهمية هذه الآيات وما يستوجب العناية بها، وبيان ما اشتملت عليه من أصول في العقيدة، وفروع في التشريع، وقد بدأت بالنداء ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟﴾ وختمت بأن هذا المنادى إليه هو صراط الله المستقيم. وأنها وصية الله لخلقه. ويسترعي الانتباه هنا بداية هذه الآيات الثلاث ونهايتها، وحيث جاء ابتداؤها بهذا النداء ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾. بينما جاء تحريم العديد من المحرمات ولم يتقدمها هذا النداء: كقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣]. وقوله تعالى أيضاً: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾. وجاء في نهايتها ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾. وهذا مما يشعر بأمرين:

الأول: ما يمليه قوله تعالى: ﴿أَتْلُ﴾ والتلاوة تكون للوحي، والوحي صدق، فلكأن هناك تحريماً صادراً من غير طريق الوحي، وهو ما حرموه من عند أنفسهم.

والأمر الثاني: أن هناك سبلاً مغايرة لسبيل الله سبحانه، يحذرهم الله تعالى عنها.

ولكي تدرك هذه المفاهيم ترجع إلى ما قبل تلك الآيات من بداية قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام: ١٣٦].

فهذا تحريم صادر عنهم بزعمهم، وافتراء على الله مرتين: الأولى: أن جعلوا مما ذرأ سبحانه نصيباً للأصنام ونصيباً لله، فما كان لأصنامهم فهو محرم على الله، وما كان لله فهو حلال لأصنامهم، ألا ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، وجاء في الحديث القدسي «أنا والملأ في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي، خيري إلى العباد نازل، وشرهم إليَّ صاعد».

ومما جاء من تعدد السبل الباطلة التي تبعد عن سبيله سبحانه، ما أغرتهم عليه الشياطين وزينته لهم، فاتبعوهم فيه بدون تعقل ولا تبصر، وجاء التحذير منها في نهاية تلك الآيات الثلاث ما جاء في السياق نفسه وبعد إساءتهم فيما حرموه سابقاً من الحرث والأنعام، تلك القضية التي لم يسبقهم إليها على ما نعلم أية أمة من الأمم السابقة، حيث تدل على عمه في البصيرة، وسعة في الرأي، وهو ما جاء عطفاً على ما تقدم في صورة التشبيه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ ...﴾ [الأنعام: ١٣٧]. فالكاف هنا للتشبيه، والإشارة راجعة إلى أقرب مذكور وهو ما زعموه من القسمة الواقعة بين رب العزة سبحانه، فكذلك الضلال ضلالهم فيما اتبعوا الشيطان فيه من تزيينه لهم قتل أولادهم: كالموؤودة وغيرها مما قدمنا بيانه في السابق من قتلهم خشية الفاقة من إملاق، أو خشية إملاق.

وفي الآية بعدها سجل الله عليهم مزية عظيمة في قوله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ أي ممنوعة ﴿لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ كالسائبة والحام ﴿وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي عند ذبحها، بل يسمون آلهتهم، أو لا يحجون عليها بعد تسييبها ﴿افْتِرَاءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ومن ضلالاتهم ما جاء بعدها عنهم: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِن يَكُن

مَّيْتَةً﴾ أي من تلك الأجنة أو من السائبة والحام ﴿فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ أي رجالهم ونساؤهم ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ وختم هذا السياق بهذا الحكم: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأنعام: ١٣٨ ـ ١٤٠]. أي باتباع تلك السبل المغايرة لسبيله ـ سبحانه ـ على ما سيأتي إن شاء الله.

٥ ـ من آيات الهداية والاستقامة في سورة الأنعام:

تقدم التنبيه على مدلول قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخر الآيات الثلاث ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾. مما يشعر بسبق تحريم وتحليل من المشركين بغير هدى، وسبق تعدد سبل مضلة لمن سلكها، وأوردنا ما جاء في الأسلوب المتقدم من مزاعم المشركين من جعلهم من الحرث والأنعام نصيباً لله بزعمهم، ونصيباً لشركائهم، وحكمهم السيئ فيه، وما حجروا من أنعام وحرث لا يطعمها إلا من شاؤوا أو ما يذكرون اسم الله عليه افتراء على الله وضلالاً في غير سبيل الهداية. بعد هذا كله جاء السياق بتفنيد تلك المزاعم الباطلة، ورد تلك الافتراءات الكاذبة، مبيناً أن كلاً من الحرث والأنعام هي نعم من المولى لعباده، وتيسير لأرزاقهم، وترشيد لسفههم في قتل أولادهم سفهاً بغير علم، فقال تعالى:

أولاً: عن الحرث ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الأنعام: ١٤١].

وعن بهيمة الأنعام قال: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾. والحمولة: ما

حمل عليه لكبر جسمه، ووفرة قوته، والفرش: ما كان دون ذلك ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤٢].

وبتأمل هاتين الآيتين الكريمتين نجد في الأولى وفرة الخير مما تنبت الأرض، وما أنشأ المولى من جنات متعددة، وزروعات متنوعة، وثمار متشابهة تكفي لمعاشهم وتغني فاقتهم، وتسد حاجتهم، وتفيض عنهم مما يخرجون زكاته يوم حصاده. وبدون إسراف، قيل: الإسراف هو التبذير في المصرف والنفقة كي يحافظوا عليها لسد حاجتهم وحاجة أبنائهم، وقيل: الإسراف في الحق الذي يخرجونه فيتوسعون في الصدقة ويضيعون أولادهم. وعلى كل فالآية مشعرة بكثرة الأرزاق والثمار، ثم جاء بالقسم الثاني محل الموضوع وهو بهيمة الأنعام، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾. والحمولة: قيل هي كبار الإبل يحمل عليها المتاع وفي الأسفار، والفرش: القريب من الأرض من الغنم ونحوها. وهذا الأسلوب يدل على التكثير من خلال هذا التنويع، كأنه سبحانه يقول: وأنشأ لكم من الأنعام العديد منها والمتنوع: كباراً وصغاراً، ولكم فيها منافع، وكما في آية النحل ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾ [النحل: ٥ ـ ٧]. فهو يفسر مضمون ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾. ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي كما جعل وأنشأ لكم جنات وزرع، أنشأ لكم من الأنعام تلك الأصناف كلوا من الجميع، والكل من رزق الله لكم، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ وهنا وقفة طويلة، ونظرة عميقة، لكأن الكتاب العزيز يقول لأولئك السفهاء الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير حق: أين عقولكم كبشر؟ وأين تفكيركم كعقلاء؟ تحرمون مما رزقكم الله، فتسيبون السوائب، وتحمون الحوام، وتحرمون بعض ما رزقكم الله، وتقولون: حجر لا يطعمها إلا من نشاء، في الوقت الذي تقتلون أولادكم من إملاق؟! وأي منطق لمن يدعي الفقر إلى حد أن يقتل ولده لقلة ما يطعمه. وهو تحت يده من جميع الأرزاق من الثروتين النباتية من جنات وزرع وثمار متشابه وغير متشابه، والثروة الحيوانية حمولة وفرشاً؟ إنه حقاً ضلال

وسعة واتباع لخطوات الشيطان، وهذه أيضاً ضلالة تتبعون خطوات الشيطان، وهو لكم عدو مبين، وهذه نتائج العداوة العاجلة في أموالكم تحرمون بعضها، وتحرمون أنفسكم منها، وفي أولادكم تقتلونهم خشية إملاق، وأرزاقكم تذهب إلى أصنامكم. ثم يناقشهم مناقشة علمية معقولة منطقية قاطعة في منهج سليم عرف عند الأصوليين بالسبر والتقسيم، أظهر فيها بطلان كل ما ذهبوا إليه في مزاعمهم وافتراءاتهم فيما حرموا من بهيمة الأنعام من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فقال تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأنعام: ١٤٣ ـ ١٤٤].

وهذا العرض يحصر موجبات التحريم: إما في وصية من خالفها بذلك، أو علم علموه. وهذا من جانب النصوص والوحي وما يسمى بطريق النقل، وأما بطريق الاستنباط والعلة، وهذا ما يسمى بطريق العقل. وبدأهم بطريق العقل ومنهجه: أنتم حرمتم البعض من الأنعام، والأنعام منها الذكور والإناث، وأنواعها الغنم والمعز والإبل والبقر، فلو أخذنا من الغنم زوجين ذكراً وأنثى، وكذلك من المعز، فأصبح عندنا ذكران وأنثيان، فما علة التحريم في الأربعة الموجودة؟ أهي الذكورة فيجب تحريم ذكري الغنم والمعز؟ أم العلة الأنوثة فيجب تحريم الأنثيين؟ وأنتم لم تحرموا صنف الذكور فقط، ولا صنف الإناث فقط. أم العلة ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين من الغنم والمعز؟ فيجب تحريم النسل كله ذكوراً وإناثاً، وأنتم لم تحرموا الجميع، فبطل كون العلة ذكورة أو أنوثة أو اشتمال الرحم، نبئوني بعلم عما اعتمدتم عليه في تحريم البعض؟ ثم جاء كذلك بنفس القضية في الإبل والبقر، وأورد زوجين من كل صنف، وأجرى فيها نفس المنهج: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾. والحال أنه لم يصح ولا وصف تلك الأوصاف الثلاثة التي هي الذكورة والأنوثة وما اشتملت عليه الأرحام، إذن

لم يبق إلا الظن والتوهم والافتراء: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وقيل هو عمرو بن لحي، فهو أول من سيب السوائب، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي، وغيَّر ما كانوا عليه من ملة إبراهيم عليه السلام. وبالتالي فللحذر من تغيير شرع الله بتحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله، ووجوب التزام هَدْي كتابه، وسنة نبيه ﷺ.

٦ ـ من منهج الهداية في سورة الأنعام:

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأنعام: ١٤٥].

هذا النص في هذه الآية الكريمة بمثابة التعقيب على ما تقدم من إبطال مزاعم المشركين فيما حرموه من بهيمة الأنعام افتراء على الله، وهو أيضاً تصفية لهذه القضية، وأسلوبها عملي في موضوعه من جهتين:

الأولى: أسلوب الحصر بالنفي وإلا.

والثانية: أحكامها معللة بعلل ذاتية.

وإيضاح ذلك كالآتي: أما أسلوب الحصر فقوله تعالى: ﴿قُل﴾ والخطاب موجه للنبي ﷺ الذي جاء برسالة ربه إلى خلقه، يبلغ وحي الله: ﴿لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ والوحي هو طريق العلم السليم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ﴿مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ أياً كان من البشر، لا ما قلتم أنتم: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾. وهذا تحريم مناسب، لأن الطعام حاجة الجميع، فكان التشريع بالنسبة للجميع، فأتى النص صريحاً بعدم وجود محرم على أحد إلا ما يسمى باسمه وهو القسم المحرم، والمعللة أحكامه، فقال: ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ﴾ يعني المطعوم: ﴿مَيْتَةً﴾ والوصف بالميتة وصف شامل لكل كائن حي فارقته الحياة، ولا يختص بذَكَرٍ دون أنثى، ولا بغنم دون بقر أو إبل. ثم إن الوصف بالميتة وصف ذاتي لذات الميت، وهو وصف مناسب للحكم الذي هو التحريم لخبث الميتة، والقاعدة الشرعية في التشريع العموم والشمول، وفي الأحكام الحكمة، كما قال تعالى

في سورة الأعراف بعد هذه السورة مباشرة في وصف النبي ﷺ لأهل الكتاب ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وفي سورة المائدة قبل هذه السورة قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة: ٤]. ومفهومه يكون ويحرم عليكم الخبائث، ومعلوم أن الميتة مستخبثة طبعاً وعادة، وقد تقدم في السابق بيان موجب خبث الميتة ومضارها.

يلي الميتة في التحريم قوله تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾. والقيد بالمسفوح احتراز من أجزاء الدم التي تبقى داخل العروق لم يدفعها القلب قبل توقفه لمشقة الاحتراز منه، والدم المسفوح جزء من الحيوان، والدم هو من علة تحريم الميتة لاحتباسه فيها، فإذا أخذ منها إلى خارجها كان محرماً، لأنه إذا كان احتباسه داخل الحيوان يكون علة في تحريمه، فلأن يكون هو نفسه محرماً من باب أولى، وتقدم أيضاً إيضاح مضاره، وقد أجمع العلماء بالتغذية أن الجسم لا يمتص الدم، فليس هو غذاء، وأما دخوله في الطب بما يعرف بنقل الدم، فإنه لمهمة أخرى وهي حفظ توازن السوائل في الجسم التي هي ١١/١، وكذلك الإبقاء على دوام حركة القلب في حالات النزيف الحاد.

القسم الثالث: ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾. واتفق الأئمة أن المحرم هو عموم الخنزير وليس لحمه فقط، وإنما جاء التنصيص على اللحم لأنه المطلوب للأكل غالباً، واستدلوا بتعميم التحريم في الخنزير بالوصف المعلل به تحريمه، وهو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾. وهذا وصف أيضاً مناسب لحكم التحريم، إذ الرجس: النجس، فعم كل أجزائه: من لحم، وشحم، وما في الجوف، ولبن، وجميع أجزائه. حتى قال الأئمة الثلاثة مالك والشافعي وأحمد: إن جلده لا يطهر بالدباغ. على تفصيل عندهم، وقال الإمام أبو حنيفة: يطهر جلده بالدبغ لعموم «أيما إهاب دبغ فقد طهر». والمهم هنا أن النص على التحريم في لحم الخنزير لا يخصه دون بقية الأجزاء، لعموم الوصف بأنه رجس. كما قالوا في التعميم في قضية الوضوء من لحوم الإبل الوارد في الحديث: أنتوضأ من لحوم الغنم يا رسول الله؟ قال: «إن شئتم» قالوا: أنتوضأ من لحوم الإبل قال: «نعم». فالنص في لحومها، ولكن قالوا

كذلك من ألبانها وكبودها وشحومها... الخ، على سبيل تعميم العلة في إيجاب الوضوء منه، ولعل النفس تتطلع إلى إجابة عن تساؤلاتها: أن الخنزير حيوان تجري فيه الحياة، فما العلة في كونه رجس؟ ونقول: ينبغي أن يعلم أولاً: أن الله تعالى هو الذي خلقه كما خلق بقية الحيوانات، وهو أعلم به، ثم إنه ـ سبحانه ـ قد أعلمنا في أول سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾ [المائدة: ١]. أي ليس لكم التحكم فيما أُحل أو حُرم. ومعلوم أنه سبحانه لا يحرم إلا لحكمة، ولا يحل إلا لمصلحة، وقد حَرَّمَت السُّنَّة كل ذي ناب من السباع، ومخلب من الطير، وهذا يكفي للإجابة عن تلك التساؤلات، ولكن العلماء رحمهم الله قد اجتهدوا في باب ما يمكن أن يكون سبباً ملموساً من منطلق ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]. وتظهر عظمة الإسلام في حكمة التشريع، قال أبو حيان: إن هذا الحيوان ليست لديه الغيرة على أنثاه، وقد شوهد ممن يكثرون أكل لحمه نزع الغيرة منهم عن نسائهم. ويقرر الأطباء علة صحية أخرى وهي حدوث الدودة الشريطية ذات القرون، وأنها إذا أحست بخطر الدواء تغرس قرونها بجدار المعدة، فتثبت ولا تنزل، وكذلك دود العضل الذي ينبت داخل عضلات الفخذ والزند والظهر، ولا يمكن إخراجه إلا بشق العضلات. وكل ذلك من العلل الظاهرة التي يكفي بعضها لموجب تحريمه.

القسم الرابع: في هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾. أي مما ذبح على النصب. وقد استوفينا الكلام على هذا القسم أيضاً فيما سبق، ويهمنا أنه حكم مصحوب بعلته، وهي أنه فسق، أي خارج عن طاعة الله، إذ الذبائح أصلها من خلق الله، وهو الذي ذرأها ورزقها وسخرها، فَذَبْحُها لا يكون إلا إليه، وذبحها لغير الله فسوق.

ثم تأتي الرخصة رحمة من الله فيها مراعاة حال الاضطرار، فقال تعالى في نهاية الآية: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾. والباغي: العاصي، كمسافر سفر المعصية، والخارج على الإمام. ﴿وَلَا عَادٖ﴾ والعادي: المتجاوز حد الاضطرار ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾. وقد بين الفقهاء ما خصصته السُّنة هنا في

الميتة والدم مما لا توجد فيه علة التحريم في حديث «أحلت لنا ميتتان ودمان الجراد والحوت، والكبد والطحال». وبعض العلماء يبحث تحريم ما زاد عما ذكر هنا محصوراً، وقالوا: وجد تحريم الحمر الأهلية، ووجد تحريم الخمر، كما وجد تحريم تلك الأصنام بذاتها الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، وزيد معها ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة: ٣]. فيقال: أما الحمر الأهلية والخمر فمتأخر تحريمهما على آية ﴿قُل لَّآ أَجِدُ﴾، وأما المنخنقة وما شابهها فهي داخلة ضمن الميتة. وليعلم أن آية ﴿قُل لَّآ أَجِدُ﴾ رد على ما زعمه المشركون من افتراءات تحريم السوائب وما معها، وقد نص حرامه في قوله تعالى من سورة المائدة: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المائدة: ١٠٣]. والبحيرة: هي الناقة تُشَقّ أذنها، ويمتنع حليبها إلا للأصنام. والسائبة: من الإبل، تُسَيَّبُ فلا يحملون عليها، ويتركونها لآلهتهم، وهي التي ولدت عشر مرات إناثاً. والوصيلة: التي تلد توأماً خمس مرات. والحامي: فهو الذي ولد لولده، أو الفحل الذي انتهى ضرابه. وكلها مزاعم وافتراءات فقال رداً عليهم: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ﴾ وقال ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ إلى آخره.

٧ ـ التحريم الجزائي:

قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام: ١٤٦ ـ ١٤٧]. في معرض تفنيد مزاعم المشركين، وإبطال مفترياتهم فيما ذرأ سبحانه من الحرث والأنعام، وتحكيمهم الباطل في التحليل والتحريم، وتصفية الموقف معهم بالنص الصريح: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ الآية، جاء عرض الموقف مع اليهود في نفس الموضوع فيما يحل ويحرم من بهيمة الأنعام، مع تضمين هذا العرض مقارنة تكشف بعد

ما بين السعة في منهج هذه الأمة والضيق في منهج اليهود، وهذا في الآية الكريمة ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ الآية.

أما السعة في منهج هذه الأمة في موضوع بهيمة الأنعام فمن سورة المائدة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة: ٤]. وفي هذه السورة ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ الآية. فقد أحل الله لنا الطيبات، ولم يحرم علينا إلّا ما اشتملت عليه آية ﴿قُل لَّآ أَجِدُ﴾ من أحكام معللة بعلل، كلها مناسبة للتحريم، ثم في حالة الاضطرار أباح تناول هذا القسم في غير بغي ولا اعتداء، مغفرة ورحمة من ربك.

بينما قد حرم على اليهود من تلك الطيبات من بهيمة الأنعام كل ذي ظفر، وسواء كان المراد الإبل أو الأنعام أو غير ذلك، إنه تحريم لما كان مباحاً. ثم ما هو أدخل في التحريم والتضييق عليهم، إذ حرم عليهم أجزاء من البقر والغنم من شحومهما، ولم يستثن إلا مواضع من الشحوم، وسواء كان محدداً معلوماً متفقاً عليه، أم فيه خلاف، إنه حرمانهم مما هو حلال لنا، ولِمَ هذا التحريم عليهم؟ لعلة ذاتية تقتضي ذلك، ولكن كان تحريماً جزائياً عقوبة لهم على بغيهم.

وهذا التحريم في هذه الآية جزء من منهج من ثلاث آيات متفرقات:

الأولى: التي في سورة آل عمران، تبين المبدأ وهو استصحاب الأصل الذي هو الإباحة، وذلك في قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾. وفي هذا الذي حرمه إسرائيل على نفسه أقوال المفسرين: منها أنه كان أصيب بعرق النسا وألمه، فنذر لله إن هو شفاه ليحرمن على نفسه أحب الطعام إليه، وكان أحبه هو لحوم الإبل. وقيل غير ذلك. فاستمر بنو إسرائيل من بعده على ذلك التحريم رغم مجيء التوراة إليهم، وقد حاجهم المولى سبحانه وقال: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. لكنهم استمروا في افترائهم وادعائهم أن الله هو الذي حرمها، فرد سبحانه عليهم بقوله: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [آل عمران: ٩٣ ـ ٩٤]. فسجل عليهم الظلم بافترائهم على الله الكذب، وبهذا الظلم ألزمهم الله تعالى بذاك التحريم، كما

في سورة النساء قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء: ١٦٠ ـ ١٦١]. فهنا نص صريح التحريم الذي وقع عليهم في أنواع من الطيبات، وهي المذكورة في الآية هذه من سورة الأنعام ﴿كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ كلها طيبات حرمها الله تعالى على اليهود عقوبة لهم على ظلمهم، وقد فسر في سورة النساء أنواع الظلم وأنواع المظالم التي ارتكبوها، **منها**: صدهم عن سبيل الله كثيراً بإخفائهم علامات النبوة، والعهود المأخوذة عليهم باتباعه، وكذبهم على من سألهم عنه. **ومنها**: أخذهم الربا وقد نهوا عنه. **ومنها**: أكل أموال الناس بالباطل، وهو نوع آخر سوى الربا، قل: هي الرشوة. وكلها مفاسد في المجتمع ديناً ودنيا. فعاقبهم الله بما حرمهم بتحريم طيبات كانت حلالاً عليهم، وفي آية الأنعام: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ﴾ الآية. صرح سبحانه بالسبب الموجب ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ﴾.

وهنا وقفة تأمل للنظر في أثر المعاصي والظلم في أرزاق العباد، لكأن السياق يحذر المسلمين والمشركين على السواء، فالمشركون فيما حرموا بزعمهم من أن يمضيه عليهم عقوبة لهم، والمسلمون يحذرهم من الظلم، ومن البغي، ومن أكل أموال الناس بالباطل، ومن أخذ الربا، من أن يعاقبهم بحرمانهم في تحريم ما هو حلال عليهم. وهو سبحانه يفعل ما يريد، وقد يتساءل إنسان، أو يقول غير مسلم: وأنتم قد حرم عليكم الصيد للمحرم، فهل كان عن ظلم أو بغي أو عقوبة لأكل الربا أو أموال الناس بالباطل؟ فيجاب عن ذلك: إن أسلوب القرآن المعجز في بيانه، والعجز في ألفاظه، ليجيب عن هذا التساؤل وهو: أنه سبحانه يقول: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ﴾ فكان ابتلاء لإظهار حقيقة الإيمان، ثم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ﴾ [المائدة: ٩٤ ـ ٩٥]. فقال: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟﴾ ولم يقل: ﴿لا تأكلوا﴾. فالمحرم هو قتل الصيد، والأكل تبع، ولو أن إنساناً غير محرم صاده لنفسه فصادف إنساناً مُحْرِماً لا علاقة له بهذا

الصيد، فإنه يحل للمحرم أكله، وذلك إن النهي إنما هو عن القتل ابتلاء، ثم إن هذا النوع من النهي خاص بهذا المنهي، لأنه قد تجرد من كل مظاهر الكسب والاعتداء، وتجرد إلى الله معلناً السمع والطاعة في التلبية، وقد حرم الله عليه لا قتل الصيد فحسب، بل وزوجته وشعره وظفره، لأنه سلم بكل مدلول السلام، فهو تحريم مؤقت لغاية نبيلة، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ۚ﴾ [المائدة: ٢]. ثم يأتي بعد نقاش الفريقين ـ المشركين واليهود ـ يأتي الخطاب للنبي ﷺ مواسياً ومؤنساً فقال تعالى عقبها: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾. ففيها الترغيب والترهيب، وفيها الرد على المستخفين بالعقوبات، ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ لا يعاجل المكذبين بالعقوبة، ولا يقطع الطريق على المكذبين عن التوبة، فإن رجعوا وآمنوا بعد هذا كله فهو ـ سبحانه ـ ذو رحمة واسعة، وإلا فليحذروا فإنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين.

ثم حكى عنهم جميعاً ـ المشركين واليهود ـ احتجاجهم بالقدر، وهي حجة العاجز غالباً إذا أعوزه الجواب، فقال تعالى عنهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍۚ﴾. ورد احتجاجهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَاۗ﴾ ثم أسكتهم وأبطل الاحتجاج بالقدر فقال: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي بأن الله شاء هذا منكم وأمركم به ففعلتموه تنفيذاً للمشيئة. ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨ ـ ١٤٩]. أي فلم تسلكوا سبل الهداية وتقولوا بالقدر من أن الله شاء هدايتكم.

وبعد هذه الجولة الجدلية الطويلة، جاء النداء ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ﴾ على ما سيأتي بيانه إن شاء الله.

٨ ـ التحريم ابتلاءً وامتحاناً:

الأصل في التحريم درء المفاسد، كتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير، وتحريم الخمر والميسر والأنصاب. وقد يكون توجيهاً، وقد يكون ابتلاء وجزاء.

تقدم بيان التحريم على الذين هادوا تحريم جزاء في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى

﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ . . .﴾ الآية. بسبب ظلمهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ . . .﴾. وقد يكون التحريم ابتلاءً وامتحاناً لبيان مدى الطاعة والامتثال، وقد تقدم ابتلاء الخليل إبراهيم عليه السلام ضمن قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]. ومما ابتُلِيَ به: أنه أُمر بذبح ولده في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾. وابتلي ولده إسماعيل بالصبر فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ كل ذلك والله سبحانه في سابق علمه أن إسماعيل لن يذبح، ولكنه ابتلاء لهما ليظهر مدى طاعتهما، وقد كان منهما المثال الأعلى، إذ امتثلا وشَرَعَا في التنفيذ إلى حد أن تلّه للجبين لينفذ أمر الله، فلما ظهر صدق امتثالهما حقاً، وأثبتا للأمور كلها غاية الطاعة والإذعان، كان الفداء: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصافات: ١٠٢ ـ ١٠٦]. فكان فعلاً تكليف ابتلاء وامتحان.

من هذا القبيل وقع التحريم في الشرائع امتحاناً وابتلاءً لإظهار مدى الطاعة والامتثال، أو التمرد والعصيان، لإقامة الحجة، وإنزال العقوبة، من ذلك ما كان لبني إسرائيل في سبتهم.

١ ـ قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأعراف: ١٦٣]. فكان ابتلاؤهم بتحريم الصيد عليهم يوم السبت، وفي ذلك اليوم يمتحنهم الله، فيرسل الحيتان على وجه الماء، وفي غير يوم السبت تغيب عنهم الحيتان في أعماق المياه، وسبب هذا الابتلاء ونتيجته كالتالي:

أما سببه: فكما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ﴾ [النحل: ١٢٤]. وذلك أن نبي الله موسى قال لهم: اجعلوا يوم الجمعة لله تعالى تتفرغون فيه للعبادة، ولا تعملون فيه شيئاً للدنيا. فقالوا: نجعل يوم السبت، مخالفين أمر رسوله ﷺ محتجين بزعمهم أنه اليوم الذي فرغ الله تعالى فيه من خلق العالم، إذ كان بدء الخلق يوم الأحد وانتهى خلقه يوم الجمعة، وسبت

يعني فرغ يوم السبت، فقالوا: نتفرغ يوم السبت. فقال لهم نبيهم موسى عليه السلام: إن يوم الجمعة أفضل من يوم السبت. فلم يقبلوا منه، وأخذوا يوم السبت، فجعله الله عليهم محرماً، يحرم عليهم العمل فيه، ثم امتحنهم بمجيء الحيتان يوم سبتهم شرعاً، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم.

أما النتيجة: فإنهم لم يصبروا على إغراء الحيتان وتحديها لهم، فاحتالوا على صيدها، فألقوا الشباك يوم الجمعة، فلما جاءت الحيتان يوم السبت علقت بها، ثم ذهبوا وأخرجوا الشباك يوم الأحد بما فيها من الحيتان، وقالوا: نحن يوم السبت لم نخرج من بيوتنا ولم نصطد. فأوقع الله بهم أشد العقوبة وأقساها، كما قال تعالى مذكراً اليهود زمن النبي ﷺ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾. فاعتبر الله تحيلهم هذا اعتداء، وأوقع عليهم تلك العقوبة الشديدة، وأصبحت كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [البقرة: ٦٥ ـ ٦٦].

ومن هذا التحريم ابتلاء أيضاً، ما جاء في شأن الجنود مع طالوت في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟ ۖ . . .﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾. إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٤٦ ـ ٢٤٩]. فهذا ابتلاء للجنود، لتظهر طاعتهم، وتنكشف حقيقتهم، وكان هذا الامتحان من لوازم المهمة التي كلف بها طالوت، وسار بالجنود إليها، لأنهم لما طلبوا من نبي لهم أن ينصب عليهم ملكاً يقاتلون معه، وعين لهم طالوت ملكاً، لم يتقبلوا هذا التعيين، بل عارضوه وقالوا: نحن أحق بالملك منه. وعللوا اعتراضهم بعدم إيتائه سعة من المال. أي على مقياسهم المادي. ورد عليهم بالمقياس الصحيح في مؤهلات القيادة.

١ ـ من اصطفاء الله إياه، أي لأنه سيقاتل في سبيل الله. ٢ ـ ومن زيادته بسطه في العلم والجسم، إذ بالعلم تكون الإدارة والتدبير، وبالجسم يكون الحماية والتنفيذ. وكان لا بد لطالوت أن يعرف حقيقة موقفهم وما يخفون في داخلهم، وهل يأمنهم ويعول عليهم في القتال معه أم لا؟ فكان امتحانهم بالنهر ابتلاءً لهم، فظهر ما كانوا يخفون، فشربوا منه إلا قليلاً منهم.

وفي هذه الأمة وقع التحريم كذلك ابتلاءً: ابتلاء في التكليف، وابتلاءً في التنفيذ:

فابتلاء التكليف: في قوله أول سورة المائدة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾. سبحانه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾.

وابتلاء التنفيذ الفعلي: الواقع في قوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٩٤ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ﴾. ومن دقائق الأسلوب قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ﴾ حيث يفيد أن الصيد ملك لخالقه، ولا يحل إلا بإذنه، وإلّا يكون اعتداءً. وقد أعقبه بقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩٦﴾ [المائدة: ٩٤ ـ ٩٦]. وبهذه المناسبة فإن هذا الامتحان أشد وأقسى ما يكون على الأمم، وقد أخفقت فيه بنو إسرائيل، فمسخهم الله قردة وخنازير، ونجحت فيه هذه الأمة، فكانت خير أمة أخرجت للناس. وصدق الله: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

٩ ـ تفصيل القول في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ﴾:

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ﴾ [الأنعام: ١٥١]. سبق أن قدمنا ما يوحي به هذا النداء في مقدمة بيان ما حرم الله، حيث قد حرم أشياء عديدة بدون هذه المقدمة، ورجعنا إلى ما قبل ذلك، وتناولنا عدة مواضيع من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ هَـٰذِهِۦٓ أَنْعَـٰمٌ

وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ...﴾ الآية. والرد عليهم في هذا كله بالنقاش العقلي: بقوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ الآيات. وبالنص النقلي: قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا﴾ الآية. ثم أعقبه بما حرم على الذين هادوا عقوبة لهم. وبعد هذا كله جاءت هذه الآيات الثلاث: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾. قال أبو حيان: أي ما حرم ربكم بالوحي، لا ما حرمتموه أنتم بالظن والزعم، والخطاب في ﴿قُلْ﴾ للنبي ﷺ، ﴿تَعَالَوْا۟﴾ قال: الظاهر فيه للمشركين، ويشمل اليهود وكل من حضر أو كان غائباً، و﴿تَعَالَوْا۟﴾ صيغة الجمع، والأصل تعال للفرد. وتعالَي للأنثى. وتعاليَا للمثنى. وتعالوا لجمع المذكر. وتعالَيْنَ لجماعة النسوة. وأصله التعالي، كأن من تطلب إقباله عليك كان جالساً، فطلبت منه القيام والتوجه إليك، ثم توسعوا فيه واستعملوه في كل مطلوب إقباله إليك. و﴿أَتْلُ﴾ أي أقرأ، والتلاوة بمعنى القراءة، لأن القارئ يرسل الحروف واحداً يتلو الآخر، وكلمة تتلو ما قبلها حتى يتم الكلام، يتلو بعضه بعضاً. ﴿وَمَآ﴾ بمعنى ﴿ٱلَّذِى﴾ في محل نصب مفعول ﴿أَتْلُ﴾. و﴿عَلَيْكُمْ﴾: يمكن أن تتعلق بحرَّم، ويمكن أن تتعلق بأتلو، أي أتلو عليكم ما حرم ربكم. وللمفسرين مبحث طويل في هذا الأسلوب، وأقرب الأقوال ما قاله أبو حيان من ﴿أَن﴾ التي مندمجة في ﴿أَلَّا﴾ أنها مفسرة، و﴿لَا﴾ نافية، فأن مفسرة لأتلو، لتضمن التلاوة متلواً وهو: أن لا تشركوا به، أي بالله شيئاً، وما بعده معطوف عليه. ولا مانع من عطف الأوامر على النواهي، وهذه الآيات الثلاث قد اشتملت على عشر وصايا، خمس منهيات، وخمس مأمورات، وأول تلك المنهيات وأهمها قوله تعالى: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾. و﴿شَيْـًٔا﴾ هنا نكرة، تعم كل معبود من دون الله، وكل ما اتخذوه شريكاً مع الله على وجه العموم.

قال الفخر الرازي: اعلم أنه قد شرح فرق المشركين في هذه السورة على أحسن الوجوه، وذلك لأن طائفة من المشركين يجعلون الأصنام شركاء لله، وإليه الإشارة بقوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ

ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: ٧٤]. والطائفة الثانية من المشركين: عبدة الكواكب، وهم الذين حكى الله عنهم إبراهيم عليه السلام أبطل قولهم بقوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]. والطائفة الثالثة: الذين حكى الله عنهم أنهم ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ [الأنعام: ١٠٠]. والطائفة الرابعة: الذين جعلوا لله بنين وبنات. وقد أقام الدلائل على فساد أقوال هؤلاء.

وبعد بيان بطلان ذلك كله، قال هنا: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾. هو كذلك يمكن القول أيضاً أن قوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ عام في جميع أنواع الشرك، كشرك الطاعة المتقدم ذكره في هذه السورة أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١]. أي شرك طاعة، كما سيأتي في سورة الشورى قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]. فسماهم الله شركاء، حيث وضعوا أنفسهم موضع المشرع، وأقرب أنواع الشرك المذكور في هذا السياق ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ...﴾ [الأنعام: ١٣٦]. وهذا النهي عام في شرك الدعاء، أو شرك الخوف والرهبة.

وفي الجملة: فقد عظّم الله خطر هذا الباب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨]. والحديث القدسي: «يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة». وهذا الباب هو الذي من أجله أرسل الله الرسل لأممهم، لإفراد المولى بالعبادة وحده، لأنه المستحق لأن يعبد وحده، وقد نوه على موجب هذا الحق في سورة الفاتحة في مستهلها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾. فهو مستحق للحمد والثناء وحده، لأنه رب العالمين، ولأنه رباهم على الرحمة والإنعام: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. ولأن المرجع والمآل إليه ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾. ومقتضى ذلك حقاً ﴿إِيَّاكَ﴾ وحدك ﴿نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ﴾ وحدك ﴿نَسْتَعِينُ﴾.

وكان الصديق يدعو بما علّمه رسول الله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم».

أما الحق الثاني: في هذه الآيات فهو حق الوالدين: في قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾. وقرنه سبحانه بحقه، لأنهما اللذان كانا السبب في وجود الابن، وهما اللذان باشرا تربيته ورعايته منذ هو جنين إلى أن ولد مدتي حمله وفصاله. ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾. وقد جاء هذا الحق في صيغة القضاء والإلزام، في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. وقد وفينا بيان هذا الحق في كتاب الوصايا. مما يمنع من إعادته.

الحق الثالث حق الأولاد: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾. وهذا رد على سفاهتهم في قتلهم أولادهم المتقدم ذكره في قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٤٠]. وفي هذه الآية كشف عن مصدر سفاهتهم أنهم في الوقت الذي يقتلون أولادهم ﴿مِّنْ إِمْلَاقٍ﴾ والآية الأخرى ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ فهم مع هذا يحرمون ما رزقهم الله افتراء على الله، أي كان مقتضى العقل والمنطق أن توفروا ما رزقكم الله لأولادكم بدلاً من أن تحرموه وتحرموا أولادكم منه فيجوعون فتقتلونهم. ولكن القضية جاءت من اتباعهم الهوى، واستحسان ما زين لهم الشيطان كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأنعام: ١٣٧]. ويفيد ما قدمناه من التنبيه على أن هذه الآية ترد على أولئك الذين ينادون بتحديد النسل بسبب الإنفاق والتربية، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ وهذا هو هَدْي القرآن الكريم.

١٠ ـ الموضوع الرابع في ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]. الفواحش جمع فاحشة، وهو ما يستقبح ويستفحش شرعاً وعرفاً، وصيغة الجمع هنا تدل على متعدد، ونظير هذه الآية الكريمة في مثل هذا

السياق ما سيأتي في سورة الأعراف: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٢ ـ ٣٣]. فقد جمع هنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وعطف عليها الإثم والبغي، ثم الشرك بالله، والقول على الله بغير علم. وتقدم في هذه السورة سورة الأنعام قوله: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠]. والمشهور من علماء التفسير أن الفواحش مراد بها: فاحشة الزنا، وأن ما ظهر منها: ما كان علانية لأصحاب الرايات في الجاهلية، وما بطن ما كان سراً مع الصديقات والأخدان. وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقيل: ما ظهر من الفواحش: أعمال الجوارح، وما خفي: أعمال القلوب. على أن الإثم جاء مفسراً في الحديث: «والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس» وقال أبو حيان وغيره: إن اللفظ عام فيبقى على عمومه في كل ما حرمه الله تعالى. وهذا القول أقرب للعموم، إلا أن غالب استعمالات القرآن للفاحشة إنما هو فيما يتعلق بالرذيلة الفاحشة: الزنا وما يلحق به. من ذلك:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢].

٢ ـ ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾ [النساء: ١٥].

٣ ـ ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [النساء: ٢٢].

٤ ـ وعن نبي الله يوسف عليه السلام قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ [يوسف: ٢٤].

٥ ـ وعن قوم لوط قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف: ٨٠ ـ ٨١].

٦ ـ وفي أعقاب حديث الإفك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . . .﴾ [النور: ١٩]. فكل هذه النصوص تتعين فيها الفاحشة بالزنا.

وجاء لفظ يشعر بأن هذا هو العرف في المجتمع من باب تخصيص العام، وذلك في قوله تعالى أولاً في سورة الشورى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾. فعطف الفواحش على كبائر الإثم، والعطف يقتضي المغايرة. ويمكن تفسير كبائر الإثم بما جاء في حديث السبع الموبقات، وهي ما جاء في حديث أبي هريرة عند البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات». قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». وعند البخاري من حديث ابن عمر زيادة: «والإلحاد في الحرم، وعقوق الوالدين». وجاء في كتاب التوحيد وشرحه عن ابن عباس: هن أكثر من سبع. ورواية أخرى: هي إلى سبعين أقرب. وفي (رياض الصالحين) من باب تغليظ شهادة الزور عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس، فقال: ألا وقول الزور، وشهادة الزور؛ فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت» وقال: متفق عليه. فهذه كلها من كبائر الإثم، ولم يرد معها الزنا مع أنه بلا شك كبيرة شديدة، ولكن كما أسلفنا يكون من باب التخصيص بالعرف، ومعلوم أن تلك الكبائر تتفاوت كما في حديث ابن عمر «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر». فكذلك الفواحش، وقد جاء في سورة النجم قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ . . .﴾ [النجم: ٣٢]. فقد قيل كما في القرطبي: كبائر الإثم. قرئ (كبير) بالإفراد، وهو الشرك، والفواحش الزنا. وقال مقاتل: (كبائر الإثم) كل ذنب ختم بالنار، والفواحش كل ذنب فيه حد. أي كالزنا فيه الجلد أو الرجم، والقذف والشرب فيهما الجلد. . . الخ. واللمم: هي الصغائر التي لا يسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله. وعن ابن عباس والشعبي: أنها كل ما دون الزنا. ويشهد لهذا الحديث المروي عن

أبي هريرة ﷺ: «أنه كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه» وقال القرطبي: إن هذه الآية - يعني آية النجم - نزلت في رجل كان يسمى نبهان، كان له حانوت يبيع فيه تمراً، فجاءته امرأة تشتري منه، فقال: إن بداخل الدكان ما هو خير من هذا، فلما دخلت راودها فأبت وانصرفت، فندم، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ما من شيء يصنعه الرجل إلا وقد فعلت إلا الجماع، فنزلت هذه الآية. وجاء عند القرطبي: أن الرجل لما أتى إلى النبي ﷺ فقال: أصبت حداً فطهرني فنزلت ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود: ١١٤]. فناداه ﷺ فقرأها عليه، فقال: أَلِي خاصة؟ وقيل إن رجلاً قال: أَلَهُ خاصة يا رسول الله؟ فقال ﷺ: لا، بل لأمتي جميعها».

لعل بهذا يتبين أن الظاهر في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾. أنها كل ما يتعلق بالعرض، وأن عرف القرآن يغلب ذلك، لأنها ذكر معها أكبر الكبائر الشرك، وعقوق الوالدين، وقتل الأولاد. ثم ذكر بعدها في نفس السياق حفظ مال اليتيم، والوفاء بالكيل والميزان بالقسط، والعدل في القول، والوفاء بالعهد. ويكون قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟﴾ أسلم من (ولا ترتكبوا)، لأن عدم الاقتراب يجعل منطقة سلامة، كما جاء في الحديث: «إن الحلال بَيِّن، وإن الحرام بَيِّن، وبينهما أمور مشتبهات، فمن ترك الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى». وقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ للشمول والعموم، فيشمل السر والعلن، والصغيرة والكبيرة، وهو ما يتناسب مع أهمية هذا السياق والعناية بالوصية به ثلاث مرات.

١١ - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]:

تقدم العرض عن عدة مواضيع من قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾، وبيان عظيم خطر الشرك، ثم حقوق الوالدين والإحسان إليهما، ثم استحياء الأولاد ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ

﴿إِمۡلَٰقٖۚ﴾، ثم النهي عن الاقتراب من الفواحش ما ظهر منها وما بطن. فكان في ذلك حفظ الأديان في توحيد الله تعالى، ثم حفظ الحقوق للأصول في الوالدين والفروع في الأولاد، ثم حفظ الفضيلة باجتناب الفواحش، وفيه حفظ النسب والعرض، وهنا يأتي حفظ النفس التي حرم الله إلا بالحق.

ولا شك أن قتل النفس من أعظم الكبائر، بل ومن السبع الموبقات كما تقدم، وقد جعل الله تعالى قتل نفس واحدة كقتل الناس جميعاً، لأن قتل النفس هو عبارة عن هدم بناء تولاه الله تعالى فخلقه بيده كما في الحديث «ثلاثة خلقها الله بيده: خلق آدم بيده، وغرس جنة عدن بيده، وكتب الألواح لموسى بيده، وبقية المخلوقات قال لها: كوني فكانت» كما قال تعالى: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ ...﴾ [ص: ٧٥]. وقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، وصوره فأحسن صورته: شق له سمعه وبصره، وميزه بإدراكه وعقله، وسخر العوالم كلها لأجله، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة: ٢٩]. هذا الإنسان الذي استخلفه الله في الأرض، وجعل له السيادة والقيادة لهذا العالم كله، فعظم شأنه، وعلت منزلته، وشرف جنسه، وتولى المولى تعالى أمر إيجاده في تناسله منذ الإنسان الأول ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ ...﴾ [النساء: ١]. ثم بيَّن تعالى كيف بث الرجال والنساء وسلالة الإنسان: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤]. ثم إن هذا الإنسان بعد مراحل الجنين وهو في الرحم تولاه سبحانه في سعة هذا الكون، ولم يتركه لنفسه، وجعل آية خلقه وإيجاده دليل قدرته تعالى على بعثه بعد موته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ ...﴾ [الحج: ٥]. فهذا الصنع الإلهي والإبداع في إيجاد الإنسان جعل هذا الإنسان مُلكاً لله وحده، وليس لأحد فيه

حق حتى الإنسان نفسه ليس له حق التصرف في نفسه، وعليه: فإن المعتدي على بنية هذا الإنسان يكون معتدياً على حق من حقوق الله، وكانت حرمته عند الله أعظم من حرمة الكعبة، لأن بناء الكعبة إذا هدم يمكن بناؤه، أما بنية الإنسان فإذا هدم استحال على العالم كله إعادته، وليعلم أن الله تعالى هنا قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ﴾. وقتل النفس وإن كان يلتقي مع الموت في إنهاء حياة الإنسان، إلا أن الموت سر من أسرار الله في عبده كسِرٌ وجوده تماماً، وذلك عن طريق نفخ الروح وخروجها، والروح من أمر ربي. أما القتل: فهو هدم لمسكن تلك الروح، فطالما كان المسكن صالحاً، كانت الروح مستقرة إلى أن يوافيها أجلها، فإذا ما انهدم هذا المسكن لم يعد صالحاً لسكنى الروح، ولا لاستقرارها فيه، فتصعد إلى خالقها، والكل إنهاء لحياة الإنسان، وكما قيل: تنوعت الأسباب والموت واحد. ومعلوم أن الموت هو سنة الحياة، أما القتل فهو على غير السنة، لأنه اعتداء على المقتول، سواء كان عن عمد أو غير عمد، وقد وجدت جريمة القتل مع وجود الإنسان على الأرض، وأول تاريخها تلك التي كانت من أحد ابني آدم لصلبه، كما قص الله تعالى في كتابه محذِّراً وزاجراً ومحمِّلاً الجاني الأول وزر جريمته ونصيبه من كل جريمة وقعت بعده، حيث كان هو أول من سن تلك السنة السيئة، وأصبحت وصمة في تاريخ الإنسان، وللأسف لم توجد في الأجناس الأخرى يقتل بعضها بعضاً اللهم إلا ما ندر. قال تعالى: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى

﴿ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة: ٢٧ ـ ٣٢]. إنه الظلم والبغي، إذ يتحاكمان إلى تقديم القرابين لله فيما اختلفوا عليه في أمر زواجهما أو غيره، وإن التحاكم بالقرابين لهو التحاكم إلى الله، لأنه الذي يتقبل أو يرد من تلك القرابين، فلما تقبل الله من أحدهما حقد عليه الآخر وتوعده بالقتل، يا سبحان الله! أَلِكَوْنِ قربانه حاز القبول من الله، يكون جزاؤه أن يُقْتَل بدلاً من أن يكرم؟ وهنا يترفع أخوه عن أن يبسط يده لقتل أخيه تأثماً ومخافة من الله رب العالمين، فطوعت للحاقد نفسه قتل أخيه. إن حق الأخوة كان كافياً ليكف عنه، ولكنه تخطى الحدود وانتهك حرمات الإخاء وحرمات الصلاح، فأصبح من الخاسرين. خسر أخاه وخسر آخرته فأصبح من أصحاب النار. ثم جر على نفسه خزي الجريمة وعجز أن يدرك ما يدركه الغراب من مواراة أخيه، لأن جريمته أعمت بصيرته، ولهذا كله كان جزاؤه مضاعفاً مع كل جريمة قتل، من أنه قتل نفساً بغير نفس، أي قصاصاً أو فساداً في الأرض على ما سيأتي في معنى: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ فكأنما بقتله تلك النفس الواحدة قد قتل الناس جميعاً، سواء في هذا القاتل الأول أحد ابني آدم لكونه هو أول من سن القتل، أو كل قاتل أياً كان، وفي أي زمان، لأن الإقدام على قتل نفسٍ واحدةٍ بمثابة الإقدام على قتل الناس جميعاً، لأنهم جنس واحد، ومن أهان أو أكرم فرداً من أي جنس فكأنما أكرم أو أهان الجنس كله على ما سيأتي إن شاء الله.

١٢ ـ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١]:

قدمنا بيان شدة خطر جريمة القتل، ونشأتها في تاريخ الإنسان، وما ترتب عليها، وقوله تعالى هنا: ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ إشعار بأن الأصل عصمة النفس وتحريم قتلها بما حرمها الله تعالى به وعصمها.

وقوله تعالى هنا أيضاً ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ يُشعر بأن العصمة ينفك عنها إذا قام موجب لذلك، فيكون قتلها بحق، ولا يكون هذا الموجب إلا من جانب الإنسان نفسه بارتكابه جرماً يعادل جرم قتله ويترجح عليه، فيستحق القتل. وقد بين ﷺ ذلك في قوله: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث»:

النفس بالنفس: أي من قتل نفساً عمداً عدواناً وبغياً، فإنه قد أهدر دم

نفسه، فاستحق القتل قصاصاً كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨]. وكقوله تعالى؛ ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥].

والثاني ـ **الثيب الزاني**: أي المحصن، وهو من سبق له أن تزوج ودخل بزوجته ولو ليلة واحدة، سواء بقيت زوجته معه أو طلقها أو توفيت، وكذلك المرأة المدخول بها، وذلك أنه اقترف جريمة في حق المجتمع كله، فضلاً عن انتهاك حرمة الغير.

والثالث ـ **التارك لدينه المفارق للجماعة**: لأنه بتركه الدين كالجاحد له، المستهزئ به، المنكر لصحته، وهو عين الكفر، بل أشد، لأنه بعد أن قبله والتزم بمبادئه وعرف مناهجه يكون أشد خطراً ممن لم يعتنق الدين ابتداءً.

وقد تقدم بيان بداية هذه الجريمة من أحد ابنَي آدم قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي القصاص الذي ذكرناه. ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ وهو يشمل كل فساد من زنا المحصن، ومن مفارقة الدين والجماعة، ومن إخافة السبيل كقطاع الطريق، فهذا داخل في عموم ما تقدم. ولخطورة هذه الجزئية من الآية الكريمة ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله تعالى هنا: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ولحفظ دم المؤمن نسوق التفصيل في أنواع القتل على هدي القرآن الكريم في ذلك: وأقسام القتل في هدي القرآن هو ما جاء مبيناً في قوله تعالى من سورة النساء: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾. والخطأ عند العلماء: هو أن يعمد الإنسان إلى فعل جائز له، فيصيب إنساناً بغير قصد ولا تعمد فيقتله، كمن رمى صيداً ونفذ السهم من الصيد أو أخطأه وأصاب إنساناً، فعنصر العمد العدوان منتفٍ. ثم بيَّن هذا النص استبعاد وقوع قتل الإنسان لأخيه الإنسان إلا على هذه الكيفية خطأً لا عمداً. وبيَّن تعالى حكم هذا الفعل وما يترتب عليه بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ [النساء: ٩٢]. وهنا يهدينا كتاب الله في هذا النوع أن على الجاني حقين: أحدهما لله، والآخر لولي المجني عليه.

وحق الله: هو عتق رقبة مؤمنة، وذلك أنه بفعله وعدم تحفظه، قد أعدم نفساً إعداماً حقيقياً فأزهق روحها، فعليه عوضاً عن ذلك إحياء نفس إحياءً معنوياً إذا لم يقدر على الإحياء الحقيقي بإعادة الروح والحياة لمن قتله، والإحياء المعنوي يتمثل في تحرير تلك الرقبة المؤمنة، فيخرجها من حيز العدم المعنوي بالرق إلى الوجود المعنوي بالحرية، فتكمل له حقوق الأحرار في تصرفاتهم الشخصية والمالية، وعند انعدام الرقبة أو العجز عن قيمتها فصيام شهرين متتابعين تحقيقاً للتوبة إلى الله تعالى.

والحق الثاني: هو العوض المالي في الدية، وهي على التفصيل الشامل الذي وضع الحق في نصابه والدية لمستحقها، وهي على ثلاث حالات: الأولى: أن يكون ولي القتيل من المسلمين، فتدفع إليه الدية. أو يكون القتيل من غير المسلمين، وهؤلاء قسمان: قسم عدو للمسلمين، أي محاربون، وهؤلاء إن دفعت الدية إليهم تكون نقصاً علينا وزيادة لهم، والحال أنهم أعداء فلا نعينهم بأموالنا على أنفسنا، فإن كان القتيل نفسه مؤمناً فتكفي الكفارة حقاً لله، وإن كان القتيل من غير المسلمين ولكن بيننا وبينهم عهد ومعاهدات صلح أو هدنة، فإن من حق تلك العهود أن تُوَفَّى إليهم، وعليه فإننا ندفع لهم الدية كما لو كان المقتول من المسلمين، وهذا غاية العدالة والإنصاف، والقمة في الوفاء بالعهود واحترام المواثيق. وقد دفع النبي ﷺ دية رجل من مشركي مكة بعد صلح الحديبية وإبرام العهد بينه وبين المشركين، وقال: «نحن أحق من يوفي بالعهد».

وقد أبقى هذا الهدي القرآني للمعروف مجالاً بقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ أي بالتسامح في أخذ الدية، إبقاء لأخوة الإسلام، والتماساً للعذر الجنائي. ولهذا كانت الدية على العاقلة، ومقسطة على ثلاث سنوات، بالجاني.

والقسم الثاني من أقسام القتل في هدي القرآن الكريم هو ما جاء بيانه عقب بيان الخطأ بقوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣]. والقتل العمد ما كان بقصد وإصرار وتعمد من فاعله، ولقد تجمعت في حقه جميع أنواع الوعيد، وهي: جهنم. والخلود فيها، والغضب، واللعن، وإعداد العذاب العظيم. ما لم تجمع بهذه الصفة لأي ذنب، ولهذا كان قتل النفس عدواناً أعظم ذنب بعد الكفر بالله عياذاً بالله تعالى. أما جزاؤه في الدنيا فكما في قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة: ١٧٨ ـ ١٧٩]. وفي هذا الهدي القرآني: أنه القصاص في القتلى، والمساواة والعدالة. وأتبعه بجانب إنساني: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ يعني إن عفا الولي عن القصاص فله الدية، وحينئذٍ فاتباع بالمعروف، لأن قبولها أصلاً هو معروف وإنعام، ومن جانب الجاني أداء بإحسان بدون مماطلة أو تسويف، لأن طلبها أصلاً إحسان. وبيَّن تعالى إحسانه على الأمة كلها بقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾. وذلك أن حكم القتل العدوان في الأمم الماضية كان على اليهود القصاص فقط، وعلى النصارى الدية فقط، وجاء على هذه الأمة بالتخيير بين القصاص أو الدية وزيادة الندب إلى العفو.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ إظهار لمعنى الأخوة الإسلامية التي ينبغي مراعاتها بين المسلمين في إطار الاتباع بالمعروف والأداء بإحسان، وقد ختمت آية ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

١٣ ـ هدي القرآن في حماية النفس:

لقد حفظ الله الضروريات الخمس بتحريم كل ما يضر بأحدها، وجعل لكل واحدة منها حمى يحميها، وتقدم في عدة مناسبات إيراد تلك الضروريات التي هي: **الدِّين**: وحفظه بقتل المرتد والزنديق، وحماه في تحريم البدعة والزندقة. **والعقل**: وحفظه في تحريم كل مسكر، وحماه في منع القليل من المسكر ولو

لم يؤثر على العقل. **والأنساب**: وحفظها في تحريم الزنا، وحماه في منع الخلوة بالأجنبية، والأمر بغض البصر، وحفظ الفرج. **والأموال**: وحفظها بتحريم السرقة، وحماها في منع الغش والتدليس وكل تحيل على أكل أموال الناس بالباطل.

وهكذا هنا في **حفظ النفس**: حرم الله قتلها بغير الحق، وشرع القصاص في القتل، وبين سبحانه أن في هذا القصاص الذي هو فعل الجاني أن فيه حياة للأمة. وهذا من بديع الأسلوب القرآني أن يجعل النقيض سبباً في النقيض. وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

قال العلماء: ولكم في القصاص ـ الذي هو قتل الجاني ـ حياة، وجاء لفظ الحياة منكراً ليفيد العموم، وذلك أن الجاني والحال أنه عامد وعن سبق إصرار وبقصد منه، يعني أن له إرادة يفعل أو لا يفعل، فإنه عند العزم وإرادة الفعل لو تذكر أنه إنْ قَتَل سيُقتل عزت عليه نفسه هو، فكف عن قتل الغير؟ فكأنه أحياه، وحفظ على نفسه حياته، فكأنه أحيا نفسين. وكانت العرب تقول: القتل أنفى للقتل. وكان يعد من أبلغ الكلام، ولكنه بعد مجيء القرآن ظهر أن فيه قصوراً، لأن مجرد نفي القتل لا يستلزم حياة، والقتل عام والقصاص خاص، وقد خاطب القرآن الكريم في هذا الموضوع أولي الألباب، لأنهم الذين يعقلون حقيقة هذا الحكم، وعلق عليه التقوى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي تتقون الله من عذابه وعقابه المتقدم في حق القاتل المتعمد، وتتقون قتل النفس التي حرم الله. وتوجيه الخطاب هنا لأولي الألباب والحث على التقوى، يشعر بأن كل من لم ينفذ، أو لا يلتزم بذلك، فهو لا لب ولا عقل له، ولقد ظهر للدول جميعها أنه لا يردع عن القتل إلا العقوبة بالقتل، وقد حدث في بعض الدول مناقشة قانون الجنايات أن اعترض عضو برلماني أثناء المناقشة في مبنى البرلمان، واحتد النقاش بين هذا العضو المعترض وزميل له، فما كان من هذا المعترض إلا أن أخرج مسدسه فقتل زميله أثناء النقاش فأجمع الموجودون على تشريع عقوبة القصاص، واقتص من الجاني. فهذا التشريع في ذاته يتكفل بحفظ النفس. أما حماه فهو في قوله

تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة: ٤٤ - ٤٥]. فترى في هذا الهدي القرآني منهج توثيق وتأكيد، ومنهج تشريع وعدالة:

أما منهج التوثيق والتأكيد: فنلمسه في الآية الأولى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ وإنزالها من الله يستوجب المبادرة إلى تقبلها. ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ يؤكد العمل بها، والاهتداء بهداها، والاستنارة بنورها في مسيرة الحياة، وبيان من يتولى العمل بها: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ وهم عليهم السلام أهل حق وعدالة وهداية وأمانة ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾، وكذلك الربانيون الذين أخلصوا أنفسهم لربهم، ولا حَظَّ لهم في أمور الدنيا وأهوائها، بل هم قائمون لله بكتاب الله كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢]. وقيامهم هذا وفاء بحق هذا الكتاب الذي أنزله الله وهو التوراة وبما استحفظوا منه، أي وكل إليهم حفظه في ضبطه وعدم ضياعه، وفي العمل به وعدم تعطيله. وأخذ عليهم العهد وكانوا عليه شهداء، فهم بشهادتهم عليه أولى الناس به، وقد حذرهم الله تعالى أن يخافوا الناس في تنفيذه: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾. وهذا وإن كان في مخاطبة الأحبار مع اليهود، إلا أنه عام لكل من استحفظ على كتاب الله من العلماء، إذ هم ورثة الأنبياء، فإن عهد الله إليهم أن لا تأخذهم في الله لومة لائم، وإن كل من عطل آيات الله بأي موجب فقد اشترى بآيات الله ثمناً، أي معاوضة، ومهما تكن تلك المعاوضة من مال، أو جاه، أو سلطان، أو محاباة، أو أي ثمن ولو على ملك الدنيا، فهو ثمن قليل، لأنه لا شيء يعادل الحفاظ على آيات الله والقيام بحدود الله، ولذا كان الحكم على أولئك بقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي إعراضاً، أو اختياراً، أو استحساناً لغير ما أنزل الله ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. فلم يبق إلا المبادرة للعمل بها والتنفيذ لها.

والمنهج الثاني في هذا السياق: هو بيان حماية النفس بإيجاب القصاص في الأعضاء وفي الجراح، المتضمن تحريم الاعتداء لا على النفس فحسب، بل وعلى أعضاء الإنسان: العين والأنف والأذن والسن واليد والرجل والأصبع وكل جزء في الإنسان. وتحقيق العدالة في هذا المنهج هو تلك المساواة في هذه الأعضاء الفرعية تبعاً للعدالة في الأصل التي هي النفس، فكما أن أعظم إنسان يُقتص منه لأقل إنسان باعتبار النفس البشرية متساوية ﴿ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾، والنفوس من حيث الخلقة لا تتفاوت لا في ذاتها ولا في خلقتها فهي سواء، وقد جاء عنه ﷺ ما يشير إلى عمق هذا المعنى حين قام لجنازة مرت به فقيل له: إنها غير مسلمة فقال: «أليست نفساً منفوسة». فالأنفس في أصل الخلقة سواء، وتقدم أن من قتلها فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً. وانطلاقاً من هذه المساواة كانت العدالة في الأعضاء أيضاً كل عضو بمثيله في حالة العمد العدوان، أما في حالة الخطأ فالدية أيضاً كما تقدم في قتل الخطأ، ولهذه الأعضاء تقدير دياتها، وتختلف وتتفق بحسب الحالات، والقاعدة العامة: أن كل عضو في الرجل مفرداً ففيه دية كاملة مئة من الإبل مثل اللسان مثلاً، وكل عضو كان مثنى ففي مجموعه دية كاملة، وفي أحدهما نصف الدية كالعين مثلاً، وما كان متعدداً فيحسب عدده كالأصابع عشرة، في كل أصبع عُشْرُ الدية وهكذا، ودية المرأة على النصف من دية الرجل إلا فيما هو أقل من الثلث، فتتساوى معه على تفصيل عند الفقهاء، وقد ختم هذا المنهج العادل بقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾. لأن غير المماثلة في العقوبة مهما كان نوعها فهو ظلم، ولا تتحقق العدالة إلا بالمماثلة في العقوبة، إنه هَدْيُ الكتاب الكريم، ومنهج الصراط المستقيم.

١٤ ـ هدي القرآن في رعاية اليتيم:

وهو الحق السادس في آية ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ في قوله تعالى في الآية التي تليها: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ﴾ [الأنعام: ١٥٢]. وقد شغل اليتيم حيزاً كبيراً في التشريع الإسلامي: في الأحكام الفقهية لحفظ أمواله، وفي التوجيهات الأدبية: للحفاظ على

شعوره وتربيته وكفالته. لأن يتيم اليوم هو كافل يتامى الغد، وقد كتبنا عنه في كتابنا (منهج السؤال والجواب في كتاب الله) عند قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. وقد تم طبع الكتاب بحمد الله، وهنا لا نحيل على كل ما جاء هناك ولا نترك ذكر شيء عنه، بل نجمل منهج هداية القرآن في حقه:

ومجمل هذا: هو أن الله تعالى اعتبر اليتيم جزءاً في المجتمع موضع العناية ووكل إلى أوليائه أمر رعايته وكفالته والقوامة عليه في جميع شؤونه حتى يبلغ أشده، وتولى المولى سبحانه محاسبة الأولياء عنه، ومراقبتهم في شأنه ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ﴾. ومن أبرز معالم هداية القرآن في رعاية اليتيم الآتي:

١ ـ سؤالهم عن معاملة اليتيم وتولى القرآن الإجابة على تساؤلهم ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ﴾ واعتبار الأخوة الدينية رابطة بينهم وبين المجتمع كله. ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ﴾ في الدين وتحت رقابة من لا تخفى عليه خافية: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ﴾.

٢ ـ وكذلك يستفتون في أحكام النساء، فتأتي الفتوى فيهن ومعها فتوى في يتامى النساء، والقيام لليتامى بالقسط، والقسط نهاية العدل، وأيضاً تحت رقابة العليم الخبير ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٢٧].

٣ ـ وفي إيوائه وكفالته، نجد إقامة المثال الكريم في شخصية النبي العظيم صلوات الله وسلامه عليه في سورة الضحى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ ثم يُذَكِّر بيتامى المسلمين ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾. وهو ﷺ على خلق عظيم، وكيف ينهى عن قهر اليتيم؟ إنه تعليم للأمة، ثم يذم سبحانه ذوي النفوس الضعيفة ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٨]. وجعل دَعَّ اليتيم نتيجة التكذيب بيوم الدين: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ [الماعون: ١ ـ ٣]. ولو صدر ـ مثلاً ـ من مؤمن بالبعث والجزاء، فإنما يكون نتيجة لغفلته ونسيانه، وإلا لولا غفلته ولولا نسيانه وتذكر قوله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين وأشار بأصبعي السبابة والوسطى» لما دعه، ولبادر إلى إكرامه والوفاء بحقه ومراعاته في

شعوره. وكذلك لو كان الموت نصب عينيه ولا يدري ما يأتيه به الغد وكان له ذرية ضعافاً لخاف عليهم يوم يصبحون أيتاماً في أيدي الآخرين، وقد يكونون تحت يد يتيم الأمس مثلاً. وقد نبه الله تعالى في الإنسان هذا الإحساس في نفسه بقوله: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩﴾ [النساء: ٩]. وحذر الله تعالى الأولياء في رعاية مال اليتيم وحفظه وتنميته ودفعه إليه مع إيناس الرشد منه، قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢﴾ [النساء: ٢]. والحُوب: الذنب العظيم. إنه الحفاظ من جانبين:

جانب عدم استبداله بما هو أخس منه، لأنه في ذلك نقص عليه.

وجانب ضمه إلى أموال الولي المعبر عنه بالأكل، لأن فيه تفويته عليه. ثم الاحتياط في دفع المال إليه وإيتائه إياه، وذلك في حالة معينة مضمونة فيها العاقبة، وهو التي في قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ أي امتحنوهم واختبروا قدرتهم على حسن تصريف المال ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ﴾ أي السن التي يتهيأ فيها للنكاح، وهي حالة النضج والصلاحية، وهذا من جهة القوة البدنية والصلاحية المادية. ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ وهذا هو النضج والصلاح المعنوي، والرشد ضد السفه، والرشيد العاقل حسن التدبير. وعند الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع حسن التدبير والصلاح في العمل: الرشد في الدين، وإصلاح الاستقامة. فإذا تم الاستيناس منه ﴿فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾. فهم أحق بها وأصون لها. وفي النهاية التحذير: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾. إنها حالة نفسية أنانية تنم عن حسد وحب الذات، ولكأن الولي كره أن يكبر اليتيم ويطالب بأمواله عنده، فبادر لتبديدها وأسرف في تصريفها سواء على اليتيم نفسه، أو على غيره، فكلاهما ضياع لماله. حتى إذا كبر اليتيم لم يجد من ماله شيئاً، فيبقى تحت رحمة وعطف الولي، فحذرهم الله تعالى من هذا كله، ثم قابل هذا الإسراف والبدار بناحية إنسانية، وجعل خدمة اليتيم على الغني مجانية، وسمح للولي الفقير أن يأكل بالمعروف، فقال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ يعني عن مال الفقير، ولا يأخذ منه مقابل عمله. ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾. وحد المعروف هنا راجع إلى العرف المألوف عند الناس، وقال الفقهاء: له الأقل من نفقته، أو أجرة المثل. هذا إذا كان منقطعاً إليه، وإلا فبحسبه.

وفي النهاية تأتي المحاسبة: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ أي بعد إيناس الرشد المطلوب ﴿فَأَشْهِدُوا﴾ عند الدفع ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بالاستلام. وهو في الواقع إشهاد مزدوج لهم وعليهم، فهو إشهاد على اليتيم باستلام حقه، وإشهاد للولي أنه دفع المال الذي كان لليتيم عنده. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٦]. قد يلفت النظر هذا التذييل، إذ السياق في الإشهاد، وكان ينتظر وكفى بالله شهيداً. ولكن جاء ﴿حَسِيبًا﴾. لكأنه يقول للأولياء: إن دفع مال اليتيم إليه لا يكون إلا بعد إجراء المحاسبة فيما أنفق عليه، وفيما بقي له. والذي يجري هذه المحاسبة غالباً هو الولي، ويكون من طرف واحد، فنبه الله تعالى الأولياء بأن لهم طرفاً ثانياً في تلك المحاسبة، وكفى به حسيباً، وهذا يقتضي كمال العلم والاطلاع، فليحذر الولي من المغالطة في الحساب في حق اليتيم.

ثم يوقف المولى سبحانه هؤلاء كفلاء الأيتام موقفاً حرجاً، ويثير فيه عواطفهم الأبوية على أولادهم: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾ [النساء: ٩]. أي إن كنتم اليوم كفلاء هؤلاء الأيتام وهم ضعاف، فاحذروا أن تتركوا من خلفكم ذرية ضعافاً كهؤلاء الأيتام ويتولاهم آخرون، فكما تحبون أن يعامل الآخرون ذرياتكم، فعاملوا هؤلاء وقولوا قولاً سديداً. إنه هَدْي القرآن، وكفى بالله تعالى هادياً.

١٥ ـ هدي القرآن في التعامل بالكيل:

وهذا هو الموضوع السابع في آية: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾. وذلك في قوله تعالى في الآية التي تليها: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

ونلحظ أن الأمر بالوفاء بالكيل والميزان جاء في سياقٍ عظيم الأهمية، انتظم من ضروريات الدين ومهمات التشريع: حفظ الأديان في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾. وحقوق الوالدين في قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾. وحقوق الأولاد وإبطال عمل الجاهلية الخطير في قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم

﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾. وتطهير المجتمع من كل رذيلة وفاحشة في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ وفيه حفظ الأنساب بالأولوية، وبعد ذلك حفظ النفوس في قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. ثم جاءت الآية بعدها مبتدأة برعاية اليتيم والحفاظ على ماله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾. وكل تلك المواضيع من ضروريات الدين ومهمات الحياة، يليها هذا الموضوع وهو أعم من حفظ مال اليتيم، لأنه يتعلق بأموال الأمة جميعها ماثلة في معيار التأمل ومقياسه الكيل والوزن، ومثل هذا السياق من سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾ [الإسراء: ٣١ ـ ٣٥]. فهذا السياق كما نرى نظير السياق الذي في سورة الأنعام جاء بالحفاظ على الضروريات وجاء معها بالحفاظ على الكيل، ما يعطي للكيل أهمية بالغةً، ويلاحظ في السورتين والسياقين معاً التأكيد على الكيل والوزن بالقسطاس المستقيم، والقسط والقسطاس العدل، وقال صاحب القاموس: والقسط النصيب والحصة، ومكيال يسع نصف صاع.

والمتأمل في قضية المكيال والميزان يجدها من أهم قضايا المجتمعات قديماً وحديثاً، إذ بها بيان المقادير في الأشياء، إما كيلاً وإما وزناً، ولا يخرج التقدير في العالم عن ذلك وقد استحدثت موازين لأمور تكاد تكون غير محسوسة، كمقياس الضغط الجوي، والرطوبة، وسرعة الرياح والمتحركات، وكثافة السوائل إلى غير ذلك، ولم يعد العالم يصلح إلا بضبط المكاييل والموازين من أبسط شيء كالأكل والشرب، إلى أحدث ما وصلت إليه الحضارة والمدنية الحديثة، فإن جميع الصناعات تقوم على موازين منضبطة دقيقة، وما توصلوا إلى غزو الفضاء، ولا الغوص تحت الماء، إلا بمقاييس وموازين دقيقة، وقد أجمع المؤرخون أن المكيال والميزان والمقياس وهو نوع

من الكيل في حقيقتين: مكيال المسافات والأبعاد، أجمعوا على أن الإنسان عرف تلك الآلات لضبط المقادير من أول وجود النظام الجماعي على وجه الأرض، ولكنهم لم يعثروا إلا على مكاييل وموازين ومقاييس من عهد العصور الفرعونية القديمة، ولكننا كمسلمين نعرف وجود الكيل والوزن قبل وجود الإنسان، ولكن لا على ما نعرفه وندركه، بل على عموم الضبط في الوزن والتقدير، كما قال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾ [الحجر: ١٩]. وأعم من هذا في عموم الخلق وجميع الكائنات: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩]. وهكذا في تصريف أمور الوزن ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر: ٢١]. وقوله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى: ٢٧]. وتلك الأجنة في أرحامها: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات: ٢٠ ـ ٢٣]. تلك إيماءات إلى بداية وجود المقادير وتقديرات الأمور من المولى عزّ وجل، وقد جاءت نصوص صريحة أن الله تعالى أنزل الميزان مع الكتب السماوية: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ﴾ [الشورى: ١٧]. ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ [الحديد: ٢٥]. فنص هنا ـ سبحانه ـ أنه أرسل الرسل بالبينات، وأنزل معهم الكتاب، وهذه مؤهلات الهداية والدعوة إلى الله، ومع البينات والكتاب أنزل الميزان، ومهمته ليقوم الناس بالقسط، فالكتاب ميزان التعامل والحياة، ولذا قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٩]. ومن منطوق آية سورة الحديد ومفهومها، نعلم أن قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أن الميزان الذي مع الكتاب أعم من هذا الميزان الذي نعهده بالكفتين أو غيرهما مما توزن به الماديات، بل هو أعم، لأن قوله تعالى: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ لا يتم بهذا الميزان وحده، بل بعموم مسمى الميزان، حتى إن العدالة والقسط بين الناس داخل في ذلك، أعني ميزان العدالة، ولهذا فالآية الكريمة جمعت

مقومات الأمر: رسل تهدي وتبين، وكتب تشرع، وعدالة تطبق. تطبق نصوص الكتاب، فتزن أعمال العباد على موازين الكتاب، وقوة تنفذ في ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ ولهذا فالقضاء ميزان، بل والمدرس مع الطلاب ميزان، ميزان في النصح لهم جميعاً، ميزان في تقدير درجاتهم وتصنيفهم، والطبيب ميزان، ميزان في معاملته للمرضى، وكل إنسان في نفسه ميزان فيما وُلّيَ عليه «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»، بل إن الميزان الذي بدأ وجوده من الله أنزله مع الكتب السماوية، وألزم الأمة بتطبيقه وسائر الأمم في معاملاتهم، فإنه يأتي أيضاً يوم القيامة للعدالة بين الخلائق في ميزان أعمالهم على ما يريده الله، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. موازين ما أدقها وأعدلها ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨]. ويتوقف مصير العباد على نتائج تلك الموازين ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ [الأعراف: ٨ ـ ٩]. وهكذا يظهر لنا هَدْي القرآن في المكيال والميزان ومدى أهميتهما.

١٦ ـ هدي القرآن في المكيال مع الأمم:

تقدم في الفقرة السابقة أهمية المكيال والميزان منذ هذا الوجود إلى مجيء اليوم الموعود، وأنه ما من شخص في ذاته ولا أمة في مجتمعها يمكن أن تستغني عنه، وقد بين لنا القرآن آثار الكيل والوزن في حياة الأمم.

وهذا نبي الله يوسف عليه السلام لما جعله الْمَلِكُ على خزائن الأرض، وأقبلت الجماعات تمير أهلها، وجاءه إخوته، تكرر ذكر الكيل والمكيال عدة مرات مع بيان المقادير، كما في قولهم لأبيهم في إرسال أخيهم معهم: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [يوسف: ٦٥]. فبينوا لنا أنه كان لكل بعير كيل محدد.

وجاء أيضاً بيان نوع المكيال في قضية احتياله لأخذ أخيه، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾

[يوسف: ٧٠ ـ ٧٢]. قال القرطبي: السقاية والصواع شيء واحد، وفي القاموس: السقاية إناء يُسقى به، وهذه حالة عالمية اجتاحت المنطقة، وأعلنت فيها ما يشبه اليوم حالة الطوارئ، واحتكم الملك في تجاوز هذه الأزمة الاقتصادية إلى المكيال، ليعطي كل ذي حق حقه، ويوازن بين الجميع بمكيال معلوم وحدته ﴿صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ وهنا لفتة تشريعية إدارية دقيقة، وهي مضمون نسبة الصواع للملك، وقد اتفقت الأمم أن المكيال والميزان ومعهما نوع العملة التي يتعاملون بها أن ذلك من حق ولي الأمر، فهو الذي يحدد نوع الوحدة التي يكتالون بها ويزنون بها، وكذلك المقياس الذي يقيسون به، ونوع النقد الذي يتعاملون به، ولا يحق لأحد أن يفتات على ولي الأمر في شيء من ذلك، لا أن يتبدل به غيره، ولا ينقص من قدره، ولا يزيد فيه. قال العز بن عبد السلام رحمه الله: أربع من حق ولي الأمر، وعلى الرعية طاعته قطعاً فيها: نوعية المكيال والميزان، والنقد، وإعلان الحرب على العدو، وقبول الهدنة. ومن هنا كانت جميع الحكومات توظف جهات مختصة تصدر وتصنع وتراقب أنواع المكاييل والموازين، وتعايرها وتوقع عليها الأختام بالصلاحية، وتعاقب من يتلاعب فيها أو في نوع استعمالها، كما هو معلوم في نظام الحسبة على ما سيأتي بيان أنواع الغش فيه عند الكلام على آية المطففين.

أما وحدة الكيل والوزن هنا فهي (الصاع)، وهو وحدة المكيال في عهده ﷺ، وبه تقدير جميع المقادير الشرعية: في زكاة المال، وزكاة الفطرة، ومقادير الكفارات في حالة الإطعام، وهناك (الوسق) وهو ستون صاعاً. ولا شك أن لكل أمة ما تعارفت عليه. والوحدة في الوزن منذ التاريخ القديم المثقال والدرهم، ومن ثم القنطار، وهي الوحدة الإسلامية أيضاً في تقدير المقدرات الشرعية كما في نصاب الذهب عشرون مثقالاً، ونصاب الفضة مئتا درهم، وكانت الأوقية وحدة نقد ووزن معاً. وأيضاً لكل أمة ما تعارفت عليه من الوحدة في الوزن، وقد أصبح العالم كله تقريباً يتعامل بالوحدة الجديدة (الجرام والكيلو والطن). وإن من ألزم ما يكون على العالم الإسلامي اليوم الحفاظ على وحدة مكاييلها وموازينها وعملاتها. إن لم يكن بأعيانها على ما كانت عليه فبمعرفتها بالنسبة لما استجد في حياتها اليوم، لتستطيع أن تؤدي

حق الله المتعلق بتلك المكاييل والموازين، وقد وضعت كتباً وجداول تربط بين القديم والحديث، ليسهل على المسلم التعامل بها، وسنقدم خلاصة بذلك في نهاية هذا الكتاب إن شاء الله.

وبالعودة إلى النص الذي معنا نجد قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢]. وفي مثل السياق في سورة الإسراء: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِۚ﴾ [الإسراء: ٣٥]. وفي الأعراف: ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]. وفي الشعراء: ﴿۞ أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾﴾ [الشعراء: ١٨١].

فالنص الأول يحث على توفية الكيل والميزان بالقسط. نهاية العدل كما قيل: ميزان قسط لا يخيس شعيرة. وهذا فيه حرج شديد لدقته وصعوبته، ولرفع هذا الحرج وتيسير تلك الصعوبة، أعقبه سبحانه بقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ﴾. أي ليتم التكليف في حدود الطاقة، كما قيل: إذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع.

وفي النص الثاني الوارد في سورة الإسراء: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِۚ﴾ والقسطاس المستقيم هو الاعتدال والأمانة في الكيل.

والنص الثالث في سورة الأعراف جاء مع قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف: ٨٥]. فربط السياق هنا بين عبادة الله وحده، وبين الوفاء بالكيل والميزان، وبيَّن حكماً وإرشاداً جديدين في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ أي عن طريق الكيل والوزن في عدم الوفاء والإبقاء، وهو نوع من عدم الأمانة، وبيَّن سبحانه أن هذا من الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، سواء كان الإفساد المباشر عن طريق أكل أموال الناس بالباطل، أو عن طريق العقوبات، تنزل بهم من عدم إنزال المطر والأخذ بالسنين على ما جاء في السنة النبوية.

وفي سورة هود أعيد نفس السياق مع إيضاح أكثر ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ

قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ أي في سعة من نعم الله، ولا موجب لنقص المكيال والميزان ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ أي ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩]. ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ أي بنقص المكيال والميزان الذي حذرهم فيه. ثم أرشدهم إلى الطريق السليم فيما يتعلق بتطلع نفوسهم، وإشباع أطماعهم، فقال: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ أي إن كنتم تنقصون المكيال والميزان ولا توفون الكيل أملاً في تحصيل زيادة من المال وتوسعة في الكسب، فإن هذا الطريق غير سليم، ولكن بقية الله ما ادخره الله لكم وما ندبكم إليه هو ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [هود: ٨٤ ـ ٨٦]. فاحرصوا عليه.

١٧ ـ الوعيد الشديد على تطفيف الكيل والوزن:

وبيان أنواعه، وحيلهم فيه:

كلما كان الأمر خطيراً ومفاسده كبيرة، كلما كان النهي عنه أكيداً، والوعيد عليه شديداً. وقد تقدم بيان مدى الخطر والمفاسد في تطفيف الكيل والوزن، والنواهي الأكيدة في التحذير منه، والأوامر الصريحة في الحث على إبقائها بالقسط بقدر وِسْعِ المكلف، وأن الطاعة في حدود الطاقة، وقد جاء الوعيد في أشد صوره، والتحذير في أقصى معانيه، ولا أدل على ذلك من إفراد سورة من سور القرآن في شأنه، يتوعدهم الله فيها في الدنيا، ويهددهم فيها يوم يقوم الناس لرب العالمين، تلك السورة هي المسماة باسم (المطففين) ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥﴾ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ﴿٨﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٩﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾ [المطففين: ١ ـ ١٢]. وبتأمل مستهل هذه السورة الكريمة نجدها وبدون مقدمات تستهل بالوعيد الشديد الذي لم يعهد في سورة غيرها، إلا أن تكون سورة

(براءة) لأن الويل هو أشد أنواع الوعيد، ولا تأتي في القرآن إلا في المواقف الشديدة، ومع الآثام الجسام، وقد جاءت بمشتقاتها في كتاب الله أربعين مرة. ويلاحظ أنها لم تتكرر إلا في حق الكفار والمشركين، وفي حق بني إسرائيل الذين يحرفون كلام الله في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٩]. وتكررت في حق المطففين مرتين الأولى في مستهل السورة أول السياق ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾ والثانية في نهاية السياق ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ علماً بأن (الويل للمكذبين) تكرر في سورة المرسلات عشر مرات، مما يؤكد عظيم خطر الكيل والوزن، ويحذر المتساهلين فيهما على ما سيأتي إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾. التطفيف: أخذ الطفيف. وهو الشيء القليل. وعبر عما يأخذه صاحب الكيل به، لأنه لا يتأتى له أخذ شيء إلا القليل. ولكنه لما كان بهذه الصورة، كان الوعيد عليه شديداً. ثم بيَّن تعالى صورة تعامل هؤلاء: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾﴾ إذا كان الحق لهم على الناس يستوفونه ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾. إذا كالوا للناس: أي كان الحق للغير بخسوهم حقهم، ويخسرون كيلهم، سواء كان بالتلاعب في طريقة الكيل، أو باتخاذ مكيالين مختلفين. كما ذكر القرطبي عن رجل كان له مكيال كبير يستوفي به لنفسه، ومكيال صغير يكيل به إذا كان الحق عليه للغير. وفي الضمير الذي مع ﴿كَالُوهُمْ﴾ احتمالان: هل هو مفعول كالوا أم هو ضمير فصل للتأكيد؟ والصحيح الأول، لعدم وجود ألف مع (كالوا) فتكون (كالوهم) كلمة واحدة. كما ذكره القرطبي في تفسيره، ولكن يلاحظ أن الفعل (كال) يتعدى إلى مفعولين، والمفعول الأول موجود وهو الضمير (هم). ولم يذكر المفعول الثاني، أي كالوهم أي شيء حبوباً أو دقيقاً أو زيتاً أو عسلاً؟ وحذف المفعول الثاني ينبئ بالعموم في ﴿كَالُوهُمْ﴾، أي مطلق أخذ وعطاء بين طرفين، حتى رُوي عن مالك: في الوضوء تطفيف، وفي الصلاة تطفيف. يعني إسراف في الماء، ونقص في العمل. ويمكن القول: إن هذا التطفيف قد يصدق على قضايا العمال مع المؤسسات إذا كان الحق للمؤسسة من ساعات

العمل أو مقدار الإنتاج، تستوفيه المؤسسة كاملاً، وما كان للعامل من أجر أو مكافأة أو ساعات راحة أو إجازات، لا تمكنه من استيفائه كاملاً، أو تماطله فيه، فهذا من التطفيف. بل ذهب بعض الناس إلى إلحاق كل أخذ شيء بدون حق بالتطفيف. كما روى القرطبي أن رجلاً دخل على عبد الملك فقال له: علمت ما أنزل الله في المطففين وما يأخذون من القليل بحيلة الكيل، فكيف بك وما تأخذه من الناس بغير حيلة؟ وهكذا كل من غصب أو سرق أو اختلس أو سلب ونهب، فإنه يلحقه وعيد المطففين من باب أولى. وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾، يبين أن أولئك المطففين لم يجرؤوا على ذلك إلا بسبب أنهم لم يظنوا أنهم مبعوثون، سواء كان الظن بمعنى اليقين: لم يوقنوا بالبعث كما في قوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣]. أي أيقنوا. أو أن الظن بمعنى الشك والتردد، وكان مجرد الظن بالبعث كافياً لتركهم هذا العمل، فما بالك إذا أيقنوا؟

وهنا دلالة من جانبين:

الجانب الأول: هو أن الدافع لهم على التطفيف هو عدم اليقين بالبعث، ومن ثم القيام لرب العالمين فيجازيهم. وقد أسند الأمر هنا للبعث وقيامهم لرب العالمين، لأن المطفف غالباً يكون عمله خفياً لأن أخذ الشيء الطفيف غالباً لا يكون ظاهراً والمطفف يخفيه بأنواع الحيل، ولكن الله تعالى لا تخفى عليه خافية، ولهذا فهو سبحانه الذي سيحاسب عليه، وهذا أعظم موجب للحذر.

والجانب الثاني: من جانبي الدلالة هنا: هو أن العلة في التطفيف عدم الخوف من الله، وهذا حق، ولكن يلاحظ أن المطفف قد جمع عدة خصال ذميمة، وهي:

أولاً: الاحتيال لأكل أموال الناس بالباطل.

ثانياً: تجرده من المروءة وتدني نفسه إلى هذا القدر الطفيف، حتى قالت امرأة: لا تنتظر مروءة ممن مروءته في رؤوس المكيال.

ثالثاً: عدم الأمانة، لأن المتعامل معه قد ائتمنه سواء في كيفية الكيل، أم نوعية المكيال، والكيل السليم كما قال مالك: أرسل وصب عليه صباً حتى

إذا استوفى أرسل يدك ولا تمسك. (القرطبي). والوزن السليم كما جاء عن أمير المؤمنين علي: مر على رجل يزن فأرجح الميزان فأكفأ الميزان، وقال: زن بالقسط أولاً ثم أرجح. وقد كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يمر بالسوق، فإذا رأى من لا يحسن الكيل أو الوزن أخرجه من السوق وقال: لا تفسد علينا سوقنا، ولا تمنع القطر عنا. يعني ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: «خمس بخمس: ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم، ولا حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت الفاحشة فيهم إلا ظهر فيهم الطاعون، وما طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس الله عنهم المطر».

ورُوي أنها نزلت مقدم النبي ﷺ المدينة، وكانوا أسوأ الناس كيلاً، فأصبحوا أحسن الناس كيلاً. وهم أحسن الناس كيلاً إلى اليوم.

١٨ ـ أنواع التطفيف في الكيل والوزن، وبيان العلاقة بين القديم والجديد في المكاييل والموازين:

تقدم أن المطفف في الكيل لا يوقن ببعث ولا بالقيام لرب العالمين، ولو أيقن فإن عمله يشبه من لم يوقن، كما قيل:

جاء شقيق عارضاً رمحه ... إن بني عمك فيهم سلاح

فهو يعلم أن في بني عمه سلاح، وهو جاء ليحاربهم، ولكن عمله عمل من لا يوقن بالسلاح في بني عمه، حيث لم يستعد لملاقاتهم، فوضع رمحه معترضاً أمامه دون مبالاة.

وتقدم بيان جانبه النفسي من عدم المروءة، وقلة الأمانة، وعدم المروءة: يجعله لا يتورع عن أي حيلة يتوصل بها إلى أخذ الطفيف من حق الغير. وعدم الأمانة: يجعله يخفي كل حيلة وطريقة... الخ. وعليه فحيل هؤلاء متعددة، وطرقهم مختلفة، ولا يطلع عليها إلا ذو الخبرة والمعرفة، ولذا كان حسابهم على الله والرقيب عليهم هو الله ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾. وإذا كان المكيال السليم الميزان السليم كما ورد عن مالك رحمه الله في المكيال، وعن علي رضي الله عنه في الميزان، فإن ما عداه يكون تطفيفاً.

أما ما جاء عن مالك: فكما رواه القرطبي قال: روى ابن القاسم عن مالك أنه قرأ ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ فقال: لا تطفف ولا تخلب. أو: ولا تجلب ولكن أرسل وصب عليه صباً حتى إذا استوفى أرسل يدك ولا تمسك. أي أنه يصب الحب في المكيال حتى إذا استوفى أي وصل إلى حافته من أعلى صب الحب ولا يضع يده على حافة المكيال يمسك بها الحب فيكون الحب فوق فتحة المكيال بشكل هرمي بدون مساندة بيده.

وقال عبد الملك بن الماجشون: نهى رسول الله ﷺ عن مسح الطفاف، وقال «إن البركة في رأسه». يعني في رأس المكيل الذي فوق فتحة المكيال.

وقيل: إن مكيال فرعون كان يمسح بالحديدة، يعني بعد أن يملأ المكيال تمرر الحديدة على فتحته من أعلى لتزيل ما ارتفع أعلاه.

هذه الصورة التي جاءت عن مالك في كيفية الكيل هي الأصل، وما عداها تطفيف على ما سيأتي بيانه إن شاء الله.

أما كيفية الوزن الواردة عن علي ﷺ: فإنه مر على رجل يزن فأرجح، فقلب علي ﷺ كفتي الميزان وقال له: سادّ الميزان أولاً ثم أرجحه.

أما أنواع التطفيف في الكيل والوزن: فكما جاء في «معالم القربة في أحكام الحسبة» لمحمد بن محمد بن أحمد القرشي المعروف بابن الأخوة، في بيان ما يجب على المحتسب ملاحظته في الأسواق: ذكر أن من الغش في المكيال أن يضع المكيال في قاع المكيال طبقة من الجبس أو العجين اليابس، فيأخذ حَيِّزاً من المكيال. وبعضهم يتخذ المكيال خشبة متينة ينقر جوفها، ولكنه لا ينقر المقدار اللازم، فيوهم بطول الخشبة من الظاهر وهو قد أنقص المقدار من الداخل. ومما ذكر الإمام ابن تيمية من هذا القبيل أن يتخذ المكيال من نوع غير صلب، فيضغطه بين يديه فيضيق ولا يأخذ القدر الكافي، وإذا أراد الزيادة وضع يده أعلى فم المكيال ورفع المكيل وسنده بيده فيسع زيادة عن المقدار المحدد.

أما من اللعب بالميزان فقد يكون بإنقاص السنج، ولهذا كانوا سابقاً يتخذونها من الزجاج لقوة صلابته فلا تتآكل. وقد يعمد إلى إحدى الكفتين فيضع تحتها الشمع أو أي شيء، ولكي لا يظهر عمله هذا يجعل السنجة دائماً

في الكفة الثانية، لتظل راجحة فلا يفهم الآخرون، أو أنه يُلقي بالموزون بقوة فترجح كفته ويأخذه بسرعة قبل أن ترجح الكفة، أو يدنيه من وجهه فينفخ على كفة الموزون فترجح، أو يتلاعب بأصابعه في لسان الميزان بحركات تجعل كفة الموزون ترجح، إلى غير ذلك من أنواع الحيل والتلاعب، ولعل مشاكل الميزان آخذة في التلاشي لوجود تلك الموازين الحديثة، ذات الكفة الواحدة والأرقام، وخاصة (الألكترونية) منها، وكان غرضنا الإشارة إلى تقادم أنواع التلاعب وتنبيه العلماء عليها، ولا شك أن لكل زمان وكل مجتمع أوضاعه وملابساته، والآن يلزمنا إزاء التطور الذي نال الميزان، وأخذ معه المكيال، وظهرت المعايير الجديدة في الكيل والوزن، وصرنا في حاجة إلى ربط القديم المندثر بالجديد المتداول، وقد وضعت في ذلك رسائل، وأُلفت كتب، وأُجريت بحوث على ما يوجد في دور الآثار والمتاحف العالمية لهذا الغرض.

ولما كان الأصل في الكيل والمكيال لأهل المدينة، والأصل في الوزن والميزان لأهل مكة، فإن وحدة الكيل بالمدينة كانت المد، والصاع، والوسق. والصاع كان أربعة أمداد، والوسق كان ستين صاعاً. وهذه المقادير معرفتها فرض كفاية في الأمة، لأنها ترتبط بها فريضة الزكاة في الفطر، وزكاة الحبوب. فزكاة الفطر: صاع، ونصاب زكاة الحبوب خمسة أوسق، أي خمسة في ستين تساوي ثلاثمائة صاع. كما في الحديث: «ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة». وكذلك في الكفارة إطعام ستين مسكيناً يقدر إطعام المسكين الواحد عن طريق المد أو الصاع، فتعين معرفة ذلك بما يقابله في الوقت الحاضر، وكذلك في الميزان الوحدة فيه الدرهم، فالأوقية، فالقنطار. ويدخل الدرهم ومعه المثقال، وهو الدينار في زكاة المال، فنصاب الذهب عشرون مثقالاً. ونصاب الفضة مئتا درهم. والآن لم يوجد بأيدي الناس لا دراهم شرعية، ولا مثاقيل، فيلزم معرفة مقابل ذلك بالمقدارات الحديثة اليوم، ولما كان نظام (الجرام والكيلو) هو السائد في العالم اليوم بدلاً من الرطل والأوقية والأقة، فإن ربط الصاع والدرهم والدينار به هو أقرب ما يكون للجميع، سواء في الأحكام الشرعية أو غيرها، والذي يهمنا حفظ الحقوق بصفة عامة، وتحديد الكيل والوزن من ناحية أخرى.

أما الصاع بوحدة (الجرام والكيلو) بالنسبة للماء حيث لم يختلف كيله عن وزنه، فإنه بعد التحري والتجارب يساوي «٣١٠٠» فأي إناء يسع هذا القدر فهو صاع يعتبر في محله، وأما المثقال بـ (الجرام) فهو «٤,٢٤». وأما الدرهم بـ (الجرام) فهو «٢,٩٧» هذه النسبة للمعاملات الشرعية، أما مكيال السوق وميزانه فهذا بحسب اختيار السلطان، ولا يجوز التلاعب فيه بنقص أو زيادة، إذ الغرض منه حفظ الحقوق، وسلامة التعامل، ووحدة الكيل والوزن.

١٩ ـ هدي القرآن في القول العدل والوفاء بالعهد:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢]. وهذان هما الهديان الثامن والتاسع في سياق قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾. حيث نهى عن الشرك بالله، وأمر بالإحسان للوالدين، ونهى عن قتل الأولاد، ثم نهى عن اقتراب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ثم نهى عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، ثم كفل اليتيم وحفظ ماله، ثم عدل الكيل والوزن. تعاليم سامية وهدى ونور، شملت وعمت من حق الله في خالص توحيده، وحق الوالدين في كامل برهما، ورعاية الأولاد وحفظهم وصيانتهم، ثم تطهير المجتمع الإسلامي من كل فاحشة ظاهرة وباطنة، سراً وعلانية، وعصمة النفوس المؤمنة البريئة. فبهذا يبنى المجتمع على قاعدة العقيدة السليمة، مرتبطاً بخالقه وخالق الأرض والسماء، ومدبر أمره وأمر العالم كله. ثم هو مجتمع مترابط الأطراف، الآباء بالأبناء، والأبناء بالآباء. مجتمع طُهر وعفة، محفوظة فيه النفوس، محترم فيه الأفراد. ثم هو مجتمع تضامن وتكافل: مضمونة فيه حقوق الضعفاء، مكفولة فيه واجبات الأيتام، ومحترم فيه أموالهم، موفورة فيه رعاية اليتيم حتى يكتمل نموه، ويستوي عوده، ويظهر رشده، وبالتالي يصبح فرداً صالحاً متأهلاً لحمل مسؤوليته، أهلاً لأن يسهم في مجتمعه ويرد إليه الجميل في رعاية يتامى الآخرين، ثم جاء هذا الهدي المتكامل إلى حفظ الأموال وعموم الحقوق لعموم أفراد المجتمع، ماثلة في عدالة الكيل والوزن، فأبطل التلاعب بمعايير الحقوق، وقوَّم هذا المعيار بالقسط، والقسط نهاية العدل والتحري إلى حد

نهاية الوسع الإنساني، وما وراء الوسع فلا تكليف فيه، وإذا أفرغ الإنسان وسعه في التحري في إقامة المكيال والميزان، وأوفى الكيل والوزن في تعامله مع الآخرين، أخذاً أو عطاءً، فإن أموال المجتمع ستكون محترمة ومحفوظة، بل سيصبح الإنسان أميناً مأموناً على كل ما يكون منه للآخرين، إن أعطى، أعطى بوفاء، وإن أخذ، أخذ بأمان، فتوفرت المثالية في جميع الجوانب الفعلية.

وفي النهاية جاء الهدي القرآني في هذا السياق في الجانب القولي، فجاء بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾. وهما الثامن والتاسع من عموم السياق. ونلاحظ أنهما متلازمان، لأن العهد من القول ولا يظهره إلا القول منطوقاً مسموعاً، أو مكتوباً معبراً، ولكن القول أعم من كونه عهداً أو وعداً أو غير ذلك، لأنه يشمل كل منطوق اللسان، ولو أراد إنسان أن يستوفي هذا الباب في هذا الهدي لجاء على جميع التكاليف التي يدخلها القول مطلقاً، ولكن على سبيل الإجمال بما يسعه هذا الكتاب نشير إلى الآتي:

أولاً: قضايا القول بالعدل هي أول قضية في سياق ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ﴾ وهي قضية التوحيد ونفي الشرك: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، فالنطق بالشهادتين هو أول قضايا القول بالعدل، وما عداها فظلم، كما قال لقمان الحكيم: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

ثانياً: في ثانية قضايا السياق ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ فكل قول مع الوالدين يجب التزام العدل فيه، من وعد وعهد، وبر وإحسان. وما عدا ذلك فظلم لهما، حتى التأفيف: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣].

ثالثاً: ثالثة القضايا مع الأولاد في تربيتهم، وتعليمهم ورعايتهم والتسوية بينهم وإلّا عَرَّضهم للنار عياذاً بالله. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]. والحديث «اتقوا الله في أولادكم واعدلوا بينهم».

رابعاً: مع الزوجات في القَسْم، وما وكل إليه من حقوقهن، وإن كان يعجز من إقامة العدالة كاملة، ولكن في حدود الوسع والطاقة، كما عذر الله تعالى في ذلك في قوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾. ثم

يحذر من تعمد الميل كل الميل بقوله: ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. أي بعد الإصلاح ما استطعتم، وبعد مخافة الله وتقواه، فإن الله سبحانه غفور لما وقع منكم من ميل غير متعمد، كميل القلب، واسترواح النفس لإحداهن، فإنه يغفره. رحيم بكم لم يحاسبكم على ما لا تملكون تعديله، رحيم بكم لم يكلفكم ما ليس في وسعكم. وبهذا تكون البيوت معمورة بالإصلاح، مرتبطة بالتقوى، مترابطة بين الأفراد، والآباء، والأبناء، والزوجات. وبقدر ترابط البيت وتضامن الأسرة، بقدر ما يفيض ذلك على المجتمع، إذ المجتمع إنما هو تلك الأسر.

خامساً: قضايا القول بالعدل: هي أيضاً ما جاء في السياق العام ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾: ومن فواحش اللسان: السباب، والكذب، والغيبة، والنميمة. وكبراها قذف المحصنات المؤمنات الغافلات. وقد تضافرت النصوص من الكتاب والسنة في النهي عن ذلك كله:

وأما **الكذب**: فقد سئل ﷺ «أيسرق المؤمن؟ أيزني؟ كل ذلك يقول: «نعم»، ولما سئل أيكذب؟ قال: لا». وأقبح الكذب هو الكذب على الله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ [الزمر: ٣٢]. ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٠٥]. والكذاب ملازم الكذب، يُخشى عليه الحرمان من الهداية، لأنه غالباً ما يكون منافقاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

وأما **الغيبة**: فيكفي فيها تشبيهها بأكل لحم أخيه ميتاً، ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ﴾.

وكفى **بالنمام** مقتاً: أن يسقط من عداد الرجال الذين **يُطْمَأَنُّ** لهم. وكلها أقوال جانَبها العدل.

وكذلك **القذف** بحقٍّ كان أو بالباطل: روى مالك رحمه الله في الموطأ: أن رجلاً خطب فتاةً فقال أخوها: إنها كانت قد فجرت. **فنظر** ابن عمر رضي الله عنه وقال: هل سألك أحد؟ أما القذف بالباطل: فما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾ [النساء: ١١٢]. وفي الحديث لما سئل ﷺ عن الغيبة وفسرها بأنها: «ذكرك أخاك بما

يكره» قال السائل: أرأيت إن كان فيه ما أقول. فقال ﷺ: «إن كان فيه ما تقول فقد كذبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته». وهذا هو مجانبة العدل في القول في هذا المجال، وتحري القول بالعدل يجنب المجتمع من فتنة النميمة المفرقة للجماعة. ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ لأنها قد تؤدي إلى القتال. ومن هنا كان الواجب التحري في الأخبار: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات: ٦]. فرب نميمة أوقدت نار حرب.

وأما قذف المحصنات: فقد جعل الله فيه حداً في الدنيا وعقاباً في الآخرة، ففي الحد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ ...﴾ [النور: ٤]. ثم بين كبير هذا الجرم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٣ ـ ٢٤]. يعني بما جانبوا العدل في القول في هذا الجانب، فقد يهدمون بيوتاً قائمة، ويشتتون أسراً مجتمعة، ويسفكون دماء بريئةً. وسلامة كل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾.

٢٠ ـ علاقة ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ بذوي القربى خاصة:

تقدم في السابق بيان العدالة في القول في عموم المجالات التي للسان عمل فيها، ومع قضايا السياق الكامل: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾.

وهنا نوع خاص تشير إليه الآية الكريمة، وهو نوع يرتفع بالشعور الإنساني، وبالضمير الحي، وبالمعتقد السليم إلى قمة الكمال والعدالة، شعور وإحساس تمليه عقيدة التوحيد المطلقة: توحيد العبادة لله، توحيد القصد في الأعمال، توحيد مقاييس الأشخاص أمام الحق والعدل، توحيد يربط الأمة كلها ويضم أفراد المجتمع، لا فرق بين قريب وبعيد، فالبعيد، الحق يدنيه حتى يكون قريباً، والقريب، الباطل يقصيه حتى يكون بعيداً. بل إنه كلما بعد عن الباطل اقترب من الحق، وذلك بعامل ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ ولو كان مع عدو، كقوله

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ [المائدة: ٨]. حتى مع المشركين، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٢﴾ [المائدة: ٢]. حتى المشركين الذين يصدون عن المسجد الحرام يجب أن نعاملهم بالعدل، فالقريب والبعيد، والعدو والصديق في ذلك سواء: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ وعلاقة القريب هنا تكون غالباً في باب التحاكم والتقاضي، سواء في الادعاء، أو في الإجابة، أو في الشهادة، أو في تزكية الشهود، وعلى رأس ذلك كله في الحكم الذي يصدر من القاضي. ولكلٍّ مبحثه كالآتي:

أولاً في الادعاء: حينما يدعي المدعي بحق على إنسان أمام القضاء، فيلزمه العدالة في الادعاء، سواء كانت دعواه على ذي قرابة منه أم على أجنبي، فالقريب لا يطمع في قرابته، ويدعي فوق ما له عنده، مثل قضايا الميراث: فلا يتجاوز في دعواه على أقاربه حصته من الميراث. وفي الإجابة على الدعوى كذلك: لا يجيب على الدعوى إلا بالقول العدل، سواء كان الادعاء من قريب أم بعيد، فالقريب: أحق بإبقاء الحق إليه، والبعيد: لا يحق مطله في حقه. والقول بالعدل هو سبيل الحكم بالعدل، لأن القاضي ليس أمامه إلا ما يسمع من كلام الخصمين كما جاء في حديث أم سلمة رضي الله عنها: اختصم اثنان في مواريث بينهما دُرِست معالمها، ولا بينة عندهما، فقال ﷺ: «إنكم تختصمون إليَّ وإنما أنا بشر أقضي لكم على نحو ما أسمع، فلعلّ أحدكم يكون ألحن بحجته من الآخر، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن حكمت له بشيء من حق أخيه، فإنما أقطع له قطعة من النار، يأتي بها إسطاماً في عنقه يوم القيامة. . . .» إلى آخر الحديث. وهنا يأتي دور الشهادة وموقف الشهود، وهي أحرج ما تكون مع ذوي القربى، لأنها توقف الإنسان وقوف الحرج بين العقل والعاطفة، وهو أشد ما يكون على الإنسان، لأن العقل يقول: افعل أو لا

تفعل، فهو تبع للمنطق السليم والمنهج المستقيم. أما العاطفة فهي لينة هينة، ميالة بطبعها وعطفها إلى ذوي القرابة أو من يتعاطف معها. وفي القيام بالشهادة وأمام الحاكم ولقريب منه أو عليه، فإن كانت لقريب فقد اجتمعت كل العوامل: عامل الحق، وعاطفة القرابة. ولكن لا يتجاوز الواقع بطغيان العاطفة. ومن هنا قد يمنع القريب قرابة دنيا كالأصول والفروع والزوجين والحواشي من الطبقة الأولى كالأخوة، قد يمنعون من الشهادة بعضهم لبعض، لمظنة التهمة بالعاطفة، فإن كانت الشهادة على القريب فهذا هو الموقف الحرج، وقد جاء قوله تعالى: ﴿وَإِذَا﴾ وهذا لفظ فيه الشرط للمستقبل، قال الشيخ الطاهر بن عاشور: فيه إشعار بأنه في سعة من القول، فإن اضطر إليه فليكن بالعدل. وقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ فإن ﴿لَوْ﴾ هنا لشدة التأكيد على تحري العدل، لأن المقام مع ذي القربى، فيحتاج الشاهد إلى قوة عزيمة، وقوة يقين، وقوة مواجهة روابط القرابة، ومقاومة العاطفة حتى يشهد بالحق، ويعدل في الشهادة، علماً بأن شهادة الحق على أقربائه هي عين نصرتهم، وحقيقة التعاطف معهم، لأنها تنقذهم من ورطة الباطل، وتبعدهم عن حمأة الظلم. وقد قال ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً». قالوا: أنصره مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟ قال: «تمنعه من الظلم». وقد جاء في هذا المنهج ما هو أبعد من ذلك في قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥]. فهنا ألزمنا الله تعالى القيام بالقسط في الشهادة لله سبحانه، لأنه المطلع على السرائر مما يهدد العباد فيقولوا الحق. والبداية بالإنسان نفسه ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ وهذا في شأن الإقرار والاعتراف بما في الذمة من حقوق للآخرين، كما جاء صريحاً في آية المداينة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ لأنه حينما يتولى هو إملاء الكاتب بالدين، يكون ذلك إقراراً منه على نفسه، وحثه الله تعالى على تقوى الله ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾. وهذا غاية القول بالعدل،

والقوامة بالقسط شهداء لله. ثم إذا كان الذي عليه الدين عاجزاً عن أن يمل هو ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً. وقد قال بعض العلماء: إن هذه التعاليم تعطي الطمأنينة على جميع الحقوق، وتزيد اليقين بضمان ما عند الله للمؤمنين، حيث إنها تؤكد كتابة الدين ولو درهماً، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ثم بعد الإقرار على النفس، قال: ﴿وَٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾ وهما أقرب الأقربين، فإن كان يؤدي شهادة الحق على والديه فعموم الأقربين من باب أولى، وقد غطى عاطفة القرابة ووكلها إلى ما هو أولى بها منه بقوله تعالى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾. أي هذا القريب أو غير القريب، فلا يُحابَى غني لغناه، ولا قريب لقرابته، ولا يُساعَد فقير لفقره ﴿فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾. وبين سبحانه علة الميل والمحاباة وحذر منها بقوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ﴾: أي مع الغني لغناه مجاملة له، ولا مع الفقير لفقره مساعدة له، ولا مع القريب لقرابته صلة له، فالله أولى بهم جميعاً، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا، ثم حذر من الالتواء في القول، والإعراض عن الحق، فقال: ﴿أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فلا يحق للشاهد أن يأتي بكلام معمى، ولا محتملاً، وإنما يأتي بالقول الفصل البيِّن، سواء أقرَّ على نفسه، أو شهد على والديه، أو أولاده، أو أقاربه، فالله أولى بالجميع، ولله الحمد والمنة.

٢١ ـ من أهم مواطن ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ﴾ موطن القضاء:

إن ألزم ما يكون للعالم كله هو القضاء العادل، لأن ميزان العدالة في القضاء هو الذي يزن الحقوق كلها، ويوفي لكل ذي حق حقه، وعليه تعدل كل الموازين الجائرة. وقد قرن المولى سبحانه ميزان العدالة والقيام بالقسط مع الكتب السماوية في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]. وقابل وضع الميزان برفع السماوات ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨﴾ [الرحمن: ٧ ـ ٨]. وأولى الموازين بالقسط هو ميزان العدالة.

وأصرح نص في عدالة الحكم قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ۝٥٨﴾ [النساء: ٥٨]. واقتران الحكم بين الناس بالعدل بأداء الأمانات إلى أهلها مع أن الحكم أمانة، لمزيد الاهتمام به المعروف في باب عطف الخاص على العام، كقوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨]. مع أن جبريل وميكائيل من عموم الملائكة. وكقوله: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [نوح: ٢٨]. مع أن والديه من عموم المؤمنين والمؤمنات. فكذلك هنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ﴾ وهو أمر إلزام وإيجاب، وجعلها سبحانه نِعْمَ الموعظة، ونَبَّهَ الضمائر في الحكام، بأنه سبحانه ﴿كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ لما يقولون ويفعلون، بل إن الله سبحانه جعل الحكم بين الناس بالحق قرين الخلافة في الأرض ومن مهمة الأنبياء: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ۝٢٦﴾ [ص: ٢٦]. بهذا يخاطب الله نبيه الكريم داود ﵇، وهو الذي قد أُوتي مؤهلات الحكم ما لم يؤتها أحد قبله، وذلك في قوله تعالى مخاطباً نبينا محمد ﷺ: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾. أي ذكر تأسٍّ واقتداء، والأيد: القوة والتمكين، وأوَّاب بصيغة مبالغة في كثرة ودوام الرجوع والإنابة إلى الله. ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ۝١٩﴾ فلم يكن ذلك لغيره.

ثم بين مؤهلات الحكم بقوله تعالى: ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ﴾ أي قوينا دعائمه وثبتناه، فلا يَخشى أحداً ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ [ص: ١٧ ـ ٢٠]. وهذه هي أهم مقومات القاضي: حكمة وبصيرة، تضع الأمور في نصابها، وتفصل بين الحق والباطل، وتميز المحق من المبطل، لا يلتبس عليه التواء الخصوم، ولا تشكل عليه مداخل الخصومات، والقاضي إن لم يُؤتَ حكمة تميز وبصيرة فهو في عناء، قلَّ أن تستنير أمامه الطريق. وأُولى درجات الحكمة في القضاء هي: تفهم القضية، ومعرفة متطلباتها قبل الدخول في نقاش الخصوم، كما قال عمر ﵁ لأبي موسى في كتابه الذي رسم منهج القضاء:

الفهم الفهم إذا أدلى إليك الخصوم. ووصية النبي ﷺ لعلي ؓ حين ولاه قضاء اليمن: «إذا أولى إليك الخصم، فلا تحكم له حتى تسمع من خصمه». أي لكي يتصور أطراف النزاع، ويقف على حقيقة موضوع الدعوى، ثم بعد السير فيها وظهور جانب الحق، يأتي فصل الخطاب حكماً واضحاً بَيِّناً مفصلاً، لا لبس فيه ولا غموض.

ثم بين سبحانه أهمية القضاء في المجتمعات، ومنزلة العمل القضائي في عرض خبر الخصمين اللذين تسورا عليه محرابه، وفزعه منهما، أو عرض قضيتهما عليه، وما كان من أحدهما على الآخر: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾. قضية خطيرة، غني يغتصب فقيراً، قوي يقهر ضعيفاً، ظلم بيِّن، وتعدّ سافر أنطق داود ؑ بالحكم حالاً: ﴿لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾. وإلى هنا تم الحكم في قضية الخصمين، ولكن الغرض من تسورهما عليه المحراب جاء في قوله تعالى من قول داود حاكياً ومعبراً عن حال الخلطاء خارج الأسوار: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِى بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمۡ﴾. وفي هذا القول عن الخلطاء وهم جمع خليط من الرعاة، يسود فيهم البغي بعضهم على بعض، إلا القليل من المؤمنين الذين يتحاشون ذلك. وبعد صدور هذا القول منه ؑ، وقد نبه لواقع حال الرعية، وأثار فيه التساؤل: كيف أعتكفُ في المحراب، وأحتجب بالحراس عن الناس، وأتركهم يبغي بعضهم على بعض؟ ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ إلى ربه، فقابله ربه بالمغفرة: ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي اعتكافه وتركه مهمته الأساسية التي استخلف من أجلها، ثم ينبهه تعالى عليها مرة أخرى: ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢٣ ـ ٢٦]. ولكأن السياق يرشد ويحذر القضاة والحكام أن اتباع الهوى لا يكون إلا بسبب نسيان يوم الحساب. وذلك لأن من لاحظ يوم الحساب والنقاش، وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ وهو سبحانه أحكم الحاكمين، أقام ميزان العدالة في يده جهد طاقته، وحاول أن

يكون ثالث الثلاثة في الحديث «قاضيان في النار، وقاضٍ في الجنة». فيؤدي الأمانة التي ائتمن عليها، ويأتمر بأمر الله ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠]. وهنا اقترن الأمر بالعدل بالإحسان، والإحسان هو «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وهذا إشعار لكل من يُنصب حكماً بين اثنين، أن يستشعر تلك المراقبة عند إصدار حكمه، كأنه يرى الله، وكأنه قائم بين يدي ربه، ويستشعر بأن الله يراه ويسمع ويبصر. وهذا أدعى لقوله: ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ وتحقيق قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾. وليس هذا مختصاً بالحكم على منصة القضاء، بل في كل مُحكّم في أمر ما ولو كان مع الأعداء. كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة ٨]. فإقامة العدالة إنما هي لوجه الله ولو مع العدو، لا رغبة ولا رهبة لأحد. ولما أرسل النبي ﷺ ابن رواحة يخرص على اليهود في خيبر، وجمعوا له من حليهم ليخفف عنهم، سَبَّهم وقَبَّحهم، وقال قولة العدل: والله لأنتم أبغض الخلق عندي، وقد جئتكم من عند أحب الخلق إليَّ، ووالله إن بغضكم لا يحملني على أن أحيف عليكم، وإني قاسم بينكم، فإن شئتم، فالتزموا، وإن شئتم فكفوا أيديكم وألتزم لكم. فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض.

وأخيراً فإن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ جامع شامل لإقرار مبدأ العدالة من القاعدة إلى القمة، للقريب وللبعيد، وللغني وللفقير ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ﴾ [النساء: ١٣٥].

٢٢ ـ ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ﴾:

هذا هو الهدي التاسع في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ﴾ والعهد يشترك مع لفظ العهدة، فيشتركان في مضمون الأمانة، وقد جاءت مجموعة نصوص العهد في كتاب الله تشعر أن جهة العهود ثلاثة:

عهد الله لخلقه، وعهد الخلق لخالقهم، وعهود الخلائق فيما بينهم.

والنص هنا من قسم عهد الله ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾. ومثله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾.

ومن القسم الثاني: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ وقد جمعهما قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾.

ومن القسم الثالث: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾.

ومن هنا تظهر أهمية الحفاظ على العهد والقيام بحقه، سواء منه ما كان لله على الخلق، أو كان للخلق فيما بينهم. ولعل الوفاء بالعهد من أخص خصائص الإنسان، إذ هو إلزام أدبي أو اعتباري يحمله عليه ورعه ودينه، وتلزمه به أمانته ومروءته، والبحث في هذا الهدي الكريم من جوانبه الثلاثة، وكذلك:

أولاً: ما هو عهد الله هنا المطلوب الوفاء به؟ فابن كثير يقول: هو الالتزام بالأوامر امتثالاً، وبالنواهي اجتناباً. والقرطبي يقول: كل عهد بين إنسانين وأضيف إلى الله توثيقاً وأساساً، لأمره سبحانه بالوفاء بالعهود.

والذي يظهر لي من منهج تفسير القرآن بالقرآن، هو ما نص تعالى عليه في سورة ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ في قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦١]. فهذا نص صريح أن الله تعالى عهد لبني آدم ألا يعبدوا الشيطان وأن يعبدوه هو وحده، وكذلك نص على أن ذلك هو الصراط المستقيم كما ذيلت به آية الأنعام: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ . . .﴾ [الأنعام: ١٥٣]. ولعل العهد المشار إليه في سورة (يس) هو العهد الأول المأخوذ على الذرية في قوله تعالى من سورة الأعراف ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ . . .﴾ [الأعراف: ١٧٢]. ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ﴾ [طه: ١١٥].

والعهد لآدم عليه السلام قال القرطبي: هو النهي عن الأكل من الشجرة، والتحذير من عدوه إبليس. وعلى هذا فالوفاء بعهد الله هو الالتزام بطاعته سبحانه،

واجتناب معصيته، وهذا على سبيل العموم. ولكن يشمل في التفصيل أيضاً: الوفاء بما يحدثه العبد من عهد مع الله تعالى في خاصة نفسه كالنذر، لقوله تعالى في مدح المؤمنين: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝٧﴾ [الإنسان: ٧]. وكذلك الوفاء بكل ما ألزم نفسه للغير موثقاً ذلك بعهد الله، كبيعة ولاة الأمر، والالتزامات التي تعرض له: من العهود والأمانات، وقد امتدح الله هؤلاء المؤمنين بقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ۝٢٣﴾ وبيّن تعالى جزاءهم بقوله عقبها ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٢٣ - ٢٤]. وكان في غزوة الأحزاب حين اشتد الموقف وبلغت القلوب الحناجر، فلم تزعزعهم الشدائد، ولم تغيرهم الأهوال. كما امتدح من أهل الكتاب من أوفى بعهده في سياق قوله تعالى من سورة آل عمران وما بعدها. ﴿۞ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝٧٥﴾. ثم قال: ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٧٦﴾. ثم بين سبحانه سوء عاقبة من لم يوف بعهد الله ويشتري به ثمناً قليلاً فيقول سبحانه وفي نفس السياق: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٧٧﴾ [آل عمران: ٧٥ - ٧٧]. وهذا من قبيل المعاملة بالمثل حين لم يبالوا بعهد الله، ولم يحافظوا عليه، وباعوه بثمن قليل، كان جزاؤهم كذلك عدم المبالاة بهم، فلا يكلمهم، ولا ينظر إليهم إهمالاً لهم، ولهم من هذا عذاب أليم، نسأل الله تعالى العافية.

ولكي يتضح لنا تفصيل عهد الله المطلوب هنا الوفاء به، نأتي إلى أقوال العلماء على قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

قال والدنا الشيخ الأمين في أضواء البيان: لقد جاء العهد هنا مجملاً، وجاء بيانه في قوله تعالى: ﴿لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ [المائدة: ١٢]. فعهده عليهم ﴿لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وما

بعدها. وعهدهم هو الجزاء المرتب على الأول: تكفير السيئات، ودخول الجنات تجري من تحتها الأنهار. ومن هذا المنطلق المنهجي لو رجعنا إلى سياق آية الأنعام ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ نجد قبل النص على الوفاء بالعهد ما تقدم من الأوامر والنواهي ثمانية تكاليف من النهي عن الشرك بالله وبالوالدين إحساناً، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط، وإذا قلتم فاعدلوا. وبعد هذا كله جاء هذا التوجيه وهذا الهَدْي القرآني ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ فمما لا شك فيه أن تلك المعهودات هي من أوائل ما يتدرج تحت عهد الله الواجب الوفاء به، وهو عين السياق لقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ حيث جاء بعدها مباشرة: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة: ٤١ ـ ٤٣]. فثبت أن عهد الله هو جميع تكاليفه، ولذا قال عقبه: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وذيل السياق بقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ . . .﴾ [الأنعام: ١٥٣].

٢٣ ـ مكانة العهد بين المتعاهدين:

إذا كان العهد أمانة بين العبد وربه في التكاليف، فإن العهد أمانة بين العباد أنفسهم في المعاملات. وقد يكون توثيق العهد أقوى عند البعض من توثيق الرهن والنقد. وقد امتدح الله المؤمنين في الوفاء بالعهد في أكثر من موضع في كتابه الكريم، من ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ١ ـ ١١]. وبتأمل هذا

السياق الذي يخبرنا سبحانه وتعالى فيه بسبب فلاح المؤمنين، والمشتمل على تلك الأعمال والصفات الجليلة:

بدأ من الخشوع في الصلاة: وهو أعلى صفة تؤدَّى فيها هذه الفريضة، وأوضحُ عنوانٍ على رقة هذا القلب الخاشع بين يدي ربه.

وهذا الإعراض عن اللغو أعلى قمة المروءة: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾. والإعراض عن اللغو بالنظر وبالقول وبالفعل، فيسلم له دينه، وتكتمل له مروءته لإعراضه عن كل ما هو لغو وباطل. وأداء الزكاة وفعلها كما رسم الله لها: ومعلوم أن من يعطي الزكاة طيبة بها نفسه، فإن تلك النفس الجواد لن تتدنى لأكل أموال الناس بالباطل، بل هي ممن يعرض عن كل دنيء، وقد أعرضت عن اللغو من قبل هذا، أي تصبح بأداء الزكاة عفيفة في المال.

يليها صفة كريمة وعفة عظيمة، فيها طهر النفس والمجتمع: أفراداً وجماعات ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥﴾ عن دنس الرذيلة، ولوث الفساد، وجريمة التعدي، وأسباب اختلاط الأنساب، وإفساد محارم الآخرين، فهم: لفروجهم حافظون، ولأعراض الآخرين يصونون. فهم أمناء على الفضائل، حراس عن الرذائل. لا يتجاوزون في أنفسهم حدود أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم، لا يتعدون تلك الحدود، ولا يتجاوزون تلك الشخصيات من الأزواج وملك اليمين، أي في دائرة ما أحل الله لهم، فهم في نطاقها غير ملومين.

يعقب هذه الصفات للمؤمنين المفلحين هذه الخاتمة في خصوص العهد والأمانة: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨﴾. فينص سبحانه على أخص صفات المؤمن في رعاية هذين الأمرين المختصين بالإنسان، بل بالمؤمن خاصة، وهما قوام ترابط الأفراد كما أسلفنا، ويقترن هذا العهد بالأمانة، مع أن كُلّاً منهما يستلزم الآخر: فالأمانة تستلزم الوفاء بالعهد، والوفاء بالعهد يستلزم أداء الأمانة، ولا انفكاك لأحدهما عن الآخر.

وتقدم لنا: أن العهد فيما بين العبد وربه هو عهدة التكليف المنوه عنه في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ والعهد التزام، والأمانة أيضاً عامة،

فيمكن اعتبار الأمانة بمدلولها العام شاملة جميع تصرفات الإنسان في الدين والدنيا. وتقدم عن ذلك في (منهج الوصايا النبوية) وفيه أن الوضوء والغسل أمانة، وأداء الصلاة بتمامها أمانة، والصوم أمانة، والزكاة في حصر النصاب ومقدار الواجب كلها أمانة، ومصرفها في مستحقها أمانة، وحِلّ المطعم والملبس وعموم الكسب أمانة، فضلاً عن الودائع والحقوق العامة والخاصة، بل والحكم أمانة، وكل ما أسند للعبد من عمل فهو أمانة، وأداء تلك الأمانات هو عين الوفاء بالعهد ورعايته.

وقد رتب الله تعالى على رعاية الأمانة والعهد أن جعلهم هم الوارثين الذين يرثون الفردوس، والفردوس أعلى منازل الجنة. وهذا أيضاً تفضل من الله أولاً، ومعاملة بالمثل ثانياً، لأنهم لما كانوا في أعمالهم على أعلى درجات الكمال، وفي صفاتهم على أعلى الصفات الفاضلة: في الصلاة خشوع، وللزكاة فاعلون، وللفروج حافظون، وإعراضٌ عن اللغو، وبعدٌ عن النقص، كانوا في المجتمع كالنجوم الزاهرة، والزهور العبقة بالريح الطيب. فكانت لهم الفردوس ميراثاً: ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وهناك يحمدون الله على عواقب أفعالهم وجميل صفاتهم. ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر: ٧٤].

وعليه: فالوفاء بالعهد جماع أداء الأمانة، وجماع صفات المؤمنين.

وفي سورة المعارج، وبنفس السياق: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٣٥].

يبين تعالى: جبلة خلق الإنسان الهلع والجزع، ولا يعالج ذلك فيه إلا الصلاة، وذلك لما تضفيه على المصلي من صلة بالله، وما تنهاه عن الفحشاء

والمنكر، وهي التي تهذب غرائز الإنسان، وتسمو به إلى مصاف الأبرار. ومعها كذلك أداء حق المال: مع التصديق بيوم الدين، وهو يوم الجزاء، مَن دان يدين، يعني جازى يجازي. كما قيل: دِنَّاهم كما دَانوا. ومن مقتضى هذا الإيمان فهم من عذاب ربهم مشفقون. وجاء ذكر العفة أيضاً كما تقدم. وختم السياق برعاية الأمانة والعهد. وأعقبها القيام بالشهادات على وجهها.

وإن من أهم مواطن الوفاء بالعهد لهو: عهد البيعة لولي أمر المسلمين، وقد أوجب الله النصح لولي الأمر مع النصح لله، ولرسوله، ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامتهم. ومن نزع يده من بيعه إمامه فمات مات ميتة جاهلية.

ومن ذلك الوفاء بعهد الزوجة: «استحللتموهن بكلمة الله».

وأعظم العهود المتبادلة بين الله وخلقه وولاة أمر المسلمين: ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ...﴾ [التوبة: ١١١]. ومن هنا إذا أعطى الإمام للعدو عهداً، وجب الوفاء به، وإذا تخوف منهم خيانة، نبذ إليهم عهدهم حتى لا يخفر ذمة في النظام العسكري، مما يشهد لعظمة الإسلام في احترام الكلمة، والوفاء بالعهد.

٢٤ ـ قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ...﴾ [الأنعام: ١٥٣]:

افتتح السياق بتكليفه تعالى لرسوله ﷺ ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾. وتوالت الأوامر والنواهي في العقائد والتوجيهات والهدى القرآني الكريم للأفراد والجماعات، مما عم وخص وختم السياق بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾. واسم الإشارة هنا في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾ لا بد له من مشار إليه، يتحقق به صراط الله مستقيماً يلزم العبد اتباعه. وبتأمل السياق نجد أقرب ما يصدق عليه في وحدة الموضوع وشموله نجده من بداية ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ وجاء تفصيل ما يتلوه ﷺ إلى نهاية المطاف فقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾ أي ما تلوته عليكم مما أوحاه

إليَّ ربي، هو صراط الله المستقيم فاتبعوه. وهذا السياق من تفصيل الإجمال في فاتحة الكتاب: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ يفصله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾. وفعلاً قد اشتمل هذا السياق ما إن اتبعته الأمة هديت إلى الصراط المستقيم، الذي لا اعوجاج فيه ولا ضلال معه. ثم يبين سبحانه بأن اتباع غيره من السبل فيه المضلة المهلكة ويقول العلماء: في هذه الآية لفتة بلاغية، وهي توحيد لفظ الصراط المضاف إلى الله، وجمع لفظ السبل الأخرى. لأن الصراط المضاف إلى الله هو الحق، والحق واحد لا يتعدد. وأما السبل الأخرى المنحرفة عنه فمتعددة وملتوية.

وقد بين ﷺ هذا المعنى بياناً شافياً بوسيلة عملية، وذلك في حديث جابر عند ابن كثير في تفسيره قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ، فخط خطاً هكذا أمامه فقال: «هذا سبيل الله». وخطين عن يمينه، وخطين عن شماله، وقال: «هذه سبل الشيطان». ثم وضع يده في الخط الأوسط، ثم تلا هذه الآية ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٥٣﴾.

وروى أيضاً ابن كثير: أن رجلاً سأل ابن مسعود: ما الصراط المستقيم؟ قال: تَرَكَنا محمد ﷺ في أدناه، وطرفه في الجنة. وعن يمينه جواد، وعن يساره جواد، ثم رجال يدعون من مَرَّ بهم، فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة، ثم قرأ ابن مسعود: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ . . .﴾ الآية.

وروى أحمد رحمه الله بسنده عن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ. قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعن جنبي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط المستقيم جميعاً ولا تفرقوا. وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه. فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله وذلك الداعي على أرض الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم». ومما يفيد هذا

التصوير أن اتباع صراط الله فيه وحدة الأمة واجتماعها على منهج واحد، تتوحد أهدافها، وتتحقق به غايتها، وهو الوصول إلى الجنة كما قال ابن مسعود: طرفه الآخر في الجنة. بل إن الأمة ذات المنهج الموحد تستقر أوضاعها وتتحسن أمور معيشتها وتتقوى في جميع الميادين، أما اتباع السبل المختلفة، فهي تتفرق عليها الكلمة، وتختلف معها الاتجاهات، كشأن البلاد ذات الأحزاب المختلفة، والأهداف المتباعدة، فهي غالب حالها في تنافر وتناحر، وما يبنيه هذا يحاول أن يهدمه ذاك. وقد أخبر ﷺ عن افتراق الأمم إلى نيف وسبعين فرقة، وأنها في النار إلا فرقة واحدة، وهي ما كانت على ما عليه رسول الله ﷺ.

ومما يوحي به هذا النص: أن اتباع تلك السبل لا تلتقي مع صراط الله تعالى، وأن من لازم اتباع تلك السبل قطعاً الابتعاد والافتراق عن الصراط المستقيم. وبمفهوم المخالفة ندرك أن تلك السبل غير مستقيمة، إذ هي لا تلتقي أبداً مع صراط الله المستقيم، مهما تراءت للناس، ومهما استفادوا من سلوكها، فهي فائدة مؤقتة، وما يفوتهم بها أكثر. وقد وصف الله تعالى الصراط المستقيم بأنه لا اعوجاج فيه، في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾ [الكهف: ١ ـ ٢]. وبين تعالى أن هذه الاستقامة تعود على العباد بالمنهج الأقوم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. وقال والدنا الشيخ الأمين: إن هذه الآية قد اشتملت على جميع ما جاء به القرآن الكريمُ من أفعل التفضيل في الهداية، وذكر نماذج عديدة في مجالات التشريع: في العقائد وضوحاً واعتزازاً، وفي العبادات طمأنينة وإخباتاً، وفي المعاملات سلامة وتعاوناً، وفي نظام الأسرة حكمة وإحكاماً، وفي نظام التحاكم عدالة وإنصافاً. إلى غير ذلك مما لا يتسع المجال لتعداده.

وأهم من هذا كله هذا الثبات في التشريع والاستقرار في المنهج بخلاف تلك السبل التي طالما تتعرض للتغيير والتبديل والتعارض والتناقض. كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

وما أحوج أمة الإسلام اليوم أكثر من أي يوم إلى توحيد صراط مسيرتها، ولزوم الاستقامة على منهج خالقها. ما أحوج العالم الإسلامي أن يعيد النظر في مشواره الطويل على بنيات الطريق، وما أجهده وفرق بينهم وأضاع عليهم الكثير من بلادهم وعزتهم وحقوقهم بين الأمم، وقد نادى المصلحون بالتضامن الإسلامي، وها هو ذا كتاب الله يجدد النداء كل يوم ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾. ويختم هذا النداء بما يؤكده في ظلال العطف والرأفة والمصلحة، بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. ومعلوم أن التقوى جماع كل خير، ووقاية من كل شر: تتقون غضب الله، تتقون عواقب السوء، تتقون الفرقة والضلال، تتقون ما لا يرضاه الله لكم. وبالتالي تفوزون برضاه، وتسعدون في الحياة.

٢٥ ـ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام: ١٦١ ـ ١٦٤]:

لعل هذا الموضع من أعظم مواضع الهداية في كتاب الله وكل مواضعه عظيمة، إلا أن في النص الموجه إلى سيد الخلق ﷺ، إمام المهتدين، فيقول للعالم كله: ﴿إِنَّنِى﴾ بالتأكيد بحرف (إنَّ)، ﴿هَدَىٰنِى رَبِّىٓ﴾ ونسبة الهداية فيه وإسنادها إلى الرب سبحانه مضافاً إلى الرسول ﷺ (ربي) موحية بتمام وكمال الرعاية في مدلول الربوبية من العناية والتوفيق، وتسجل للعالم: أن حقيقة الهداية منحة من رب العالمين، لأنها من تمام إصلاح العبد ورعايته، بأن يهديه الصراط السوي ليستقيم عليه، بل إنه أهم من تربيته بالأرزاق والعافية والقوة والصحة، لأن هذه كلها قدر مشترك بين كل كائن حي، أما الهداية والتوفيق فهي أخص ما يختص به خواص عباد الله الصالحين. وها هو صفوة الخلق يعلنها: ﴿إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ومعلوم أن مادة (هدى) تعدت بنفسها كما تقدم في سورة الفاتحة ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾.

وهنا تعدَّت بحرف إلى، ولعله لتأكيد الهداية وتمكينها وشمولها لهداية البيان وهداية التوفيق معاً. ولكي تتضح الصورة، ويظهر ما وراء هذا الإعلان مع أنه على هداية من ربه من أول لحظة وجوده، حيث حفظه من دنس الغواية، وشوائب الضلالة، لكي تتضح الصورة أكثر نرجع إلى ما قبل هذا الإعلان بالهداية، فنجد قوله تعالى مخبراً عن الذين جانبتهم الهداية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]. وهذا أيضاً يردنا إلى ما قبله من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣]. فيأتي هنا مبيناً أن أولئك الذين اتبعوا السبل فتفرقت بهم عن سبيله، وصاروا شيعاً، ومبيناً أن النبي ﷺ ليس منهم في شيء، أي يراه سبحانه من مشاركتهم أو مخالطتهم في أي شيء مما افترقوا إليه، وسواء كان المعني به اليهود أو النصارى أو مشركو العرب، فالكل افترق وفارق أصل دينه، ويشمل النص من جاء بعد عصر التنزيل من تفرق أهل الأهواء والبدع، كما في الحديث «افترقت اليهود والنصارى إلى اثنتين وسبعين فرقةً، وستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين. . .» الحديث.

ثم بيَّن سبحانه أن الصراط المستقيم الذي هدى الله نبيه ﷺ إليه، أنه دين قيم، أي لا عوج فيه، وأنه ملة إبراهيم حنيفاً. وهنا إبراز ملة إبراهيم خاصة من أنسب ما يكون لهذا الموقف، لأن المخاطبين سواء من أهل الكتاب أم من المشركين، كلا الفريقين ينتمي إلى إبراهيم عليه السلام انتماء النسب، أولئك عن طريق إسحاق ويعقوب، وهؤلاء عن طريق إسماعيل، وكلا الفريقين يزعم اتباعه لإبراهيم، فكان مقتضى الانتماء النسبي: ألا يتفرقوا، وكان مقتضى الادعاء باتباعه أن يكونوا على ملته، وهذا نظير ما جاء في سورة البقرة من حكاية مقالة أهل الكتاب: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٥ ـ ١٣٦]. ومن سماحة هذه الملة الحنيفية أنها التي بها صلاح من سلكها وتمسك بها من

القاصي والداني والمتقدم والمتأخر. ويكفي صلاحها أنها منذ إبراهيم عليه السلام إلى هذه الأمة وهي الملة السمحة التي تناسب جميع الأمم، وتسعد بها جميع الجماعات، وميسّرة على كافة الأفراد، وأول خصائصها البراءة من الشرك ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

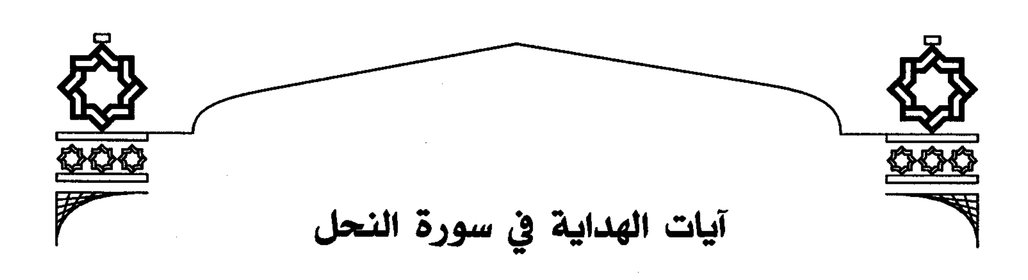
ثم يأتي الإعلان العملي منه صلوات الله وسلامه عليه في تجسيم تشريعات هذه الملة في شخصيته مسلكاً ومنهجاً ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾. ومعلوم أن الصلاة هنا تشمل الفريضة في عمومها، وقيام الليل في خصوصه. ومعنى صلاتي لله: أي خالصة لوجهه الكريم، كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]. وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]. وهذا هو المبدأ الأساسي في العبادات، وهذا وإن كان من مقالته ﷺ التي أمره الله تعالى أن يعلنها للجميع، فهو تعليم للأمة كلها.

وكذلك النسك، فقيل: معنى نسكي: هي أنساك الحج، أو خصوص النحر. مثل ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر: ٢]. وكذلك جميع السلوك في المعاملات والمعاشرات، وفي كل الأخذ والعطاء، وجميع شؤون الحياة، فإن محياي ومماتي لله رب العالمين انقياداً وامتثالاً وائتماراً بأوامر الله ربي. وقيل: إنه تعليم للمشركين بأن يوجههم بأن المحيا والممات بيد الله، فالله الذي يمنح الحياة، والله الذي بيده الممات. أي المتصرف الكامل في العبد هو سبحانه وحده، الذي ينبغي أن يجعل العبدُ جميع أعماله وعباداته له سبحانه مقابل إنعامه، ووفاء بحق ربوبيته رب العالمين، ولذا جاء بعدها بصورة التعجيب والاستبعاد: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾! ومقتضى كونه رب كل شيء ـ والبشر من ضمن الشيء ـ فحق الربوبية إفراد الرب بالعبادة. كما في فاتحة الكتاب: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾. والحمد هو الثناء على المحمود، لكمال ذاته وصفاته، وبعد مقدمة الحمد والثناء يأتي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ لا نعبد سواك، ولا نستعين بغيرك. وهو المساوي لقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾.

ثم يأتي ختام هذا السياق وخاتمة هذه السورة بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى

جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: ١٦٥]. والخلائف هنا: كل أمة تخلف الأمة قبلها، وأعطاهم الإمكانيات، ورفع بعضهم فيما استخلفهم فيه ابتلاء منه لهم، ليرى ماذا سيفعلون مدة استخلافهم: هل يسلكون ويتبعون الصراط المستقيم، أم يتبعون السبل ويتفرقون شيعاً؟ لقد أوضح لهم الطريق، وهداهم السبيل القويم وهو كتاب الله، كما قال ابن مسعود: طرفه عندنا، ونهايته في الجنة. نسأل الله تعالى الهداية والتوفيق، وأن يجمع أمة الإسلام على كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وسيرة سلفها الصالح، إنه على كل شيء قدير.

* * *



آيات الهداية في سورة النحل

١ ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٨].

إن المتأمل لما قدمناه في آخر سورة (الأنعام) من قوله سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ وينتقل إلى هنا آخر سورة النحل، ليجد تفصيل ما أجمل هناك من سبل الهداية، حيث يبين هنا بوضوح أكثر مسلك إبراهيم عليه السلام، بأنه كان أمة، والأمة: الإمام. والأمة أيضاً: الجماعة. فهو كان إماماً وبمثابة أمة، لأنه لم يكن معه في أول مرة من يعبد الله غيره، وهو أيضاً قاوم أمة، وتحدى قومه إلى أقصى الحدود كما نعلم. ﴿قَانِتًا﴾ والقنوت: شدة الخضوع والعبادة لله تعالى: ﴿حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾. ثم هو ﴿شَاكِرًا﴾ لأنعم الله تعالى عليه، ولشكره نعم الله تعالى عليه اجتباه ربه سبحانه، وهداه إلى صراط مستقيم.

وقد فصل المولى سبحانه الصراط المستقيم الذي هداه الله تعالى إليه في قوله تعالى في موطن آخر: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]. وهذا الابتلاء إنما هو التكليف، والكلمات هي

الأوامر التي تلقاها إبراهيم عليه السلام، وإتمامهن هو الامتثال والوفاء بها كما قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٧].

ومما ابتُلِيَ به إبراهيم عليه السلام فصبر عليه: من ذلك أولاً: مع أبيه، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ إنها بداية دعوة إبراهيم عليه السلام مع أبيه، وهي عين البداية من رسول الله ﷺ في: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]. وفي نهاية هذه الدعوة من إبراهيم عليه السلام، وغاية تلطفه مع أبيه، يكون جوابه إياه ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ﴾ [مريم: ٤١ ـ ٤٧]. إلى آخر السياق، وهكذا ﷺ أخرجه قومه من مكة، وهاجر إلى المدينة، ولما عاد إلى مكة منتصراً قال لأهلها: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

ومما ابتُلي به إبراهيم هو إبعاد ولده رضيعاً عنه بواد غير ذي زرع: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ فقام بتنفيذ أمر الله صابراً على هذا الابتلاء ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصافات: ١٠٢ ـ ١٠٦]. وفي هذا العزاء والتأسي، كما قال ﷺ حين طلبوا منه أن يستنصر الله لهم فقال: «لقد كان من قبلكم يؤتى فيوضع المنشار على مفرق رأسه، فينشر ويشق نصفين، فما يرجع عن دينه».

ومما كُلِّف به إبراهيم عليه السلام فوفاه، ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ﴾ [البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٨]. وهكذا جاء في آخر سورة النحل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾. وبعد هذا الأمر باتباع ملة إبراهيم حنيفاً، يأتي أمثل منهج للدعوة إلى الله فيقول تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ

عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾. إن هذا السياق لهو حقاً أمثل منهج للدعاة الذين يقومون بالدعوة إلى الله تعالى وعلى بصيرة في دعوتهم، ومن البصيرة في الدعوة النظر في العواقب، ولا يكون ذلك إلا بوضع كل شيء في موضعه الذي هو عين الحكمة حقاً، والبصر في العواقب بحيث لا يكون هناك رد فعل عكسي يحدث بسببه منكراً أشد مما ينهى عنه، ولا تكون البصيرة إلا لعالم بما يأمر، وعالم بما ينهى عنه، وهذا هو منطلق الدعوة إلى الله وطريقه وصراطه ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ أي إلى اتباعه والعمل بمقتضاه، والسير على هديه والاستقامة عليه، وإضافة السبيل إلى ربك أي إلى الرب، وإضافة الرب إليه ﷺ هو غاية في التلطف، ونهاية في الحكمة، إذ لم يخرج به عن نطاق الربوبية ولا حدود الشخصية، بل إلى سبيل ربك الذي تسلكه أنت، والذي توقن به وتخلص إليه فيه. ولتكن دعوتك تلك بالحكمة، وهي دعوة كل شخص أو جماعة بما يتناسب معها، وقد جاء هنا بثلاث مراتب: الحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن.

فقيل: الحكمة الوحي. وقيل: الحكمة هي طريقة الإقناع بالحقائق المسلَّمة. والموعظة الحسنة: الزواجر والتخويف. والمجادلة بالتي هي أحسن: إيراد الدليل، وتلقي الجواب عليه.

والأولى: للعقلاء الذين يدركون حقائق الأمور. والثانية: لعوام الناس خالي الذهن، فترقق قلوبهم بالمواعظ. والمجادلة بالتي هي أحسن مع أصحاب المبادئ المغايرة الذين من عادتهم أن يجادلوا عنها ولو بالفلسفة والسفسطة، والمغالطة، فلتكن مجادلتك أنت معهم بالتي هي أحسن، مما يليق بجلال رسالتك، وعظيم مكانتك، وسيأتي بإذن الله تفصيل ذلك.

٢ ـ تفصيل منهج (الدعوة إلى الله بالحكمة):

جاء في (التفسير القيم) لابن القيم على هذه الآية قول الله تعالى ذكره:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما نصه: جعل الله سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق:

فالمستجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه، يُدعَى بطريق الحكمة.

والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر، يدعى بالموعظة الحسنى، وهي الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب.

والمعاند الجاحد، يجادل بالتي هي أحسن. هذا هو الصحيح في معنى هذه الآية.

يريد بالصحيح رداً على المتشبعين بالمنطق اليوناني والسفسطة، وقد وجدنا مصداق كلام ابن القيم هذا في منهج مبعوث رسول الله ﷺ لأهل المدينة يعلّمهم دينهم، المعلم الجليل فتى مكة مصعب بن عمير، حين ذهب به أسعد بن زرارة إلى دار بني عبد الأشهل، ولما علم بهما سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وكانا سيدي قومهما وعلى دين القوم، فجاء أسيد إلى مصعب وتكلم عليه وأغلظ في القول، ولكن مصعباً كان حليماً حكيماً فقال لأسيد: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره. فقال أسيد: أنصفت. فركز حربته وجلس، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فعرفا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم به. إنها والله عين الحكمة، يأتي متوعداً بسبهما، فيرجع مسلماً مدافعاً عنهما.

وقال الفخر الرازي في التفسير الكبير على هذه الآية: اعلم أنه تعالى لما أمر محمداً ﷺ باتباع إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بيّن الشيء الذي أمره بمتابعته فيه فقال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾. واعلم بأنه تعالى أمر رسوله أن يدعو الناس بأحد هذه الطرق الثلاثة وهي: الحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن. ولما ذكر الله تعالى هذه الطرق الثلاثة، وعطف بعضها على بعض، وجب أن تكون طرقاً متغايرة متباينة، ثم قال: وما رأيت للمفسرين فيه كلاماً ملخصاً مضبوطاً، ثم ذكر مقدمات منطقية قد لا يدركها كثير من الناس مما يبعد عن أسلوب الدعوة العامة لعوام الناس. والذي نعتقده وأنه المتمشي مع سماحة الإسلام هو: أن الناس منهم العقلاء المبرزون في العقل والفهم،

ويحكّمون العقل في تقدير الحق وتمييزه عن الباطل. ومنهم من هم دون ذلك، ولديهم قلوب وعاطفة قريبة الميل إلى الخير، لا تتصف بعناد، ولا تجمد في تعصب. ومنهم أهل مبادئ سابقة، يرونها فضلى، فهم يجادلون عنها ويقفون دونها، ويجادلون من ينازعهم فيها أو يدعوهم إلى غيرها.

فأما القسم الأول: من الناس فهم أيسر الناس دعوة، وهؤلاء هم الحكماء في العقل، فيكفي أن تقدم لهم الدعوة بأسلوب حكيم، فسرعان ما يتجاوبون معك، وقد شاهدنا مواقف مصعب بن عمير مع سعد بن معاذ، قدم سعد على مصعب متوعداً ومهدداً فما إن تلقاه مصعب بالحكمة إلا رجع مؤمناً مدافعاً عنهما.

أما القسم الثاني: فإن رقة حاشيته، وحيوية عاطفته، تستجيب إلى الموعظة الحسنة بالتخويف والزجر والوعد والوعيد، كا جاء في قصص الماضين، وتخويف الحاضر بعقوبات الماضي، ويشهد لهذا ما رواه القرطبي عند أول سورة الطور: قال جبير بن مطعم قدمت المدينة لأسأل رسول الله ﷺ في أسارى بدر، فوافيته يقرأ في صلاة المغرب ﴿وَٱلطُّورِ ۝١﴾ إلى قول: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾. فكأنما صدع قلبي، فأسلمت خوفاً من نزول العذاب، وما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب. ووجدنا النبي ﷺ في صلح الحديبية لما جاء إليه الحلبس بن علقمة ليفاوض عن قريش، قال ﷺ: «إن هذا من قوم يتألهون، فابعثوا الهَدْيَ في وجهه حتى يراه». فلما رأى الهدي رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى. وهكذا تؤثر العواطف، سواء برغبة أو برهبة.

أما قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. فهو التأسي بإبراهيم عليه السلام مع قومه، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الممتحنة: ٤]. وإبراهيم عليه السلام لما حاجَّه قومه في الله وجادلوه، تلطف معهم، وجادلهم جدالاً حسناً، كما عرض ذلك بقوله تعالى: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٧٤ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾ تأمل هذه المقدمة، حيث يعلن إبراهيم ضلال من يتخذ الأصنام آلهة، وهذا يكفي للرد على من يقول: إن

إبراهيم لم يعرف ربه حتى نظر في النجوم والقمر والشمس، حاشا وكلا، لقد كان حنيفاً ولم يك من المشركين. ثم بعد هذه المقدمة يبرز حسن مجادلته لقومه: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾. ثم تدرج معهم: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾﴾. وانتبه أيها الأخ الكريم إلى قوله ﷺ: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى﴾. فهو يعلن بأن هناك ربّاً سوى تلك الأفلاك. ثم تدرج معهم، ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾. وهنا تسجيل على قومه بالغفلة: ألم يعلموا أن إبراهيم كان طول عمره يرى القمر بازغاً ثم يغيب، ويرى الشمس كل يوم بازغة ثم تغيب؟ ولكنه الشرك والضلال. وهكذا يجادل إبراهيم قومه على مقتضى معتقداتهم، ليقيم الحجة عليهم من دافع أمرهم، كما قال تعالى في نهاية السياق: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٧٤ ـ ٨٣].

وبنفس الأسلوب تجد جدال المشركين والتمشي معهم، وفي ألطف وأهدأ ما يكون: كما في قوله تعالى من سورة سبأ: ﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ: ٢٤]. ولما جاء أُبي بن خلف وفي يده عظم رميم يفتته ويذروه في الهواء ويقول: يا محمد من يعيد هذا؟ فيأتي القرآن الكريم بالتي هي أحسن: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٧٧ ـ ٨٣]. إنه سياق وإقامة الحجة، وإلزام الخصم بما لا يحتاج التعليق عليه.

ثم تأتي مثالية الإسلام، ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ

لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ ثم يندبه سبحانه للصبر، ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾. نعم الهَدْيُ هَدْي كتاب الله، لكل من دعا إلى الله.

٣ ـ من هَدْي القرآن في العقوبة والإحسان:

اختتمت سورة النحل بعد منهج الدعوة إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، بخاتمة هي قمة في الإعجاز البياني، تحد من سطوة الطغيان، وتجاوز الحد، وتدعو إلى الصبر والإحسان بدون حد، مما يعطي الخصم المعاند الضوء المشع إلى هداية كتاب الله، إلى أسمى صنوف العدالة والإنصاف، تلك الخاتمة هي في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٦ ـ ١٢٨].

فبعد بسط منهج الدعوة: وفيه الحكمة، وفيه الموعظة، وفيه الجدال. والتنويه بأن الناس إزاء ذلك قسمان فيما يوحي به قوله تعالى عقبه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]. ومعلوم أن الضال عن سبيل الهدى سيعاند الدعاة إلى الله، وأن المهتدين سيساندون الدعاة، فسيوجد فريقان: فريق ضلالة معاند، وفريق هداية مساند. ومن طبيعة هذا الوجود الاحتكاك، ومن نتائج الاحتكاك التجريح، وتكون النتيجة: إيقاع العقوبة. ومن غريزة الإنسان عامة إغلاظ العقوبة على المعتدي، لأن جرمه جرمان: جناية من داخل نفسه: حقد وغضب وانتقاص. وجناية من يده: بطش واعتداء. أو من لسانه: سب وشقاق. فإذا تحركت غريزة العقوبة، سيصاحبها أيضاً عامل نفيس هو حب الانتقام، وهو بطبيعته يحمل على الزيادة والتجاوز، أو كان مجيء قوله تعالى في الخاتمة ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ حداً لهذا العامل النفسي، الذي هو حب الانتقام. فيجعل العقوبة مماثلة للاعتداء، لا تتعداه.

وفقه اللغة يحدد لنا هذه المادة: عاقب: أصله العُقبة، بضم العين وهو

النوبة في تعاقب المسافرين على ركوب الراحلة، أو على عمل ما. ففي السفر يركب كل واحد مسافة تعادل مسافة صحابه بدون تجاوز، وكذلك التعاقب في الحراسة كل واحد يوماً أو أحدهما نهاراً والآخر ليلاً. ومنه الحديث «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار». فكان من حق العقوبة المساواة.

ثم يندبهم إلى الصبر: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشورى: ٣٩ ـ ٤٠]. فحق المجازاة على السيئة المماثلة، والتجاوز فيها ظلم.

وأيضاً يندبهم إلى العفو والإصلاح، ويعدهم بالأجر عند الله. ويأتي النص في قضية واقعية بين المشركين وبين المسلمين في بادئ الأمر في سرية «نخلة» لما قَتَلَ المسلمون ابن الحضرمي في الشهر الحرام خطأً، واحتج المشركون، فنزل قوله تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة: ١٩٤]. فنص سبحانه أنه إن وقع اعتداء المسلمين في الشهر الحرام على واحد من المشركين، فكم وقع من المشركين اعتداءات على كثير من المسلمين في أشهر حرم، (والحرمات قصاص) أي: بالتساوي، مثل تساوي طرفي القماش تقصّه بالمقص.

ثم يضع الميزان العادل ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ من حيث الزمان أو المكان أو المقدار. ويحذرهم سبحانه من التعدي: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أن بعدم التجاوز، ويعدهم بالنصر والتأييد بمعيته سبحانه الخاصة لهم ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وللبلاغيين هنا إيرادات، والإجابة عليها ساقها والدنا الشيخ الأمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (أضواء البيان) قال: أطلق جل وعلا اسم العقوبة على الجناية الأولى في قوله تعالى: ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾. والجناية الأولى ليست عقوبة، والقرآن بلسان عربي مبين، ومن أساليب العربية المشاكلة بين الألفاظ، فيؤدّى لفظ بغير معناه الموضوع له، مشاكلة للفظ آخر كقول الشاعر:

قالوا اخترْ طعاماً نجدْ لك طبخَهُ قلتُ اطبخوا لي جبةً وقيمصا

أي خيطوا لي. ونظيرها قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ﴾ [الحج: ٦٠]. وكذلك قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]. مع أن القصاص ليس سيئة. وقوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤]. لأن القصاص من المعتدي ليس اعتداء. وإنما أُدِّيَ بغير لفظه للمشاكلة بين اللفظين. إلا أنَّ لِقائلٍ أن يقول: إن بلاغة القرآن وإعجازه لا ينبغي أن تقصر على المشاكلة بين اللفظين، وأحرى به أن يكون معها معنى جليل. ولعل قوله تعالى بعدها: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ ثم يأمره ﷺ بالصبر: ﴿وَٱصْبِرْ﴾. لما في الصبر من الخير، أي إن الصبر خير من المعاقبة. ليوحي بالمعنى الجليل الدقيق في هذه المشاكلة من إظهار من لم يصبر أنه مسيء ومتعد، وهو في مثل موقف خصمه، وتساوى معه، بخلاف ما إذا صبر وعفا وأصلح. يشهد لهذا ما جاء في مَن حَكَمَ له ﷺ بالقصاص من قاتل أخيه، وقد ندبه ﷺ بالعفو، ولكنه أصر على القصاص فلما ذهب به، قال ﷺ: «لئن قتله لهو مثله». فسمعها الرجل فرجع وعفا. نعم إن الحد الأدنى هو القصاص، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: ٤١ ـ ٤٣]. ولكن التسامي إلى العفو والمغفرة خير منه، وهو من عزم الأمور، وقد بين تعالى أنها منزلةٍ لا يرقى إليها إلا النوادر من الخلق قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٥]. وجاء في الحديث «ما عفا أحد عن مظلمة لأخيه، إلا زاده الله بها رفعة».

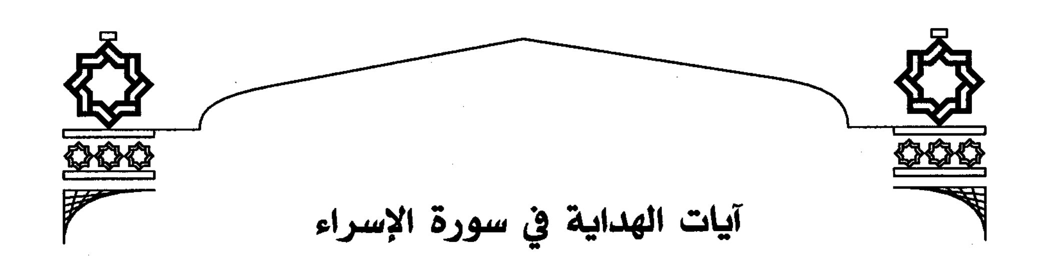
وعليه فوراء بلاغة المشاكلة اللفظية شفافية سمو الهداية القرآنية، تسمو بالنفوس البشرية إلى أعلى درجات الأخلاق الإنسانية.

ثم يأتي هذا النص ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾. نعم كفى بالله ولياً، وكفى بالله نصيراً، نظير تلك النصرة في هذه المعية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾. ولقد أوضح المولى عز وجل هذا المعنى في موقفين كريمين:

أحدهما: مع نبي الله موسى مرتين؛ **الأولى**: أمام فرعون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]. **والثانية**: حين خاف قومه الهلاك وقالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾ [الشعراء: ٦١ ـ ٦٢]. وقد هداه ونجاه بطريق في البحر يبساً.

الموقف الثاني: مع نبينا محمد ﷺ: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ﴾ [التوبة: ٤].

* * *



آيات الهداية في سورة الإسراء

١ ـ هداية القرآن للتي هي أقوم:

قال تعالى من سورة الإسراء: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾ [الإسراء: ٩].

وتعتبر هذه الآية الكريمة من أصرح وأوضح نصوص الهداية في كتاب الله، وأوسع وأشمل لمعاني الهداية، وأقوم طريقاً ومنهجاً. وقد اقترنت بعدة قرائن تقوي هذا العموم والشمول في مدلولها، حيث أُكِّدتْ بـ (إن)، وبأفعل التفضيل في (أقوم) أي: أقوم من جميع الكتب التي قبله، لأفضل المناهج للأمم.

قال ابن كثير عندها: يمدح الله تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن، بأنه يهدي لأقوم الطرق، وأوضح السبل، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات على مقتضاه.

وقال القرطبي: لما ذكر المعراج، ذكر ما قضى إلى بني إسرائيل، وكان ذلك دلالة على نبوة محمد ﷺ، يعني بما قضى على بني إسرائيل قوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٤ ـ ٧]. وقول القرطبي كان ذلك الإيراد والإخبار بما وقع لهم قبل النبي ﷺ فيخبرهم بما وقع قبل مجيئه، فهذا دليل على صدقه. ويؤيد تلك الدلالة لغير المسلمين أنه لو لم يكن هذا وقع بالفعل لأنكروا عليه إخباره به، ولكنه وقع بالفعل، وأخبرهم به، فهو صادق. وكان عليهم أن يؤمنوا به ويصدقوه. ثم بين القرطبي التي هي أقوم بقوله: أي الطريقة التي هي أسَدُّ وأعدل وأصوب.

أما أبو حيان فقد أوسع في المعنى والربط، فقال: لما ذكر تعالى من اختصه بالإسراء وهو محمد ﷺ، ومن آتاه الله التوراة وهو موسى عليه السلام، وأن التوراة هدى لبني إسرائيل، وذكر مما قضى عليهم فيها من التسليط عليهم بذنوبهم، كان ذلك رادعاً من عقل عن معاصي الله، فذكر ما شرف الله به رسوله ﷺ من القرآن الناسخ لحكم التوراة وكل كتاب إلهي، وأنه يهدي للطريقة أو الحالة التي هي أقوم. ثم فسر التي هي أقوم أنها: شهادة التوحيد، أو هي جميع الأوامر والنواهي.

وجاء في (أضواء البيان) لوالدنا الشيخ الأمين رحمه الله عند هذه الآية الكريمة قوله: ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهداً برب العالمين، يهدي للتي هي أقوم: أي الطريقة التي هي أسد وأعدل وأصوب، وأن الآية الكريمة أجمل الله فيها جميع ما في القرآن من الهدى على خير الطرق وأعدلها وأصوبها. ثم قال: فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال، لأتينا على جميع القرآن العظيم، لشمولها على جميع ما فيه من الهدي إلى خيرَي الدنيا والآخرة. وساق رحمه الله تعالى عشرة نماذج كاملة على ذلك وتنبيهاً بالبعض على الكل، فتناول قضية التوحيد بأقسامه الثلاثة: توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، وكذلك قضايا الأسرة من طلاق وميراث، وقضايا إقامة الحدود، ومناهج الإصلاح كالمؤاخاة بين المؤمنين، وحفظ الضروريات الست على المجتمع الإسلامي التي هي الدين والنفس والعقل والنسب والعرض والمال، وفصَّل القول فيها رحمه الله، وبيّن كيف كان هدى القرآن فيها كلها للتي هي أقوم وأعدل.

وقد جاء عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن ضروريات الحياة للإنسان أهمها: هدايته إلى الصراط المستقيم، وتعريفه بربه وبرسوله ﷺ وبكتابه، وأن حاجة الإنسان لذلك أشد من حاجته إلى الطعام والشراب، لأنه إن عدم الطعام والشراب غاية أمره الموت، والموت لا بد منه، فإن كان ممن هداهم الله فإلى الجنة وهي خير له من الدنيا، وإن كان قد حرم الهداية فهو الخسران. وقال رحمه الله: ولما كانت حاجته إلى الهداية بهذه المثابة، فإن الله قد

أوضح له الطريق، وأقام له الدليل، ويسر له ذلك كما يسر له الهواء والماء والطعام. فأقام له أدلة وجود الله، وأدلة صدق رسوله ﷺ، وأدلة صحة نزول القرآن من عند الله تعالى. وما ذكره رحمه الله في ذلك يعتبر فريداً في بيانه، بدأ رحمه الله ببيان أن النفوس مجبولة على السبق لمعرفة الله من جهة الربوبية لفقرهم إليه، وقصدهم إياه في قضاء حوائجهم، فكان إيمانهم بالله تعالى رباً قبل إيمانهم بإفراده سبحانه بالألوهية والعبادة، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]. وأخبر سبحانه عن الإنسان في حالة الشدة فإنه يخلص الدعاء لله وحده، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ . . .﴾ [لقمان: ٣٢]. ومعلوم قصة عكرمة لما فتحت مكة وأبى الإسلام، وهرب إلى البحر، فلما أخذت سفينتهم إلى عرض البحر اضطرب بهم، فقال صاحبها: أخلصوا الدعاء لله وحده، فلا ينجي من هذه إلا الله. فقال عكرمة: والله لئن كان لا ينجي في البحر إلا الله فلا ينجي في البر إلا الله، وهو ما يدعو إليه محمد، لله عليَّ لئن أنجاني الله من هذه لآتين محمداً وأضع يدي في يده، ولأجدنه براً رحيماً. ثم إن القرآن يهدي للتي هي أقوم قد ربط بين فطرة الخلق في الإيمان بالله رباً، وبين وجوب عبادة الله تعالى وحده. وكثرت النصوص في ذلك، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ يأتي بعدها تقريرهم وإلزامهم بالإيمان بالله تعالى وحده، فيقول تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس: ٣١ ـ ٣٢]. يعني عن عبادة الله تعالى وحده. ونظير ذلك في سورة المؤمنون: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٩٠]. وقال والدنا الشيخ الأمين رحمه الله على ذلك: لما قررهم على عدم توحيده سبحانه.

وهنا نؤكد لدارسي العقيدة ومدّرسيها وجوب العناية بتوحيد الربوبية، ليكون ملزماً أكيداً لمن يقر بالربوبية أن عليه الإقرار بعبادة الله تعالى وحده، وأن هذا الإقرار هو معنى (لا إله إلا الله) وأنه الذي جاءت به الرسل من عند الله، وهذا هو هدي القرآن للتي هي أقوم في حق الله تعالى وحده من جهتي الربوبية والألوهية.

٢ ـ هَدْي القرآن للتي هي أقوم في توحيد الأسماء والصفات:

من لوازم الإيمان بالله تعالى رباً، وإفراده بالعبادة، وتحقيق لا إله إلا الله: توحيده سبحانه في أسمائه وصفاته ﷻ. وهو سبحانه له الأسماء الحسنى، وله ﷻ صفات الكمال والجلال.

وهذا القسم من أقسام التوحيد الثلاثة أجمع المسلمون على أنه توقيفي، وإن كان العقل يحكم بأن رب العالمين، ومالك الملك، ومن بيده ملكوت كل شيء، فإن صفاته قطعاً تستلزم أن تكون هي الغاية في الكمال والجلال، بما يليق بكماله وجلاله سبحانه.

فوجب على كل من آمن بالله تعالى رباً، وأفرد الله تعالى بالعبادة، وشهد لمحمد ﷺ بالرسالة، أن يثبت لله جميع ما أثبته سبحانه لنفسه، وما أثبته له رسوله، إذ لا أحد أعرف بالله من الله، ولا من رسول الله ﷺ، والعبرة عند سلف الأمة بثبوت الصفة نصاً، ولا مجال للعقل نفياً ولا إثباتاً. وأجمع سلف الأمة على أن الاعتقاد في الصفات والكلام فيها، إنما هو فرع عن الاعتقاد في الذات.

وعن الكلام فيها: فالإيمان بصفات الله إيمان إثبات بدون تكييف ولا تمثيل، كالإيمان بذات الله سبحانه بدون تكييف ولا تمثيل أو تشبيه. كما قال الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى: فإذا كان إثبات الباري سبحانه هو إثبات وجود لا إثبات كيفية، فكذلك إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف. فإذا قلنا: يد وسمع وبصر وما أشبهها، فإنما هي صفات أثبتها الله لنفسه. ولسنا نقول: إن معنى اليد: القوة والنعمة. ولا معنى السمع والبصر: العلم. ولا نقول: إنها جوارح. ولا نشبهها بالأيدي والأسماع

والأبصار التي هي جوارح وأدوات للفعل. ونقول: إن القول إنما وجب بإثبات الصفات، لأن التوقف ورد بها، ووجب نفي التشبيه عنها لأن الله ليس كمثله شيء. وعلى هذا جرى قول السلف في أحاديث الصفات. وهذا نص من رسالة الفتوى الحموية، وفيها نُقُول عديدة عن أئمة السلف رحمهم الله.

ولوالدنا الشيخ الأمين رحمه الله في رسالة موجزة بعنوان «منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات» جاء في مقدمتها بعد حمد الله والصلاة والتسليم على رسول الله ﷺ، قال: أما بعد، فإنا نريد أن نبني ونوضح معتقد السلف والطريق الذي هو المنجي نحو آيات الصفات، ثم قال:

أولاً: إن كثرة الخوض والتعمق في البحث في آيات الصفات، وكثرة الأسئلة في ذلك الموضوع من البدع التي يكرهها السلف، وإن مبحث آيات الصفات دل القرآن العظيم أنه يرتكز على ثلاثة أسس، من جاء بها كلها فقد وافق الصواب، وكان على الاعتقاد الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه والسلف الصالح، ومن أخل بواحد من تلك الأسس الثلاثة يدل عليها قرآن عظيم.

أحد هذه الأسس الثلاثة: هو تنزيه الله جل وعلا عن أن يشبهه شيء من صفاته شيئاً من صفات المخلوقين. وهذا الأصل يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ﴾ [الشورى: ١١]. وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤]. وقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ﴾ [النحل: ٧٤].

الثاني: من هذه الأسس: هو الإيمان بما وصف الله به نفسه، لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله، كما قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ١٤٠]. والإيمان بما وصفه به رسوله ﷺ، لأنه لا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله ﷺ، الذي قال في حقه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣ ـ ٤]. فيلزم كل مكلف أن يؤمن بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ، وينزه ربه جل وعلا عن أن تشبه صفته صفة الخلق. وساق نماذج عديدة من صفات الله تعالى، وعلى هذا فإن منهج القرآن العظيم فيما يتعلق بصفات الله تعالى على المنهج القيم الآتي:

١ ـ الإيمان بالصفات التي جاءت في الكتاب والسنة، مثل أنه سبحانه:

سميع، عليم، حي، قادر محيي، ومميت، وخالق، رازق، مستوٍ على العرش. وما في السنة مثل: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا ثلث الليل الأخير ينادي: هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟» ومثل: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل». ومثل: «قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن» وما جاء في الأحاديث القدسية: «إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه» وكل ما جاء عن المولى سبحانه.

٢ ـ قَطْعُ الطمع نهائياً عن إدراك الكيفية بالنسبة إليه سبحانه وإلى صفاته المقدسة.

٣ ـ تنزيهه سبحانه من أن تشبه صفة من صفاته صفة أحد من خلقه. لا في صفة ذات، ولا صفة فعل، كما يقسّمها علماء الكلام. ولنعلم أن أسماءه سبحانه توقيفية، لا يحق لأحد أن يبتكر ولا يدعي لله تعالى اسماً لم يرد لا في كتاب ولا في سنة. وقد جاء الحديث: «إن لله تسعةً وتسعين اسماً، مئة إلا واحداً، مَنْ أحصاها دخل الجنة». فليس لأحد أن يدعي لله اسماً يكمل به المئة. وجاء القرآن بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وقد استقصاها بعض الناس ورتبها على النسق المشهور عند الناس، وجاء في آخر سورة الحشر عدد كريم منها وهو قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٣ ـ ٢٤]. إلى غير ذلك مما نقرأه في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ على الوجه الذي يليق بجلاله سبحانه، وبهذا يتضح هدي القرآن للتي هي أقوم في أسماء الله وصفاته.

٣ ـ من هدي القرآن للتي هي أقوم في نظام الأسرة:

إن قيام الأسرة وبناءها، القوامة عليها وحفاظها، من أهم قضايا

المجتمعات الحضارية، وقد شغلت حيزاً كبيراً في قضايا المجتمعات الحضارية، وقد شغلت حيزاً كبيراً في منهج الإسلام، ابتداء من الزواج، وارتباط الزوجين بكلمة الله، وعلى مبدأ يرضي الله في اختيار كل من الزوجين للآخر، ثم تحديد مسؤولية كل طرف منهما، ثم الرعاية والقوامة، ثم حق الأولاد، وحق الوالدين. وسواء في حالة الرضى والاتصال، أو عند وجود المشاكل وحالة الانفصال، بأقوم طريق وأعدل سبيل مما لم يشهده العالم من قبل. نختار عرض هذا النموذج كمثال على هَدْي القرآن للتي هي أقوم في جميع قضايا الأمة.

أولاً: أسس بناء الأسرة: قد جعل الإسلام الأساس القويم لبناء الأسرة هو التمسك بالدين، والالتزام بطاعة الله كما جاء في الحديث: «تنكح المرأة لأربع» وذكر ﷺ حسبها ونسبها ومالها وجمالها ودينها ثم قال: «فاظفر بذات الدين تربت يمينك». ولأن ذات الدين هي التي تسعد الزوج في حضرته، وتحفظه في غيبته كما قال ﷺ: «خير ما يقتنيه المرء بعد الإسلام زوجة صالحة، إن نظر إليها سرته وإن أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته». يعني في ماله، وعرضه، ورعاية أولاده، وإدارة بيتها. ومن هذا المبدأ الديني جاء قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾. ثم بين سبحانه العلة في هذا النهي وخطورته بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي المشركين والمشركات: ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١].

ويزيد هذا إيضاحاً بيان الهدف الأساسي من مشروعية الزواج في مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١]. والسكون إلى الزوجة هو غاية الطمأنينة إليها، والركون إلى شخصها، والثقة فيها: تسكن إليها نفسه، وتطمئن إليها عواطفه، ويركن إليها قلبه وعقله، بل تقر بها عينه فتسكن إليها، ولا تتطلع إلى غيرها. وهذه هي تبادل العواطف بين الزوجين على أكمل وجه. وبجانب تلك الناحية العاطفية النفسية أن جعل

سبحانه بينهما أقوى الروابط الإنسانية: مودة ورحمة. والمودة: تلاحم الطرفين بالود، والإقبال من كل منهما على الآخر. والرحمة: هي الشفقة والحماية والرعاية. ثم جعل الواجبات متعادلة في مقابلة عادلة في قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. وتلك هي درجة القوامة في قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ وبين موجب تلك القوامة ونوعها من رعاية وحماية، فقال: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ﴾ [النساء: ٣٤]. وما فضل الله به الرجال من حسن التدبير، وقوة الحماية، وجهد السعي والإنفاق. أي في المصالح خارج البيت، أما داخل البيت فكل منهما له عند صاحبه ما لصاحبه عنده، مما لا غنى لأحدهما عنه، كما بين تعالى في روعة بيانية، وصورة عملية هي القمة في البيان والهداية للتي هي أقوم، وذلك في قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ﴾ [البقرة: ١٨٧]. لباس الستر والوقاية، لباس العفة والحماية: لا مِنْ حَرِّ الشمس صيفاً، ولا برد الهواء شتاء، ولكن من وهج الغريزة والجبلة. وهذا غاية التعاون المزدوج بين الزوجين، كلما حافظت عليه الأسرة في أي مجتمع سعدت في حياتها، وأسعدت أولادها في هذا الجو السعيد.

وإذا اعترضت مسيرة الحياة الزوجية بعض العوارض، أو طرأ عليها عوامل الفتور، وخيف على هذا البناء من التصدع، وهذا الارتباط من التفكك، جاء المنهج القويم والإرشاد إلى التي هي أقوم في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ أي خيف على الأسرة من جانب الزوجة، ﴿فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤]. فقد رسم سبحانه خطوات الإصلاح التي يقوم بها الزوج في تدرج حكيم: بدأ بالموعظة الحسنة، ومعلوم أن الزوجة المؤمنة تنتفع بالموعظة، فإن لم تستجب للموعظة، انتقل معها إلى الهجر، ولكن في المضاجع فقط. وهذا يمس صميم كيانها في ذاتها، لأنه بمثابة إبطال عامل التأثير عندها على الزوج، فقد تستجيب لهذا العامل استجابة طبيعية، وتحاول إصلاح ما بينها وبين زوجها. فإن لم تستجب أيضاً فهناك وبعد هاتين المحاولتين الإنسانيتين، لم يكن بد من عنصر فيه قسوة نوعاً ما، ولكنها مؤقتة

ولمصلحتها: ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾. أي ضرب تنبيه وتأديب، لا تَشَفّي وتعذيب. وليس في هذا هضم لحقها، ولا اعتداء على كرامتها، بل هو نوع من مسالك الإصلاح، فإذا جاءت نتيجة، كان ولا شك أصلح لها من الفرقة، كما قيل:

قسا ليزدجروا ومن يك حازماً   فليقسُ أحياناً على من يرحمُ

كما يضرب مثلاً ابنته أو أخته لمصلحتها. ولهذا حذر الله تعالى من البغي والتعدي فعقب على الإذن في الضرب بقوله: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾.

فإذا كان الخطأ والتقصير ومخافة التفكك جاءت من جانب الزوج، فيأتي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء: ٣٥]. فنجد هنا أن القضية تجاوزت الزوجين إلى حَكَمين بينهما، ولكنهما من الأهل حفاظاً على أسرارهما، ورغبة في تدعيمها.

ثم جعل الله تعالى إلى النهاية الفاضلة إذا لم يتوصل الحكمان إلى إمكان معالجة المشكلة في قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾ [النساء: ١٢٨]. فقد أرشد الله تعالى الزوجين إلى الصلح، والصلح خير من حياة النشوز والإعراض، وندب سبحانه أن يوقع هذا الصلح في جو من الإحسان والتقوى، وأنه سبحانه الرقيب عليهم، الخبير بأعمالهم، فأي منهج للأسرة أقوم من ذلك؟

٤ ـ الهداية ﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ وسورة الإسراء:

إن المتأمل لموقع هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ وما جاء قبلها وكل ما بعدها إلى نهاية السورة، ليجد من مقومات الإعجاز البياني في هذه السورة خاصة، ومعلوم أن «أقوم» أفعل تفضيل، والتي من صيغ العموم، ويقدر العلماء منعوتاً محذوفاً قيل: الملة. وقيل: الطريقة. وكلاهما متفقان، وإذا أخذنا بعين الاعتبار كل ما تقدم من مواطن الهداية،

لوجدنا في بداية القرآن الكريم وفي سورة الفاتحة قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾. ووجدنا في افتتاحية سورة البقرة مباشرة ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام: ١٦١]. وهنا ﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾. على صيغة أفعل التفضيل، ونجد بعض المفسرين يفسر (أقوم) بمعنى قيماً ومستقيماً، ولكن بتأمل أول السورة نجد النص على الإسراء مفتتحاً بالتسبيح إعظاماً لشأنه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾. وهذه المعجزة لنبينا ﷺ تفوق جميع المعجزات التي أُوتيها جميع الرسل، لأنها معجزة في شخصه بعروجه وهو بشر إلى الملأ الأعلى، وقد هيئ لذلك بشق الصدر، وملئ القلب نوراً وحكمة، ليقوى على عالم وملكوت السماء. وقد نوه القرآن عن ذلك في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ [النجم: ١١ ـ ١٨]. أي إن تلك الآيات الكبرى وما غشى سدرة المنتهى، من شأنه أن يزيغ البصر، ولكن نبينا ﷺ قد أُعِدَّ إعداداً إلهياً لمقابلة هذا الموقف. ثم هو يسمو إلى ما وراء سدرة المنتهى فكان قاب قوسين أو أدنى، وتلقى الوحي من ربه ما شاء الله على أصح القولين. فهو تكريم يفوق كل تكريم الأنبياء، ومقام لم يسبقه أحد عليه، ولم يلحقه أحد إليه. فهو أقوم إكرام في أعلى مقام.

ثم يأتي بعد هذا مباشرة إيماءة لطيفة في الحديث عن نبي الله موسى كليمه، وما آتاه الله من الكتاب هدىً لبني إسرائيل، ولعلنا نستشف من إيراد الحديث هنا بالذات عن موسى عليه السلام وعلى جميع الأنبياء سلام الله تعالى، أن موسى كليم الله، كانت له مناجاة، ورسول الله كانت له مناجاة، إلا أن موسى كانت مناجاته وهو في الأرض، ونبينا ﷺ كانت مناجاته في الملأ الأعلى قاب قوسين أو أدنى، وفضل ما بينهما كبير. ثم موسى عليه السلام آتاه الله الكتاب قال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾. ونبينا محمد ﷺ آتاه الله الكتاب وهو أيضاً ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾. ولكن في هذا السياق وفي معرض الحديث عن كتاب

موسى يأتي الحديث عن كتاب محمد ﷺ الذي هو القرآن: إنه يهدي للتي هي أقوم. أي لئن كان موسى عليه السلام جاء بني إسرائيل بكتاب يهديهم، فإن محمداً ﷺ جاء بعده بكتاب أقوم منه، ويهدي للتي هي أقوم مما هدى إليه كتاب موسى. وهنا تكتمل صورة التفضيل في جانبين:

جانب شخصية نبي الله موسى وهو كليم الله، ومقابلة جانب شخصية نبينا محمد ﷺ وهو الذي أُسري به وعرج به إلى الملأ الأعلى، وناجَى ربه في أعلى مقام.

والجانب الثاني: جانب الرسالة الماثلة في الكتابين المنزلين: كتاب موسى لبني إسرائيل هدًى، وكتاب نبينا محمد ﷺ لهذه الأمة، يهدي للتي هي أقوم، وهذه المقارنة الضمنية الشفافة تعطي الأضواء الهادئة إلى كل من بني إسرائيل وهذه الأمة. وكان على بني إسرائيل أن يبادروا للأخذ بالتي هي أقوم.

ولهذه الأمة شكر المولى على ما أولاهم من إكرام في شخصية نبينا محمد ﷺ، وفي أفضلية كتابنا على ما سبقه من كتب، كما أنه يعطي الضوء على هذا الكتاب يعتبر ناسخاً لما قبله بأقوميته عليها، كما جاء عنه ﷺ لما أتاه عمر بن الخطاب بصحيفة من التوراة استحسنها، فقال له ﷺ: «ألم آت بها يا ابن الخطاب بيضاء نقية؟ والله لو كان موسى بن عمران حياً لما وسعه إلا اتباعي». ولعل في هذه المقارنة مبعث تساؤل، حيث لم يجرها أحد، ولكن نظيرها صراحة ما جاء في سورة المائدة من أول قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ إلى آخر الآية، وبعدها ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ إلى آخرها من التفضيل لهذه الهداية، ثم بعدها ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾. فذكر سبحانه الإنجيل بعد التوراة وأنه مصدق لما بين يديه وأنه هدى وموعظة، ثم بعد ذلك بآية واحدة جاء قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ...﴾ [المائدة: ٤٤ ـ ٤٨]. فنجد المتعاطفات من أول ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ ثم عطف عليها ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ ثم عطف عليه ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ ووصف الإنجيل بأنه ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾

ولم يفاضله على التوراة. فهو معادل للتوراة، مصدق لها، مشارك معها في الهداية، ثم عطف على هذا كله ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ الذي هو القرآن، ثم وصفه بما يشارك ما قبله ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾. والكتاب هنا للجنس أي لما بين يديه من الكتب: صحف إبراهيم وموسى، والتوراة، والإنجيل. ثم وصفه بما يطابق أفعل التفضيل في سورة الإسراء هذه بقوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾. ومهيمناً عليه تساوي للتي هي أقوم تماماً.

وبهذه المقدمة على هذه الافتتاحية من هذه السورة يكون الانطلاق للنظر في بقية هذه السورة الكريمة، وإنا لنجد عدة قضايا فوق الخمسين قضية اشتملت عليها هذه السورة في جزئيات موجزة، وكلها جاءت بالتي هي أقوم في موضوعها. أقوم في العدالة دنيا وآخرة، أقوم في معاملة الوالدين والأقارب، أقوم في حفظ الأولاد والأنساب والدماء ومال اليتيم، والوفاء للكيل إلى آخر السورة، أقوم ما يكون في حق الله تعالى وتنزيهه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: ١١١].

٥ ـ مع سورة الإسراء في (التي هي أقوم):

تقدم الحديث عن مقدمة هذه السورة الكريمة، وبيان التي (هي أقوم) في معجزة الإسراء بالنسبة لمعجزات الأنبياء جميعاً، والربط بين ما أعطاه الله لموسى عليه السلام وما أعطيه نبينا محمد عليهم جميعاً صلاة الله وسلامه، وقد ظهر لنا من استقراء موضوعات السورة الكريمة أنها اشتملت على ما يقرب من خمسين قضية، وكلها جاءت على أقوم طريق، وأمثل منهج، وسنحاول إيراد الأهم فالأهم منها، والأظهر في موضوعه إن شاء الله.

وإن أُولى قضايا هذه السورة بعد الآية الكريمة: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ هي قضية «الدعاء»، والدعاء هو مخ العبادة، بل هو العبادة، وهو الذي يقر به كل إنسان حتى المشركين عند الشدائد، ضل من يدعون إلا الله، قد ندب الله عباده إليه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. ويتقرب سبحانه من عباده ليستجيب دعاءهم: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ

﴿١٨٦﴾ [البقرة: ١٨٦]. وقد عرضت الآية الحادية عشرة لهذا الموضوع في قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ [الإسراء: ١١]. وهذا العمل ليس منطقياً ولا معقولاً. أن يسوي الإنسان العاقل في دعائه وطلبه من ربه، ورغبته فيما يريد أن يحصل عليه، بين الشر والخير. لأن العاقل يسعى لما فيه نفعه والخير له، كما قيل في ذلك:

لمنافع يسعى اللبيب فلا تكن بشيء غيره، الدهر ساعيا

ولكن كما نصت الآية: حمله على ذلك كونه عجولاً. وبقياس العكس: أن الطريق الأقوم والمنهج المستقيم أن يتريث الداعي، وأن يهتم بدعاء الخير. وقد بين ﷺ «أن العبد يستجاب له ما لم يتعجل». «ويستجاب له ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم». ولفظ الشر أعم من هذا كله. بل بين لنا ﷺ ما هو أبعد وأوسع في باب الدعاء، وهو أن الله سبحانه لا يخيب داع بخير، وأنه يستجيب له بإحدى الحسان الثلاث: إما بإعطاء ما سأل، وإما باستبداله له بما هو أنفع له مما يعلمه هو سبحانه، وإما أن يدخره له إلى يوم القيامة. وعليه: فالتي هي أقوم أن لا يدعو بالشر أبداً، فقد توافق ساعة إجابة. ولا يتعجل فيترك الدعاء فإن الإجابة مضمونة عند الله تعالى بمقتضى وعده السابق ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وتكون الاستجابة على وجه من الوجوه المتقدمة.

ومن رحمته ـ سبحانه ـ أنه لا يستجيب لكل من دعا بالشر، كأن يدعو على نفسه، أو على ولده بالهلاك ساعة الضيق والضجر، والله تعالى أرحم بالعبد منه على نفسه، وقد بين تعالى ذلك بقوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: ١١]. وقد جاء في سبب الآية أن النضر بن الحارث قال: اللهم إن كان هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. ولا شك أن هذا حمق وجهالة، ولو عقل لقال: اهدنا إليه. وقد بين سبحانه أنه ما منع عنهم العذاب إلا بوجود الرسول ﷺ فيهم، واستغفار بعض المؤمنين، كما في قوله تعالى بعدها مباشرة: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: ٣٣]. وهذا من أوسع فضل الله على هذه الأمة ومعاملتها بالتي هي أقوم وأرحم.

وقيل في معنى الآية: إن الإنسان قد يجتهد في دعائه بالشر اجتهاده في الدعاء بالخير، على أن الشر هنا ما كان مخالفاً للشرع دون أن يبالي بذلك، فجل همه أن يحصل على مطلوبه، ويدعو الله أن يحصل عليه. وهذا جهالة منه أن يستعين بالله على ما لا يرضاه. ومثلوا له بأن يدعو السارق أن ييسر له السرقة، ويدعو الزاني أن ييسر له الزنا، والقاتل أن يعينه على قتل خصمه، واستشهدوا بأبيات ابن جامع:

أطوفُ بالبيتِ فيمَنْ يطوفُ وأرفعُ من مِئْزَرِي الكُسبلِ
وأسجدُ بالليلِ حتى الصباحِ وأتلُو من المُحْكَمِ المنزلِ
عسى فارجُ الهمِّ عن يوسفَ يُسَخِّر لي رَبَّةَ المَحمَلِ

وإني لأظنه مازحاً متمنياً وليس جاداً، لأنه لو كان جاداً لمنعه هذا العمل الجليل عما هو بصدده. ويهمنا أن من فعل مثل ذلك كان مرتكباً خطأين: خطأ تلك الأعمال المحرمة والعزم عليها، وخطأ الجرأة على الله في أن يدعو بها كما لو كان يدعو بالخير والصلاح. وفي الآية الكريمة أقوم طريق لصالح الدعاء. ومن لطيف الدلالة أن يلحظ المتأمل مجيء كبريات نعم الله العامة الشاملة عقب آية الدعاء في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: ١٢]. إنها قضية كونية مستقلة من أقوم الآيات الدالة على قدرة المولى سبحانه، وعلى سعة فضله على عباده. ومع ذلك فقد يجد الإنسان مقابلة بين الليل والنهار من جهة، والدعاء بالشر والخير من جهة، وقد قابل بين الليل والدعاء بالشر في التقديم، والليل والنهار ظرفا الزمن لهذه الحياة، وهما محل العمل والابتغاء من فضل الله، وتسييرهما في هذا النظام البديع من أعظم الدلالة على قدرة المولى ﷻ من جهة، ومن أعظم النعم على العباد من جهة أخرى، فمن جهة القدرة الإلهية قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٣٧ ـ ٤٠]. وقد ألزم الخليل عليه السلام خصمه بقوله: ﴿فَإِنَّ

﴿ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾ [البقرة: ٢٥٨].
ومن جهة الإنعام بهما من الله ما تضمنه قوله: ﴿لِتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ وذلك في الليل بالسكون والراحة، وفي النهار بالسعي والعمل، ولو كان الزمن كله ليلاً فقط أو نهاراً فقط لشق على العباد، واضطرب نظام حياتهم. ولكن رحمة بهم جعله ليلاً ونهاراً، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ۝٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٧٢ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٧٣﴾ [القصص: ٧١ ـ ٧٣]. وقد سخر الله للإنسان إمكانيات هذا الابتغاء من فضله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ﴾ [تبارك: ١٥]. وقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]. وهكذا فالليل والنهار من أقوم مناهج الحياة.

٦ ـ ثالثة قضايا (التي هي أقوم) في سورة الإسراء:

تلك هي قضية العدالة في حساب المولى ﷻ لعباده يوم القيامة، مما لا يسع الإنسان أياً كان هو إلا الإذعان والتسليم. وذلك أن الله تعالى ـ وهو أحكم الحاكمين، ولا يُسأل عما يفعل ـ فإنه إن رَحِمَ فبفضله، وإن عذَّب فبعدله. ومع ذلك يضع الموازين القسط ليوم القيامة، فيزن أعمال العباد بالذرة: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

وتفصيل هذه العدالة: ما جاء عقب آيتي الليل والنهار، والابتغاء من فضل الله، وتنظيم عدد السنين والحساب، سواء في العبادات أو المعاملات في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ۝١٤﴾ [الإسراء: ١٣ ـ ١٤]. ومما يستوقف الدارس هنا إجلالاً لعظمة الله، وتعظيماً لإعجاز القرآن، ويجعله يسقط أمر هذه الحياة من غلوه فيها: مجيء هذا النص الكريم:

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ وما بعدها مباشرة بعد ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾. فالليل والنهار آيتان في الدنيا، وهما ظرفا زمانها، وفيهما الابتغاء من فضل الله، فلكأنه وبسرعة مذهلة، وقد انقضت هذه الدنيا، وانطوى زمنها على ما عمل العباد فيها، وحالاً سريعاً عرضوا على ربهم لإجراء محاسبتهم، وبمقتضى سجلات أعمالهم. إنها لفتة خاطفة، يوضحها ما جاء من النصوص في هذا المعنى كقوله تعالى من سورة يونس: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ...﴾ [يونس: ٤٥]. وقوله تعالى من سورة الروم: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]. وقوله في سورة المؤمنون: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١١٢ ـ ١١٤]. وهذا المعنى ملحوظ في سرعة الإتيان بآية: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾. بعد مجيء آيتي الليل والنهار، والابتغاء من فضل الله، ومعرفة عدد السنين والحساب. فينطوي عدد تلك السنين مهما طالت، ويأتي يوم القيامة، ويقوم فيه الحساب. ولكن حساب الله تعالى للعباد، وعلى منهج هو أقوم مناهج العدالة على النحو الآتي:

أولاً: المسؤولية الفردية: كل عن نفسه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾. ولفظ ألزمناه وكونه في عنقه: أقوى تعيين وتحديد وإلصاق، فلا يتأتى اختلاط ولا مناكرة. والطائر هنا قيل: هو نفس الكتاب، إلا أن الطائر مجمل، والكتاب مفصل. وقيل: الطائر هو الحظ والحد، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ...﴾ [يس: ١٩]. وتأتي إقامة الحجة والمُلْزِمة في قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾. أي بعد أن كان يَكْتُبُ عليه ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ فهو الآن يقرأ بنفسه، وفي ذلك اليوم كل إنسان يصبح قارئاً حتى العامي الذي لم يتعلم القراءة من قبل. وهنا تلوح أسئلة: بأي لسان سيقرأ الناس؟ وبأي لغة سيجدون تلك الكتب؟ ومن أي نوع؟ هي كلها أسئلة ليس لها جواب إلا الإيمان والتصديق بما أخبر الله تعالى به. والذي يهم كل مؤمن وهو جزء من عقيدة الإيمان باليوم الآخر

وبكل ما سيكون فيه، أن لكل إنسان كتاباً، وأن كل إنسان سيقرأ كتابه بنفسه. ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩]. ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة: ١٣ ـ ١٥].

ثانياً: ولو حاول الإنكار أو الجحود، لختم الله على فمه، وأنطق له جوارحه ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: ٦٥]. وكقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ . . .﴾ [فصلت: ٢٠ ـ ٢١]. ومن تمام صورة هذا الحساب، ووضع هذا الكتاب: أنه بعد أن يخرج له كتابه ويقرؤه بنفسه، يصبح الناس ثلاثة أقسام: قسم أخذ كتابه بيمينه، وقسم أخذ كتابه بشماله، وقسم حامله وراء ظهره. ثم يرى كلٌّ مصيره نتيجة لموقع كتابه.

أما من أخذ كتابه بيمينه: فله حالاً: الأولى كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ [الانشقاق: ٧ ـ ٩]. وهذه أولى البشائر لهذا القسم. والحالة الثانية وما يليها ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الحاقة: ١٩ ـ ٢٣]. وقوله: ﴿هَآؤُمُ﴾ اسم فعل بمعنى هاكم، يعني: خذوا اقرؤوا كتابيه. وهي من فرحة ما وجد في كتابه كما تقدم، وينقلب إلى أهله مسروراً، وقد نشاهد صوراً مصغرة في كل عام عقب امتحان الطلاب، فإن من أخذ نتيجة امتحانه وكان ناجحاً وسرّه ما حصل عليه من علامات، سرعان ما وصل بها إلى أهله مسروراً ويقدمها لكل من لقيه: اقرأ شهادة نجاحي. وقوله: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ أي فعملت على نجاتي كما قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا. وكانت النهاية والعاقبة أنه في جنة عالية في عيشة راضية، فيها ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، أنهار جارية، وقطوف دانية، جعلنا الله تعالى معهم.

أما القسم الثاني: عياذاً بالله، وهم يأخذون كتبهم بشمائلهم، فكما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾ يعني الموتة الأولى. ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾. ويبين سبحانه حالته في الدنيا بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الحاقة: ٢٥ ـ ٣٦].

أما القسم الثالث: وهو من يكون كتابه وراء ظهره فكما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾. يبين سبحانه موقفه في الدنيا: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾ لا يخاف حساباً ولا عقاباً ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ [الانشقاق: ١٠ ـ ١٤]. أي لن يرجع ولا يبعث، وهذا مقابل لأصحاب اليمين ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ هذه النتيجة وتلك الصورة هي الغاية والنهاية في العدالة، يقتنع الإنسان بنفسه من نفسه، ويلقى كلٌّ جزاء عمله ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ ولهذا يختم السياق بقوله: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ﴾ الآية وسيأتي بيانها إن شاء الله.

٧ ـ رابعة قضايا (التي هي أقوم) في سورة الإسراء:

هي قضية الهداية والضلال، وهي أخطر قضايا الإنسانية التي يتنازع فيها الخير والشر في النفس البشرية، وقد أُعطيت النفس مقومات الأمرين كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ٨ ـ ١٠]. وذلك تحقيقاً لتمكنه من اختيار أي الطريقين. وهذه القضية المنصوصة في الآية الخامسة عشرة من هذه السورة في قوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥]. والهداية هنا مسندة لضمير مستتر، يعود على النفس ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي هو، ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ﴾. وكذلك الضلال ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾. والاهتداء سلوك الطريق الموصل إلى الغاية المطلوبة، والضلال الانحراف عن الطريق الموصل لتلك الغاية، كالذي يسلك

مفازة: فإن لزم الجادة أوصلته إلى غايته حتى يجتازها ويصل إلى مطلوبه، ومن انحرف عن الجادة ضل وهلك. والغاية هنا هي التي من أجلها خَلَق الله الإنسان في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

وعليه: فالهداية والضلال هنا في سلوك طريق الطاعة لله، أو الانحراف عنه. وقد أمكن الله الإنسان من نوعي الاختيار لنفسه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠]. وكانت النتيجة الحتمية لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. والوزر الثقيل. ومنه الوزير، يحمل ثقل مهمة من هو وزير له من سلطان ونحوه، وهذا نص صريح في أنه لا تزر وازرة وزر أخرى.

ويربط هذا النص بما قبله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ فإن ما في ذلك الكتاب نتيجة لهذه القضية من هداية أو ضلال. فكما أن كل إنسان طائره في عنقه، فكذلك كل إنسان مسؤول عن عمله. وقد نصت آيات أخرى على هذا المعنى كقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦]. وقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾ [الإسراء: ٧]. ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ . . .﴾ [الأنعام: ١٦٤]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ . . .﴾ [فاطر: ١٨]. فلا الوالد يحمل عن ولده، ولا الولد يحمل عن والده، ولا الصاحب عن صاحبته، ولا الصاحبة عن صاحبها، ولا أحد عن أحد. ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧]. وقد يرد على هذا من التساؤل عن قوله تعالى في حق المكذبين بالقرآن: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل: ٢٤ ـ ٢٥]. فهم يحملون أوزارهم كاملة ومعها من أوزار أتباعهم الذين أضلوهم. قال والدنا الشيخ الأمين: وقد أوضح هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ﴾ [العنكبوت: ١٣]. وأجاب عن ذلك بعدم التعارض، لأن قادة الضلال ورؤساءهم تحملوا وزرين: **أحدهما**: وزر

ضلالهم في أنفسهم، **وثانيهما**: إضلالهم غيرهم على حد قوله ﷺ: «من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة. . .» الحديث. يؤكد هذا المعنى: أن قبل آية العنكبوت: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٢ ـ ١٣]. فتلك الأثقال مع أثقالهم نتيجة عملهم، وهو قولهم للذين آمنوا: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ وقد أكذبهم الله فلا يحملوا أثقال غيرهم، ولحقهم أثقال إضلال غيرهم، وهذا من عملهم أنفسهم.

وبعد هذه الصورة المكتملة من موضوع الهداية والضلال، وتحميل كل إنسان مسؤولية نفسه، جاء الإعذار الكامل في قوله تعالى نهاية الآية: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾. ولهذا دلالتان أساسيتان:

الأولى: أن الهداية والضلال هنا إنما هما بالنسبة لطاعة الله تعالى أو معصيته، لأنها لن تُعْرَف إلا عن طريق إرسال الرسول، وهو ما يسمى عند الأصوليين «العبادات توقيفية». فلا يحكم بهداية ولا بضلال إلا بحكم الشرع، ومنه نشأ القول بالتحسين والتقبيح العقليين، وجمهور أهل السنة أن التحسين والتقبيح شرعيان، لأن العقل يخطئ ويصيب، والعقول تتفاوت خلافاً للمعتزلة، وهذا مبحث أصولي مبسوط في كتب الأصول والعقائد.

والدلالة الثانية: منطوق وظاهر هذه الكلمات وهي نفي وقوع العذاب حتى يبعث الرسول، وقد نشأ عن هذا الظاهر نقاش موضوع أهل الفترة وأطفال المشركين الذين ماتوا قبل بلوغهم، وقد ناقش علماء التفسير هاتين المسألتين نقاشاً طويلاً لا يسعه هذا الكتاب، ونجتزئ بما قدَّم به ابن كثير رحمه الله لهذا الموضوع بعد أن تكلَّم على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]. قال: وهذا من عدل الله تعالى ورحمته بعباده، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. إخبار عن عدله تعالى، وأنه لا يُعذِّبُ أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسل إليه، كقوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ [الملك: ٨ ـ ٩].

وقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الزمر: ٧١].

والذي يهمنا في هذا الموقف هداية القرآن التي هي أقوم في عدالة تحميل المسؤولية الفردية، ومحاسبة المولى عباده، مما يدعو العاقل للمبادرة إليه والتزام هديه.

* * *

٨ ـ خامسة قضايا (التي هي أقوم) في سورة الإسراء:

في الآية الثانية والعشرين من هذه السورة، قوله تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ٢٢﴾ والخطاب موجَّه إلى النبي ﷺ، علماً بأنه معصوم من أن يجعلَ مع الله إلهاً آخر، ومن أقل من ذلك. ولكن لأهمية إفراد الله تعالى بالألوهية وخطر اتخاذ إلهٍ آخر معه، مما وقع من آحاد الناس وجماعات الأمم، جاء الخطاب للقدوة من باب الاعتناء والاهتمام بالموضوع، وهذا نهاية في النهي وغاية في التحذير.

ثم يأتي في الآية بعدها مباشرةً الحكم العام الشامل في حقه تعالى على جميع الخلائق أفراداً وجماعات ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]. وهذا أسلوب حصر، والمحصور عليه ما بعد إلا وهو إياه، أي: الله سبحانه، فالضمير راجع إلى الربِّ المتقدم ذكره في ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ وهذا نظير الحصر في سورة الفاتحة بأسلوب تقديم ما حقه التأخير في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ أصله نعبدك، فقدَّمَ الضميرَ وهو الكاف وركبه مع إيا؛ ليصيرَ النطق بها إيَّاك.

وأوَّل الناس دخولاً في ذلك هم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، لأنهم هم أعرف الناس بحق الله على عباده، وهذا التكليف بصيغة القضاء يجعل الحكم لازماً نافذاً، لا نقاش فيه ولا تسامح، ولا تهاون ولا تفريط، كقضاءِ القاضي بين الخصمين يستوجب التنفيذ، فهو حكم مصحوبٌ بإلزام، لأنه حق ثابت لله سبحانه على خلقه ولأجله خلق الثقلين الجِنَّ والإنس كما هو معلوم.

وسبق أن أعطوا عليه العهد وهم في عالم الذر كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. وعلى هذا العهد يُولد كلُّ مولود، فكان بحقٍّ قضاءً مبرماً، ثم يلي هذا الحق الأعلى الذي هو حق الله تعالى يليه في الذكر مقترناً في الآية الواحدة وبدون فصل، حقُّ من له الحق على الإنسان بعد الله تعالى وهما الوالدان، يبين هذا التناسب في الذكر ما تشير إليه الألفاظ في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ من أن معاني الربوبية تستوجب إفراد الربِّ سبحانه بالعبادة، وكذلك معاني الولادة هي التي استوجبت هذا التلازم والمشاركة في حكم هذا القضاء، إذ الربُّ هو الموجد من العدم، والمُرَبِّي على النِّعم. والوالدان هما السبب المباشر الذي عن طريقهما كان هذا الوجود الإنساني، وكان عن طريقهما تدبير النِّعم في تربية هذا الإنسان.

وقد عرضنا لحق الوالدين سابقاً في سورة الأنعام عند قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الأنعام: ١٥١]. فهو سياق مماثل، إلا أن هنا أمراً مؤكداً بحكم مقضي، وهنا تفصيلٌ يُظهر مدى التي هي أحسن في هذه القضية الإنسانية، فتبرز صورة الوالدين وهما في حالة صارخة تستدعي الإحسان والعطف، لا من ولدهما بل من كل من يُشاهدهما، وذلك في قوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. سبحانك ما أكرمَك وألطفَكَ، فليس وراء «أفّ» تأفيف، وليسا يحتملان حتى الإشاحة بالوجه، إن كبرَهما أكبرُ شافع لهما.

ولقد رأى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه شيخاً كبيراً يتكفف في السؤال، فسأله عن حاله، فقال: إنه من أهل الذمة وعليه الجزية، فقال عمر: ما أنصفنَاكَ، استخدمناك صغيراً وضيَّعَناكَ كبيراً. ورقَّ لحالِه فأعفاه، وفرضَ له من بيت مال المسلمين ما أغنَاه. فهذا عمر عدويٌّ، وذاك من أهل الذمة لا يربطهما لا نسبٌ ولا مُعتقد، ولكن رأى عمر شيخاً كبيراً فعطفَ عليه. حقاً ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾، لأن كل واحد منهما منفرداً أو مجتمعاً له

هـذا الـحـق، ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾، أي لا تقتصر على رفع التأفيف والنهر لهما، بل قدِّم لهما الإحسانَ ولو بالقول الكريم الذي يُطيِّب خاطرَهما ويسترضي نفوسَهما. ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٤]. خطوة ثانية في معاملتهما بخفض الجناح، والجناح هنا هو الجانب، وإضافته إلى الذل نهاية في التلطف والإشفاق، كالعبد الذليل مع سيِّده وهما أحقُّ بذلك، وكونه هنا من الرحمة لا من الرهبة، لأن الولد قد يكون يخفض جناحَه لأبويه حالَ قوَّتهما ولكن رهبةً منهما أو رغبةً فيما عندهما؛ إذا كان ضعيفاً وهما أقوياء، فقيراً وهما أغنياء، والآن تغيَّر الحالُ فهو أصبحَ قوياً وهما أصبحا ضعيفين لكبرهما. وقد ذكَّره المولى تلك الصورة في هذا الدعاء ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]. وهذا الدعاء إعلان على تطابق القلب والنفس مع القول والفعل في العطف والرحمة، ولذا جاء بعدَها منبهاً على ضرورة هذا التطابق، ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾ من أن معاملتكم لهما نابعة عن حسن قصد ورغبة، أم ظاهراً من القول: ﴿إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥]. وأخصُّ ما يكون الصَّلاحُ هنا هو ما يكون مع الوالدين، وقد جاء من التي أحسن في حق الوالدين ما يكاد يكون أبعد من ذلك لو راعينا حق الله تعالى، وذلك في وصيةٍ من الله تفيضُ رحمةً وشفقةً. وفيها تجاوز عن حق الله بجانب حقهما في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ ثم يبرز معاناة الأم في شـأنـه: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]. ثم يتسامح سبحانه في قوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان: ١٥]. ومثلُها آية العنكبوت ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ﴾ [العنكبوت: ٨]. ثم أيضاً التجاوز والتسامح من جانبه سبحانه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ [العنكبوت: ٨]. وقد ضربَ الخليلُ عليه السلام أروع الأمثلة مع أبيه، إذ قالَ له أبوه: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: ٤٦ ـ ٤٧]. إنه المنهج الأقوم في علاقة الولدِ بوالديْه، والتي هي

أقوم في هداية القرآن لرابطة الأبوين وحسن التعامل معهما على أيَّة حالٍ كانا عليها.

* * *

٩ ـ التي هي أقوم في ذوي القُربى من سورة الإسراء:

بعد بيان حقِّ الوالدين أتبعَ ذلك بحقِّ ذوي القربى في قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٢٦] ومعلوم أن ذوي القربى طريقهم عن طريق الوالدين، فكأنه امتداد لحقِّ الوالدين في الإحسان إليهم، وذوو القربى يمكن تصنيفهم ثلاثة أقسام: أهل ميراث بفرض أو تعصيب، وذوو رحم لا ميراثَ لهم؛ وهم قرابة الأم أو الأب، كالخالة والخال والعمة وبناتهم ونحو ذلك. ثم كل من كان وراء ذلك فإنه قد يرتبطُ بهم بوشيجةِ نسبٍ. ومما يُحكى أن أعرابياً دخل على معاوية، فقال له: سألتُك بالرحم التي بيني وبينك إلا ما وصلتني. فقال معاوية: يا أخا العرب! أيُّ رحم تلك التي ناشدتني ولم أعرفْها؟ فقال: الرحم التي بيني وبينك في آدم وحواء. فقال معاوية: نعم، والله إنها لرحم صحيح. ثم كتبَ له كتاباً لأمير بيت المال أن أدفعْ إليه درهماً. فذهبَ الأعرابيُّ ليتسلَّمَ جائزتَه، فلما رآها درهماً واحداً رجع إلى معاوية متعجباً متعتباً، كيف تصلُ هذه الرحم بدرهم واحدة؟ فقال معاوية: والله يا أخا العرب إنه لأكثر من حقِّك، ولو أنني وصلتُ كلَّ من له بي صلة هذا الرحم بدرهم، لما بقي في بيت مال المسلمين ولا درهم واحد. فإطلاق ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ هنا واسع بقدر سعة المخاطب وقدرته بدون حد، وإن كان معلوماً مراعاة الأقرب فالأقرب، كما في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ٢١٥]. ثم عطفَ عليهم اليتامى والمساكين وابن السبيل وكذلك هنا قال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإسراء: ٢٦]. ولسنا في معرض تفصيل القول في تلك الحقوق لهذه الأصناف، لأن الله تعالى أجملَها، وسبقت في معرض التوجيه والإرشاد، وبيان التي هي أقوم في الإنفاق، حيث وهو في معرض الإحسان وصلة القرابة. والعطف على المسكين

ومساعدة ابن السبيل، وهي من أفضل أوجه الخير، يُرشدُ سبحانه إلى الطريقة المثلى في الإيتاء، فيقول: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ نفي مؤكد بالمصدر، ثم تصوير ومؤاخاة بين المبذرين والشياطين ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء: ٢٧]. وهنا ينشأ التساؤل: كيف يكونُ إيتاء ذي القربى والمساكين وابن السبيل يؤدي إلى أُخوة الشياطين والشيطانُ لربه كفورٌ؟ أي إن إيتاء ذي القربى والمساكين في حالة التبذير يكون كفوراً بالله تعالى، والتفاسير بين أيدينا تجيب عن تلك الأخوة فقط بأنها في الدنيا، بطاعة الشياطين، وفي الآخرة بالاقتران معهم في النار، على حد قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦]. علماً بأننا وجدنا الصدِّيق ﷺ يُنفقُ جميعَ ما يملك في سبيل الله، ولم يَصدقْ عليه هذا الوصف، والجوابُ عن ذلك هو أن التبذيرَ ليس في الإنفاق على طرق الخير، كما قيل عن مجاهدٍ لو أنفقَ مالَه كلَّه في الخير لم يكنْ تبذيراً، ولو أنفق درهماً واحداً في الحرام كان تبذيراً. وبالرجوع إلى معنى التبذير نجد أصل المادة «بذر» أصلُها للحَبِّ الذي يُوضع في الأرض للزرع، وبذر النباتَ إذا طلعَ من الأرض، وكل هذه الصور تكون على غير وجه منتظم، فالحَبُّ يُنثر ويُبعثر للزرع. والنَّبتُ يظهر في أوّله هنا وهناك مفرَّقاً. وفي القاموس بَذَّرَه تبذيراً: حَزَّبَه وفرَّقه. وعلى هذا فالتبذير هو ما يكون في غير وجه منتظم لأوجه الخير، وهذا القدر يكفي لمؤاخاة هؤلاء المبذرين للشياطين، لأن الشياطينَ تَفِرُّ على غير طريق، والشيطانُ كفورٌ لربه حيث صرفَ جهده في معصية الله وإفساد خلق الله، وهذا إرشاد في الإنفاق وأن لا يكون إلا في أوجه الخير.

أما في حالة عدم تيسر الإنفاق، فيأتي توجيه إلهي فاضل للتي هي أقوم، فيقول تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ أي عن ذوي القربى والمساكين وابن السبيل لعدم تيسر ما تُنفقه لهم ذلك، مثل ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ من تيسير الحال وحصول الثواب، فليكنْ موقفك معهم بالقول الحسن ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨]. أي هَيِّناً لطيفاً، يبعث على الأمل، لأن القول الميسور قد يكون أفضل من العطاء بغلظة، كما في قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن

صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ﴾ [البقرة: ٢٦٣]. وأنشدَ والدنا الأمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند هذه الآية البيتين:

إلا تكنْ وِرْقٌ يوماً أجودُ بها ... للسائلينَ فإني لَيِّن الخعودِ

لا يعدمُ السَّائلون من خُلقي ... إمَّا نَوالي وإمَّا حسن مَرْدودي

وبعد التوجيه في الإنفاق للغير يأتي التوجهُ الأمثلُ في الإنفاق، حتى على النفس، وفي خاصة الإنسان: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩].

تصوير للمعنوي في أوضح صورة المحسوس، حيث جعلَ الشحَّ والتقتيرَ والبخلَ والإمساكَ في صورة من غُلَّتْ يدُه إلى عنقه، أي شُدَّت بغل، وهو القيدُ إلى عنقه، فلا يستطيعُ إطلاقَها، ولا أن يمدَّها لأي بذلٍ ولا نَوال.

وفي مقابل ذلك ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ أي تطلقها في غير وجهٍ ولا هدى، بدون تقدير لما تنفق، وبدون تحديد لجهة الإنفاق، بل تتركها تتصرف في كل ما عنَّ لك، فإن هاتين الصورتين تُشكِّلان طرفي الإفراط، وكلا طرفي قصد الأمر ذميم. ولذا قالوا: الكرم وسط بين الشح والتقتير وبين البسط والتبذير، فمن لم يلتزم الوسط والاعتدال وكان فعله أحد هذين الأمرين، فإن النتيجة الحتمية لذلك أن يصيرَ إلى ما وصف الله من حاله: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ يلومُك الناس على بخلك كما قيل:

ومَنْ كانَ ذا مَالٍ فيبخلْ بمالِهِ ... على قومِهِ يُسْتغنَ عنه ويُذْمَمِ

وتتحسَّرُ عن العمل مُعَطَّلاً، وتتحسرُ في نفسك، وكلاهما بجانب (للتي هي أقوم) ثم يُواسي المولى عباده ببيان سعة فضله وبالغ حكمته، فيقول تعقيباً على ذلك ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ﴾ [الإسراء: ٣٠]. أي على كل إنسان أن يراعي حدود ما أعطاه الله، لأن في تقديره أرزاق عباده سعةً وضيقاً، هو بالغ حكمته ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٣٠]. والخبير أخصُّ من العليم، لأن الذي يعلم دقائقَ الأمور وخفيها. وقد جاء «إن من عبادي من لا يَصلحُ له إلا الغِنى ولو أفقرتُه لفسدَ حالُه...» الحديث. إنه حقاً المنهج الأقوم في ترشيد الإنفاق والهداية للتي هي أقوم.

* * *

١٠ ـ مع التي هي أقوم في سورة الإسراء في تصحيح أخطاء الجاهلية:

بعد الترشيد في الإنفاق، وبيان: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾. جاء بقضيةٍ هي من أفظع وأشدِّ ما سُجِّلَ على العرب في الجاهلية، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء: ٣١]. وقد قدَّمنا الكلام على قتل الأولاد على آية الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]. فلا نعيدُه هنا، ولكن تتمة لسياق التي هي أقوم في سورة الإسراء، فإنه بعد بيان حقوق الوالدين وذوي القربى، ومن ألحق بهم، جاء بحقِّ الأولاد، ينهاهم عن سوء فعلهم معهم، وفي هذا النهي عن قتل الأولاد ومخافة الفقر، تظهرُ لنا مدى رحمة الله بأولادهم أكثر من رحمتهم هم لهؤلاء الأولاد، ويخبرهم سبحانه بأنه هو المتكفل برزق أولئك الأولاد، كما تكفل بأرزاقهم هم من قبل حتى صاروا رجالاً ولهم أولاد، ويبين لهم مدى تعاظم هذا الجرم: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ لأنه بدون ما ذنب منهم، لا في مجيئهم إلى الدنيا، ولا في قتلهم وإزهاق أرواحهم. كما سجَّلَ عليهم هذا في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير: ٨ ـ ٩]. ويعد نطاق الأسرة من الوالدين والأقربين والأولاد، إلى عموم المجتمع، حثاً على الفضيلة، ونهياً عن الرذيلة، ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢]. ويُلاحظ أنه في قتل الأولاد قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾، وفي الزنا قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ﴾. وهذا أقوم طريق في النهي، لأنه إذا لم يقترب من الزنا لن يرتكب خطيئاته، وهذا مثل النهي عن الخمر، إذ قال فيه: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠]. والاجتناب أكثر من النهي عن تناوله، لأنه كلما كان عنه في جانب لن يقرب منه ولن يتناوله، ولهذا حرَّم الله مقدماته التي تُدني منه، فحرَّم الخلوةَ بالأجنبية، وأمرَ كلا الجانبين بغضِّ البصر، ومنعَ المرأةَ من كل ما يَلفتُ نظرَ الرجل إليها من تبرجها بزينة، ومن تعطرها خارج بيتها، بل ومن الضرب بأرجلهنَّ ليُعلم ما يُخفين من زينتهن، لأن من حام حولَ الحمى يُوشك أن يقعَ فيه، وتقدَّم الكلامُ على الزنا في آية الأنعام ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ﴾ [الأنعام: ١٥١]. ولكن الغرض هنا بيان التي هي أقوم في هداية القرآن للمنهج الأفضل، ثم بيَّن

سبحانه مسلكَ الزنا السيء بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ والفاحشة ما استفحشه الشرع وأهل المروءات، كما جاء عن هند لما جاء في بيعة النساء ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ فقالت: أَوَ تزني الحرَّةُ؟ ما أقبحَه حلالاً فكيف به حراماً؟! ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ لأنه سبيلٌ تختلطُ فيه الأنسابُ، وتدنس فيه الأعراض، وتفسد عليه عشرة الزوجين، وغير ذلك. ثم جاء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ وتقدَّمَ الكلام على ذلك أيضاً، ولكن الجديد هنا بيان العاقبة: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾. وهذا من العدالة في الانتقام من الجاني ونصرةِ ولي الدم بسلطان من الله، قال القرطبي: سواء بإظهار الحق والكشف عن القاتل، أو بحصول الولي على التمكن من القصاص من القاتل. وهنا يحد من طموح الولي إذا وجدَ السلطانَ فلا يتعدَّى، ولا يُسرفْ في القتل، وهذا تعد، بل طغيان الأقوياء في الجاهلية حيث كانوا يقتلون العديد من الأشخاص بالشخص الواحد، ووعدٌ من الله لهذا المُعتدى عليه بأن ينصرَه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣]. أي: بالسلطان الذي يقيمُه الله لنصرته.

ويلي هذا الحفاظ على ضعاف المجتمع، وهم اليتامى، لأن اليتيم ليس له من ينصره، لفقدانه وليه. ولكن الذي نصرَ وليَّ الدم وجعلَ له سُلطاناً على الباغي القاتل فهو يجعل لهذا الضعيف ولياً يحفظ حقه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾ [الإسراء: ٣٤ - ٣٥]. تلك مكارم الأخلاق، واكتمال مروءة، ورؤوس فضائل، تسمو بصاحبها للتي هي أقوم في بابها، وكلّها تقدَّمَ الكلام عليها مفصلاً ما يمنع إعادته هنا، ولكن الغرض هو بيان ما في هذه السورة من القضايا العديدة، يهدي فيها القرآن للتي هي أقوم.

ثم يأتي لما في خاصة الإنسان، وكفه عن الفضول من القول أو الفعل: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾. و(تقف) أي تتبع وتمشي وراء الشيء تنقب عليه، والحال أنك ليس لك به علم ولا مصلحة لك فيه، ويفسر هذا الحديث «من حُسْنِ إسلامِ المرءِ تركُه ما لا يَعنيه» والعاقلُ يحفظ جوارحَه عن استرسالها فيما لا طائل فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ

﴿ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

ولعل في هذا كبح جماح أولئك الذين قد وظَّفوا أنفسَهم لتتبع أحوال الناس، حتى ربما نفذوا بالفضول والتطلع إلى داخل البيوت، ليقفوا على حياة الناس الخاصة ومعيشتهم، لا لشيء إلا لإشباع ذلك الفضول. فلو علم أنه مسؤول عن كل ذلك، وأنها نعم لا تقدَّر في سمعه، وفي بصره، وفي فؤاده، ويجب أن لا يشغلَها إلا فيما يُرضي الله، لأقصر عن هذا الطبع، ثم يُرجع الهدى والإرشاد إلى شخصية الإنسان في حدود نفسه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ والمرح: الخيلاء والتكبر ونحوه، وهو مذموم إلا في ساحة القتال أمام العدو، وهي حثٌّ على التواضع، من باب النهي عن الشيء أمر بضده. ولكي يحدّ أيضاً من بطره وكبريائه بيَّن له سبحانه مكانته من عظيم المخلوقات، فقال: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ إذا اختلْتَ في مشيتك ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٧]. إذا تطاولتَ على الحياة في خيلائك، وشبه بالجبال لأنها صخور جافة، ومع هذا فهي أطول منه ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء: ٣٨].

ويُلاحظ أن الكراهية أُنيطت بوصف (سيئهُ)، وهذا يُشعر أن مما تقدم قد يكون فيه ما هو حسن؛ كقفو ما ليس له به علم بغيةَ تعلّمه، والمشي مرحاً فرحاً بنعمة الله، وترفيهاً عن النفس في غير تطاول على الآخرين، ونحو ذلك، وهذا التفصيل نهاية في التوجيه، وغاية في الحكمة، ولهذا جاء بعد هذا في الختام قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ . . .﴾ [الإسراء: ٣٩]. والحكمة وضع الشيء في موضعه، ومعلوم أن جميع وحي الله تعالى لرسوله حكمة بالغة. ولو أخذنا من أول هذا السياق: عبادة الله وحده، بر الوالدين، الإحسان إلى الأقارب والمساكين وابن السبيل، الترشيد في الإنفاق، النهي عن قتل الأولاد، وعن الاقتراب من الزنا، وعن قتل النفس المعصومة، وحفظ مال اليتيم، وإيفاء الكيل والوزن، وحفظ السمع والبصر والفؤاد والتواضع مع الخلق، خمس عشرة قضية في سبع عشرة آية، كلها في بابها تهدي للتي هي أقوم، ومما أُوحي إليه ﷺ من الحكمة وله الحمد والمنة.

* * *

١١ ـ من قضايا التي هي أقوم في هذه السورة «قضية الملائكة»:

والملائكة عالم غيب، والعقل لا يُدرك حقيقة ما غابَ عن الحس، وليس له إلا طريق الوحي، والإيمان بالملائكة أحد الأركان الستة في حديث جبريل: «الإيمان أن تؤمنَ بالله وملائكته...» إلى آخره. وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وأركان الإيمان كلُّها غيبية، وإنما طريقها السماع من الصادق المعصوم.

والمشركون لفرط جهلهم وسوء عنادهم تجرؤوا بالقول في خصوص الملائكة قولاً عظيماً، على حد قوله تعالى من سورة الكهف: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ [الكهف: ٤ ـ ٥]. وكقوله تعالى عنهم في سورة النجم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ [النجم: ٢٧ ـ ٢٨]. والنص في هذه السورة في سياق يهدي للتي هي أقوم، قال تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الإسراء: ٤٠]. استفهام تعجب وإنكار: تعجب من مقالتهم، وإنكار لمزاعمهم، وقد أحال في الآية بعدها إلى القرآن الكريم لما جاء فيه من التفصيل والتصريف، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [الإسراء: ٤١]. ومما جاء تفصيله في ذلك ما جاء في سورة الزخرف، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًاۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف: ١٥ ـ ١٩]. إنه لتصريف كاف شاف ملزم بالحجة ومبين للمحجة: كيف تجعلون له من عباده جزءاً وهم يعبدونه؟ وكيف يتخذ من خلقه بنات ويصطفيكم بالبنين؟ وكيف تجعلون له ما لو بُشِّرَ به

أحدكم ظلَّ وجهه مسوداً وهو كظيم؟ أتجعلون له أضعف القسمين؟ من يُنَشَّأُ في الحلية، ليكمل نقصاً كما قيل:

ما الحُليّ إلا زينةٌ من نقيضٍ يُتمِّمُ إذا مَا الحُسْنُ قصرا

وهو في الخصام غير مبين عن حجته، فيضيع حقه لعجزه، ثم أبطلَ ادعاءهم الملائكة إناثاً، بأسلوب جدلي هادئ، ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]. وهم في الجواب إما أن يقولوا: لم نشهد خلقهم. فتقوم عليهم الحجة بأنهم قالوا بما لم يعلموا. وإما أن يقولوا: نعم شهدنا. فيكذبون، ويُسألون عن تلك الشهادة من وأين وكيف؟ وفي سورة الصافات الآية ١٤٩ وقد افتتحها بالقسم بـ ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢﴾ [الصافات: ١ ـ ٢]. وهم الملائكة على وحدانية الله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ۝٤﴾ [الصافات: ٤]. جاء فيها قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ۝١٤٩ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ ۝١٥٠ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝١٥٢ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ۝١٥٣ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ۝١٥٤ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٥٥ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ۝١٥٦ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝١٥٧﴾ [الصافات: ١٤٩ ـ ١٥٧]. نزَّلهم منزلة المفتي ليُنصفوا من أنفسهم، ألربك الخالق المدبر من القسمة ما جعلوه من البنات، ولهم وهم المخلوقون ما اختاروه من البنين، وسلهم أشهدوا خلقَ الملائكة وشاهدوهم إناثاً، أم أن فتواهم مجرد إفك وزور، أم لهم عليها سلطان مبين؟ ولكأنه سبحانه يقول لهم: إن الفتوى لا تكون إلا مستندة إما لمشاهدة وإما لكتاب صادق، وهذا هو السلطان البين، الواضح، فأي الأمرين عندكم: شهود خلق الملائكة؟ أم كتاب أُنزل عليكم؟ وليس لديهم واحد من الأمرين، وأتبع ذلك هنا بقضية مماثلة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ﴾ وأبطل ذلك بقوله: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ۝١٥٨﴾ [الصافات: ١٥٨]. وهو ما أعلن عنهم في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ۝٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا ۝٣﴾ [الجن: ١ ـ ٣]. وهكذا تصريف القرآن لهذه القضية في تفنيد مزاعم المشركين في عدة سور، وهنا من تمام التصريف ما

جاء بعد ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾، وقوله تعالى مقيماً على المشركين الحجة، ومبطلاً دعواهم بطريق العقل والمنطق السليم فقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ﴾ كما يقولون ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢]. أي أن تعدد الآلهة يستلزم تطلب السبيل إلى العلو والغلبة، كما جاء في الآية الأخرى في سورة المؤمنون: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: ٩١]. ونظير ذلك قوله تعالى من سورة الأنبياء: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢]. والحال أن السماوات والأرض لم تفسدا، فلم يكن معه آلهة سبحانه.

ومن جانب آخر فإن القرآن قد بيَّن حقيقة الملائكة، وما أُسند إليهم من أعمال، وما يتصفون بها من صفات، على أكمل وجه وأقوم طريق، من ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [فاطر: ١]. وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٧]. وقال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣]. والواجب على كل مؤمن اعتقاد وجود الملائكة، بل إن بعض الصحابة قد رأى جبريل عليه السلام؛ كابن عباس والصحابة في المسجد، لمَّا جاءَ في صورة رجل يسأل رسولَ الله، وقال ﷺ: «هذا جبريلُ أتاكم يعلمكم أمرَ دينكم»، وكذلك في غزوة بني قريظة، وغير ذلك. وقد وكَّلَ الله للبعض منهم بعضَ الأعمال، كحملة العرش، وتبليغ الوحي والقطر، ومن المسمون بأسمائهم: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل. وكذلك من يكتبون أعمال العباد، إلى غير ذلك. قال الطحاوي: هم الموكلون بالسماوات والأرض، كما قال تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾ [النازعات: ٥]. وقال: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾﴾ [الذاريات: ٤]. ومنهم الموكل بالرحم، تدبر أمرَ النطفة حتى يتم خلقها. ومنهم الموكل بسؤال الغير، ومنهم ملائكة العذاب، وملائكة الرحمة، وخزنة النار، وخدم الجنة في عمارتها وتهيآتها. ومنهم ما نصَّ عليه ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا

﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾﴾ [المرسلات: ١ ـ ٥]. إلى غير ذلك، فإنهم جند الله، وما يعلم جنود ربِّك إلا هو، وكما وصفهم الله: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. والآيات والأحاديث في حق الملائكة كثيرة، وفي هذا القدر كفاية للدلالة على التي هي أقوم في حقهم.

* * *

١٢ ـ من الهداية للتي هي أقوم في سورة الإسراء «معجزة للقرآن تتجدد»:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ [الإسراء: ٤٥]. أكثر المفسرين على أن هذه الآية الكريمة نزلت بعد نزول سورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾﴾ [المسد: ١ ـ ٥]. كما روى القرطبي وغيره، عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: لما نزلتْ سورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة وفي يدها «فِهْر» ـ يعني حجر ـ، وهي تقول: مُذَمَّماً عصينا، وأمره أبينا، ودينه قَلَيْنا ـ يعني أبغضنا وتركنا ـ، كما قال تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الضحى: ٣]. والنبيُّ ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر رضي الله عنه، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله! لقد أقبلتْ وأنا أخاف أن تراكَ، قال رسول الله ﷺ: إنها لن تراني. وقرأ قرآناً اعتصمَ به، كما قال وقـــرأ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ فوقفت على أبي بكر رضي الله عنه، ولم ترَ رسولَ الله ﷺ، فقالت: يا أبا بكر! أُخْبِرتُ أنَّ صاحبَك هجاني؟ فقال: لا وربِّ هذا البيت ما هجاكِ. قال: فولَّتْ وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها. وقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله! أما رأتك؟ قال: لا، ما زال مَلَكٌ بيني وبينها يسترني حتى ذهبت.

والمعجزة هنا في هذا الحجاب المستور، أي غير مرئي، فهو ساتر ومستور في وقت معاً: ساتر لرسول الله ﷺ عن امرأة أبي لهب، ومستور لم تره. وسواء كان هذا الحجاب هو المَلَك كما في رواية القرطبي، أو شيء جعله الله

في عينيها منعَها رؤية النبي ﷺ. وهنا يُردُّ على بعض البلاغيين الذين قالوا: مستوراً بمعنى ساتراً، مثل قولهم: لابن، وتامر. ووجه الردِّ هو من جهتين:

الأولى: أنه لو كان ساتراً فقط وغير مستور، لكان لامرأة أبي لهب أن تحاول رؤية ما وراء هذا الحجاب الساتر، فلم يتحقق المطلوب، ولكن المعجزة في كونه مستوراً عنها.

والجهة الثانية أن معنى: ساتراً، موجود في ضمن كلمة «حجاب» لأن حجاباً بمعنى (حاجباً) فيكون (مستوراً) بمعنى (ساتراً) تحصيل حاصل، يُنزَّه القرآن المعجز عنه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ قالوا: مطلق قراءة لأي شيء من القرآن كان كافياً لستره ﷺ عن أعدائه، وقيل: إنه عنى به آيات معينة، هي ما قاله القرطبي عن كعب رضي الله عنه: كان النبيُّ ﷺ يستترُ من المشركين بثلاث آيات: الآية التي في الكهف ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧]. والتي في النحل؛ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [النحل: ١٠٨]. والتي في الجاثية: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣]. قال القرطبي وأبو حيَّان: ويزاد مع هذه الآيات أول سورة يس إلى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [يس: ٩]. مستدلين بما جاء في السيرة أنه ﷺ لما أرادَ الهجرة قال لعلي رضي الله عنه: نم في فراشي. . . الخ. وخرج فإذا عشرة رجال على بابه بأيديهم السيوف، ينتظرون خروجه ﷺ، ليضربوه ضربةَ رجلٍ واحد، بتآمر من قريش، فقرأ ﷺ أول يس إلى: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ فأعمى الله أبصارَهم عنه، وخرجَ من بين صفوفهم، وأخذ التراب من تحت أقدامهم فوضعَه على رؤوسهم، وهم لا يبصرون. إنها المعجزة والعناية بالتي هي أقوم، أن يستَرَه الله عن أعدائه بحجاب مستور لا يرونه.

وقد ذكرَ القرطبي تجدد هذه المعجزة لكتاب الله بعد رسول الله ﷺ، إذ قال: لقد اتفق لي ببلاد الأندلس بحصن منثور من أعمال قرطبة مثل هذا،

وذلك أنني هربت أمام العدو، وانحزتُ إلى ناحية عنه، فلم ألبث أن خرج في طلبي فارسان، وأنا في فضاء من الأرض قاعد، ليس يسترني عنهما شيء، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن، فعبرا عليَّ ثم رجعا من حيث جاءا، وأحدهما يقول للآخر: هذا ديبلة. يعني شيطاناً.

وروي عن كعب أنه حدَّثَ بهذه الآيات رجلاً من أهل الشام، فأتى أرض الروم، ثم خرجَ هارباً، فخرجوا في طلبه، فقرأ بهنَّ، فصاروا يكونون معه على طريقه ولا يبصرون. وقال القرطبي: قال الثعلبي: وهذا الذي يروونه عن كعب حدَّثتُ به رجلاً من أهل الريّ، فأُسر بالديلم، ثم خرجَ هارباً، فخرجوا في طلبه، فقرأ بهنَّ، حتى جعلتْ ثيابهم لتلمس ثيابه فما يبصرونه.

تلك أمور خارقة للعادة، فهي لرسول الله ﷺ معجزة، ولعباد الله الصالحين كرامة. وكل كرامة تقع على يد عبد صالح فهي معجزة لرسول الله ﷺ، وهي من جهة أخرى معجزة لكتاب الله أن يجعل الله له هذه الصفة؛ أن من قرأ شيئاً منه سواء على الإطلاق أو على هذا اليقين، وكان هذا القارئ عبداً صالحاً، ولا سيما الدعاة إلى الله الذين يُواجهون أعداء الله، ويعلم الله تعالى منهم حسن النية وصدق المقصد، فإنه سبحانه يؤيدهم بجند من عنده أياً كان نوع هذا الجند، وما يعلم جنود ربك إلا هو. ولقد رأينا كيف جعلَ الله من العنكبوت تنسج، ومن الحمامة تبيض، ومن النبت يتدلى، كان ذلك على فم الغار، والنبيُّ ﷺ وصاحبه ﷺ من الداخل، فيأتي المشركون ويقومون على فم الغار، فيقول الصديق ﷺ: والله يا رسول الله لو نظرَ أحدُهم أسفلَ نعليه لأبصرنا. فيقول ﷺ: ما بالُك باثنين الله ثالثهما. وفي ذلك جاء قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ...﴾ [التوبة: ٤٠]. إنه توجيه للتي هي أقوم في رعاية وحماية النبي ﷺ ومن سار على نهجه في إحياء سنته، ودعا إلى الله تعالى بدعوته.

* * *

١٣ ـ التي هي أقوم في هذه السورة في الدلالة على البعث:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ۝٤٩ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١﴾ [الإسراء: ٤٩ ـ ٥١]. قائل هذا القول هم منكرو البعث، وقضية البعث إحدى القضايا الأربع التي عُني بها القرآن كثيراً، وهي: الإلهيات، والنبوة، والبعث، والقضاء والقدر. والإيمان بالبعث هو الملزم بجميع التكاليف من الأوامر والنواهي، حيث يوقن بأنه سيحاسب على أعماله، وأنه سيجازى على الإحسان إحساناً، ويعاقب على الإساءة سوءاً، ولذا جاء في أوائل سورة البقرة قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: ١ ـ ٥]. ولما كان البعث بعد الموت من حيث هو مستبعد في العقل بحسب المقياس المادي، ولكنه ليس مستبعداً بحسب مقاييس القدرة الإلهية، كانت أدلة البعث من الماديات الملموسة والمشاهدة الواقعة تحت سلطان القدرة الإلهية، والقرآن جعلَ هذه الأدلة أربعة أنواع: **الأول**: في نفس الإنسان، وهو أقواها وأوضحها. **والثاني**: إيجاد نماذج للإحياء بعد الموت في دار الدنيا قبل البعث. **والثالث**: في إحياء الأرض بالنبات. **والرابع**: عظمة خلق السماوات والأرض. وأقوم هذه الأنواع الأربعة هو ما جاء في هذه السورة، ولم يأت بهذا الأسلوب في غيرها على ما سيأتي تفصيله موجزاً إن شاء الله.

أمَّا إيجاد نماذج للإحياء في الدنيا، فمن أشهرها طيور إبراهيم عليه السلام، حيث أخذَ أربعةً من الطير فقطَّعَها، وفرَّق أجزاءها على رؤوس الجبال، ثم دعا كل طائر على حدة، فجاء كل جزء منه من حيث هو، وانضمَّ بعضُها إلى بعض، حتى تم تجميعه وجاءَه يسعى. وكذلك العزير وحماره، وأصحاب الكهف، وحوت موسى يتخذ سبيلَه في البحر سرباً؛ أي يشقُّ البحرَ تاركاً وراءه السراب

طريقاً في الماء، يؤكد انطلاقه حياً، وقتيل بني إسرائيل، والألوف الذين خرجوا من ديارهم حذرَ الموت.

وأما إحياء الأرض بالنبات، فكما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩]. إن الذي أحياها لمحيي الموتى.

وأما خلق السماوات والأرض، فكما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وقوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ [النازعات: ٢٧].

وقد جمعَ هذين النوعين: إحياء الأرض، وخلق السماء، في أول سورة ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق: ١ ـ ١١]. أي خروج الناس من قبورهم وإحياؤهم بعد موتهم.

والنوع الوارد هنا في سورة الإسراء وردَ بصورة مقاربة في آخر سورة يس في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يس: ٧٨]. جاء أُبي بن خلف إلى النبيِّ ﷺ وفي يده عظمٌ رميمٌ يُفتِّته بيده، ويذروه في الهواءِ وهو يقول: يا محمد تزعم أنَّ الله يبعثُ هذا؟ قال ﷺ: «نعم يُميتُك الله، ثم يبعثُك، ثم يحشرُك إلى النَّار» ونزلت: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٧ ـ ٧٩]. إلى آخر السورة: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]. وهذا الدليل في سورة يس إنما ردَّه إلى خلقه أوَّلَ مرة، وذكَّره ما نسي من خلقه ابتداءً من نطفة، ونصبَ

له دليل خلق السماوات والأرض، وهو دليل مقنع حيث ردَّه إلى ما لا يستطيع دفعَه ولا إنكاره، لأن الإنسان لا ينكر وجودَه وهو كائن موجود.

إلا أن الدليل هنا في سورة الإسراء أوضح وأقوى، وأقوم دلالة عن كل ما جاء في القرآن في هذا الشأن، يظهر ذلك من الآتي: قولهم متعجبين منكرين، كما في يس: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ [الإسراء: ٤٩]. أي بعد الموت وتبلى الأجسام، ولم يبق منها إلا العظام، بل إن تلك العظام تصير رفاتاً، أي فتاتاً لا قوة ولا تماسك فيها، إذا صرنا إلى هذه الحال: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩]. وهذا هو محط الإنكار والاستبعاد، فيأتي الجواب بأسلوب التحدي، بل والتعجيز، ولم يردهم إلى بداية خلقهم كما في يس، إذ في ﴿يسٓ ۝﴾ هدوء وتلطف وتذكير الناسي، ولكن هنا كأنهم يقرعهم بالحجة، ويدمغهم بالتهديد؛ لئن كنتم تستبعدون إعادة خلق العظام من جديد، وهي أصلاً أجزاء من أجسامكم، وكانت فيها الحياة وقتاً ما، وهي قابلة للحيوية، فإن شئتم كونوا حجارةً أو حديداً. أو خلقاً آخر مما تستكبرونه في صدوركم، وأبعد ما يكون عن قابلية الحياة من حجر أو حديد أو نحاس أو غيره. فسيقولون: وإذا صرنا كذلك من يُعيدنا، أي أنهم يستبعدون الإعادة إذا صاروا عظاماً، فمن سيُعيدهم إذا صَاروا حجارةً أو حديداً على سبيل الفَرَض. فيأتيهم الجواب ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. وهنا جواب مسكت، ولذا نراهم حادوا عن الجدال، وانتقلوا إلى ما يعتبر فرعاً للمسألة مع ظهور الاستسلام ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ ولكأنَّهم لزمتهم الحجة على أصل الإعادة إذا لزمتهم فلا ضيرَ متى تكون وفي أي زمن؟ ولكن جاءهم الجواب: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ لأن القادر على إيجادكم بعد الموت وإحيائكم، فإنه يفعل ذلك متى شاء، والزمن مهما طالَ أو بعد فهو عنده سبحانه قريب ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾. أي معترفين بحمده وقدرته وكل ما يحمد عليه سبحانه، ويتلاشى عنكم الزمن وتعترفون ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾. فهل بعد هذا الهدي القويم يبقى لمنكر البعث مقال أو تقوم له حجة؟! حاشا إلا مكابر يُنكر الواقعَ، وينسى وجوده.

* * *

١٤ ـ التي هي أقوم في قول التي هي أحسن:

قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الإسراء: ٥٣ ـ ٥٤].

قال الفخر الرازي: بعد أن بين الله تعالى دليل التوحيد، ودليل النبوة، ودليل البعث، أمر سبحانه عباده المؤمنين فيما بينهم، وفيما بينهم وبين المشركين إذا دعوهم إلى الإسلام، أو جادلوهم في واحدة مما تقدَّم أن يقولوا التي هي أحسن، بعيداً عن السباب وفحش القول، لأن الفحشَ في القول يجلب العداوة والبغضاء، والحال أن الأدلة قد وضحت. ولهذا نظيره في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. ومن الهداية القويمة هنا أن يتوجه الأمر لعباد الله عن طريق رسول الله، ولم يتوجه إليه ﷺ ويُقصد هو بقول التي هي أحسن، ومما يمكن أن نستلخصه هنا هو أن النبيَّ ﷺ قد وجهَّه ربُّه في أسلوب الدعوة في عدة نصوص، منها: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ فهذا توجيه كامل للنبيِّ ﷺ أصالةً، والأمة من بعده تأسياً به. وكذلك قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ . . .﴾ [التوبة: ١٠٣]. وقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وبقي عباد الرحمن الدَّاعين إلى الإيمان، فتوجَّه الأمر إليهم هنا ﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾ إذ لفظ (لعباد) وهو مضاف إلى الله تعالى يشعر بالرعاية والعناية والرحمة والإشفاق عليهم، كما في استعمالاتها في القرآن. ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾ [البقرة: ١٨٦]. ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٣]. ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]. ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الزمر: ٥٣]. ونحو ذلك، أي فكونوا أنتم أيضاً رحماء، ليِّني الحديث بالتي هي أحسن، وسواء كان ذلك مع المشركين أو مع إخوانهم، فقول التي هي أحسن مطلقة بدون قيد.

وهذا يستوقف طلبة العلم على أسلوب الدعوة إلى الله، حيث قد أُقيمت

البراهينُ الساطعة والحجج القاطعة على مهام الإيمان، من الإلهيات والنبوات والبعث والقدر، فإن وضوح هذه الأدلة لا يحتاج معها إلى عنف ولا خصام ولا جدال، وبعد وضوحها لم يبق إلا القول بالتي هي أحسن. ومعلوم أن ما يحصل باللين واللطف أولى وأفضل مما يُؤخذ بالقوة والعنف، والنفوسُ جُبلت على حبِّ من يُحسن إليها، كما جُبلت على النفرة ممن يُسيء إليها، وقد تُسَعِّرُ الكلمة السيئة نارَ حرب، وقد تُوقف الكلمةُ الحسنة رحاها.

ثم بيَّنَ سبحانه في هذا الإطلاق أن على العبد الصالح أن يجعل كلامه كلَّه حسناً، سواء في محادثاته العادية مع الآخرين، أو في دعوته إلى الله، حتى ولو في سومهِ لسلعةٍ من صاحبها، فلا يبخسُ النَّاسَ شيئاً، وسواء في استشارة إنسان إليه، أو في الحديث عن إنسان سُئل عنه، وانطلاقاً من قوله ﷺ: «قل خيراً وإلا فاصمتْ». وأحسن الحسن هو ذكر الله تعالى، والنصح إلى الله، وإلى كتابه، وإلى رسوله، وإلى أئمة المسلمين ولعامتهم. ولو قال قائل: إن هذا الأمر يشمل جميعَ تصرفات المسلم في جميع رحلاته لما كان مُغالياً. ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢]. فالمحيا يستغرق كل جزئيات الحياة، والممات يستلزم الأعمال لما بعد الممات، أن تكونَ كلها لله ولما عند الله، وهذا من ألزم ما يكون على كل عبد صالح يسرف بهذه الإضافة إلى الله تعالى.

ثم إن سمو الأسلوب وقوامته وإحسانه لم يقتصر على هذا التكليف، بقول (التي هي أحسن) بل بيَّن النتائج السلبية، فقال محذراً من عداوة قديمة سافرة، لا جدالَ ولا مِراء فيها، وهي عداوة الشيطان للإنسان، وأساليبه مع بني آدم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾. وجرس كلمة ﴿يَنزَغُ﴾ لو صرفتها لوجدتها تشترك مع كلمة (ينغز) وهو من دوران المادة على المعاني المتقاربة، والنزغ: التحريش والإغراء على المخاصمة، وكذلك «النغز» الطعن بالأصبع في موطن ليّنٍ كالخاصرة ونحوها مما يُؤلم، ونزغُ الشيطان ينشأ من سلبيات القول بالتي هي أحسن، أي بالفحش في القول والإساءة في اللفظ، والخشونة في التعبير، وقد جاء عن أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ أنه سمع شخصاً يذكر بعض السلف فقال: لقد أخطأ في تصرفه هذا. فقال له أحمد: أوليس تعبير أحسن من

ذلك. وفي غزوة تبوك لما افتقد ﷺ بعض أصحابه، فتكلَّموا عليه بما يَعيبُه، فقال ﷺ: «قولوا بقولكم، أو ببعض قولكم» أي بقولكم الحسن فيما بينكم.

وفي هذا التوجيه القرآني الكريم سد للذرائع عن القول السيِّئ، حتى مع الأعداء، حتى لا يكون ذريعة للقول السيِّئ في الدين أو في الله ورسوله. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]. فإذا كان هذا مع المشركين وعدم سبِّ أصنامهم، مع استحقاقها كل امتهان، لئلا يكون ذريعةً للمشركين، أي يُقابلوا ذلك بالمثل، فيسبوا الله تعالى عدواناً وجهالة.

وقد جاء الحديث النبوي موضحاً ذلك في نهيه الإنسان أن يسبَّ أبويه. فقالوا: يا رسول الله! وهل يسبُّ الرجل أبويه؟ قال: «يسبُّ أبوي إنسان فيسبُّ ذاك الإنسان أبويه»، فيكون كأنه قد سبَّ هو أبويه.

وبتأمل هذه الآية ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ نجدها في منطلق رأس المنهج ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. ولا شك أن أقومَ القول أحسنه، وهذه هي مثالية القول في الإسلام، وصدق الله: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤]. ولله الحمد والمِنّة، وجعلنا الله ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

* * *

١٥ ـ وقتُ الصلوات:

بحسب أهمية الصلاة وعظم منزلتها تكون أهمية ومنزلة كل ما تتوقف هي عليه، كالطهارة، واللباس، واستقبال القبلة. وأهم ذلك كله هو الوقت، لأن الوقت يتعلق به الوجوب، وما عداه يأتي تبعاً، يشترط تحصيلها لصحة الصلاة، وهي مطلوبة مع القدرة عليها، وهي من فعل المكلف، بخلاف الوقت، فليس في مقدور المكلف الإتيان به، ولا في وسعه الإبقاء عليه، وهو من خطاب الوضع عند الأصوليين، وخطاب الوضع قسيم خطاب التكليف، فقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ خطاب تكليف بالصلاة، وإيجاب وتعيين أوقاتها من خطاب الوضع على ما سيأتي.

وقد حفلت نصوص الكتاب والسنة ببيان مواقيت الصلاة، وفصَّلتها الموسوعات الفقهية عند الأئمة رحمهم الله، والذي يعنينا في هذا الكتاب هي نصوص القرآن عامة، والنص الوارد في سورة الإسراء خاصة، حيث أقومها وأبينها وأشملها يتحقق فيه؛ إنه ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ تلك النصوص، هي على حسب ترتيبها في المصحف الشريف:

النص الأول: من سورة البقرة، الآية ٢٣٨ ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾.

النص الثاني: من سورة النساء، الآية ١٠٣ ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۚ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾.

النص الثالث: من سورة هود، الآية ١١٤ ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

النص الرابع: وهو النص من سورة الإسراء، الآية ٧٨ ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾.

وبتأمل هذه النصوص من حيث الترتيب والمضمون والتوزيع، نجدُ الإعجاز البياني، وقمة الهداية للتي هي أقوم، فمن جهة الترتيب والمضمون: فالنص الأول في السورة الأولى البقرة مطلق، أمرَ بالحفاظ على الصَّلوات عموماً والصَّلاة الوسطى خصوصاً. إلا أن المحافظة عليها لا بد أن تكون في أوقاتها، واعتبار إحداها الوسطى يستلزم الترتيب في أدائها، لأن الوسطى لا تتحقق إلا باعتبار صلوات قبلَها وصلوات بعدها، سواء كانت الوسطى الصبح أو كانت هي العصر، فإن اعتبار الوسطى مشعر بالترتيب، والترتيب مستلزم للوقت، فكانت دلالة النص الأول على الوقت دلالة بلا التزام.

ثم يأتي النص الثاني في سورة النساء، وترتيبها الثالثة في المصحف، فيقول: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾. وهذا نص صريح بالتوقيت المؤكد بالكتاب، ولكنه لم يُبيِّن توقيتَ هذا الكتاب لتلك الصلوات، لكنه أثبتَ هذا التوقيت وأكَّده.

ويأتي النص الثالث في سورة هود، وهي بعد سورة النساء في المصحف بعدة سور، وفيه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ ففيه تفصيل نوعاً ما، إلا أنه مجملٌ في ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ وفي ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾.

فيأتي النص الرابع من سورة الإسراء بالتفصيل والتوزيع: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ وأجمع المفسرون على أن الدلوكَ هو الميلُ والزوال، ودلوك الشمس: زوالُها عن كبد السماء وميولها إلى جهة المغيب. وقال ابن العربي في تفسيره: يبتدئ الدلوكُ بالزوال وينتهي بالمغيب. قال: بدليل حرف الغاية (إلى) أي إلى غسق الليل. ويشهد لقوله هذا أن الشمس منذ طُلوعها وهي متحركة إلى الأعلى، حتى تستوي في كبد السماء، ثم تبدأ فتميل إلى جهة الغرب، وتستمر في ميلانها حتى تغرب. وهذا هو وقت صلاتي الظهر والعصر، ويفصلُ بينهما ما جاء في السُّنَّةِ من بلوغ ظلِّ كلِّ شيءٍ مثله، وذلك من قول وفعلِ النبيِّ ﷺ. وغسق الليل: ظلامه، ويبدأ من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، وهو وقت المغرب والعشاء، ويفصل بينهما أيضاً ما جاء في السُّنَّة بغياب الشفق، وكِلا هذين الوقتين قد يكون وقتاً واحداً، لما اشتملا عليه من الأوقات للصلاتين المذكورتين عند الضرورة، كالحائض تطهر قبل غروب الشمس، فتصلي الظهر والعصر، أو تطهر قبل طلوع الفجر، فتصلي المغرب والعشاء، على تفصيل عند الفقهاء. أما الفجر فهو مستقل بوقته: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾. وكنَّى عن الفجر بالقرآن، لاختصاصه وتميّزه عن بقية الصلوات في ذلك:

أ ـ كثرة وطول القراءة فيه. ب ـ الجهرُ في جميعه، فليس فيه قراءة سرية، بخلاف المغرب والعشاء.

جـ ـ ومشهود من الملائكة الذين يتعاقبون فينا، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار.

هذا مجمل ما يتعلق بتلك النصوص ترتيباً ومضموناً.

أما من جهة ربطها بحركة الشمس والليل والنهار، طرفي النهار، وزلفاً من الليل، دلوك الشمس، وغسق الليل، وطلوع الفجر. فإنها لعموم مشروعيتها على كل مسلم؛ عالم وعاميّ، حضريّ وبدويّ، عربيّ وعجمي، فإن تلك

الأوقات لا تخفى على أي إنسان أياً كان موقعه على وجه الأرض، فإنه يُدرك حركة الشمس، ومجيء النهار وذهاب الليل.

أما من حيث هذا التوزيع طرفي النهار وزلفاً من الليل، فإن التعقيبَ على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ليشعر بالحكمة البالغة لهذا التوزيع؛ إذ أن طرفي النهار بداية ونهاية لحركة الإنسان، والإنسان مُعَرَّض للأخطاء: «كل ابن آدمَ خَطَّاءٌ، وخيرُ الخَطَّائين التوابون» فليكن أول تحرك العبد في أول النهار للصلاة، فتكون له عوناً على واجبات النهار: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]. وتكون له واقية حافظة من أن يقع فيما لا يُرضي الله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. فإذا جاء الطرف الثاني من النهار، وقد خالَط وتعاطى مما قد عسى ولعل أن يكون فارق شيئاً ما، فتأتي الصلاة: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾. وقد جاء الحديث عن الرجل الذي لقيَ المرأة خارج المدينة، ولم يدعْ شيئاً، إلا أنه لم يُجامعها، وجاء إلى النبي ﷺ ليُطهِّرَه، فنزلتْ هذه الآية، فقال له ﷺ: «توضأ وصلِّ العصرَ» فقال: ألي هذه خاصَّة يا رسول الله؟ فقال له: «بل لأمتي كلها».

أما ارتباط تلك الصلوات بحركة الشمس وبالليل والنهار، وهما من كبريات آيات الله الكونية، الدالة على قدرته سبحانه، وعلى حكمته وبديع صنعه ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٣٧ ـ ٤٠]. ففي بحار الفلك تسبحُ الشمس والقمر، وفي محيط القدرة يجري الليل والنهار، آياتٌ واضحات، ودلالاتٌ بيِّناتٌ على قدرة من بيده ملكوت كل شيء، وها هو العبد في بحار الفكر والعظمة، ومحيط الإيمان وأعماق اليقين، حينما يُشاهد الفجر ينبثقُ نورُه، ويُسمع المؤذن (الله أكبر)، وحينما يرى الشمس تتضيف للمغيب ويتغير وجه الكون كله، ويسمع المؤذن يقول: الله أكبر، يتجدد إيمانه، ويقوى يقينه، وينهض إلى الصَّلاة لدلوك الشمس، وغسق الليل، وقرآن الفجر.

* * *

١٦ ـ خاتمة المطاف في التي هي أقوم من سورة الإسراء:

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: ١١٠ ـ ١١١]. وهي نهاية السورة.

تقدَّمَ أكثر من عشر فقرات عن الهداية للتي هي أقوم في سورة الإسراء، وأمرنا في البداية أن قضايا التي هي أقوم في هذه السورة نحو الخمسين قضية، كل واحدة منها بالتي هي أقوم في موضوعها، اخترنا منها تلك الفقرات للتنبيه بالبعث على الكل.

وها هي الخاتمة في هذه السورة، نجد فيها القمة للتي هي أقوم، ونجد فيها ربط آخرها بأولها، على ما سيأتي إن شاء الله:

أولاً: التي هي أقوم في ندب العباد إلى دعاء رب العالمين بأي اسم من أسمائه سبحانه: اسم الجلالة: الله، أو اسمه الرحمن، أو أي اسم آخر: الرحيم. السميع. العليم. فله سبحانه الأسماء الحسنى، فلا حرجَ عليكم ولا تضييقَ فيما تختارون من أسمائه سبحانه، وقد جاء التنبيه على أن أسماء الله تعالى كلها حسنى في أربع سور من القرآن الكريم:

الأولى: سورة الأعراف: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الآية: ١٨٠].

الثانية: هذه سورة الإسراء، التي نحن بصددها: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ [الآية: ١١٠].

الثالثة: سورة طه، ويلاحظ سياقها: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الآيات: ١ ـ ٨].

الرابعة: آخر سورة الحشر، من قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا

﴿هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الآيتان: ٢٣ و٢٤].

وتحقيق كون أسمائه سبحانه حسنى يظهر من جهتين؛ جهة النقل وجهة العقل. أما النقل فها هي النصوص المتكررة أربع مرات في كتاب الله، ومن أصدقُ من اللهِ قيلاً؟ ولا يصفُ اللهَ أحد أعرف بالله من الله ولا من رسول الله. أما جهة العقل: فإن كل ما في هذا الوجود فهو أثر من آثار قدرة الله تعالى، الذي أوجد الوجود من العدم، وبالتالي فكل حسن تقع عليه العين أو تسمعه الأذن أو تلمسه اليد فهو إحسان من الله على من هو قائم به أياً كان هو، فكأنه سبحانه هو المحسن، وكانت أسماؤه الحسنى. ولهذا فإن أسماءه الخاصة به لا يُشاركه فيها غيره، فهي غاية في الحسنى لانفراده بها؛ كاسم الجلالة: الله، والمحيي والمميت، والخالق والرازق، وأسماؤه سبحانه التي قد يتصف بها بعض المخلوقين من الإنسان والحيوان، فإن بينها وبين أسمائه سبحانه كما بين الخالق والمخلوقين، وذلك مثل السميع، والبصير. فسمع المخلوق يناسبه من المحدودية وتوفر الأسباب، وكذلك بصر المخلوق له حدود وموانع، أما سمعه سبحانه وبصره فإنه يسمع ويرى دبيبَ النملة السوداء على الصخرة الصمَّاء في الليلة الظلماء، ولذا قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. يعني لا كسمع المخلوقين ولا كبصرهم فله سبحانه الأسماء الحسنى.

وقد بحثَ الفخرُ الرازيُّ هذه القضية بحثاً واسعاً، فليُرجع إليه من يُريدُ التوسعَ مع بعض التحفظ، فإن هذه قضية كبرى لتعلقها بالله تعالى، وقد ختمَ بحثَه بقاعدة، وهي أن كلَّ اسمٍ لا يتضمَّنُ صفةَ جلالٍ وتعظيم وعزَّةٍ لله تعالى فلا يجوز أن يضاف إلى الله تعالى. وأن أسماءه سبحانه توقيفية، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، وأجابَ على ما قد يتوهمُّه إنسان في مثل قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ﴾ [الأنفال: ٣٠]. فهل يصح أن نسمي اللهَ تعالى باسم الفاعل من مادة مكرَ؟ فيقول: لا يجوز إطلاقُ ذلك مفرداً عمَّا قبلَه؛ لأن اسم (الماكر) منفرداً فيه ذمّ. أما في مقابلة مكر العباد، وأن اللهَ خيرُ

الماكرين، أي أنه سبحانه مُحيطٌ بمكرهم، وهو يُدَبِّرُ لهم ما فيه هلاكهم، وتدبيره ذلك خير التدبيرين من كلا الطرفين، فلما كان في مقابلة مكرهم صحَّ أن يُستعمل هذا التركيب، وهذا من أساليب العرب. وكان والدنا الشيخ الأمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُمَثِّل لتلك المقابلة بقول الشاعر الذي كان يتشكّى شِدَّةَ البرد:

قالوا: اخترْ طعاماً نجدْ لك طبخه   فقلتُ: اطبخوا لي جبّةً وقميصا

فاستعمل الشاعرُ كلمةَ «اطبخوا لي» بدلَ خِيطوا لي في مقابل قولهم طعاماً نجد لك طبخه، ولولا هذه المقابلة ما صحَّ له أن يقول ابتداء اطبخوا لي جُبَّةً، بل كان يتعيَّنُ عليه أن يقول «خيطوا لي».

وعلى هذا فليس لأحدٍ أن يضعَ الأسماءَ ولا الصِّفاتِ لله تعالى دون توقيف بالسَّماع.

وكذا لو جاء أي لفظ يُوهم إطلاقُه على الله، لا يتضمن هذا اللفظ صفة جلال وتعظيم لله، فلا يجوز تسمية الله بهذا اللفظ، كما جاءَ في لفظ «شيء» في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩]. فلا يجوز تسمية الله بشيءٍ، واشتقاقُ اسم له بلفظ شيء، ولا يصح دعاؤه باسم لفظه شيء، لأنه أولاً لم يتضمن صفة عزة ولا جلال لله، والحال أن لله الأسماء الحسنى.

ثانياً: لم يُنقل عن واحد من السلف أن دعا الله ونادى ربَّه بقوله يا شيء. وهكذا يُنزه الله تعالى أن يُسندَ إليه اسم أو يُوصف بوصف لم يأت به الوحي من كتاب أو سنة، ولا يُدعى أو يُسأل سبحانه إلا بأسمائه الحسنى، أما بيان هذه الأسماء الحسنى ففي الفقرة الآتية إن شاء الله.

* * *

١٧ ـ بيان أسماء الله الحسنى:

بتأمل آيات الأسماء الحسنى الأربع في كتاب الله، نجد إعجازاً بيانياً في هذا الموضوع من حيث الإيراد والمدلول.

فالآية الأولى حسب الترتيب في المصحف هي آية الأعراف ونصها: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾

[الآية: ١٨٠]. فإنها أثبتت لله تعالى الأسماء الحسنى، وحذَّرتْ من الإلحاد في أسمائه تعالى، ولم تتعرض ولا لاسم واحد. وقد يُقال: إنها عُنيت بالتحذير من الشرك في أسماء الله تعالى والإلحاد هو الميلان، أي مَالُوا بها إلى غير الله، فقالوا: اللّات من الله والعزى من العزيز، ويكون من باب: درء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

وتأتي الآية الثانية في هذه السورة: الإسراء، فتنصُّ على اسمين عظيمين من أسمائه تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الآية: ١١٠]. ومع التنصيص على هذين الاسمين: الله، والرحمن، فإنها تُشير إلى أسماءَ أُخرى، وتسوِّي بين جميع الأسماء في الدعاء، والسؤال هنا عن تخصيص اسم الرحمن بالذكر مع لفظ الجلالة، فلا شكّ أن لفظَ الجلالة (الله) هو علم على الذات، أما الرحمن والرحيم والسميع والعليم والخالق والمصور، فسواء وليست علماً، فلم خَصَّ اسمَ الرحمن هنا؟ قبل كل شيء فالله أعلم بمراده، ولكن النظر يقتضي أن لاسمه الرحمن نوع اختصاص، وهو أن أكثر أسمائه تعالى تلتقي في معنى الرحمن، فالخالق الرازق المُصوِّر، كلُّها تفيض بالرحمن بالمخلوق رزقاً وصورة، والسميع العليم البصير كذلك، فهو سبحانه يسمعُ نداءَ عبده، ويعلمُ ويُبصر حالَه فيرحمه، فضلاً عن: اللطيف الخبير، والغفور الرحيم، فاسمه الرحمن من أجمع صفات الله وأسمائه.

والذي يهمنا في هذا النص أنه جاء فيه بعض الأسماء وهي أجمعها: الله، والرحمن. واسترعت الانتباه إلى أسماء أخرى تساويهما في الدعاء.

أما النص الثالث فهو الذي في سورة طه، فقد بدأ سياقه بإنزال القرآن الذي هو مصدر إثبات أسمائه سبحانه وصفاته: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾﴾ [الآيات: ١ ـ ٤]. فجاء هنا الوصف بأنه خلق الأرض والسموات العُلى، ويشتق من صفة الخلق خالق، كقوله في موطن آخر: ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]. ويأتي في سورة الحشر من أسمائه: ﴿ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤]. ثم نصَّ على الرحمن فقال: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥]. وقال ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾

[طه: ٦]. وهذا يقتضي إثبات صفة الملك لهذه العوالم، وهذا الملك يقتضي العلم والقدرة والتدبير، فيشتق له منها الأسماء الحسنى: الملك، العالم، القادر، المدبر، وكلها منصوصة صريحة في مواطن أخرى، ثم يأتي التنصيص: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٨﴾ [طه: ٨]. فيه التلويح إلى تلك الأسماء المفهومة ضمناً من تلك الصفات على ما أشرنا.

ثم يأتي النص الرابع في آخر سورة الحشر، من أول قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ بما فيه من أسماء الله الحسنى ﴿عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]. ثم يسوق تعالى من الأسماء الحسنى فوق الخمسة عشر اسماً في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢٤﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤]. فنجد هذا العدد من أسماء اللهِ الحسنى تفصيلاً بعد إجمال، ينطبق عليه كما أسلفنا الإعجاز البياني.

ومرة أخرى نجد في هذا النص وهو الأخير في خصوص أسماء الله الحسنى، يتكرر قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ مرتين: الأولى معها عالم الغيب والشهادة، والثانية معها بقية الأسماءِ ولكأنَّه ردّ على أولئك الذين يُثيرون شبهة الاسم والمسمى، وهل هو هو أو مغاير له؟ ويشككون بتعدد الأسماء وجود تعدد المسمى. فيقول لهم: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ وإن تعددت الأسماءُ فهي لمسمى واحد، وهو الله لا إله إلا هو سبحانه، وإذا كان هذا القدر من عدد الأسماء الحسنى الوارد في هذه الآية، فليعلم أن أسماء الله الحسنى ليست محدودة فيما ورد فيها، بل جاء الحديث: «إن لله تسعة وتسعينَ اسماً مئةً إلا واحداً، من أحصَاهَا دخل الجنة» وقد أوردها ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره، في موضعين: الأول عند قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ والثاني عند آخر سورة الحشر، وعلى نظام وترتيب حديث الترمذي في جامعه، ابتداءً بقوله: (هو الذي لا إله إلا هو الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس،

السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرازق، الفتاح، العليم. .) إلى أن أكمل المائة إلا واحدةً، وتنتهي بقوله: «الرشيدُ، الصَّبُور». ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة، ورواه ابن حِبَّان في صحيحه من طريق صفوان به، ورواه ابن ماجه في سننه من طريق آخر عن أبي هريرة مرفوعاً، وناقشَ السند والمتن، وقال: إنَّ الذي عوَّل عليه جماعة من أهل العلم أنهم جمعوها من القرآن، كما روي عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة. ومن المعلوم أن أسماء الله الحسنى محصورة في تسعة وتسعين، لما رواه الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ في حديث: «اللهم إني أسألُك بكلِّ اسم هو لكَ سمَّيتَ به نفسَك، أو أنزلْتَه في كتابك، أو علَّمته أحداً من خلْقكَ، أو استأثرتَ به في علم الغيبِ عندكَ، أن تجعلَ القرآن العظيم ربيعَ قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همّي. . .» إلى آخر الحديث، فإنه نصَّ على أسماءٍ استأثرَ الله بها عنده، مثل ما سيُلهِمُه سبحانَه لنبينا محمد ﷺ يومَ القيامة، حين يسجدُ تحتَ العرش للشفاعة العظمى، كما في الحديث، فيلهمني الله بمحامدَ لم أكن أعلمها، حتى يقال له: «ارفع رأسك، واشفعْ تُشَفَّعْ» هذا ما يتعلَّق بالأسماء الحسنى، وهدي القرآن فيها للتي هي أقوم، أما الدعاء بها وبقية الآية، فسيأتي الحديث عنه في الفقرة الآتية إن شاء الله.

* * *

١٨ ـ كيفية دعائه سبحانه بأسمائه الحسنى:

مما يعلم ضرورة أنَّ أسماءه سبحانه مع تعددها أن لكل اسم معناه المتميز به عن غيره، وإن كانت كلُّها لمسمى واحد، هو اللهُ الواحد الأحد الفرد الصمد، فمثلاً: الرحمن، الرحيم في دلالتهما على الرحمة متميزان عن: الخَلَّاق، العليم في دلالتهما على الخلق والعلم، والسميعُ، البصير، والعلي، الكبير، وهكذا.

وعلى هذا الأساس، فيقولون في كيفية دعائه سبحانه بأسمائه الحسنى، وكلها حسنى، أن يتخيَّرَ الدَّاعي من أسمائه سبحانه الاسم الذي هو أقرب

معنى لموضوع مسألته، فمثلاً فقير يدعو ربَّه الرزقَ، فيناسب أن يدعوَه سبحانه باسمه الرزَّاق. وتائبٌ يسأله المغفرةَ وقبُولَ التوبة، يدعوه باسمه الغَفَّار، وباسمه التَّوَّاب، وهكذا في عموم أسمائه الحسنى.

وهل يمكن أن يجمع الداعي عدة أسماء في دعائه معاً في وقت واحد؟ أو هل تتفاوت تلك الأسماء في ضمان الإجابة؟ أما جمعها وعلى سبيل الإجمال، فكما جاء عند أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ، أنه ﷺ قال: «ما أصابَ أحداً قطُّ همٌّ ولا حزنٌ، فقال: اللهم إني عبدُك ابن عبدِك ابنُ أَمتِكَ، ناصيتي بيدكَ، ماضٍ فيَّ حكمُك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سَمَّيْتَ به نفسَك، أو أنزلْتَه في كتابِك، أو علَّمْتَه أحداً من خلقك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندكَ، أن تجعلَ القرآنَ العظيمَ ربيعَ قلبي، ونورَ صدري، وجلاءَ حزني، وذهاب همي. إلا أذهبَ الله حزنَه وهمَّه، وأبدل مكانَه فرحاً».

فنلاحظ أن الهم أمر عام، والرسول ﷺ جمع له كل اسم هو لله سبحانه، ولا شك أن العبد عند لجوئه إلى ربه وبثِّه شكواه لخالقه، واستشعاره بِرِقِّ العبودية إلى مولاه، فإنه بقدر حاجته وشدة اضطراره، فإنه يظهر فقرَه وذلَّته إلى الله بدعائه إياه، بكل ما يجري على لسانه من أسمائه، يلتمس الغوث والفرج، ولعل الله يجري على لسان العبد ما هو أقرب الأسماء وأحبها إلى الله، فيجعل له الإجابة. ومن هنا قد تستشعر بأن مجيء قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]. أن تخصيص (الرحمن) مع لفظ الجلالة (الله) لخصوصية فيه، وهكذا ما يقال في هذا المجال حول (الاسم الأعظم) الذي إذا دُعي به أجاب فقد أوردنا في كتاب «السؤال والجواب في آيات الكتاب» عند الحديث عن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ ومن آداب الدعاء وأوقات الإجابة وما يتعلَّقُ بذلك مفصلاً هناك، ومنه: حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللَّهم إنِّي أسأَلُك باسمك الطاهر الطَّيِّب المبارك الأحبِّ إليك، الذي إذا دُعيت به أجبتَ، وإذا سُئلتَ به أَعطيتَ، وإذا استُرحمتَ به رحمتَ، وإذا استُفرجت به فرجتَ». فقال يوماً: «يا عائشة! هل علمتِ أنَّ الله قد دَلَّني على الاسم الذي إذا دُعِي

به أجابَ؟ قالت: بأبي أنتَ وأمّي يا رسول الله! علمنيه. قال: إنه لا ينبغي لكِ يا عائشة. قالت: فَتَنَحَّيْتُ وجلستُ ساعةً، ثم قمتُ فقبَّلْتُ رأسَه، ثم قلتُ له: يا رسول الله! علمنيه. قال: إنه لا ينبغي لكِ يا عائشة أنْ أُعلِّمَكِ، إنه لا ينبغي أن تسألي به شيئاً للدنيا. قالت: فقمتُ فتوضَّأتُ، ثم صَلَّيْتُ ركعتين، ثم قلتُ: اللَّهم إني أدعوكَ الله، وأدعوك الرحمن، وأدعوك البَرَّ الرحيم، وأدعوكَ بأسمائِكَ الحُسنى كلِّها، ما علمتُ منها وما لم أعلم؛ أن تغفرَ لي وترحمني. قالت: فاستضحكَ رسولُ الله ﷺ، ثم قال: إنه لفي الأسماء التي دعوت بها». رواه ابن ماجه.

إن أم المؤمنين ﵂ أعطتنا هنا عطاءين: الأول منهما أن من أسماء الله تعالى من إذا دُعي به أجاب، وقد أخفاه سبحانه عن خلقه، وأعلمه لرسوله ﷺ، وأن لهذا الاسم زيادة مزية واختصاص، منها في ذاته، لا يُسألُ اللهُ به إلا أجاب، ومنها في حرمته أن لا يُسأل به أمر من أمور الدنيا، كما جاء أنه لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة، تكريماً لوجه الله أن تُسأل به حاجة من حوائج الدنيا الفانية.

والعطاء الثاني من أم المؤمنين عائشة ﵂: أن هذا الاسم من ضمن عموم أسمائه الحسنى، ما علمنا منها وما لم نعلم، وهذا حد جامع.

وهنا يتساءل كل مسلم عن حجبه ﷺ عن أقربِ النَّاس إليه، وأحبِّهم عنده، ومصارحتها بأنه لا ينبغي لها تعلمه.

وفي قصة أصحاب الأخدود، أن الملكَ كان له ساحر، وكان غلام يتردد بين الساحر وراهب في طريقه، فأنسَ الغلامُ لما عليه الراهب، وفي النهاية طلب الغلام من الراهب أن يعلِّمَه اسمَ الله الذي إذا دُعي به أجاب. فقال له الراهب: إنه لا ينبغي لك، ولا تقدر عليه. وأخيراً توصَّل الغلامُ إلى معرفته، فقال له الراهب: ستُمتحن، فإن عرفوا أمركَ، فلا تدلَّهم عليّ، وأخذَ الغلامُ يدعو الله بهذا الاسم، فيُشافي له المرضى، إلى آخر أمره مع الملك حين اتَّبعَه الناس وآمنوا برب الغلام.

ونحن الآن لا نستطيع أن نُعيِّنَ هذا الاسم لله ﷻ، ولكن مما علمتنا أم المؤمنين عائشة أننا لو عَمَّمنا في الشمول، وسألنا الله تعالى بكل اسم هو له

سبحانه علمنا به أو لم نعلم، فإننا سنكون سألناه سبحانه بما يشمل هذا الاسم، فحريٌّ أن يُستجاب لنا.

ومما ينبغي التأكيد عليه، أن كل عبد توجَّه إلى الله في الدعاء، فإن حالته التي بها يتوجه، هي التي ستُحدِّد مكانَه من الله، فبقدر إخلاصه وصدق توجهه، وعمق يقينه بالله تعالى، وأنه ليس في الوجود من يملكُ له نفعاً أو يدفع عنه ضراً، إلا من بيده ملكوت كل شيء سبحانه. بقدر ما يرتبط بهذا كله، بقدر ما تكون سرعة الإجابة وضمانها، كما يُشعر بذلك الأثر: «إني لأنصر المظلومَ ولو كان كافراً: علمَ أنَّ له ربّاً فدعاه». أي أن الكافر حينما يشعر بعجزه وفقره ولا ناصر له إلا الله، فيتوجه إليه يطلب النصرة، فإنه في تلك الحالة يكون مؤمناً بالله العالم القادر الرحيم بعباده، فأولى بذلك العبد المسلم، وقد وعدَ الله عبادَه إجابةَ الدعاء وأنه قريب منهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦].

* * *

١٩ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]:

في هذا التوجه القرآني الكريم وضع ميزان للتي هي أقوم لا في الصلاة فحسب، بل في جميع أمور الإنسان، سواء ما كان بين العبد وربه، أو بين الإنسان وأخيه الإنسان، أو حتى في حالة الإنسان الخاصة، وهذا الميزان هو ميزان الفضيلة في كل شيء، المعبَّر عنه بالوسطية، والجاري في عرف الناس «خيرُ الأمور الوسط» وذلك أن الفضيلة في منهج الأخلاق «وسطٌ بين طرفين» بين طرفي الإفراط والتفريط. فمثلاً «فضيلة الشجاعة» وسط بين طرفي الجبن والتهور. والكرم وسط بين الشح والإسراف، أو كما يُقال: وسط بين التقتير والتبذير. ولهذه القاعدة شواهد ونماذج في القرآن عديدة.

أولها: هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ﴾. والجهر: رفع الصوت حتى يتجاوز حدودَ صاحبه. والمخافتة: خفض الصوت حتى لا

يتعدى صاحبَه، وابتغاء السبيل بين بين، اعتدال الصوت بين الجهر والمخافتة، وهو التوسط بين الحالتين، وبصرف النظر عن سبب النزول، إلا أنه يوضح لنا الصورة ويُبيِّن لنا تطبيقَ هذا المنهج، فقد قيل في سبب النزول أن الصِّدِّيقَ ﷺ كان يُصلِّي بصوتٍ خافت، بينما كان عمر يُصَلِّي بصوت جهور، فقيل لأبي بكر في ذلك، فقال: أناجي ربي. وقيل لعمر في ذلك، فقال: أطردُ الشيطانَ وأُوقظُ الوسنانَ. فنزلت الآية، فقال ﷺ للصِّدِّيق: «ارفعْ صوتَك قليلاً». وقال لعمر: «اخفضْ صوتَك قليلاً» وبهذا سلك كلٌّ منهما سبيلَ البينية بينَ الحالتين.

ونظيرُ هذه الآية، قوله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧]. فالقَوَام: الاعتدال، كما قال تعالى: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]. هو هنا وسط بين طرفي نقيض، والنقيضان لا يجتمعان، وكلاهما هنا مذموم، فالإسراف إضاعة المال، والتقتير إضاعة حق النفس، والفضيلة هي القوام بينهما، ففيه حفظ المال ومراعاة حفظ النفس. بل في غير المال نَهى ﷺ عن الإسراف: في ماء الوضوء، وكذلك حذَّر من التقصير فيه، فقال: «أسبغوا الوضوءَ، وويلٌ للأعقاب من النار». فكان إسباغ الوضوء من غير إسراف هو الوسط، وهو الفضيلة فيه.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]. وغلُّ اليد إلى العنق سكونها عن الإنفاق، وقصرها عن أن تمتد بالنفقة، ولا شك أنَّ فيها صورة تقبيح وتصوير منفر، يقابله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾. ويلاحظ هنا مادة (بسَط) لأنها تصور انبساط الفراش وسعته، وهو كناية عن سعة الإنفاق، وبسط اليد عن كل ما فيها، فلا يبقى في قبضة اليد شيء، كل يأتي هذا الحد: كل البسط، أي بسطاً غير محدود ولا مقيد، وهذا غالباً ما يكون في وجه وغير وجه. أي لو أنه بسطها أحياناً وقبضَها أحياناً، لكان ربما طابقَ الواقعَ حسبَ متطلبات الحياة، حيث تأتي أمور لا تحتاج البسط والتوسعة، وأمور الإمساك والتدبير، وهذا لا يُعاب على صاحبه. ولكن العيب أن يبسطَها كلَّ البسط، وقد بيَّنَ سبحانه عاقبةَ هذا البسط المطلقة، بقوله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ﴾ أي عن الإنفاق ﴿مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾.

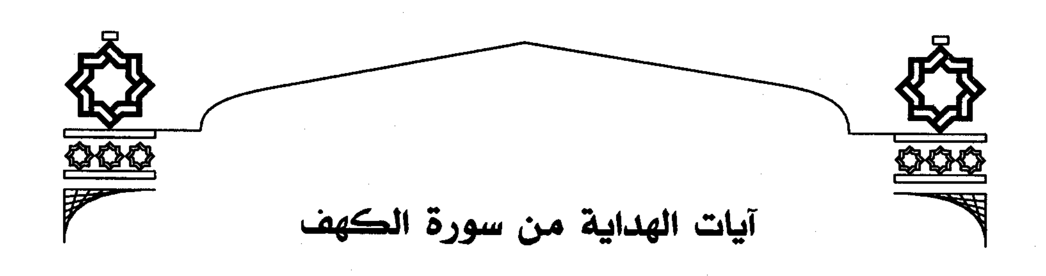
وجعل المفسرون من هذا المنهج، ما جاء في صفات بقرة بني إسرائيل بعد تعدد الأسئلة عنها، جاء قوله: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [البقرة: ٦٨]. ولهذا شواهد أخرى.

وإن هذا المنهج الوسطي القويم، لهو منهج هذه الأمة الإسلامية، التي تميَّزت به على سائر الأمم، وجعلَها الله به أمة وسطاً، ليكونوا شهداءَ على الناس، وتتمثل هذه الوسطية في أولى قضايا كتاب الله في افتتاحية المصحف الشريف، سورة الفاتحة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ثم بَيَّنَ تلك الوسطية ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾. والمغضوب عليهم هم اليهود، والضالون هم النصارى، وذلك أن اليهود حرَّفوا كتاب الله من بعد ما عقلوه، وارتكبوا ما نهى الله عنه، وقالوا: سمعنا وعصينا. بينما النصارى سلكوا سبيلَ رهبانية ابتدعوها، فعبدوا على جهالة، فحادوا أيضاً عن الطريق السويِّ. وهكذا كان كل منهما على طرفي نقيض من الآخر، وجاء الإسلام فسلكَ بالأمة المحمدية طريقَ الوسط: صراطاً مستقيماً.

ويمضي نسق القرآن الكريم في أقوم طريق وأسمى منهج إلى النهاية، وفي ختام هذه السورة خاتمة التي هي أقوم مما جاء فيها، وهي تتعلق بحق المولى سبحانه في آخر آية منها، ترد آخرها على أولها، في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ۝﴾ [الإسراء: ١١١]. أمر من الله لسيد الخلق، وقدوة الأنام، صلوات الله وسلامه عليه، أن يعلنَ بقوله على العالم كلِّه ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الثناء المطلق لله ﴿الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ لاستغنائه وتنزهه عن ذلك ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ﴾ لعزته وقدرته، وتفرده بالعزة والسلطان ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ لأنه سبحانه العزيز القاهر، وفي هذا نفي جميع عوامل النقص عن الله تعالى، فنفي الولد نفي الحدوث، فهو سبحانه ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾. ونفي الشريك نفي الحاجة إلى غيره، وإثبات الوحدانية المطلقة، فهو واحد في ذاته، واحد في أسمائه، واحد في صفاته، واحد في أفعاله. ونفي الولي نفي للضعف والاحتياج، وهو سبحانه القاهر فوق عباده، وهو سبحانه الحي القيوم، وهو سبحانه يُجير ولا يُجار عليه.

وبعد هذا كله تكون الخاتمة ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ كَبِّرْه وعظِّمْه عن تلك النقائص، عن اتخاذ الولد ووجود الشريك، أو الولي من الذل، وفي ختام هذا العرض يُمكن القول بأن خاتمة هذه السورة تعطف آخرها على أولها، فتستكمل حلقة الجلال والكمال لله سبحانه، ففي البداية التسبيح ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾. وفي نهايتها التحميد والتكبير: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ فجمعت غراسَ الجنة «سبحان الله والحمد لله والله أكبر» إنها والله للتي هي أقوم في حق الله تعالى، تأتي ختامَ هذه السورة الكريمة.

* * *



آيات الهداية من سورة الكهف

١ ـ ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾:

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾ [الكهف: ٩ ـ ١٥].

اشتملت هذه السورة على أربع قضايا، كل قضية تعالجُ جانباً اجتماعياً، هي في مجموعها قضايا الإنسانية، فالأولى منها: قضية الإيمان والكفر والشباب والشيوخ. والثانية منها: قضية المال والولد، ماثلةً في أصحاب الجنتين. والثالثة منها: قضية طلب العلم والمعرفة، والرحلة في تحصيل ما لم يعلم، ولو أن يمضي حقباً، ماثلةً في قصة موسى مع الخضر عليهما السلام. والرابعة: في الملك العادل، وكفّ الأذى، وحجز المؤذينَ، ماثلةً في رحلة ذي القرنين. ومجموعها صورة لمجتمع من القاعدة إلى القمة، بما فيه من الأفراد، وما مُنِح من مال وبنين، وكل واحدة في موضوعها آية ومعجزة، وعبرة وموعظة، وقد أفضنَا الحديث في موضوع ذي القرنين في كتاب «السؤال والجوابُ في كتاب الله» وقد طُبع الكتاب بحمد الله، وهذا الكتاب «آيات الهداية» يرتبط به الموضوع الأول، وهو المختص بفتية الكهف، قضية الإيمان والكفر.

يبدأ صُلب الموضوع من الآية التاسعة، وينتهي بالآية الحادية والعشرين، بينما افتتاحية السورة تعتبر بمثابة المقدمة لهذه القضية، إذ هي حمد لله سبحانه الذي أنزل على عبده الكتاب، ولم يجعل له عوجاً، قيّماً، والكتاب هو مصدر الهداية والإرشاد، وعنصر هذه القضية كما ساقَها القرآن، هم فتية آمنوا بربهم نشؤوا في قوم اتَّخذوا من دون اللهِ آلهة، ليس لديهم على ذلك سلطان بيّن، ولكن ظلماً وافتراءً، إنه الكذب على الله، فاستنكر الفتية على قومهم، وأعلنوا إيمانَهم بربهم ربِّ السماوات والأرض، فاعتزلوا قومَهم وما يعبدون إلا الله، وآواه إلى الكهف ابتعاداً عن قومهم، وتخفيًّاً منهم، حفاظاً على دينهم، وأسلموا أمرَهم لله، ودعوه مخلصين ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾. ومن تلك اللحظة لاحظتهم عناية الله، وأحاطتهم رعايته، وتولَّى المولى سبحانه أمرهم، بما خرق العادة، وجعلَهم آيةً، ونشرَ عليهم من رحمته، وأقام بهم الحجة على قومهم، والدليل العملي الجلي لمن جاء بعدهم، وبدون العودة إلى أعماق التاريخ، ولا إلى أسباب النزول، ولا إلى معاجم الأمم الماضية، بل بدءاً من نصوص القرآن وكفى.

افتتحَ الحديثَ عنهم بالحديث عن التعجب من أمرهم ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾ قال المفسرون: أم: هنا بمعنى الهمزة، يعني أَعَجِبْتَ من خبر أصحاب الكهف؟ فإن تعجب منه، فإن أخبار القرآن، وآياتنا الكونية، وآثار قدرتنا، كلها أعجب منها. وعلى كل ففي هذا إثبات ما يُوجب العجب منها، ثم تصوير واقعهم ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ لا شكَّ أن الفتيةَ فتوة، قوة في البنية، قوة في الفكرة، قوة في العزيمة. نشؤوا على الفطرة، فاستنكروا انحراف قومهم عنها، ولكنهم قِلَّة، ما بين سبعة وثمانية، قل: ربي أعلم بعددهم، فلم يستطيعوا مقاومة قومهم، فلم يبق لهم إلا الفرار بدينهم، فعليك بخويصة نفسك، فأووا إلى الكهف ولجؤوا إلى ربهم، وأعلنوا ضراعتَهم إلى خالقهم، وسألوه الرحمة من لدنه، والرشد في أمرهم، وهذا جماع الخير كله.

فكانت رحمةُ الله بهم أن أنامهم، وضربَ على آذانهم، فلا يسمعون ما يُوقظهم، ولبثوا في الكهف ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً، وهم يتقلَّبُون ذات

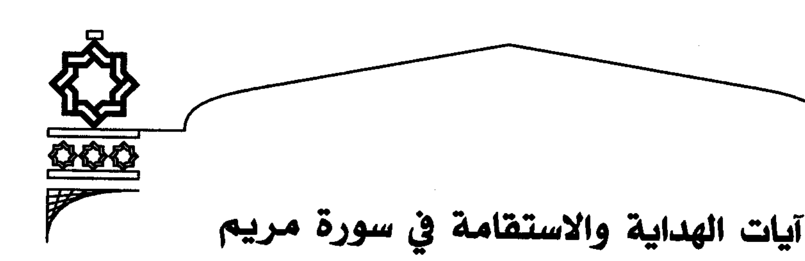
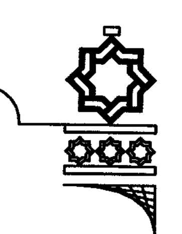
اليمين وذات الشمال، ولا ندري أموات هم، فالموتى لا يتقلَّبون، أحياهم، فالأحياء يأكلون ويشربون. بل نقول ما قال تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الكهف: ١١]، ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ [الكهف: ١٩] فلم يعلموا كم لبثوا، وظنوا يوماً أو بعض يوم، فلم يستنكروا من أنفسهم شيئاً، فلم تبلَ ثيابُهم، ولم تتغيرْ حوَّاسُهم، وأحسوا بالجوع، فبعثوا أحدهم بورِقِهم لينظر أزكى طعاماً، فليأتهم برزق منه، مع الحذر ممن تركوهم على الشرك ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ مخافةَ التعرف عليه فيصيبهم أذى القوم من الجرم والتعذيب والفتنة في الدين، فلن يفلحوا إذاً أبداً، وفي هذا البيان القرآني رسم لمنهج الدعوة عند ضعف أصحابها تكون.

أولاً: في محيط أهلها ولو كانوا عدداً قليلاً، والحذر من مواجهة أعداء الدعوة ما دام المؤمنون لا يستطيعون المقاومة، والابتعاد عن مجتمعات الكفر وطلب المأوى للتمكن من عبادة الله وحده، وتفويض الأمر إلى الله سبحانه وسؤاله الرحمة بهم وإرشادهم إلى ما يحبه سبحانه لهم.

وهكذا كانت الدعوة إلى الاستجابة في مكة، بدأت سراً بالنفر والنفرين، رجل وامرأة وغلام: أبو بكر وخديجة وعليّ رضوان الله عليهم أجمعين. ثم تتابعَ الأفراد، فكانت دار الأرقم بن أبي الأرقم هي المأوى والمجتمع، إلى أن قيَّضَ الله للإسلام والمسلمين من أعزَّ الله به دينَه، فجاءَ عمر بن الخطاب، وخرجتِ الدعوةُ من كهفها إلى برحة وساحة بيت الله تعالى.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ فضل من الله عليهم بالإيمان أولاً، وأن الإيمان مفتاح الهداية والزيادة فيها ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾. وكما قال تعالى أيضاً: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾. نسأل الله الهداية، لنا، ولفتياننا، وشبابنا، والمسلمين أجمعين.

* * *

آيات الهداية والاستقامة في سورة مريم

١ ـ قال تعالى في سياق قصة مريم، في حملها بعيسى عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ...﴾ [مريم: ١٦ ـ ٢٠]. إلى آخر المشهد، فأتتْ به قومَها تحملُه، وواجهتِ الموقف العصيب معهم، فأشارت إليه، ومقالته البليغة، ودعوته الناصعة، وإعلانه العبودية لله وحده: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ وما تحملُ من واجبات ووصايا، من صَلاةٍ وزكاة، وبر بوالدته، كما تجري التكاليف على جميع البشر، ويقومُ بها جميع الرسل.

وبعد هذا العرض الكاشف الواضح البيِّن، يأتي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [مريم: ٣٤ ـ ٣٦].

فقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ قول الحق الذي لا لبسَ فيه، البيِّن الذي لا إشكال فيه، وبه إبطال افترائكم فيه، ما بين يهود يُعَرِّضُون بأمه بقولهم: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ وقولهم: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾. وبين نصارى يقولون: هو ابن الله، ويقولون: ثالث ثلاثة. لا هذا ولا ذاك، وكلاهما طرفا إفراط وتفريط، وكما قيل:

كلا طَرفي قَصْدِ الأمورِ ذميمُ

أما قولُ الحق، فهو ما صوَّره وأوضحه كتاب الله للعالم أجمع، من يهود أو نصارى، ومن عرب أو عجم، أن الله تعالى أرسل لأمه جبريل رسولاً من الله، ليهبَ لها غلاماً زكياً، وبيَّنَ سبحانه طهرَها وعفتها في استعاذتها

بالرحمن من ذلك البشر، قبل أن تعرف أنه مرسل إليها من ربها ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ على غير اختيار منه، وبعد أن تمنت الموت قبل هذا الموقف، وتمنت أن لم تكن، وأنه لو كانت نَسْياً مَنْسِياً، ولهذا كله أعفاها الله من تحمل أية مسؤولية حتى رد الجواب عليهم، وأمرها ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾. وعند المواجهة أشارت إليه، أي إن كان هذا هو المشكلة عندكم فهو يكشف عن الحقيقة، فكان ما قال مبتدئاً بالإقرار أمامهم، وإعلان أنه عبدٌ لله سبحانه، وأن اللهَ كرَّمه في المهد، آتاه الكتابَ وجعلَه نبيّاً. وهذه منزلة القمة من سيادة البشر، وعنوان الطهر والفضيلة في بني الإنسان، بشرف الكتاب والنبوة، وباركَ فيه أينما كان، ذلك حقاً هو عيسى، وليس ما تمترون فيه.

ثم أعقبَ هذا كلَّه بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ قرأ بعض القراء بفتح الهمزة ﴿وأَنَّ اللهَ رَبِّي﴾ باعتبار التعليل لعبادته سبحانه بربوبيته، فلكونه ربّاً يستحق عبادةَ المربوبين ويكون قائل هذا القول هو عيسى عليه السلام، بعد أن قال فيما يختصُّ به في نفسه: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ...﴾ إلى آخر ما يتعلق به هو، خاطبَ القومَ بقوله: وهو أيضاً ربِّي وربُّكم فاعبدوه، فيكون نبيّاً رسولاً، وقرأ البعض الآخر بكسر الهمزة من ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ على أنه استئناف حديث جديد، بعد إتمام الحديث عن عيسى عليه السلام مع أمه وقومه، وأنَّ القائلَ هو النبيُّ محمد ﷺ، بقوله لأهل الكتاب وللمشركين معاً، بعد بيان موقف عيسى وعبوديته لله، فكذلك أنا وأنتم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ وفاءً بحقِّ الربوبية ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ ولفظ الإشارة إلى الصراط المستقيم راجعٌ إلى مضمون ما تقدَّم من تنزيه الله تعالى عن الولد، ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ [مريم: ٣٥]. وتنزيه الله عن الشريك، وعن أن يكون ثالث ثلاثة، أو حتى ثاني اثنين، إنما هو إله واحد سبحانه.

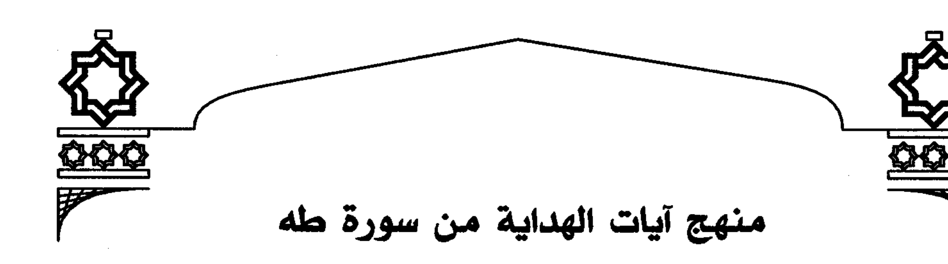
ثم يأتي بعد هذا الموقف من هذه السورة في الآية ٤٣: سياق موقف الخليل عليه السلام مع أبيه في قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ نداءُ تلطُّف ﴿إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ إنَّه أعظم ما يَبُرُّ به الولد أباه أن يهديَه إلى ربِّه الصراط السوي، فينقذه من النَّار، وإبراهيم عليه السلام محبٌّ للولد محبٌّ

لوالده، بذلَ كلَّ ما في وسعه مع أبيه، حتى هدَّده أبوه: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ ومع ذلك يقول له بكل تلطف: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾.

وهنا يدعوه لاتِّباعه، يهديه صراطاً سويّاً، ثم ها هو يُبيِّنُ له المسلكَ السليمَ والصراطَ المستقيمَ، فيقول شارحاً دعوتَه إيَّاه: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ فيخاف عليه ويرقُّ له ويرحمه: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ فيقسو الأبُ بقدر ما يلين الابن، ويستنكر بشدة ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ وتأمَّل - رحمني الله وإيَّاك - أسلوب الإعجاز هنا، فإبراهيم عليه السلام في تلطفه مع أبيه يقول: ﴿يَا أَبَتِ﴾ يا أبت مظهر قوة العلاقة في تلك الأبوة، التي تقتضي كل تراحم وإشفاق، بينما أبوه يقول له: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي﴾ ويُسمِّيه باسمه: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ ولم يذكره بالبنوة، أي بدلاً من يا ولدي، لكأنه حتى عاطفة الأبوة على البنوة غير موجودة، فيقول له كما يقول الغريب البعيد: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ ويعلنها بقوة وقسوة: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾.

ولكن ذلك لم يُثنِ من عزمِ أولي العزم، فيقول: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ إنه حقّاً موقف نبيل، ومثالية نبوية، يصدق عليه قوله تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [العنكبوت: ٨]. إلا أن هذا الاستغفار كان مؤقتاً بادئ ذي بدء ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]. ويختم المولى هذا السياق بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [التوبة: ١١٥]. نسأل الله تعالى الهداية والتوفيق وأن يغفر لنا ولوالدينا إنه هو الغفور الرحيم.

* * *



منهج آيات الهداية من سورة طه

١ ـ **صورة الموقف موضوع النص**، هو نبيُّ الله موسى وأخوه هارون، مع عدو الله فرعون ووزيره هامان، والموضوع حوارٌ وجدال في الدعوة إلى الإيمان بالله، والنصُّ هو بعد مجيء موسى عليه السلام إلى فرعون، ودعاه إلى عبادة ربّه، فكان جواب فرعون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه: ٤٩ ـ ٥٢]. إلى ما بعدها.

والسياق يبدأ من أوائل السورة الكريمة: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه: ٩ ـ ١٤].

ثم يستمرُّ السِّياقُ عن البعث وعصا موسى، والآيات الكبرى، إلى أن يأتي إلى بعثه لفرعون في قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾﴾ [طه: ٢٤ ـ ٣٠]. فنجد هنا مقوِّماتِ الرسالة، معجزاتٍ وآياتٍ بيِّنات.

كما نجد مقوِّمات الرسول: شرح الصدر، وتيسير الأمر، وفصاحة اللسان، وفقه القول، والمساندة من الأهل، كما جاء في حق نبيِّنا محمد ﷺ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ [الشرح: ١]. وتأييده بعمه أبي طالب، في حمايته وكفِّ أذى المشركين عنه، وتيسير أمره ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦].

وتسوقُ السورةُ الكريمة نبأ موسى عليه السلام، من بداية مَا منَّ الله تعالى عليه مرة

أخرى، بما أوحاه اللهُ إلى أمه، بوضعه في التابوت، وإلقائه في اليمِّ، إلى رعايته واصطفاءِ الله إياه ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾﴾ [طه: ٤١ ـ ٤٢]. أي بعد تأهيله بكل ما يدعمه أمام فرعون ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طـه: ٤٣ ـ ٤٤]. وبعد موقف استيضاح وإرشاد، وشمولهما برعاية الله ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]. جاءت المواجهةُ ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طـه: ٤٧]. فيدخل معه فرعون في حجاج، قال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [الآية: ٤٩]. وكان الجواب هو موضوع هذه الحلقة ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [الآية: ٥٠]. واستمر العرض بينهما وإن كانت فيه حيدة، إلا أنه في النطاق العلمي، قال: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الآية: ٥١]. ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [الآيـة: ٥٢]. وامتـدَّ النـقـاش إلـى المواجهة الفعلية، إذ جمعَ فرعونُ السَّحرةَ، وألقى كلٌّ بما عنده، وكانت النتيجة ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [الآية: ٧٠]. إلى أنْ أنجى اللهُ موسى وبني إسرائيلَ وأهلكَ فرعونَ وقومَه ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [الآية: ٧٩].

هذا هو الموقف، وهذا هو الموضوع، حوار بين موسى وفرعون، والنتيجة والنهاية، وسقنا تصويرَ الموقف هنا لأنه قد يكون أجمع للأحداث، وأوضح في السياق، وفيه المنهج الأمثل في أسلوب الدعوة، حيث إنَّ الله تعالى قد اصطنعَ رسولَه، وأعطاه مقومات رسالته، آيات كبرى ومعجزاتٌ عظمى، ويحيط رسولَه بالعناية والرعاية، وتحت سمعه سبحانه وبصره، وتأييده ونصره، ومع هذا كلِّه يُوصيه أن يقولا له: ﴿قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ﴾ إن لعلَّ أداة ترجٍّ، واللهُ ليس له ترج عند أحد، ولكنها رحمة الله بخلقه التي وسعت كلَّ شيء، لعل فرعون يُدركها. وبالمناسبة فإن موسى عليه السلام قد طبق الأمرَ بالفعل، كما بَيَّنه تعالى في موقف آخر: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات: ١٨ ـ ١٩]. (وهل لك) أسلوب عرض وتحضيض.

وهكذا كان منهج النبي ﷺ في الدعوة: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ

ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. وقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩]. وقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقبل أن ننتقلَ عن هذا العرض، فإن مما يستوقف الباحث أن موقف موسى هذا عليه السلام مع فرعون، قد جاء ما يُماثله، وهو موقف إبراهيم عليه السلام مع النمرود، وهو الملكُ الطَّاغي، الذي أطغاه ملكه، وسياقه في قوله تعالى الآية ٢٥٨ من سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾. فنجدُ اتحاداً في الموقف، واختلافاً في الأسلوب، فلعلَّ صاحبَ موسى كان أعلمَ من صاحب إبراهيم، إذ أن جواب موسى عليه السلام لفرعون يتصل بالعلم والمعرفة: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ وانتقالُ فرعون وإن كانت جيدة، إلا أنه مستطلعٌ ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ والجواب: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ...﴾. بينما جواب النمرود مكابرة وبلاهة ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ وقتلَ إنساناً حَيّاً بريئاً، وأعتقَ إنساناً من القتلة كان محكوماً عليه بالقصاص، وظنَّ ببلاهتِه أنَّ هذا جواب ينقطع به إبراهيم. ومن حكمة النبوة ولطف الرسالة أنَّ إبراهيم عليه السلام لم يراجعْه في جوابه، لأنه لجاج، واللجاج لا ينقطع، بل انتقلَ به إلى محسوس مُشاهد لا يُمكن للخصم أن يُكابر أو يلج فيه، فقال له: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ﴾ ومعلومٌ أنَّ هذا صنع الله، منذ خلق الكون، يشهد به الموالي والمعادي، فلما لم يجد سبيلاً للحيدة، أُسقط في يده، وبُهت الذي كفر.

لعلنا أطلنا في هذه المقدمة لموضوع آية الهداية هنا، لنأخذَ عبرة من بين وخلال هذين الموقفين الكريمين، لنضعَ بين أيدي الدعاة إلى الله أن أسلوبَ الدعوة يجب أن يكون متوافقاً مع مستوى الأشخاص، وأن يكون الداعي حكيماً يُقدِّم لكل شخص ما يتناسب معه، لعلَّه يتذكر أو أن يخشى.

٢ ـ نصُّ موضوع الهداية من سورة طه:

يُعتبر نص موضوع الهداية في هذه السورة أعم عمومات النصوص التي جاءت في كتاب الله حول الهداية، فلئن قال العلماء: إن الهداية في كتاب الله قسمان:

قسم عام: وهو الذي بمعنى البيان والإرشاد، كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]. أي بيَّنا لهم، وكقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: ١٠]. أي بَيَّنَّا له الطريقين، وهذه الهداية هي المثبتة لرسول الله ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

والقسم الثاني: هداية خاصة، المنصوص عليها في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]. وقد قدَّمنا تفصيل ذلك في مستهل هذا الكتاب المبارك، إلا أن آية الهداية هنا، من سورة طه، أعم العموميات، إذ شملت جميع ما خلق الله من عالم السماء والأرض، بما فيهما من أفلاك وكواكب، وبحار وأشجار ونبات، وإنسان وحيوان، بل ومن طيور في الهواء، وحيتان في الماء، لعموم قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (فكل شيء) أعم العمومات على ما سيأتي تفصيله بإذن الله.

أولاً: صورة الموقف: قدَّمنا في التمهيد السابق، أنَّ الله تعالى قد اصطفى موسى، واصطنعه لنفسه، وأعطاه مُقوِّمات الرسالة، ولوازم الرسول، ثم ذهبَ موسى ومعه أخوه هارون إلى فرعون ووزيره هامان، ووقعت المواجهة، مواجهة بين طرفين متباعدين كل التباعد، فموسى كليم الله، وفرعون عدو الله، موسى فرد وأخوه هارون يشدُّ من أزره، وفرعون ملك في قومه، صاحب جند وقوة وأوتاد، استعبدَ بني إسرائيل وسخَّرهم، ولكنه في هذه المواجهة لم يبطش ولم يتهدد، ولكن جادل وناقش: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ ولـمَّا أجابه نبي الله موسى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ فتأمَّلَ فرعونُ فوجدَ هذا العموم: (كلّ شيء) وأدركَ أنَّه وإن ادَّعى الربوبية في بلده، فإن ملكه لا يتجاوز «مصر» كما قال: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾

[الزخرف: ٥١]. فمن لربوبية البلاد الأخرى من حوله، الشام والعراق واليمن، وغير ذلك، فانتقلَ وقال: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ ومعلوم أن القرون الأولى لم تكن مربوبةً له، وكذلك لم يكن موسى مرسلاً فيها، وكان الجواب من واقع الحال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾. ونجد هذا التفصيل البديع في إسناد العلم بالقرون الأولى إلى الله، فيقول: (عند ربي) ولم يقل: عند الله، ليقابل ربوبية فرعون الزائفة، التي أعلنها كذباً وزوراً في قوله لبني إسرائيل: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ فيعلنها موسى عليه السلام أن له ربّاً، يعلمُ حالَ القرون الأولى، والتي لا علمَ لفرعون بها، وهذا أول صدعٍ في ربوبية فرعون.

ثم يمضي موسى عليه السلام في تأكيد هذا العلم عند ربه سبحانه، وأنه علم مكتوب ثابت، لا يتغير ولا يعتريه الخطأ، ثم ينفي عن ربِّه كل صفات النقص ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ وهو تعريض بالباقي من ركام ربوبية فرعون بعد صدعها، لأن حقيقة أمر فرعون أنه كما قال تعالى عنه وفي هذه السورة: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طـه: ٧٩]. وفـي سـورة هـود: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧]. وهنا في المواجهة يقول موسى عليه السلام: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾.

وقد نلمس تطور الموقف إلى مشادَّة كلامية، يُصَوِّرها ما جاء في سورة الإسـراء: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ فكان جوابُ موسى حاداً كاليائس منه: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠٢]. وليس هذا بغريب على موسى، لأنه بدأه بغاية اللطف في موقف هَيِّن، وقول لَيِّن: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾. ثم ها هو يأتيه بتسع آيات، ليست آية ولا آيتان ولا ثلاث، تسع. فيقابل ذلك بهذا الاتهام لموسى، إنه يظنُّ به أنه مسحور. إذاً قد علم موسى من حال فرعون ما يأسه من إيمانه، فأعلن له أن نهايته الثبور والهلاك. وهذا عين الموقف من نبي الله نوح، مكثَ مع قومه ألفَ سنة إلا خمسين عاماً، فلما يئس منهم قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

ثم انتقل فرعون من المقالات الحادة إلى القوة والاستفزاز، كما قال تعالى

عنه: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ [الآية: ١٠٤]. وهكذا تكون نهاية الصراع بين الحق والباطل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [غافر: ٥١].

بعد أن جئنا إلى نهاية فرعون وقومه، ونتائج تلك المواجهة نرجع إلى النص: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ يستعمل لفظ الخَلْق والخِلْقة بمعنى، ولكن التركيب هنا يشعر بأن الخلق الذي بمعنى الإيجاد وقد وجد، والخلق هنا بمعنى زائد على الإيجاد، لأن العطاء لا يكون إلا لموجود بالفعل، والله أعطى كل شيء خَلْقَه، فما هو هذا الخَلْق الذي أعطاه الله لكل شيء؟ مهما اختلفت أقوالُ المفسرين فإنها ترجع إلى مدلول متحد، على أن الخَلْق المنهج والقابلية والتكيُّف لهذا المخلوق من كل شيء، ما يلائم له، ويتأتى منه (ثم هدى) أي تلك المخلوقات إلى ما أعطاه من خلق، ومثَّلوا لذلك مثلاً عالم الحيوان، أعطى الله ذكورها خَلْقَ الذكورة ومقوِّماتها، وأعطى الإناث خَلْق الأنوثة ومقوِّماتها، سواء الخِلقية بكسر الخاء أو الغريزية، ولهذا نشاهد ذكورها بمقتضى هذا العطاء حين تشبُّ قليلاً، تحاول أن تعلو إناثها، ولو لم تكن قد بلغت سِنَّ الإنتاج، وهو يعلمُ كيف تُؤتى ومن أين، ونشاهد الوليد وهو في أيامه الأول أول ما يقوى على النهوض، سعى خلفَ أمِّه، وجاء وبدون معلم إلى ثدي أمه فالتقمه، وأخذ يمتصُّ الدر من الضرع، فمن علَّمه هذا؟ إنه مقتضى ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

ولهذا فإن هذه الآية أعم عمومات الهداية في كتاب الله، إذ هي تشمل الكون كلَّه، سماءً وأرضاً، وما في كل من عوالم شتى، أفلاك في السماء، وبروجٌ وجبال في الأرض، ومروج وبحار وأنهار، ونباتات وأشجار، حيوانات وحشرات، وطيور متنوعات، بلد الإنسان والحيوان. وفي تصوري لو أفردت هذه الآية بموسوعة علمية؛ لكانت فيها مادة علمية كاملة، ومنهجٌ عالميٌّ. وسنحاول وضع مؤشرات على تلك الأصناف بما يسعه هذا الكتاب المبارك إن شاء الله.

* * *

٣ ـ جولة إيمان مع آية طه:

﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. وقدمنا أن هذه الآية تُعتبر أعمّ عمومات آيات الهداية في كتاب الله، إذ شملت عوالمَ الكون كله، سمائه وأرضه، جماده ونباته، وحيوانه وطيره، وتفصيل ذلك على وجه التمام يكاد يكون فوق طاقة البشر؛ لأن (كلَّ شَيء) لم تدع شيئاً، والإنسان لم يُحط علماً بكل شيء، وسنحاول وضعَ بعض المؤشرات على بعض الأشياء، وفي البعض تنبيه على الكل، ومن الله العون والهداية.

أولاً: عالم السماء: كم فيها من أفلاك وبروج، والله أعطى كلَّ شيء فيها خَلْقَه، ثم هداه لما أعطاه، فتلك النجوم الزواهر، وتلك المسيرة المنتظمة، كلُّ نجم في مسيرته، وهذه الشمس والقمر، منذ أن خلقَهما اللهُ على منهجهما ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠]. فصول تتوالى، صيف وشتاء، خريف وربيع، سحبٌ تتكون، ونحنُ ننظر، مُزْنٌ تُعتصر ثم تُمطر، تُساق إلى حيث تُؤمر، وما وراء الحس من عالم الملائكة وغيرها لا يعلمه إلا الله.

ثانياً: في عالمنا الذي نعيشه وعلى أرضنا التي نسكنها: ذات الأرض التي جعلَها الله لنا مهداً، وجعلها لنا كفاتاً، أحياءً وأمواتاً، تكون هامدة، فإذا أنزلَ الله عليها الماءَ اهتزَّت وربتْ، فكانت اهتزازاتها حياةً لها. وقد أثبت العلم الحديث أنَّ في ذرات التربية المثبتة رقائق إذا تخللها الماء جرت فيها الحياة، إن الذي أحياها أي بالماء، ثم الإنبات، لقد أعطاها الله خَلْقها ثم هداهَا لما أعطاها.

ثالثاً: ما على الأرض وما فيها: فإذا جئنا إلى ما عليها وما فيها، فهذه الجبال الرواسي تحفظها أن تميدَ بنا، فهي ثوابت في أماكنها، صُلبة في ذاتها، وتلك البحار الزاخرة، والأنهار الجارية ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الرحمن: ١٩ ـ ٢٠]. وتلك الحيتان والأسماك على تعدد أنواعها، مهما كثرت، فإنها لم تخرج عن هذا الخَلْق، ولن تَضِلَّ عمَّا هداها الله إليه، فإن أصنافها في تزاوجها، وأنواعها في تناسلها، كلٌّ قد عرف

قسيمه، ذكورها لا تَضِلُّ عن إناثها، وصغارها لم تختلف عن كبارها شكلاً وحجماً، وطباعاً وطعماً. وهذه الأشجار والنباتات، وفي عالم الأشجار وثمارها نجدُ الآتي:

أولاً في إنباتها: تستطيع أن تضع النواة في وعاء من الماء مدة ما، فإذا بك تشاهد ومن وسط النواة ـ أعني نواة التمر للنخلة ـ فستجدها انبثقت عن خيطين أبيضين من نقطتين متقابلتين في وسطها تماماً، ثم تجد أحد هذين الخيطين قد نبتت فيه شعيرات دقيقة، بينما الآخر ظلَّ أملس ناعماً، وبعد قليل تجد الخيط ذا الشعيرات اتجه إلى أسفل، بينما الآخر اتَّجه إلى السطح، إنها في التربة تكون كذلك، يتجه الجذر إلى باطن الأرض، وتتجه النبتة إلى سطحها، فمن الذي عدلَ النواة ووجَّه كلَّ جزء إلى ما خُلق له؟ إنه الذي أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقه ثم هدى. إنك كذلك تجد مثل اليقطينات؛ كالدبَّاء والخيار، تضعُ اللُّبَّ في الأرض، ولا تدري على أي وجه وضعته، فإذا بالنبتة تبرز على وجه الأرض حاملة غلاف اللب بالصورة التي أرادها الله، حيث اتَّجه الجذر إلى الأرض والنبتة إلى الهواء، ثم تكمل مسيرتها إلى أن تثمر وتينع، وتؤتي أكلها كما أراد لها الله.

يأتي الطور الثاني وهو الثمرة: بدأت بالزهرة في شكلها ولونها ورائحتها وحجمها وتركيبها كما أراده الله لها. وثم تلقيحها بالرياح أو الحشرات أو غير ذلك، ثم انعقدت الثمرة وذبلت الزهرة، وأخذت الثمرة في نموها، فهذه حمراء، وتلك صفراء، وهذه مستديرة، وتلك مستطيلة، وأخرى بيضاوية، وهذه ممتدة منضودة، وهذه في أكنانها، وتلك في غصنها وغلافها. فمن الذي أعطى تلك الألوان المتغايرة؟ ومن الذي قدَّر الأحجام المتفاوتة؟ ومن الذي غايرَ الطعوم المتنوعة؟ وهي غرسات متجاورات تُسقى بماء واحد؟ إنه الله الذي أعطى كلَّ شيء خَلْقَه ثم هدى.

وفي عالم النبات: هذه حبة فلفل، ومثلها حبة باذنجان، وثالثة حبة طماطم، يعلم كل فلاح أنها متقاربة الشكل والحجم واللون، لا يُفَرَّق بينها إلا الفلاح، تُزرع في جدول واحد، وتنبت على طريقة واحدة، حتى إذا جاء دور الثمرة، وبدأت الزهرة، كل نبت له زهرة خاصة لوناً وحجماً، ثم تنعقد

الثمرة، تحمل آية القدرة وفق ما أعطاها الله من الخلق وما هداها إليه، فهذه ثمرتها سوداء اللون مستطيلة الشكل كالباذنجان، والأخرى حمراء اللون شبه مستديرة، والأولى داخلها كقطعة الشحمة، والأخرى كوعاء الماء أو الشَّراب، والثالثة خضراء اللون، ومنها شبيهة بالمستديرة، مجوفة الداخل لا ماء ولا شحمة، وأختها مستطيلة نحيلة تنضج بالحرارة اللاذعة، فمن غاير بين هذه وتلك؟ إنه الله الذي أعطى كلَّ شيء خَلْقَه ثم هدى.

ثالثاً: عالم الحيوان، مستأنس أو متوحش، كلُّ صنف على حدة، فالوحشي في الخلوات، كلُّ صنف تآلف مع صنفه، وكل زوج تزاوج مع زوجه، تجد السخلةَ أول ما تنهض على ساقيها، تسعى نحو أمها، تبحث عن ضرعها، تجد ذكورها تعلو إناثها قبل أن تبلغ حدَّ الإنجاب، فمن علَّم هذه وهداها إلى هذا؟ تجد الدجاجة تحتضن بيضَها، وفي وقت معين تُقلِّبه حتى يحينَ أوان تفريخها، وفي اللحظة المعينة تنقر هي بنفسها البيضة ليخرجَ الفرخ منها، من علَّمها وهداها؟

رابعاً: تأتي للإنسان، هذا العالم الصغير، بكل ما فيه من ممالك متجاورة متعاونة في تناسق تام، من جهاز دموي وتنفسي وبولي وتناسلي وهضمي وعصبي... إلخ، لا يعرفها إلا علماء التشريح... يطولُ بنا المدى ونخرجُ عن نطاق هذا الكتاب لو أخذنا في التفصيل، وفيما قدمنا كفاية من دلالات عامة، من عوالم مختلفة، وما أحسن قول القائل، وهو أمية بن أبي الصلت:

وأنتَ الذي من فضلِ مَنٍّ ورحمةٍ ... بعثتَ إلى موسى رسولاً مناديا
فقلتَ له فاذهبْ وهارون فادعوا ... إلى اللهِ فرعونَ الذي كان طاغيا
فقولا له أأنت سوَّيتَ هذه ... بلا وتدٍ حتَّى استقلَّت كما هيا
وقولا له أأنتَ رفعتَ هذه ... بلا عَمَدٍ أرفق إذَنْ بِكَ بانيا
وقولا له أأنتَ سوَّيتَ وسطَها ... منيراً إذا ماجنة الليل هاديا
وقولا له مَنْ يُخرج الشمسَ بكرةً ... فيصبح ما مَسَّتْ من الأرضِ ضَاحيا
وقولا له من يُنبتُ الحَبَّ في الثَّرى ... فيصبحُ منه البقْلُ يهتز رابيا
ويُخرج منه حبَّه في رؤوسه ... ففي ذاك آيات لمن كان واعيا

٤ ـ جولة هادئة مع الملحدين:

إن منطلق هذه الجولة الهادئة والهادفة إنما هو كتاب الله، كتاب الله المعجزة الخالدة، معجزة لكل زمان ولكل إنسان، ولئن كان وجه الإعجاز الواضح البيِّن عند نزوله هو ذات القرآن في أسلوبه ومنهجه ومنطوقه ومدلوله، بما يتناسب مع أولئك فرسان البيان وأساطين البلاغة، وتحدَّاهم فأعجزهم، بل وأعلنَ عجزهم قبلَ محاولتهم؛ في مستهل سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢٣]. ثم قال لهم ـ إمعاناً في التحدي: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ ...﴾ [البقرة: ٢٤]. فقامت به عليهم الحجة ودخلوا في دين الله أفواجاً، ولما كانت الرسالة المحمدية عامة للناس كافة، وشاملة العربَ والعجمَ، والحاضرين تنزيلَه، ومن سيبلغهم بعدهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ...﴾ [الأنعام: ١٩].

فشهادة الله قائمة بدوام الله سبحانه، والإنذار بهذا القرآن، سواء لمن أُنزل عليهم وهم المخاطبون بالآية، ومن بلغ إليه من بعدهم من عرب ومن عجم. ونقول: إن الإعجاز اللفظي والجرس الأسلوبي، والإحكام في سياقه لا زال قائماً، وإن قادة الفكر الأوروبي وأصحاب الفطر السليمة، ليشهدون بمدى التأثير الذي يجدونه في أسماعهم، ويدركونه بأذواقهم، حين يسمعون الآية والآيتين خلال الحديث العادي، من أي متكلم ومحاضر، ولكن قد لا يُدركون مصدرَ هذا التأثير؛ كما يُدركه أولئك الذين نزل بلغتهم، إلا أن هذا كما يقال: أثر وجداني، لا تقوم به حجة عليهم، والحال أنه إنذار لهم، كما هو إنذار للأوائل، فكيف تقوم به الحجة عليهم بعد عشرات القرون من إنزاله، وبالحكم العقلي، أنه ما دام القرآن هو وسيلة الإنذار لهؤلاء، فلا بد من اشتماله على ما يتم به إنذار أولئك، وكل من يأتي بعدهم، وعموم من يبلغهم، ومن تأييد هذه النظرية قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾

[فصلت: ٥٣]. والآيات في الآفاق وفي الأنفس ليست خاصة بقرن أو أمة دون غيرهم، ومرة أخرى تأتي شهادة الله على كل شيء.

وإن من أعظم وأشمل آيات القرآن دلالة على الآيات الكونية، لهي هذه الآية: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ وتقدَّمَ العموم في لفظتي: (كل) و(شيء)، وبيان (خلقه) وهو المنهج الذي أعطاه الله لكل شيء خلقه (ثم هدى) جميع تلك المخلوقات لسلوك ذلك المنهج الإلهي، وقد جاء التنصيص على نوع تلك المخلوقات، وهو صادق على جميع الأنواع الأخرى، مع تفاوت في المستوى، وذلك في صريح قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ﴾ ثم قال تعالى تذييلاً على وحيه إلى النحل هذا المنهج، بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. والتفكير يستوي فيه جميع العقلاء، وبالتفكير تقوم الحجة عليهم، والعقل والتذكير أحد الدليلين على الخلق، كما في قوله تعالى رداً على أصحاب النار: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ﴾ فردَّ عليهم بإقامة الحجة عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ﴾. فالعمر الذي عمّرهم هو ظرف للتذكر والتدبر والاستدلال بالآيات الكونية على وجود الخالق الصانع المدبر. ومع هذا الدليل جاءهم النذير وهو الرسول ﷺ يُنذرهم بما أُوحي إليه من القرآن الكريم.

والعالم اليوم في عصر اتَّسمَ بالعلوم المادية، عصر الاكتشافات المخبرية، يجب أن تُخاطب كلَّ واحد من هؤلاء العلماء العصريين بلغة العلم الذي ألمَّ به، وفي مجال تخصصه، وانطلاقاً من هذه الآية الكريمة، ونُقيم الحجة وننصب الأدلة لأولئك الملحدين، لنكشف الحجبَ عن بصائرهم، حتى يتبيَّن لهم أنَّه الحق.

وعلى سبيل المثال: نخاطب العالم الفلكي بنظام سير الأفلاك وأبعادها وأحجامها وطاقاتها، وكل مجموعة وتوابعها، ليتأمل القدرة الإلهية التي أحكمت هذا الصنع ورسمت هذا المنهج، وفق قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ فلم يختل نظامها، لا في سيرها ولا في ضوئها، ولا

في أبعادها، على مضي مئات، بل آلاف، بل ملايين السنين. وهم يعلمون أنها لو اقتربت قليلاً لاحترق العالم، ولو ابتعدتْ قليلاً لتجمَّد العالم، ولكنها في نظام سيرها ينتظم معها الزمن صيفاً وشتاءً، وينتظم معها نبات الأرض وحياة كل كائن لعمومها وشمولها.

ثم يأتي عالم النبات، الذي يُجري التجارب الزراعية في مختبره، ونخاطبه في تكوين كل نبتة وكل شجرة، منذ أن عرفها الإنسان في بداية إنباتها، ثم مجيء أزهارها، وكيفية تلقيح تلك الأزهار، مع قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]. وكيف تُوجد في الشجرة الواحدة أزهار مذكرة وأخرى مؤنثة، وأيضاً كيف توجد في بعض الأشجار ذكور كذكور النحل، وتلك الزهور تتحول إلى ثمار بألوانها وأحجامها وطعومها، هل تغير منهجها أو اختلف خلقها الذي خلقها الله عليه، أو حادت عن منهجها الذي هداها الله إليه.

وهكذا نُخاطب عالمَ الحشرات والفراشات في مملكة النحل وقرية النمل وغيرهما.

ونُخاطب الطبيب في مهنة طبه، في عالم الإنسان، من بدايته في إيجاد أبينا آدم عليه السلام، كيف وُجد من تراب، وفي أمنا حواء كيف وُجدت من آدم، أنثى من ذكر، وعيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام كيف وجد ذكر من أنثى فقط. ثم نأتي لعالم الطفولة من بداية الحيوان المنوي وأقسامه الزوجية والفردية، وحمله في الجينات كل خصائص الطفل، ثم التذكير والتأنيث، والطبيب أول من يعلم حقيقة ذلك، وأنه لا توجد قوة على وجه الأرض تتحكم في نوعية الولد، وأن ذلك لله تعالى وحده: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [النجم: ٤٥ ـ ٤٦]. وقال سبحانه متمدحاً: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ﴾ أي بحكمة وإرادة: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: ٤٩ ـ ٥٠]. فالطبيب أعرف بهذا كله.

ونُخاطب عالم الذرة في تكوينها وفي طاقتها ونوعيتها، وهي الكائن الذي لا يُرى.

بل ونخاطب كل عاقل في عقله هذا الذي يدرك به المعقولات، هل يدرك العقل حقيقة ذاته؟ إنه ملكه، إنه هبة من الله. يحفظ توازنَ صاحبه، ويستهدي به في جميع شؤونه، يُدرك به الخطأ من الصواب والهدى من الضلال، وبهذا العقل السليم يُدرك مسار هذا الكون كله، في سمائه وأرضه وفضائه وجميع كائناته، إنه يسير بدقة فائقة وفق إرادة وقدرة الواحد الأحد سبحانه ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ وإن الذين يُنادون بالإعجاز على ما في كتاب الله، ليتوجب عليهم أن يكون انطلاقهم من هذه الآية الكريمة، أعمِّ عمومات الهداية في كتاب الله، والله الهادي إلى سواء السبيل.

٥ ـ المنهج الثاني في سورة طه:

النص قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٦].

يبدأ تصور هذا الموقف من أول قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طـه: ١١٥ ـ ١٢٣].

ويتفق العلماء على أن العهدَ المذكور هو ما عهد الله تعالى إليه به في قوله تـعـالـى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: ٣٥]. وقوله تعالى: ﴿فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ يستعمل النسيان بمعنى الترك، كقوله: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ﴾ أي تركوا شرعه فتركهم. وقوله: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ﴾. ويُستعمل بمعنى الغفلة

والسهو النسيان، فقال بعض العلماء، منهم مجاهد وأكثر المفسرين: إن النسيان الواقع من آدم هنا هو الترك. وقال البعض ـ منهم ابن عباس: ـ إنه السهو والغفلة. وعليه قالوا: إنَّ من كان قبلنَا كانوا يؤاخذون على النسيان، وعلى الخطأ، وعلى الإكراه؛ مستدلين بالآيات الكريمات في آخر البقرة: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا . . .﴾. وفي الحديث: «رُفع ـ أو عُفي ـ عن أمتي الخطأ والنسيان. . .». والذي يظهر من السياق، وجملة ما جاء في شأنه عليه السلام؛ أن النسيان بمعنى الترك، لأن قوله تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ يُشعر بعدم السهو. وكذلك ما جاء في بعض بيان إغواء الشيطان إياه أنه قال لآدم: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٠ ـ ٢٢]. ولو كان عن نسيان لاعتذرا عن خطئهما بالنسيان ولو لم يقبل منهما، فيترجح أن النسيان هنا بمعنى الترك.

وفي هذا السياق التحذير من إبليس: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ يسترعي الانتباه هنا مجيء التحذير لآدم ولزوجه من عدوهما إبليس أن يخرجهما معاً من الجنة، بينما جعل النتيجة التي هي الشقاء مسندة لآدم وحده: (فتشقى) ولم يقل: فتشقيا. وكذلك نفي الجوع والعري والظمأ وأن لا يضحى، كلُّها مسندة لآدم وحده. واتَّفق المفسرون على أن إسناد الشقاء لآدم وحده يدل على أن الرجل هو الذي يتحمل تبعة المرأة فيشقى من أجلها، ومن هذا يُؤخذ إسناد الجوع والعري والظمأ، بنفيه عن آدم وحده، أن الرجل لا يجوعُ إلا وقد جاعت زوجه قبله، ولا يَعرى إلا وقد عريت قبله. . . إلخ. وهكذا اليوم، فإن الإسلام قد حمَّل الرجلَ كفالة المرأة، زوجة كانت أو بنتاً أو أمّاً أو أختاً، على ما هو معلوم فقهاً.

وقد نصت الآية على تأمين مرافق الحياة في الجنة، الإطعام فلا يجوع، والكساء فلا يعرى، والشَّراب فلا يظمأ، وكل ذلك في مسكن هانئ ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ فمن وجدَ ذلك فقد وجدَ الغنى، وجاء في الحديث: «مَنْ

أصبحَ آمناً في سِرْبِهِ، مُعَافَىً في بدنِهِ، عنده قوتُ يومِهِ وليلِهِ فقد حِيْزتْ له الدنيا بحذافيرها».

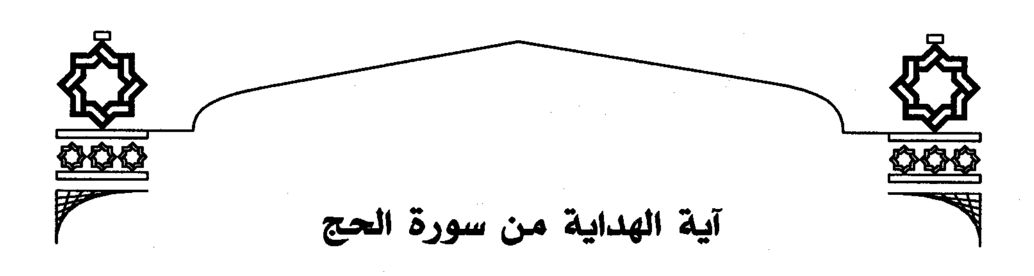
وبعد هذا الإنعام يأتي الخطر: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا . . .﴾ وهنا مكمن المعصية ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ وبتأمل منهج الوسوسة نجده خداعاً وكذاباً، لو أمعنَ آدم فيه لسلم منه، ولكنه قضاء الله وقد نفذ، إن وجهَ الخِداع فيه أن الشيطان لم يأته بجديد، إنما قال له: أدلك على شجرة الخلد ومُلكٍ لا يبلى، فأيُّ خلد يطلب وهو في جنة الخلد؟ وأيُّ ملكٍ يسعى إليه وهو في دار النعيم؟ وليس معه فيها من يزاحمه. ولكنه دائماً خداع الأعداء والتمويه منهم، وقد جاء عن نبي الله نوح أنه لما اكتشف وجود إبليس في السفينة، وسأله عن سبب مجيئه أخيراً، قال إبليس: دعني وأعلمك بثلاث من خمس. فأوحى الله إلى نوح: اطلب منه الاثنتين ودع عنك الثلاث. فقال إبليس: اثنتان بهما هلاك العالم: الحسد، والحرص. وقال له: حسدتُ آدمَ فاستكبرتُ عن السجود إليه، فأصابني ما تعلم وحرصَ آدمُ على تحصيل أكثر مما عنده، فأكل من الشجرة، فكان ما تعلم.

ثم تأتي المرحلة الثانية من حياة آدم: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ ورسمَ له ولذريته منهج تلك الحياة الجديدة، وأعلمه إن هو سلكه والتزمه ولم يتركه أعاده إلى الجنة مرة أخرى ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ فقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ هو الكتاب والسنة ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ من اتَّبع هداهما وعمل بمنهجهما، بل يكون على صراط مستقيم وعلى نور من الله ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ لأنه سلكَ الطريقَ، مضمونَ السلامة. وهذا عين ما جاء في افتتاحية البقرة ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾. وفي المقابل مَنْ أعرضَ عن ذكره سبحانه وهو القرآن والتزام التشريع الحكيم، فإن له عقوبتين:

أ ـ عقوبة الدنيا بمعيشة ضنكاً، قلق في حياته، واضطراب في تصرفاته، كالتائه وسط الصحراء، أو الملَّاح التائه.

ب ـ وعمى في الآخرة، وقد يتساءل ذلك اليوم عن سبب عماه، وقد كان بصيراً، ويُجاب أنه معاملةٌ بالمثل، فكما أعرضَ عن الهدى ورضي الضلال، فكذلك اليومَ يُنسى، وهكذا منهج لآدم حين أُهبط إلى الأرض، فمن اتَّبعَ هدى الله، فلا يَضِلُّ في مسيره، ولا يشقى في آخرته.

* * *



آية الهداية من سورة الحج

١ ـ **قال تعالى**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [الآيتان: ٢٣ ـ ٢٤].

هذا النص بيان لفريق من فريقين، جاء التنصيص عليهما من بداية قوله تعالى قبل ذلك: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [الحج: ١٩ ـ ٢٢]. فهذا هو القسم والفريق الأول، وهو أحد الخصمين اللذين اختصموا في الله، على ما سيأتي بيان ما المراد به.

والقسم الثاني، أو الفريق الثاني، وأحد الخصمين المذكورين المنوه عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ . . .﴾ إلى آخر السياق.

وقد اختلف في أحد الخصمين، والخصمُ يُطلق على الفرد وعلى الجماعة، واتَّفقوا على الخصم الآخر، وهو المُعَبَّر عنه بالذين آمنوا وعملوا الصالحات، فيكون بطريق المقابلة تعيين الخصم الآخر، غير المؤمنين. فمنهم من قال: هما الخصمان المتبارزان في غزوة بدر، فريق من المؤمنين، وفريق من المشركين، وقيل: هم عموم المشركين. ويلفت النظرَ هنا تلك المقابلة في حالتي الخصمين:

أ ـ فالذين كفروا ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ قيل: أُريد بالثياب؛ إحاطة النار بهم، كإحاطة الثياب بالبدن، ومن جهة رؤوسهم يُصب من فوقهم الحميم. . . إلى آخره. وحالتهم طلب الفرار والخروج مما هم فيه، ولكن لم يتمكنوا منه ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾ من غم ﴿أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾.

بينما الفريق الآخر المقابل لهم، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فإن الله تعالى يُدخلُهم ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ثم هم ينعمون فيها بالحلي ﴿أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ مرصع باللؤلؤ، أو أساور منوعة، منها الذهب، ومنها اللؤلؤ، واللباس حرير، فأين هؤلاء من أولئك؟ إن الفرق بينهما كالفرق بين الإيمان والتصديق والطاعة والامتثال، وبين الكفر والتكذيب والتمرد والعصيان.

ثم بيَّن سبحانه السبب في الجانبين:

أ ـ أما الجانب الأول فسبب تعذيبهم هو الكفر والتمرد على الله ورسوله.

ب ـ والجانب الثاني بيَّنه سبحانه بأنه الإيمان والعمل الصالح، ويُلاحظ من أسلوب القرآن الكريم أن الله تعالى لمَّا وصفَ حال المؤمنين في الجنة، اقتصرَ على أنواع اللباس ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ مع أن من المعلوم أن لهم من النعيم ﴿سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾﴾ وفيها ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ ولهم فيها ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ وكلّ ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر. وذلك فيما يظهر ـ والله تعالى أعلم ـ أن المَقامَ مقامُ مقارنة بين خصمين متقابلين، خصمٌ كفرَ بالله، وآخر آمن وعمل صالحاً، وجاء بيان مآل كل منهما، فكان وصف حال الكفار يتعلق باللباس، والمقامع من حديد، ولم يذكر لهم ما هو معلوم لأهل النار ـ عياذاً بالله ـ من شجرةِ الزقوم طعامِ الأثيم، كالمُهلِ يَغلي في البطون، ولا شرابٌ من غسلين ـ عياذاً بالله ـ ولا غير ذلك، فتمَّت المقابلة بين الحالتين لهذين الخصمين.

وموضوع الهداية هنا التنويه بإيمان المؤمنين بهداية من الله تعالى قولاً وعملاً، فالقول: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ والعمل ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ وهذا هو إطار الإيمان والعمل الصالح، فالإيمان اعتقادٌ بالقلب، ونطقٌ باللسان، وعمل بالجوارح؛ والنطق ماثلٌ في الطَّيِّب من القول، وأطيبه كلمة التوحيد، لا إله إلا الله محمد رسول الله، كما ضربَ الله لها مثلاً بشجرة طيبة أصلُها ثابت وفرعُها في السماء. والعملُ الصالح هو كلُّ عمل جاء موافقاً

لما أمرَ به الله تعالى رسولَه ﷺ، وهو الصراط الحميد، هذا على سبيل الإجمال فيما هُدوا إليه، واستحقوا به الجنة. أمَّا التفصيل وهو ما يهمُّنا في هذا الكتاب «آيات الهداية والاستقامة» فإن هذه الآية الكريمة تبيِّن أن مجال الهداية واسع، يشمل الكلمة الطيبة والعمل الحميد.

وقد جاء في كتاب الله تعالى إعلاء شأن الكلمة الطيبة فوق بعض أنواع الصدقات، كما في قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ﴾ بل إن الكلمة غير الطيبة قد تُبطل بعض تلك الصدقات، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ وجعلُ القول الميسور في مقابل العطاء في سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإسراء: ١٢٨].

وقد قرن سبحانه بين الكلم الطيب والعمل الصالح في الصعود والارتفاع إلى الله ﷻ فقال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ ...﴾ وفي السنة الشيء الكثير، فمن ذلك: «والكلمة الطيبة صدقة» وأطيبُ الكلم الصدق: «والصِّدقُ يهدي إلى البر، والبِرُّ يهدي إلى الجنة» إلى غير ذلك من آثار الطيب من القول. فمن هُدي إلى الطَّيِّب من القول؛ هُدي إلى خير كثير، حتى قال بعض العلماء: كلُّ ذكر لله وتلاوة لكتاب الله فهو داخل في ذلك. وهو واضح جداً.

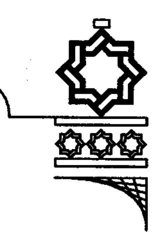
وفي الجهة المعاكسة من تلك الهداية، ممن أطلقَ لسانَه كيفما شاء، فقد جاء عن معاذ رضي الله عنه، أنه ﷺ قال له: «إنَّ ملاكَ الأمر كلّه أن تكف عنك هذا» - وأشار إلى لسانه، فقال متعجباً: أو إنا لمؤاخذون على ما نتكلَّم به. فقال ﷺ: «ثكلتَك أمُّك يا معاذ! وهل يكبُّ النَّاسَ على وجوههم - أو قالَ: على مَناخِرهم - في النَّارِ إلا حَصَائدُ ألسنتهم».

ولو تأملنا نتائج الهداية إلى الطيب من القول، لوجدنا أول نعمة فيها طمأنينة النفس، وعدم الندم على قول يصدر منه، والمجال في ذلك واسع.

أما الهداية إلى الصراط الحميد، فالحميد صيغة مبالغة من الحمد، أي لا ذمَّ فيه ولا نقص ولا عيب، وهذا هو صراط الله المستقيم، وهو كتاب الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ

خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ [فصلت: ٤١ ـ ٤٢]. وهذه الآية الكريمة دالَّة على أن كل من سلك الصراط المستقيم فإن كل أعماله تكون حميدة، حميدةً في ذاتها، حميدة في نتائجها العاجلة، حميدةً في مآلها في الآخرة.

* * *

آيات الهداية من سورة النور

١ ـ قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾ [النور: ٤٦]. إن المتأمل في سياق هذه الآية ليجد من ابتداء قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾ [النور: ٤٣ - ٤٦]. ففي هذا السياق من الآيات الكونية ثلاثة أقسام، كل قسم منها فيه عظيم الدلالة على القدرة الإلهية، والعمل التام، والمشيئة النافذة. أول تلك الأقسام آيات السحاب من أول تكوينه، ويُزجيه: أي يسوقه، ثم يؤلف بينه فيتحد، ثم يجعله ركاماً، أي متراكماً بعضه فوق بعض، وبعد تكامل هذه الصورة لتكوين السحاب ترى الودقَ يخرجُ من خلاله، والودق قيل: البرق وقيل: المطر، وكلاهما صحيح، فهما مترابطان غالباً. ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾. قيل: المراد بالجبال من البرد من السماء؛ هي جبال خلقها الله في السماء ينزل منها البرد، وقيل: المراد من السماء السحاب؛ لأن ما علاكَ فهو سماء، وتكون السحب بعد تراكمها صارت كالجبال وفيها البَرَد، وكلا القولين دليل القدرة والإرادة، حيث تُوجد بالفعل جبالُ بَرَدٍ في السماء يُنَزِّلُ الله منها متى يشاء. أو جعلَ السُّحبَ التي أنشأها الله من رقائقَ خفيفة، فتراكمت حتى صارت جبالاً، يحملها الهواءُ ويسوقُها الله حيث يشاء، يُصيب بها من يشاء ويصرفه عمن يشاء. وعند خروج هذا الوَدق يكون البرقُ الشديد، يكادُ سَنَا هذا البرق، أي شدة بريقه وضيائه يذهب بالأبصار؛ لضعفها عن تحمله، وهذا

أمر مشاهد، إذ أنّ حدقة العين لها انقباض وانبساط بما يسمح للنور أن يدخل إلى العين تدريجياً، فإذا فاجأها وبكمية كبيرة أرهقها، وربما ذهبَ بها.

ونحن نلمس هذا عند الانتقال من مكان مظلم إلى مكان مضيء أو العكس، فإننا نحتاج فترة حتى تتحقق المرئيات، وذلك بسبب انقباض وانبساط حدقة العين؛ تبعاً لقوة النور وضعفه، ولا شك أن البرق يأتي فجأة، وموقعنا هنا مع هذه الآية الكريمة هو التنبيه أن السحاب بما يحمل من ماء يُسيِّره الله تعالى، فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء، وجاء في الحديث الصحيح: «بينما رجل يمشي في فلاة من الأرض إذ سمع صوتاً في السَّحاب: اسق مزرعةَ فلان. فمشى في ظلها، حتى إذا وازنت أرضاً حرةً، فأمطرت وتجمَّع الماء وتحول إلى شرجة، فتبعَ الماءَ فإذا به يصبُّ في أرض محروثة، وفيها رجلٌ يحوِّل الماءَ، فسلَّمَ عليه باسمه، فالتفتَ إليه الرجلُ وقالَ: كيف عرفتَ اسمي وأنتَ لستَ من أهل هذه الأرض؟ فأخبرَه أنَّه سمعَ اسمَه في السحاب، وسأله عمَّا يصنعُ في مزرعته؟ فأخبرَه أنه يقسمُ الحبَّ أثلاثاً، فيتصدق بثلث، ويأكلُ ثلثاً، ويردُّ ثلثاً بذراً في الأرض». فاللهُ يُصيبُ بالمطر من يشاء، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ [الأعراف: ٥٧]. فاللهُ تعالى: يُنشئُ السحابَ الثقال، والله الذي يُزجي سحاباً ويُؤلِّف بينه، ثم يركمه، والله الذي يُرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته، حتى إذا أَقَلَّتْ سحاباً ثقالاً، ساقه حيث يشاء، فليست الأمطار طبيعية نتيجة التبخير والاختلاط بالرطوبة، فتتكاثف إلى سحب وماء وبَرَد. ولقد قدر أنَّ اللهَ تعالى يُنشئها من ذلك فإنها خاضعة لقدرته ومُسيّرة بمشيئته، ومتصرفة بإرادته ﷻ؛ كيفما كانت الأسباب. ومما يؤكد عدم تعلّق الأمطار بتصاعد الأبخرة باطراد وتلازم، ما جاء في الحديث من أنَّ النبيَّ ﷺ كان يخطب يوم الجمعة، فدخلَ أعرابي وقال: يا رسول الله! استسق لنا، فقد هلكَ البهائم، ويبس الزرع، وتقطعت السبل. فرفعَ ﷺ يديه وقال: «اللهم اسقنا وأغثنا، اللهم اسق بهائمك، اللهم أنبت لنا الزرع، وأدرَّ لنا الضرع، وأحي بلدك الميت. . .» إلى آخر ما جاء في دعائه ﷺ. قال راوي الحديث: وليس بيننا وبين سلع من دار ولا بيت، فنشأت سحابة من خلف

سلع قدر الترس، فارتفعت حتى انتشرت، فأمطرت، فما رأينا الشمس سبتاً، وفي يوم الجمعة الثاني دخلَ رجلٌ من ذلك الباب، والنبي ﷺ يخطب، فقال: يا رسول الله! ادعُ اللهَ أن يمسكَهَا عنا، هلكت الدواب، وتقطعت السبل، فقال ﷺ: «اللَّهم حوالينا ولا علينا، اللَّهم على الظِّراب والآكام ومنابت الشجر وبطون الأودية». قال: فخرجنا نمشي في الشمس.

فهذه واقعة مشهودة، يشتكي الناس الجفاف والقحط فيسأل النبيُّ ﷺ ربَّه أن يسقيَهم، فحالاً وفي الوقت تنشأ سحابة في جو صحو، وهي قدر الترس، أي ليست السماء مغيِّمة، بل هي صحو صافية، فينشئُ اللهُ تلك السحابة الصغيرة، ويشاهدونها ترتفع حتى تأتي فوق رؤوسهم، وتنتشر في الأفق، ثم تُمطر، ويظل المطر عليهم سبتاً، أي أسبوعاً كاملاً، حتى يشتكي الناس من كثرة المطر، ويطلبون إمساكها، فيدعو الرسول ﷺ ربَّه فيمسكها في الحال.

إنها آيات مشاهدة خاضعة لمشيئة الله وإرادته، يُرسلها متى شاء، ويُمسكها متى شاء: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٨٢ ـ ٨٣]. ولهذا جعلَ اللهُ موضوعَ السَّحاب والمطر في نشأته وسوقه وإنزاله وصرفه، آية من آيات القدرة الدالَّة على وجوب التوجه إلى الله تعالى وحده، واتباع هداه والإيمان به، وبما جاء عنه سبحانه مما أوحاه إلى رسوله ﷺ، كما تصف الآية بعدَها ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور: ٤٤]. على ما سيأتي الحديث عنها إن شاء الله تعالى.

٢ ـ من سورة النور:

قال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور: ٤٤]. جاء ذلك بعد عرض إنشاء السحاب وتكوينه وسوقه، وإنزال الودق من خلاله، وإصابة به من يشاء وصرفه عمن يشاء، وفقَ إرادة ومشيئة إلهية.

وأعقبَ ذلك بهذه الآية الكريمة: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ وتقليبهما: هو بالزيادة والنقصان فيهما، والمتأمل في ذلك يرى أن مجموع الليل والنهار معاً، ما هو متعارف عليه مقدارهما معاً أربع وعشرون ساعة على أيام السنة كلها،

بدون ما زيادة ولا نقصان في مجموعهما، ولكننا نجد الليل في الصيف يقصر والنهار يطول، ونجد الحالَ على العكس في الشتاء، يطولُ الليل ويقصر النهار، وبقدر ما يطولُ أحدهُما يكون نقص الآخر، وبكل دقة وانتظام، وسيرُ الأفلاك منتظم ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠]. ومع ذلك فالله سبحانه يُولج الليل في النهار، ويُولج النهار في الليل، فالشمس تسير ولم تتوقف، والشمس تجري لمستقرٍّ لها. ولسنا في معرض نقاش نظريتي دوران الشمس أو دوران الأرض، فليس هذا محله، والمهم عندنا تقليب الليل والنهار، من زيادة ونقص، وحرارة وبرد، وصيف وشتاء.

والليل والنهار هما ظرف إنزال المطر، فكما أن الله تعالى يقلِّب الليل والنهار، فالله سبحانه يُقلِّب إنزال المطر تارة وتارة، وهنا وهناك، وكثرة وقلة.

ومجموع الأمرين في كل من السحاب والليل والنهار عبرة لأولي الأبصار والبصائر، يرون بأبصارهم تقلبات محسوسة، فيعتبرون ببصائرهم ويؤدي هذا الاعتبار إلى الوصول إلى حقيقة الإيمان بالله تعالى.

ثم يأتي القسم الثالث من أقسام آيات القدرة في هذا السياق في عالم الأرض، أي بعد عالم السَّحاب والأمطار، وبعد عالم الزمن الليل والنهار، يأتي عالم الأرض: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ﴾ ثم فَصَّلَ نوع تلك المخلوقات من حيث المشي فقط، لا من حيث الأجناس والأنواع والخصائص، ولكن من حيث الحركة، فأصل الخلق من ماء، ولكنَّ تلك المخلوقات مع اتحاد أصلها تختلف أشكالُها في الحركة ﴿فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ﴾ وهي الزواحف من الحيَّات والديدان ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ﴾ كالإنسان والطيور ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ﴾ كجميع الحيوانات إنسية أو وحشية ﴿يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [النور: ٤٥]. وهناك التقسيمات العديدة لتلك الدواب، فمن حيث الصورة منها ما يكسوه الشعر ومنها ما يكسوه الصوف أو الوبر، ومنها ما يُغطِّي جسمه الريش، ومنها ما هو مزروع في جسمه الشوك، ومنها الأليفُ والمتوحش، ومنها ما يتكاثر بالولادة ويُرضع أولاده، ومنها ما يتكاثر بالبيض ويحضن بيضه، أو يترك بيضه فلا يعود إليه، إلى غير ذلك من التقسيمات لتلك

الدواب التي خلقها الله من أصل واحد وهو الماء، ولو ذهبنا إلى تفصيلاتٍ أخرى لعجزنا عن حصرها، كاختلاف آحاد تلك الأجناس وتفاوت ما بينها، كالإبل مثلاً، فليس كل فرد منها متطابقاً تماماً مع الآخر. والإنسان وهو أرقاها جنساً وأفضلُها نوعاً، لا يُوجد اثنان متطابقان، وفي هذا وذلك وفي جميع أنواع الدواب الذكور والإناث، والكل من ماء. إنها القدرة الإلهية، والإحاطة الشاملة، والإرادة النافذة.

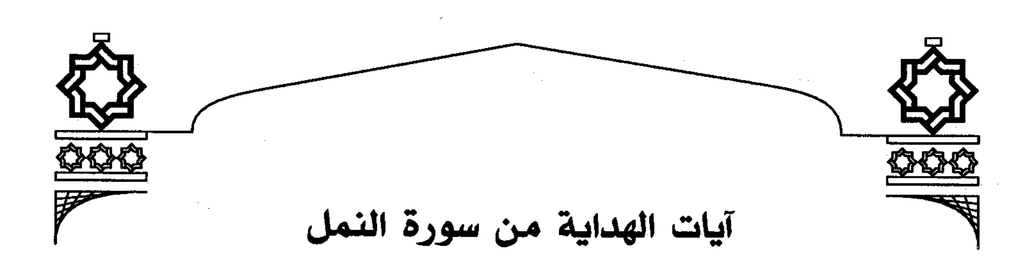
ولو ذهبنا مرة أخرى إلى خصائص كل نوع وما يميزه عن غيره، في منهج حياته، وطريقة معيشته، من أكلة اللحوم أو النباتات، وما جبلَ الله كلَّ نوع منها على غرائز وطباع، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. أي أعطى كل مخلوق خَلْقَه ومنهجَه الذي يصلح له، ثم هداه لما أعطاه، فكذلك هنا، ودلالة العظمة هنا أن يكون الأصل واحداً والفرع مختلفاً اختلافاً بيِّناً ومتباعداً، بعد ما بينَ من يمشي على بطنه، ومن يمشي على أربع، بل وعلى أربعين؛ كبعض الحشرات النادرة.

ولعل نظير ذلك ما جاء في النبات تتمة للمنهج، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الرعد: ٤]. فالأرض قطعٌ متجاوراتٌ، أي متجانسة، وفيها الزروع المختلفة، جنات من أعناب، والأعناب منه الأبيض والأسود، ومستطيلُ الحبِّ ومستديره، وكثير البذر وقليله، وشديد الحلاوة ومعتدلها، وزرع قمح وشعير، وبقول مختلفة، ونخيل منه ما تكون ثمرته حمراء، ومنه ما تكون صفراء، ومنه الكبيرة ومنه الصغيرة، مع اتفاق النخلة طولاً وقصراً، والجميع يُسقى بماء واحد. ومع وحدة الأصل في الأرض ﴿قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ وفي الماء ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ سواءٌ من الأمطار أو الآبار، أو غير ذلك، ومع هذا فإن الطعم متفاوت، وقد أسندَ التفاوت الموجود، والمفاضلة بين الجميع في الأكل طعماً وريحاً ولوناً وحجماً إلى غير ذلك، أسندَه كلَّه إلى الله تعالى، وثبوت العظمة ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ لأنه لا تُوجد أسباب المفاضلة، لا في المنبت، فقطع الأرض متجاورة، وقد تتشابك العروق في

باطن الأرض، ولا في الماء، فهو ماء من مصدر واحد، لا فضل في أجزائه، إذاً فمن أين جاءت المفاضلة في الأُكل؟ إنها من الله. وبهذا يتم المنهج الإلهيُّ ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾. فكلٌّ دابة من ماء، ومع ذلك منها من يمشي على بطنه، ومنها من يمشي على رجلين، ومنها من يمشي على أربع، إلى آخر السياق، وكل شجرة وزرعة، تتحد التربة، ويتحد ماء سقيها، وتتفاضلُ في الأُكل، آيات واضحات، تستنطق العقلَ الإنساني بأنَّ الله ربُّ كل شيء ومليكه، وبيده ملكوت كل شيء.

وفي نهاية هذا العرض نأتي إلى آية الهداية: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ فيها البيان الكافي على قدرة الله وربوبيته للعالمين، واستحقاقه العبادة وحده، والله سبحانه ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي فالذي يُغايرُ في أنواع الدواب، والذي يُقلِّبُ الليل والنهار، والذي يفاضلُ بين الفروع الناشئة عن أصل واحد، هو أيضاً الذي يمنحُ الهداية لمن يشاء إلى الصراط المستقيم. اللهم اهدنا ووفقنا، وسدِّد خطانَا وخذْ بنواصينا إلى ما تحبُّه وترضاه.

* * *



آيات الهداية من سورة النمل

١ ـ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾ [النمل: ١ ـ ٦].

إنَّ نصَّ الهدايةِ هنا هو قولُه سبحانه في وصف القرآن: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ وكل من الهدى والبشرى متلازمان، لأن من هداه اللهُ استحقَّ البشرى بنتائج الهداية، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠]. وقوله تعالى من سورة يُونس: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِۚ . . .﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٤].

ومعلومٌ أن القرآن يجمع بين البشرى للمؤمنين والتحذير للمشركين، كما في سورة الأحقاف قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأحقاف: ١٢ ـ ١٣].

وقد فُصِّلَتْ هنا تلك البشارة، وهذه النذارة، بعد نص الهداية والبشرى مباشرة، في قوله تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ فهذا جانب المؤمنين، وأعقبه ببيان الجانب الثاني: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾. تلك هي موضوعية نص الهداية، وما يترتب عليه لكلا الفريقين في الجملة.

ولكن السياق في مجموعه يتطلب منّا دقة تأملية في بدايته ﴿طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ

﴿ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ وفي نهايته ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾. لأن التأمل في هذين الطرفين، له دلالة عميقة بموضوع الهداية في كتاب الله تعالى، إطار هذا الكتاب.

والحديث عن ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ هو الحديث عن افتتاحية السور، وعن الحروف المقطعة. أما الحديث عن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾ فإن مثاره: مجيئه بهذا الأسلوب وفي هذا الموطن، فالأسلوب تأكيدي أكثر، بأن ومعها الواو، ثم باللَّام جواب القسم في (تُلقَّى). وهذه التأكيدات تُشعر بأنها رد على منكري ذلك، كما هو معلوم في البلاغة، وهذا يجعلنا نتطلب مواطنَ هذا الإنكار، وليس هو موجوداً في مستهل السورة، وبالرجوع إلى أواخر السورة التي قبلَها نجد ذلك الإنكار الشديد في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الشعراء: ٢١٠ ـ ٢٢٧]. وبعد نفي ورد مزاعم المشركين في القرآن أن تكون نزلت به الشياطين، أو أن يكون شعراً، كما في قوله تعالى: من سورة يس ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: ٦٩ ـ ٧٠]. فبعدَ إبطال مزاعمهم في آخر السورة قبلَها جاء بيان مصدر تلقي الوحي حقيقة في أول السورة التي بعدها ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾ [النمل: ٦]. كما في قوله تعالى: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾﴾ [يس: ١ ـ ٥]. وكما في قوله تعالى أول سورة السجدة: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾ [السجدة: ١ ـ ٣].

وهذ الرابط بين أواخر السور وأوائل ما بعدها، يجعلُ القرآن الكريم آخذاً بعضُه بأطراف بعض، وهو ضرب من ضروب الإعجاز في كتاب الله، وقد

أفرده البعض بتآليف مستقلة، وهو جدير بذلك، وبإيراد أول ربط في كتاب الله بين أول سورة وما تليها مثالاً لذلك، ليتضح هذا المنهج البديع المعجز حقاً، وذلك بين سورة الفاتحة وسورة البقرة، فإنَّك في الأولى تقول ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾ وهذا سؤال الهداية وطلبها من الله، والهداية إلى الصراط الذي سلكه الذين أنعم الله عليهم، فحالاً يعطيك المولى سبحانه ما طلبت، وذلك في أول السورة بعدها مباشرةً: ﴿الم ۝١ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝٣ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: ١ ـ ٥]. ولكأنه في هذا النسق يقول لنا ربنا سبحانه: طلبتم الهداية إلى الصراط المستقيم، فدونكم كتاب الله، فيه ما طلبتم، بل هو بعينه طلبتكم، وهو هدايتكم. وهذا منهجٌ واسع، من تَتَبَّعَ سورَ القرآن وجدَ الشيء الكثير، ويتضح جلياً في بعض المواطن، وقد يدقُّ أحياناً في البعض الآخر، وكما أشرنا: أُلِّفَتْ فيه المؤلفات، وعني به كثيراً أبو حيان في تفسيره البحر المحيط.

وقد يُساعد هذا الربط بين السور على حل وبيان بعض ما يُشكل، ويُعين على فهم النص، يتضح هذا بمثال آخر، وهو ما بين سورتي الفتح والحجرات، افتتاحية الحجرات، بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ [الحجرات: ١]. وهو أسلوب يُشعر بعتب عليهم فيما قدَّموه، أو تقدموا به بين أيدي الله ورسوله، فأي شيء قدَّموه أن تقدموا به؟ فذهبَ البعضُ إلى أنه تقدمهم بالأضاحي قبلَه، وذهبَ آخرون إلى أنه نهيٌ عام في أي تقدم يكون منهم. ولكن بالرجوع إلى آخر ما قبلَها، وهي سورة الفتح، والمعلوم أنها نزلت في صلح الحديبية، نجد السورة قد فصلت الموقف في الحديبية من مفاوضات، وما وقع من بيعة الرضوان، وما انتهت إليه من صلح مبارك، فتحَ الله به على المسلمين، وفي النهاية بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الفتح: ٢٧]. وهل كانوا يشكُّون في صدق الله ورسوله الرؤيا؟ لا وكلا، ولكنهم لما أمروا بالتحلل من إحرامهم بحلق رؤوسهم ونحر هديهم، عظم

عليهم ذلك، وهو ﷺ قد وعدَهم بالعمرة، وتقدم البعض منهم ببعض الحلول لهذا الموقف العظيم، كما جاء من عمر ﷺ، فكانوا يُريدون شيئاً، والله يُريد شيئاً آخر، والرسول ﷺ يقول لهم: «أنا عبدُ الله ورسوله». وبعد أن تمَّ الأمر وعادوا إلى موطنهم، أتاهم هذا العتب وبلطف ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي أن بمقتضى إيمانكم ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ وهكذا في كثير من السور مما يبرز جانب الإعجاز في نسق السور في المصحف، كما يُوجد جانب الإعجاز في نسق الآيات في السورة الواحدة ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝﴾ [هود: ١ ـ ٢].

٢ ـ افتتاحية السور ومنهج الهداية:

إذا كانت افتتاحية الكتاب تنم عن موضوعه، ويسمى في البلاغة «براعة الاستهلال» فإن فاتحة كتاب الله كله قد اشتملت فعلاً على موضوعه، من بيان حق الله، من حمد وثناء، وربوبية للعالمين، وصفات الجلال والكمال ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وإثبات البعث والمعاد ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ وحقه سبحانه على العباد ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ والمنهج القيم في الهداية إلى الصراط المستقيم، والتنويه بتاريخ الماضين من مغضوب عليه وضالين، ومنعم عليه من النبيين والصديقين. وهذه كلها جوانب موضوع القرآن الكريم كله، إما حق لله على العباد، أو حق لذات المولى سبحانه، أو تاريخ الماضين، أو إخبار عن المستقبل، ولهذا سميت فاتحة الكتاب، وأمَّ الكتاب، فإذا كانت فاتحة الكتاب اشتملت على مضمونه، وكل ما جاء بعدها فهو شرح وإيضاح لذلك المضمون، وكل سورة جزء من هذا القرآن متميزة عن غيرها، سواء في أسلوبها أو في موضوعها، فهل توجد في افتتاحية السور ما وجد في افتتاحية الكتاب أم لا؟

نعتقد جميعاً أن العليم الحكيم، اللطيف الخبير، لا يخص افتتاحية بذاتها لسورة بعينها إلا لحكمة، وإن لطفت ودقت، إلا أننا قد تشفُّ حواسُّنا، وتسمو أرواحنا، فندرك ذلك، أو أنها تعلو على مستوياتنا، إلا رجل أعطاه الله فهماً في كتابه، كما قال عليٌّ ﷺ.

وبتأمل فواتح السور كلها، وعددها أربعة عشر ومئة، نجد أن بعضها واضح الدلالة على موضوع السورة، وبعضها ـ كما أسلفنا ـ ليس مبسوطاً لكل طالب، وتنقسم فواتح السور على منهج علماء التفسير وعلوم القرآن إلى عشرة أقسام، هي على سبيل الإجمال: (١) الثناء بالحمد والتسبيح. (٢) الحروف المقطعة. (٣) النداء للنبي، للمؤمنين، للناس. (٤) القَسَم: بالنجم، بالشمس، بالسماء، بالبلد الأمين. (٥) بالشرط: إذا وقعت الواقعة، إذا جاء نصر الله والفتح. (٦) بالأمر: اقرأ باسم ربك. (٧) الاستفهام: ألم نشرح لك صدرك؟ (٨) التوعد: ويل للمطففين. (٩) التعليل: لإيلاف قريش. (١٠) الجمل الخبرية: قد أفلح المؤمنون.

ولا نشك أن وراء هذا التنويع سراً عظيماً، وسنلم بما يمكن إيراده في هذا الكتاب المبارك إن شاء الله، ولعل الله تعالى يوفقنا لعمل رسالة شاملة في هذا الباب بحول الله تعالى وقوته.

نبدأ هنا بالقسم الأول، وهو افتتاحيات الحمد والثناء على الله تعالى، افتتحت به عشرُ سورٍ: أربع بالحمد، واثنتان بتبارك، وسبع بالتسبيح. والحمد لإثبات الكمال، والتسبيح لنفي ما لا يليق بجلاله سبحانه، أو الثناء لإثبات المحامد، والتسبيح في مقابله لنفي النقائض.

أما افتتاحيات الحمد ففي السور الآتية:

١ ـ الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾.

٢ ـ الأنعام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾.

٣ ـ الكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا﴾.

٤ ـ سبأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾.

٥ ـ فاطر: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾.

وافتتاحية تبارك في موضعين: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾.

وافتتاحيات التسبيح في سبع سور:

١ ـ بدأ بالمصدر في سورة الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾.

٢ ـ ثم بعدها سورة الحديد، وبدأت بصيغة الماضي: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ . . .﴾ إلى نهاية الآية السادسة، في بيان صفات العظمة والجلال.

٣ ـ وبعدها الحشر: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ . . .﴾ الآية.

٤ ـ ثم سورة الصف: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾.

٥ ـ وبعد الصف سورة الجمعة: وافتتحت بصيغة المضارع ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾.

٦ ـ وكذلك سورة التغابن: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ . . .﴾ الآية.

٧ ـ والأخيرة سورة الأعلى، وافتتحت بصيغة الأمر: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾.

تلك افتتاحيات السور الأربع عشرة، بالثناء على الله بالحمد لله، وتبارك، وأنواع التسبيح: المصدر والماضي والمضارع والأمر.

وبتأمل افتتاحية كل سورة وما أعقبها من الآيات مباشرة، نجد ارتباطاً وثيقاً بين الافتتاحية وبين ما أعقبها، قد يكون في آية، وقد يكون في أكثر إلى ست آيات، وقد تكون السورة كلها، وهذا من أعظم أسرار كتاب الله تعالى، ولنأخذ فاتحة الكتاب: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ فالارتباط واضح،

حمد مع موجبه، وهو كنه رب العالمين الموحد والمدبر لهذه العوالم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ رحمن الدنيا، ورحيم الآخرة، وهو يوم الدين، مع التنبيه على أن ربوبيته سبحانه ربوبية رحمة، فالحمد لله حقاً على رحمته للعالمين في الدنيا وعلى سعة رحمته للمؤمنين في الآخرة، وفي سورة الأنعام: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ وخلق السماوات والأرض يعني بمن فيهما، فتساوي رب العالمين في الفاتحة، ثم جعل الظلمات والنور تنبيهاً على تعاقب الليل والنهار، فالليل لباس والنهار معاش، وكذلك الضلال والهداية، وكلها من الآلاء والإنعام، تستوجبُ حمدَ الله تعالى والثناء عليه.

ثم سورة الكهف ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١ قَيِّمٗا﴾ ونعمة إنزال الكتاب قيّماً؛ سالماً من العوج، فيه هداية الإنسان ومنهج سعادته، لا خطأ معه ولا ضلال، ولا اختلاف في تعاليمه ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢]. وهذه النعمة أجلُّ من نعمة الإيجاد من العدم، لأنه لولاه لكان العدم أولى.

وبعدها، سبأ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝١﴾. فالذي له ما في السماوات وما في الأرض هو الذي خلق السَّموات والأرض، كما في سورة الأنعام، وفيها النص على أن الحمد في الآخرة بسعة رحمته وإكرام عباده الصالحين، وسيحمدونه هناك بقولهم: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ۝٧٤﴾ [الزمر: ٧٤].

ثم تأتي سورة فاطر ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وفاطرهما كخالقهما سواء، كما في سبأ والأنعام تماماً، وبعد حديث الملائكة وتعدد أجنحتها قال: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ﴾ تأكيداً أن الرحمة كلها واللطف والعافية والرزق والهداية منه سبحانه وحده، فله الحمد وحده.

٣ ـ آيات الهداية وافتتاحيات السور «تبارك الذي»:

تقدم بيان أقسام الافتتاحيات العشرة والحديث على افتتاحيات ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ في سور أربع: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وفاطر. يليها ويتبعها من

افتتاحيات الثناء، الافتتاحيات بتبارك، والافتتاح بالتسبيح:

أما الافتتاح بتبارك ففي سورتين: الفرقان، والملك. وفي سورة الفرقان ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ وتباركَ: فعل لا يتصرف، ولم يُستعمل لغير الله سبحانه، وتبارك: كثرت بركاته واتَّسعتْ عطاءاته، قال الطرماح:

تباركتَ لا معطٍ لشيءٍ منعته   وليسَ لما أعطيتَ يا ربٍّ مانعُ

وهي من عبارات الثناء على الله كالحمد، وقد جاءت افتتاحية الكهف بالحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيّماً، فموجب الحمد فيها إنزال الكتاب على عبده، وسلامة الكتاب المنزل من العوج، وجعله قيّماً، وهنا في سورة الفرقان: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ والفرقان هو المعني من القرآن، يفرق الله به بين الحق والباطل، وبين الضلال والهدى، وبين الحلال والحرام، إلى غير ذلك. وهناك في الكهف ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهنا في الفرقان قال: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾. فقد يقول قائل: إن الموجب واحد، إنزال الكتاب وتنزيل الفرقان، والمضمون واحد نذيراً وبشيراً، ولكن جاءت افتتاحية الكهف بالحمد، وافتتاحية الفرقان بتبارك، وقد يقال: إن في الكهف قال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ففيها أنزل، وفيها الكتاب، بينما في الفرقان قال: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ ونزّل تُشعر بتكرار التنزيل أكثر من أنزل، لأن أنزل قد تصدق بالمرة الواحدة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾. وقوله: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ فيكون: نزّل بدلالتها على الكثرة، وتقدير الإنزال مغايرة لأنزل.

ثم تسمية القرآن في الكهف بالكتاب، مطلقةً عن أي وصف، أما في سورة الفرقان، فقال: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ ولم يقل الفارق، بل هو فرقان، وأطلق عن موضوع هذا الذي هو فرقان فيه، ليعمَّ: بين الحق والباطل، وبينَ الحلال والحرام، وبين الشرك والتوحيد، وبين الضلال والهدى، وبين الظلمات والنور، وبينَ ما لله على خلقه، وما للخلق عند الله، ولهذه المجالات المتعددة مع تعدد الإنزال، ناسبَ تبارك، أضف إلى ذلك ما عطفَ عليه في

آخر الآية الثانية من قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ فالتكثير في ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ لا يحده حد، وكونه مقدراً تقديراً، تلك بركات مستقلة، فقدَّره من حيث الخلق، أي خلقاً مستوياً مقدراً، لا نقص في تركيبه ولا في خصائصه، ولا في شكله، ولا في فوائده، متناسقاً في صورته، منسجماً مع ما خلقه إليه؛ كما تقدم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. وقدَّره أيضاً كَمّاً بما يفي حاجة العالم إليه، فقدَّر من الأرزاق ما يكفي الكائنات الحية، وأنزل من السماء ماءً بقدر، لا غرق وإهلاك وتدمير، ولا قِلَّة وظمأ وتقتير. وقدَّر من الآجال والأعمال، وقدَّر في الأفلاك مسيرَها ومنهجَ مصلحتها، لا هذا يتقدم ولا ذاك يتأخر، ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ [يس: ٤٠]. قدَّرَ الحرَّ والبردَ، والصيفَ والشتاء، بما يُصلح العوالمَ الأرضية من نبات وحيوان، قدَّر الحمل والوضع، وقدَّر الذكر والأنثى، وقدَّرَ الثمار والحَصاد، قدر كل شيء في هذا الوجود، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ۝٤٩﴾ فناسبَ الافتتاح هنا بتبارك، وناسب الافتتاح هناك بالحمد، ولو تتبعنا السورة الكريمة، لوجدنا فيها تعدد النعم العظيمة، وتكرار لفظة: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي﴾ مع تعدد نعم متجددة، حكما في الآية العاشرة رداً على مقترحات المشركين: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ...﴾ الآية ﴿أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ...﴾ الآية فقال تعالى رداً عليهم، مستهلاً بالتبريك: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ۝١٠﴾ [الفرقان: ١٠]. وفي الآية الحادية والستين من السورة تعداد النعم العظيمة مفتتحة بالتبريك: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ۝٦١﴾. وفي نهاية السورة عطاءات عاجلة في نهاية وصف عباد الرحمن، قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝٧٤ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ۝٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ۝٧٦﴾.

فما أكثرها من النعم، وأجله من إنعام، من بركاتِ ربِّ العالمين، مما يُوضح قوة الارتباط بتبارك الذي نَزَّلَ.

والموضع الثاني سورة الملك: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ والمتأمل هذه السورة يجد تعدد البركات فيها، وعظيم الآيات الدالة على قدرته سبحانه، وقد سميت: «المنجية» تنجي صاحبها من عذاب القبر، وكل ما فيها يُنبئ عن افتتاحيتها ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ فالذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، يعطي العبادَ من ملكه وبقدرته كل ما فيه صلاحهم وسعادتهم، ومن أوائل إنعامه على عباده ما جاء في خلق سبع سموات طباقاً، ما فيهن من تفاوت، ولا تفطر ولا تشقق، مهما أمعنتَ النظر وأرجعتَ الطرف.

وكذلك ما جعلَ فيها من النجوم زينة للناظرين، يستأنسون بها ليلاً وعلامات وبها هم يهتدون. وجعلها شهباً رجوماً للشياطين، حفظاً للإنسان في نفسه وفي دينه، فلا تسترق السمع وتزوِّر معه الأكاذيب.

ومن ذلك ما ذلل من الأرض؛ ليمشي العباد في مناكبها، ويأكلوا من رزقه، مما أنبت لهم من نبات، وأوجد لهم من ثمار، وأوجد لهم من الأنعام، وكل ما فيه تيسير لمعاشهم، ومنحهم النصر من عنده على من يُعاديهم، وهداهم إلى الصراط السويِّ، وجنبهم المشي منكبِّين على وجُوههم حيرةً وضلالاً، وذكَّرهم سبحانه بأعظم النعم عليهم ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ إنها نعم لا يُعطيها إلا الله، ولا يحفظها لهم إلا الله؛ لأن السمع طريق الاتعاظ بآيات الله، والبصر طريق الاعتبار بقدرة الله، والأفئدة محط الإدراك والفهم والعلم عن الله، ومن ثم السلوك السويّ وتصريف هذه النعم في طاعة الله، فتباركَ من هذا عطاؤه، والذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

ثم يذكرهم بالمبدأ وبالمعاد ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لما تقدم، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وإليه تحشرون، ليجزي كل بما عمل.

وختاماً إعلان الإيمان بالرحمن، الرحمن الذي هذا عطاؤه رحمةً بنا ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ واتَّبعنَا ما جاءنا به نبينا محمد ﷺ ﴿وَعَلَيْهِ﴾ سبحانه ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ لا على غيره، ولأنه بيده الملك والقادر على كل شيء، فهو القوي الغني، نعم المولى ونعم النصير.

ويُذكِّر الله تعالى عبادَه بحاجتهم وافتقارهم إليه، وبقدرته وتصريفه الملك كما يشاء، فيخاطبهم في صميم حياتهم، وفي أمر ملموس لا ينكرونه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي غائراً من بطن الأرض ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ والجواب: لا أحد إلا الله.

فكم تعددت النعم في هذه السورة وتوالتِ البركات، وظهرت المناسبة بين موضوعها وافتتاحيتها ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ①﴾.

٤ ـ آيات الهداية وافتتاحيات السور بالتسبيح «المصدر والماضي والمضارع»:

التسبيح قسم من الثناء، والتنزيه اختص به المولى سبحانه، وافتتحت به سبع سور هي الإسراء، والحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن، والأعلى.

وقد استغرقت تلك الافتتاحيات تصريفَ هذه المادة: المصدر، كما في الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾. والماضي كما في الحديد: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ①﴾ وكذلك الحشر: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ①﴾ والصف: قبلهما بالنص سواء. ثم المضارع كالجمعة، والتغابن: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾. والأمر كالأعلى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ①﴾.

وجاء ترتيبها في المصحف كذلك، حسب هذا التصريف، فابتدأت بالمصدر، وهو أصل الاشتقاق الصرفي، ثم بالماضي، وهو أسبق في الوجود، ثم بالمضارع الذي للحال والاستقبال، ثم بالأمر الذي هو طلب وجود الفعل غير الموجود، ولا شك أن هذا وجه من وجوه الإعجاز القرآني، حيث استكملت تصاريف المادة، واستغرقت معاني التسبيح.

وحقيقة التسبيح في التنزيه والتقديس، وأصل المادة: سبح السين والباء والحاء، وتشترك مع السباحة في أصل المادة، والألف والنون في سبحان زائدتان، كما زيدتا في الغفران، ومادة سبح للنجاة من هلكة الغرق، فكذلك

المُسَبِّح لله ينجو من هلكة الشرك، ومن دنس التعطيل والنقص مما وصفَ اللهُ به نفسَه، وبالحمد المتقدم في الفاتحة والأنعام والكهف، وفاطر، يكون أثبتَ لله جميعَ المحامد، وأثنى عليه سبحانه مستغرقاً أنواع الثناء، ثم بالتسبيح ينفي عن الله تعالى كل نقص، منزهاً مولاه عن كل ما لا يليق بجلاله، فيستكمل معاني الجلال والكمال لرب العزة سبحانه، هذا على سبيل الإجماع في هداية الافتتاحية بالتسبيح.

وبشيء من التفصيل نجد الآتي: أولاً مجيء المصدر سبحان في افتتاحية الإسراء. ومسنداً إلى الله سبحانه، فهو الذي سبَّحَ نفسه، وهذا أعلى مراتب التسبيح وأقصاها، وقد كانت بداية ومقدمة لأعظم حدث جاء في الدنيا فريداً من نوعه، لم يسبق له مثيل، ولم يحصل بعده نظير، وهو الإسراء والمعراج، ومن أساليب العرب أن نسبح عند استعظامنا لما نشاهد، إعظاماً وإكباراً وتعجباً، وأنشدوا قولَ الشاعر:

لله درُّ الغانياتِ المدّه سبَّحنَ واسترجعنَ من تألُّهي

أي كان صديقاً للغانيات، مجالساً لهنَّ، سميراً معهنَّ، وفجأة تألَّه وتركهن، فسبَّحنَ واسترجعنَ إعظاماً وتعجباً، فقلن: سبحان الله! إنا لله وإنا إليه راجعون.

وموضوع الإسراء فوق طاقة البشر، وأبعد من تصور العقول، حيث أسري برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عُرج به إلى السموات السبع، وإلى سدرة المنتهى، وإلى أن يخاطبه الله تعالى كفاحاً بدون واسطة الملَك، ويُعطيه سورة الفاتحة، وخواتيمَ سورة البقرة، ويفرض له الصلوات الخمس، ويُشاهد من ملكوت السموات والأرض ما شاء الله، ويغشى السدرة ما يغشى، ويثبته الله عند رؤيتها، ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ إن عرض مثل هذا كله على مستوى العقول البشرية ليهزها هزاً، فتضطرب له، وتذهل منه، فإذا ما كانت المقدمة له بالسبحان، ويُسبِّح المولى ﷻ نفسه، كان فيه مساعدة لتلك العقول على تلقيه، والقدرة على تصوره بعون وتثبيت من الله ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾.

ومن أسرار هذه السورة أن تستمر في إيراد آيات الإعجاز، فتذكر خبر بني

إسرائيل وبختنصر، وتنزيه نفسه سبحانه أن تكون معه آلهة أخرى، وبيان تسبيح السَّموات السبع والأرض ومن فيهن ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ سبحانه، ولكننا لا نفقه تسبيحهم، وهو سبحانه لا يخفى عليه شيء من أمره، ثم يأتي خبر الروح؛ أنها من أمره سبحانه: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ثم تعجيز العالم كله أن يأتوا بمثل هذا القرآن، ويُسبِّحه الرسولُ ﷺ في هذه السورة: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾، ويسبحه الذين أوتوا العلم من قبل، ويخرون للأذقان سجداً، ويقولون: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾.

ويأتي ختام هذه السورة الكريمة بالحمد والتنزيه، وبالأسماء الحسنى لله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ والخاتمة فيها ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ فافتتحت بالتسبيح، واختتمت بالتحميد، فسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، إنه القرآن المعجز.

أما سورة الحديد والحشر، فنجد في الحديد موجب التسبيح والتقديس من جانبين:

أولاً: جانب ارتباطها بما قبلها وهي سورة الواقعة، فإن ختامها قوله تعالى؛ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ فجاءت افتتاحية الحديد مباشرة: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ قال أبو حيان: فكان التسبيح المطلوب في آخر ما قبلها، قد وقع بالفعل، وقام به كل عوالم السموات والأرض.

الثاني: أن ما بعد الافتتاحية كله موجب لهذا التسبيح والتقديس، من قوله سبحانه وهو العزيز الحكيم: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ملك تصريف وتصرف، يُحيي ويميت، وهذا هو الأمر الذي أذلَّ به الجبابرة وقهرَ به العباد: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٨٧]. ثم يأتي التنزيه المطلق: هو الأول: أي فليس قبلَه شيء، **والآخر**: أي فليس بعده شيء، والظاهر؛ أي فليس فوقه شيء، والباطن: أي فليس

دونه شيء، وهو بكل شيء عليم. أي لا يخفى عليه شيء في ملكوته ولو مثقال ذرة: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ وفي فاطر: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ الآية. وفي فصلت: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ﴾. وبعد إثبات العلم الشامل يأتي الملك الكامل: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ وبعدها: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾. كلها آيات باهرات تنتزع التسبيح لله من كل كائن في هذا الكون.

وكذلك سورة الحشر، بدأت بالتسبيح، وخُتمت به، بدأت بقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ وخُتمت بقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ ﴿٢٤﴾ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

٥ ـ تتمة الافتتاحيات بالتسبيح «بالأمر» ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾:

جاءت بداية الافتتاحيات بالتسبيح بالمصدر: «سبحان» وجاءت من الله تعالى ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾. يليها في الترتيب حسب نظم السور في المصحف صيغة الماضي في سورة الحديد والحشر والصف، ثم المضارع في الجمعة والتغابن، وكان آخر ذلك بصيغة الأمر في افتتاحية سورة الأعلى، ولكأن هذا النسق من هذا الترتيب يقول: الله سبحانه سبح نفسه، وجميع العوالم سبحته وتسبحه، حتى الجبال والدواب والملائكة والجن ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

ثم يأتي الأمر: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾. أي دم يا محمد، وكل من بلغه هذا الأمر، دوموا على تسبيح الله تعالى سراً وعلانية، وقد أخبرَ تعالى عن نبيِّه

داود ﷺ، وما سخَّرَ معه من الجبال، وحشرَ له من الطير، فقال: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص: ١٧ ـ ١٩]. والأمر بذكر داود هنا إنما هو للتأسي به ﷺ، لأن أول الآية: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [ص: ١٧]. فهو للتأسي والتعزي.

ولو تتبعنا موضوع هذه السورة، لوجدنا موجب هذا الأمر يقتضي الدوام عليه، ابتداء من وصفه سبحانه بقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾. الأعلى في ذاته، والأعلى في أسمائه وصفاته، والأعلى في جميع أفعاله، فكلها على الكمال والجلال، يليها: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾﴾ مقتضى الخلق وحده، يستوجب دوام تسبيح الخالق، وكونه سوَّى هذا الخلق على الشكل السويِّ المبدع ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ وخاصةً الإنسان خلقه في أحسن تقويم ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ قدَّر كلّ شيءٍ خلقه بحكمةٍ وعلم ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ ولولا هذا التقدير في الخلق لفسدَ العالم وهلكَ الإنسان، تقدير خلق السَّمٰوات والأرض، وتقدير سير الشمس والقمر، وتقدير مجيء الليل والنهار وتقدير إنزال المطر، فلو زادَ أغرق ودمَّرَ، ولو نقصَ أظمأ وأهلكَ.

تقديرُ أرزاق العباد وآجالهم، ثم هدى كلَّ شيءٍ إلى ما قُدِّر له في سيره وعمله، كما قال تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ يليها ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾﴾ وهذا الإخراج دائم ومستمر، ومرتبطة به حياة الإنسان ومعيشته ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢]. فهذا المتاع مستمر ومتجدد، ولا يقدر عليه إلا الله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة: ٦٣ ـ ٧٠]. فلو جعله أجاجاً فمن يستطيع أن يجعلَه عذباً فراتاً؟ بل إنْ منعه من السماء، وجعله غوراً في الأرض، فمن يقدر على إيجاده؟ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ

مَّعِينِۭ ﴿٣٠﴾﴾ [تبارك: ٣٠]. فحياة الإنسان مرتبطة بوجود الماء، والله سبحانه الذي ينزله من السماء، والله سبحانه الذي يحفظه أن يغور في الأرض، فهي بحق نعم تتجدد، تقتضي استمرار وتجديد التسبيح لله والشكر له، لأنه القادر وحده، والمنعم به وحده، وهذا جماع نعم الدنيا، وقِوام معيشة الإنسان ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾﴾.

ومن سر البلاغة في كتاب الله ومنهج الإعجاز أن يأتي بعدها مباشرة: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ لئن قيل: إن موجب الأمر بالتسبيح هو ما تقدم من تجديد نعم الله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾﴾. لما فيها من عوامل إبقاء الإنسان على قيد الحياة، فما مجيء قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾؟ إن المتأمل والمسترشد ليجد قوة الربط وشدة التعلق، لأن نعم الله تعالى على العباد دنيوية وأخروية، فإخراج المرعى وحياة الإنسان مختص بالدنيا، وقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ نعمة مستقلة تختص بالآخرة، وهي نعمة متجددة لرسول الله ﷺ، وللأمة تبعاً له. فلئن كان قد بدأه الوحي وهو تشريف وتكريم، فإن حفظ هذا الوحي على مدى أيام وليالي وأعوام الرسالة من أن ينسى، لهي نعمة متجددة، كما وعدَ الله سبحانه بحفظ هذا القرآن بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ فمن حفظه سبحانه أن لا يَنسى رسول الله ﷺ، اللهم إلا ما شاء الله أن ينسيه، إما بالنسخ أو تبديل آية مكان آية، أو ليشرع للأمة ويبين لهم كيف يكون العمل إذا نسيَ أحدُهم، لأن الأمة لم تكن أفرادها معصومة عن النسيان.

وقد جاء في الصحيح أنه ﷺ صلَّى الظهر، فسلَّم من ركعتين، فسكت القوم هيبةً أن يُراجعوا رسولَ الله ﷺ، وتلَطَّفَ ذو اليدين، فقال، وفي أسلوب المتعلم المستفسر: أنسيتَ أم قصرتِ الصلاة يا رسول الله؟ فقال: «كلُّ ذلك لم يكن» يعني لم أنسَ ولم تقصرْ. فقال: بل بعضُ ذلك قد كان. فقال ﷺ: «أصدقَ ذو اليدين»؟ قالوا: بلى يا رسول الله. فرجعَ ﷺ إلى القبلة فصلَّى الركعتين الباقيتين، ثم سجد سجدتي السهو، ثم قال: «إني لا أنسَى ولكني أُنسى لأَسنَّ».

وهنا يذكرُ علماء البيان والأصول لطيفةً لغوية، وهي تقدم النفي على

العموم، وتأخره عنه، يُسمونها سلب العموم أو عموم السلب، ففي الحديث لمَّا قال ذو اليدين: أنسيتَ أم قصرتِ الصَّلاة؟ كان سؤاله عن أحد أمرين، وجاء الجواب: «كل ذلك لم يكن» فهذا عموم السلب، أي أن كل ما سألت عنه من النسيان وقصر الصلاة لم يكن، وقد فهم ذلك ذو اليدين، فكان ردُّه: بل بعض ذلك قد كان. فلو كان جوابه ﷺ: لم يكن كل ذلك بتقديم النفي، لكان سلب العموم، أي أنه لم يكن بعضه. فحينئذٍ يكون رد ذي اليدين بطلب تعيين ما قد كان، ولكنه فهم من جوابه ﷺ عموم السلب، وأن شيئاً مما سأل عنه لم يكن، فأجاب بوقوع البعض.

وعلماء المنطق يقولون: إن الكلية السالبة نقيضها جزئية موجبة، ويطبقون عليها قولَه تعالى في سورة الأنعام الآية ٩١: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ﴾ وبيان ذلك كالآتي: فقولهم: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ﴾ كلية سالبة، تنفي أن يكون الله أنزل أي شيء على أي بشر، وكان نقيضها وإبطال ادعائهم جزئية سالبة ﴿قُلْ﴾ أي سلهم ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾؟ فسيقولون: الله. فالكتاب شيء أنزله الله، وموسى بعض أفراد البشر، جاء بهذا الكتاب، إذاً، فإن الله قد أنزل كتباً على بعض أفراد البشر.

ونعودُ إلى سياق السورة الكريمة، فيقول تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾. وهذه نعمة كذلك متجددة، لأن حياة الإنسان ميدان يتجاول فيه اليسر مع العسر: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ وهي نعمة للأمة كذلك، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾.

وختام السورة الكريمة يرسم سبيلَ الفلاح: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ ولا شك أن تزكية الإنسان محض نعمة من الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وإن هذه التزكية في قوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ وهذا عود على بدء افتتاحية السورة: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ وختمت بذكر اسم ربه، وأداء الصلاة لله سبحانه، فما أقواها مناسبة وأشدها ارتباطاً!

٦ ـ من افتتاحيات السور ومنهج الهداية «النداء»:

تقدم أن افتتاحيات سور القرآن محصورة في عشرة أقسام هي: الثناء، ويتضمن الحمد والتسبيح وتبارك، وتقدم الكلام على ذلك.

ومنها الافتتاح بالنداء: ومنه لعموم الناس؛ كسورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ وسورة الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾.

ومنه لخصوص المؤمنين: مثل سورة المائدة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ۚ﴾. وسورة الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ﴾.

وبتأمل هذين القسمين نجد نداء الناس أعم من نداء المؤمنين، فكذلك المنادى من أجله مع العام أعم ومع الخاص أخص، ففي سورة النساء: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ﴾ فقد اشتمل كل فرد رجلاً كان أو امرأة، وكذلك سورة الحج: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ وهذا قطعاً في حق الجميع ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ . . .﴾ [الحج: ٢]. بينما النداء لخصوص المؤمنين جاء لما هو من لوازم الإيمان، ومستلزمات الطاعة، والامتثال أو الوفاء بالعهد، وعدم التقدم بين يدي الله ورسوله، من اختصاص المؤمنين الذين التزموا بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إذا سمعتَ الله تعالى يقول: يا أيها الذين آمنوا **فارعها**؛ إما خير تُؤمر به وإما شر تُنهى عنه. وتلك المناسبة بين نداء عموم الناس، وخصوص نداء المؤمنين، من أوجه الإعجاز في كتاب الله تعالى.

ومن النداء في فواتح السور ما هو أخص من المؤمنين، وهو الخاص بالنبي ﷺ، مثل سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ﴾. وفي

الطلاق: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ وفي التحريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١﴾ والمزمل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾. والمدثر: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝٢﴾ وبتأمل هذا النداء إلى رسول الله ﷺ، نجد منه ما يخصه، كالمزمل والمدثر، ونجد ما يشمل الأمة معه، كالنداء في الطلاق حيث قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ بصيغة الجمع في ﴿طَلَّقْتُمُ﴾، ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ أيضاً بصيغة الجمع ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ وهكذا سياق التشريع، يخاطب الجماعة، وهي جماعة المؤمنين، والمعنيُّ بهذا كله هم المؤمنون، ولكن افتتح المنهج التشريعي بالنداء إلى النبي ﷺ إعظاماً للموضوع، واهتماماً للتشريع.

وكذلك في التحريم، كان السبب خاصاً به ﷺ، وله فيه نوع اشتراك، قيل: حرَّمَ على نفسه العسل، وقيل: الجارية. فجاء الوحي ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ وهو تصوير لواقعة بعينها، ثم جاء الحل والتشريع عاماً له ﷺ في تلك الحادثة، ولعموم الأمة في قوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ﴾. ولم يقل: قد فرض الله لكَ. ولكم، لعموم الأمة ﴿تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ ولم يقل: يمينك. ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ فالنداء لخصوص النبي، والموضوع له هو ﷺ، ولكن الحكم لعموم الأمة. والأصوليون يقولون: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

هذا الموضوع - كون الخطاب إلى النبي ﷺ - في عموم القرآن ينقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم يختص به ولا يشمل أحداً معه، وهو في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ وعدد أصنافهن إلى قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. فهذا الصنف من النساء بهذه الصفة لا تصح لغيره ﷺ، بل خالصة له من دون المؤمنين، وأكَّد ذلك قوله بعدها في نفس الآية: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ وعقب على ذلك كله بما يخصه ﷺ بقوله: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ وهذا بإجماع المسلمين.

والقسم الثاني يأتي فيه الخطاب للنبي ﷺ، ويكون شاملاً بالتبع للأمة، ومن هذا القسم ما تقدم في سورتي الطلاق والتحريم، توجَّهَ النداء إليه ﷺ،

وكان ما بعد النداء بضمير الجمع إذا طلقتم النساء فطلقوهن ﴿وَأَحْصُواْ﴾. ﴿وَٱتَّقُواْ﴾. وكذلك ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾.

والقسم الثالث: يكون الخطاب فيه للنبي ﷺ، وليس هو داخلاً قطعاً ولا يشمله مضمونه، وهذا بإجماع المسلمين، ويصدقه الواقع الذي يسلم به الجميع، وذلك في قوله تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ فالخطاب هنا بدايته إفراد الضمير للنبي ﷺ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ بكاف الخطاب للمفرد، ثم جاء المقضي به مسنداً لضمير الجمع: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ ثم رجع الخطاب إلى النبي ﷺ بكاف الخطاب للمفرد ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ﴾ وبعدها ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾. ﴿وَقُل لَّهُمَا﴾. كلها بخطاب خاص له ﷺ، ثم: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا﴾. ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ وبعدها: ﴿كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾. ومعلوم قطعاً عند كل عاقل أن النبيَّ ﷺ عند نزول هذا الخطاب لم يكن أحد أبويْه موجوداً، فأبوه تُوفي وهو ﷺ لم يزل حملاً في بطن أمه، وأمه تُوفيت قبل سن بلوغه، وكان بدأ الوحي إليه بعد عام الأربعين، فقوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾. ليس أحد منهما موجوداً ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾. يقول لمن أو ينهر من؟ ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ يخفضه لمن؟ فقوله سبحانه هذا كله لرسول الله ﷺ وهو سبحانه يعلم أنه لا وجود لهما ولا لأحدهما عنده ﷺ، فإنما أراد الأمة في شخصية رسول الله ﷺ، اهتماماً بأمر الوالدين، وتأكيداً لحقوقهما، وهو المعلوم من الدين بالضرورة، حتى ولو كانا مشركين، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾. فأي إنسان أحق أن يتحمل عبء تلك الحقوق العظيمة إلا النبي ﷺ. ومن ناحية أخرى إذا كان ذلك في حق النبي ﷺ وهو أكرم الخلق على الله، وهو على خُلقٍ عظيم، فكيف بعامة الناس وعموم الأمة؟! إنها هداية القرآن في منهج النداء.

٧ ـ الافتتاح بالاستفهام:

جاء ذلك في ست سور: الإنسان، والنبأ، والغاشية، والانشراح، والفيل، والماعون. وإذا تأملناها كلها نجدها متحدة في منهجها، متناسقة في سياقها، إذ أن كل سورة بعد إيراد السؤال تكون في جملتها بياناً وتوضيحاً للمسؤول عنه، ولكأنها تمحضت للإجابة عن هذا السؤال، وهذا من الارتباط والصلة ما يُقرر إعجاز القرآن وهدايته، وبيان ذلك على سبيل الإجمال كالآتي:

أولاً: في سورة الإنسان: بدأت بالاستفهام بأم الأدوات وهي: «هل» فقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ والسؤال هنا تقريري، فالسامع يقرر: نعم أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، ثم كان بعد أن لم يكن، وهنا ينطوي شيء عظيم يشمل أسئلة عديدة من هذا الحين من الدهر، وعن إيجاده بعد العدم، ومَنْ أوجدَه؟

ثم تمضي السورة في البيان والإجابة عن هذا كله ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ وهذا الإيجاد الأول وموجده أوجده الله سبحانه، وكان إيجاده من تلك النطفة المعلومة، وأنها أمشاج، باختلاطها بماء المرأة، ثم كان ذلك الخلق السوي سميعاً بصيراً، عاقلاً مدركاً، وبعد بلوغه رشده واستوائه أرسلَ له رسله يهدونه السبيلَ، ويبينون له سبلَ سعادته، ويوضحون له النجدين، فإما أن يشكر نعمَ اللهِ، ويصرف سمعَه وبصرَه إلى ما يرضي الله، وإما كفوراً يجحد نعمة الله تعالى عليه.

ثم مضت السورة الكريمة في بيان مآله في الآخرة، وما أعدَّ اللهُ للكافرين من سلاسلَ وأغلال وسعير، وما أعد للأبرار من ﴿كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾. وما كانوا عليه في الدنيا من أعمال: يوفون بالنذر، ويطعمون الطعام، ويخافون يوماً عبوساً، وما أعدَّ لهم جزاءً لذلك من نعيم مقيم مخلَّدين فيه.

ثانياً: سورة النبأ: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾﴾ عن أي شيء يتساءلون؟ والسؤال بأداة الاستفهام (ما) دخلت عليها أداة الجر (عن) فصار عن ما يتساءلون؟ فأدغمت ما في عن، وحذفت ألف (ما)، و(ما) يسأل بها عن الماهية، لبيان حقيقتها.

إذا كانت مجهولة، لخفائها على السائل، والمسئول عنه هنا، وهو النبأ العظيم. لما كان عظيماً فوق إدراكهم، جعل كأنه مجهول لم يستطع السائل إدراكه، وقد بين تعالى أن النبأ العظيم الذي يتساءلون عنه أنهم فيه مختلفون، وقد قيل: هو الرسول ﷺ إذ قالوا: ساحر. وقالوا: شاعر. وقيل: القرآن، فقالوا: ﴿سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ وقالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾. والصحيح أن النبأ العظيم هو نبأ البعث، وقد جاءت السورة كلها بإثبات أدلة البعث، الواردة كلها في كتاب الله، وهي أربعة، وعلى سبيل الإجمال هي: إحياء الموتى في الدنيا؛ كقتيل بني إسرائيل ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي كهذا الإحياء لهذا القتيل، يحيي الله الموتى يوم القيامة، وكطيور إبراهيم، وأصحاب الكهف، والعزير وحماره.

والثاني: إحياء الأرض بعد موتها: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ﴾ إن الذي أحياها لمحيي الموتى، إنه على كل شيء قدير، وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾.

ثالثاً: خلق الإنسان: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

رابعها: خلق السّموات والأرض، وخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، ومعلوم أن القادر على الأكبر يكون أقدر على الأصغر.

وسورة النبأ كلها في إثبات تلك الأدلة الأربعة على سبيل الإجمال. أما إحياء الموتى في الدنيا ففي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾﴾. لأن النوم ميتة صغرى وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ...﴾ الآية.

وإحياء الأرض بعد موتها في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾.

وخلقُ الإنسان جاء في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾﴾.

وخلقُ السَّماواتِ والأرض في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾. وقوله: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾ وقد جاء بعد هذا كله: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾﴾ أي لهذا اليوم العظيم، ويتحقق النبأ الذي هم فيه مختلفون وعنه يتساءلون.

وخُتمت السورة بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ...﴾. أي الذي يتساءلون عنه.

السورة الثالثة: الغاشية: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾﴾ والغاشية لغة: الداهية الشديدة تغشى الناس، والمراد منها هنا هول يوم القيامة عموماً وقيل: النار. ومن الأول قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ﴾ ومن الثاني قوله تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ وقوله: ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾.

ثم تمضي السورة في بيان حقيقة وحالات ذلك اليوم: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾ وتلك الحالات - أعاذنا الله والمسلمين منها - أشد ما يغشى الكفار ذلك اليوم، ثم من باب المقابلة بينت السورة حالة المؤمنين ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾﴾ إلى آخر الوصف.

ثم خُتمت السورة بالعودة إلى الغاشية في أسلوب آخر: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾. والعذاب الأكبر عياذاً بالله ما وللغاشية.

والسورة الرابعة: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾. سؤال عن شرح صدره ﷺ وكل ما جاء في السورة من أعظم النعم التي لا شك ينشرح لها صدره ﷺ، بل وصدر كل مسلم محبةً لرسول الله. ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾. وكان موجب تلك النعم العظيمة القيام بشكرها، ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾.

والسورة الخامسة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾﴾. وقصته معلومة حين أتى به ملك الحبشة أبرهة ليهدم الكعبة، فجاءت السورة مبينة

بالتفصيل قصته ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾. أي جماعات ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤﴾ من النار ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾. فلم تُبقِ لهم أثراً، ولم يُبقِ من خبرهم خبراً.

والسورة السادسة: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾ فكان السؤال عن الذي يكذب بالدين، وجاءت السورة مبينة من هو: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾ فلا يخشى عقاباً، ولم يرجُ ثواباً.

ثم أشارت إلى موجب ذلك عنده بقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ فسهوهم عن صلاتهم ومراآتهم في أعمالهم ومنعهم معاونةَ إخوانهم جعلتهم في منزلة من يُكذِّب بالدين، حتى ولو كانوا مؤمنين بالبعث، لكنهم بعدم عملهم بمقتضى إيمانهم به، وظواهر أحوالهم، نزلوا منزلة من لم يؤمن ومن يكذِّب بالدين.

وهكذا تبين لنا بوضوح أن جميع السور المبدوءة باستفهام تكون السورة في مجموعها جواباً وبياناً لهذا المسؤول عنه، وهذا سر من أسرار القرآن، ووجه من وجوه الهداية.

٨ ـ الافتتاح بالقَسَم:

من أهم الافتتاحيات لسور القرآن هذا النوع منها: الافتتاح بالقسم، والمتأمل بدقة وإمعان يجد الإعجاز والهداية إلى أقصى أمدهما، وقد يظهر الإعجاز ويتضح، وقد يخفى ويستتر، وبقدر ما يفتح الله تعالى على العبد بقدر ما يقفُ من هذا القسم على ما لا ينتهي عجبه، وقد أورد صاحبُ «البرهان في علوم القرآن» الإمام بدر الدين الزركشي مجموعة السور التي جاء افتتاحها بالقَسَم، بذكر أسمائها فقط، فقال: والصافات، والذاريات، والطور، والنجم، والمرسلات، والنازعات، والسماء ذات البروج، والسماء والطارق، والفجر، والشمس، والليل، والضحى، والتين، والعاديات.

ومبحث القَسَم عند العلماء يقولون فيه: لله أن يُقسِم بما شاءَ ولا يجوز

للعبد أن يُقسم إلا بالله. وهذا قول صحيح، لأن القَسَم بالمقسم به أياً كان فيه تعظيمه له، ولا يحقُّ للعبد أن يعظِّم غيرَ الله. أما من جانب الله فكلٌّ ما أقسمَ اللهُ به من المخلوقات فهو من صنع الله، ودالٌّ على عظمة خالقه. والله تعالى أقسمَ بنفسه، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ وقال: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

والإعجاز في هذا النوع ليس فيما أقسمَ الله به من دلالات القدرة والعظمة: من السماء ذات البروج، أو بالنجم إذا هوى، أو بالشمس وبالضحى، فهي لا شك أنها آيات واضحات على بيان قدرة المولى ﷻ، ولكن السر في تلك المناسبة القوية، والربط المحكم بين نوعية القسم فيما أقسمَ الله تعالى به، وموضوع السياق الذي أقسم الله تعالى عليه، وليس الأمر مجرد مقسم به على مجرد مقسم عليه، بحيث لو استبدلنا مقسماً به في موضع بمقسم به في موضع آخر لضاعَ السر، واختفى الإعجاز، وهذا عام في جميع ما ورد في القرآن الكريم من مقسم به ومقسم عليه، وسنورد في هذا البحث نماذج فقط نبيِّن بها هذا المعنى الدقيق، وسر الهداية البليغة في هذا النوع من الأسلوب القرآني، ليكون شاهداً على ما أشرنا إليه، إلى أن يُيَسِّر الله تعالى كتابة مستقلة على جميع فواتح السور وجميع القسم في القرآن:

النموذج الأول: القسم بالنجم جاء في مواطنَ ثلاثة:

١ ـ ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾ ٢ ـ ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾ ٣ ـ ﴿۞ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾. تلك مواطن ثلاثة أقسمَ الله تعالى فيها بالنجم وبحالات مختلفة، في هويه، في ثقوبه، في مواقعه. والمُقسم عليه في تلك المواطن الثلاثة مختلف. فلو أننا غايرنا حالات النجم، ووضعنا بعضها موضعَ البعض الآخر، لم تتناسب مع المقسم به عليه وإن كان الكل شيئاً واحداً، وهو النجم.

وبيان ذلك أولاً في النجم إذا هوى، المقسم عليه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو

مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧﴾. وبتأمل حالة النجم المقسم به هنا وهي مسيرة النجوم وانتظامها في مطلعها، ومسيرها، وهويها، نجد صنعاً محكماً، ونجد ارتباطهم بهذه الحالة في معاشهم، وفي أسفارهم وإقامتهم، يهتدون بها في ظلمات الليل وفلوات الصحراء، يعرفون بها الاتجاهات، ويقدِّرون بها الأوقات، حتى الفصول في السنة صيفاً وشتاءً وهي لم تُخلفهم أبداً، وما ضلَّ سارٍ اهتدى بنجم ولا أخطأ حساب أتى على مطلع نجم في معرفة الأيام والسنين. فلكأنه سبحانه يقول لهم: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ وما تعرفون من صدقه وثبوته وهدايته إياكم، وعدم ضلالكم به، فلمحمد صاحبكم على حق ما ضلَّ وما غوى، وهو نجم الهداية، يهديكم سبل السعادة ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣﴾ كما أن النجم في السماء في مسيره وهويه لا تؤثر فيه الأهواء ولا الرياح ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤﴾ يوحيه إليه الله سبحانه، كما يسير الكواكبَ السيارة بحكمة وعلم، شديد القوى ﴿ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧﴾. ولعل التنويه هنا وهو بالأفق الأعلى، يربط كلاً من الوحي ونظام النجوم بالأمر العلوي ربطاً حسياً، كما هو ربط معنوي.

وبتأمل الموضع الثاني: ﴿۞فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾ فنجد المقسم به النجم من حيث مواقعه، والمقسم عليه القرآن الكريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون.

فمواقع النجوم في السماء أبعد ما تكون من اللمس أو الوصول إلى تغيير أو تبديلها، فهي أقصى ما تكون من الحفظ، والمقسم عليه وهو القرآن، كذلك قوله تعالى عن القرآن ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨﴾ والصحيح أنه اللوح المحفوظ، وكونه مكنون في لوح محفوظ يقتضي أنه لا يمسه كل من أراده، بل خاص بالمطهرين ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾ وهم الملائكة المقربون. وفي مجموع ذلك رد على المشركين زعمهم تلاعب الشياطين به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ۝٢١١﴾ [الشعراء: ٢١١]. فكانت المناسبة بين المقسم به مواقع النجوم، في بعدها عن

الوصول إليها، وتمنعها عمن يُغاير في مواقعها، ونظام وتنسيق تلك المواقع، فكذلك المقسم عليه كون القرآن محفوظاً بكونه في كتاب مكنون ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾. ومناسبة أخرى أن مواقع النجوم تتقابل مع مواقع نجوم القرآن، التي هي آياته، ونزولها منجمة بحكمة العليم الخبير.

الموقع الثالث: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾ فالمقسم به كل من السماء والطارق، والطارق هو النجم لأنه يطرق الكون ليلاً، كالضيف يأتي فيطرق الباب وفسَّره تعالى بأنه النجم الثاقب، وهو النافذ، والصحيح أنه الذي يرمي الشياطين التي تحاول استراقَ السمع. فالنجمُ الثاقب يحرسُ السماء ممَنْ يصلها أو يدنو منها من شيطان يتسمع، وقد كانوا قبل البعثة يفعلون ذلك، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ [الجن: ٨ ـ ٩]. فالمقسم به السماء ومعها النجم الثاقب الذي يحرسها من أن يقتربَ منها شيطان يستمع، فإذا حاولوا شيئاً من ذلك، كان الشهابُ له بالمرصاد، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات: ١٠]. فالسماء محفوظة بالشهب ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا﴾. فكذلك المقسم عليه ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾.

وبتأمل تلك المواطن الثلاثة نجد قوة الربط بين المقسم به والمقسم عليه، بحيث لو غايرنا بينها، وجئنا بمقسم به مكان مقسم به آخر، لما كانت المناسبة ولا ظهر الإعجاز.

ثم إننا بمجموع تلك المواطن الثلاثة من قسم ومقسم عليه، نجدها كلها مجتمعة التحقق مع القرآن الكريم، فمواقع النجوم ثابتة، كذلك مواقع الآيات من كتاب الله ثابتة محفوظة بحفظ الله، والنجوم في هويها ومسيرها الدالة على الجهات والحساب، والهادية للسارين، كذلك هداية الكتاب الكريم ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ والنجم الثاقب للشياطين عن استراق السمع لتغيير الحقائق، فكذلك آيات القرآن شهبٌ على المبتدعين وعلى شياطين الإنس، وكل من حاول تعطيل كتاب الله.

٩ ـ افتتاحيات الجمل الخبرية:

مثَّلَ لهذا النوع علماء القرآن بسورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ①﴾ ﴿قَدْ سَمِعَ﴾ ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾. ولأهمية هذا النوع من الافتتاحيات نقدم نموذجين منها: «سورة النور» و«سورة المجادلة».

سورة النور: وبإمعان النظر في افتتاحية هذه السورة وموضوعها، نجدها تتميز بنوع من الإعجاز البياني في القرآن، وبمنهج هداية متكامل في بابه، وهي في مجموعها وحدة موضوعية مثالية، مثالية المِنهاج، مثالية التوجيه.

جاءت افتتاحيتها بقوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ①﴾. وهذه الافتتاحية تستوقف القارئ وتشده إليها، وتستجمع شعوره نحوها، وتثير انتباهه، فيتساءل: إن جميع السور يصدق عليها ذلك، فكلُّها أنزلها الله وكلُّها فرضَها الله، وكلها فيها آيات بينات، وعدد سور القرآن مئة وأربع عشرة سورة، ولم تُفتتح أية سورة منه بمثل ذلك، فلماذا خُصَّت هذه السورة «سورة النور» بذلك؟ وسيجد السائل الجوابَ من نفسه بملء حسه وشعوره. لا بد من زيادة أهمية، أو من وفرة آياتها وتوجيهاتها.

وإذا لاحظنا قراءة «فرضناها» بتشديد الراء: «فرَّضناها» أي أودعناها العديد من الفرائض، لكانت هذه القراءة في هذا السياق تجعل القارئ يقول: وما تلك الفرائض التي اختصت بها هذه السورة؟ والتي تُنبئ عنها افتتاحيتها؟ فيأتي الموضوع **الأول والأساس**: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ ويربط ذلك بالإيمان: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ ويشرك المجتمع في إقامة هذا الحد، لأن لهم في ذلك حقاً ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والحق الذي للمجتمع في إقامة هذا الحد هو أن تلك الجريمة ليست قاصرة على الطرفين المباشرين فقط، ولكنها تتعدى إلى المجتمع بما فيها اعتداء على أحد، إقراره أولاً، وما عساه أن تكون من ثمرة تلك الخطيئة، يتنكر لها من غرسَها، ويَترك مسؤوليتها للمجتمع، إذاً فعلى المجتمع حماية نفسه، ويذيلها بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي بتدبر وتأمل ذلك وتفهم تلك الآيات البينات، وأن تلتزموا بما فرضناه في هذه السورة،

على ما تجدون فيها، فيظهر مجتمعكم. ويعقبه بتقبيح هذا الفعل، وعدم لباقته بالمؤمنين: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾. فيسوي بين تلك الفعلة والشرك.

ثم أتبع هذا الفرضَ الأول بتوابعه ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ بدون إثبات، وعقوبتهم، ومن فروع هذا النوع ما ينشأ عياذاً بالله بين الزوجين، حين تعدم البينة، ويطعن الزوج في عرضه، ويحرج بينَ القول الموجب لعقوبة القذف وبينَ السكوت على ما شاهدَ بعينه، فيخرجه من هذا المأزق بالملاعنة بينهما.

ومن ثم جاء أفظع نوع في قضايا الإفك، وتبرئة أم المؤمنين عائشة ﵂ بقرآن يُتلى إلى يوم القيامة، وتحذير أولئك الذين يُحبون أن تشيع الفاحشة في المجتمعات الإسلامية، وأنهم متبعو خطوات الشيطان. كل هذا في منهج تشريع العفة، وتطهير المجتمع من الرذيلة، وما يلحق بها، سواء بصفة عامة في جميع الأفراد، أو بصفة خاصة في داخل البيوت، ثم تأتي السورة إلى تصنيف الناس بالنسبة لهذه القضية الأخلاقية ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النور: ٢٦].

ثم يشرع السياق في منهج العفة، والمحافظة والاحتياط، أي المنهج الوقائي، فيشرع الاستئذان على البيوت، والسلام على أهلها، ومن ثم الأمر بغض البصر وحفظ الفرج ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ ومثلها ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ وزاد في حقهن النهي عن كل ما يلفت الأنظار إليهن ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ وكل ما يتعلق بالحجاب والستر.

ثم أرشدَ إلى المبادرة بالنكاح أياماً وإماءً، أغنياء وفقراء، وحثَّ الذين لا يجدون نكاحاً أن يستعفوا، ثم أشار تعالى إلى ما يُساعد المستعفين باللجوء إلى الله وعبادة الله ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وضرب المثل سبحانه لنوره، ثم نوَّه بشأن المساجد والتعلق بها، وما تُوحيه الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ وفي سياق هذا المثل والتنويه ببيوت الله، وأنه يُسبح لله فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله؛ دفعة قوية لعباد الله المؤمنين ليستعينوا بالصبر والصلاة، ويقابل هذا بمثل لأعمال الكفار

﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ وتستمر السورة الكريمة بإيراد عوالم كونية دالة على قدرته سبحانه، وفي أخريات السور الكريمة تعود إلى توابع العفة والفضيلة ومكارم الأخلاق وأسمى آيات الآداب، ابتداء من الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم وما ملكت أيمانهم، فيأمر سبحانه ﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٨].

فهذه آداب يؤخذ بها الخدم والأطفال حفاظاً على المحارم، وستراً للعورات، وهي في إطار نشر الفضيلة التي بدأت بها السورة.

ثم يلحق البالغين بمن قبلهم ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾. وفي هذا السياق يبين تعالى: أحكام القواعد من النساء، اللاتي لا يرجون نكاحاً، ولسن محل مطامع الرجال، فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة، ولا مستجلبات لمغريات، وأن يستعففن خير لهن.

وفي نهاية المطاف بيان أحكام بيوت الأقارب، ومن تدعو الحاجة لدخولها، وأنه لا حرجَ في دخولها بعد الاستئذان المتقدم وتناول الطعام، لارتباط الجميع بصلة القرابة من الآباء والأمهات والأخوات والخالات والعمات، بل والأصدقاء ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

فهذه جملة فروض محكمة تشكل منهج حياة فاضلة، تجملها الفضيلة وتجنبها الرذيلة، تندرج كلها تحت افتتاحية هذه السورة الكريمة، وتجعلها وحدة تشريع متكاملة، وأن هذه السورة لَحَرِيَّة بإفرادها بالدراسة التفصيلية، لبيان سمو التشريع الإسلامي فيما يختص بالعفة والحجاب وآداب البيوت المسلمة، ومسؤولية المجتمع في حماية نفسه.

١٠ ـ النموذج الثاني للافتتاحية بالجمل الخبرية «سورة المجادلة»:

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ

ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾. أجمعوا أنها نزلت في خولة بنت ثعلبة، وزوجَها أوس بن الصامت، جاءت تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ قالت: أكلَ شبابي، ونثرتُ له بطني، حتى إذا كبر سني وانقطعَ ولدي ظاهرَ مني.

وفي رواية أنها كانت تصلي، وكانت حسنة الجسم، فنظرَ إليها ساجدة، فلما انصرفت طلبَها، فأبتْ، فغضبَ، فقال لها: أنتِ عليَّ كظهرِ أمي. وكان الإيلاء والظِّهار من الطلاق في الجاهلية. فقال لها ﷺ «حرمتِ عليه» فقالت: ما ذكرَ طلاقاً، أشكو إلى الله فاقتي وحاجتي ووحشتي ووحدتي وفراق زوجي وابن عمي، وقد نقضت له بطني. فقال لها «حرمتِ عليه». فما زالتْ تُراجعه ويُراجعها حتى نزلت الآية. وفي ذلك تقولُ عائشة ﵂: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلامَ خولة، ويخفى عليَّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ.

وجاء عن عمر ﵁ أنه مرَّ بها والنَّاس معه، فاستوقفته طويلاً ووعظته وذكرته بماضيه في الجاهلية وأوائله في الإسلام، ثم ذكرته نعمة الله تعالى عليه بالخلافة، وأوصته بتقوى الله، وهو واقف يسمع كلامَها. فقيل له: يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف؟ فقال: والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره لا زلت إلا للصلاة المكتوبة. أتدرون من هذه العجوز؟ هي خولة بنت ثعلبة، سمعَ الله قولَها من فوق سبع سموات، أيسمعُ ربُّ العالمينَ قولَها ولا يسمعه عمر؟

فهذه القضية الأولى من قضايا هذه السورة الكريمة، وهي قضية سماع المولى شكوى امرأة بين يدي رسول الله ﷺ ومحاجتها إياه، وتحاورهما معاً في أمر كان في الجاهلية، وهو ظهار الرجل من زوجه، بقوله: أنتِ عليَّ كظهر أمي. يعني في حرمة الوطء. وقد قالت هذه المشتكية لرسول الله ﷺ: أمر كان في الجاهلية، وجاء الإسلام فنسخ ما كان فيها، فلم تجد حلاً. فقالت: إلى الله أشكو لا إلى رسول الله. فنزلَ الجواب من الله حالاً: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾ وشُرعت كفارة الظهار، ورجعت خولة إلى زوجها، وانتهت هذه القضية الأولى.

ثم جاءت قضية ثانية أعم من الأولى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: ٧]. فقضية خولة مقصورة عليها، محدودة في موضوعها مع زوجها، ولكن هذه في جميع نجوى العالم كله، فسمعه سبحانه محيط به كيفما كانوا، وأينما يكونون.

تأتي القضية الثالثة في آداب المناجاة، وما ينهى عنه فيها، وما ينبغي أن يكون موضوع مناجاتهم فيما بينهم، فيقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾ ويُقال نزلت في اليهود والمنافقين، وفضحتْ ما يُخفونه بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨].

وتأتي القضية الرابعة في بيان قسمي المناجاة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ﴾ أي بعد النهي ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي كما يفعلُ اليهود والمنافقون: ﴿وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المجادلة: ٩].

وتأتي القضية الخامسة في تقبيح عمل المنافقين والمخالفين، وبيان أصل ذلك من الشيطان ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ [المجادلة: ١٠].

وفي غضون ذلك يأتي أدب المجالس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ﴾ وبيَّنَ تعالى موجبَ التكريم والتقدير بالتذييل عليه بقوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ وفيه إشعار بموجب التقدير من الإيمان والعلم، لا بالمال والمنصب، وهذا وإن كان سبب النزول متعلقاً بمجلس النبي ﷺ وأصحابه معه، إلا أنه عام في كل مجالس المسلمين، وهو من أعلى مكارم الأخلاق، أن يُؤثر الإنسان غيرَه على نفسه، تكريماً وتقديراً، وبهذه المناسبة فإن بعض الأدباء كان يُوصي باجتناب الصدارة من المجلس، خشيةَ أن يأتي من هو أحق به منه، فيضطر إلى القيام

منه لأجله، أو أن لا يراه الحضور أهلاً لذلك، وكانوا يقولون في ذلك، تمثلاً بقول الشاعر:

إذا دخلتَ على أُناسٍ فكنْ منهم بمنزلةِ الأقل
فإن رفعوكَ كانَ الفضلُ منهم وإن تركوكَ قلْ هذا محلي

وبعد أدب المجلس والتفسح فيه بعضهم لبعض في مجلس رسول الله ﷺ، جاء التوجيه في هذه القضية العظمى في حق النبي ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝١٢﴾ [الآية: ١٢]. قيل لما نُهوا سابقاً عن النجوى بالإثم ومعصية الرسولِ وأُمروا أن يفسحَ بعضُهم لبعض، فقد أكثروا من النجوى مع رسول الله ﷺ، سواء كان ذلك من المسلمين أم من غيرهم، فشقَّ كثرة ذلك على رسول الله ﷺ، فشُرعت الصدقة بين يدي مناجاته ﷺ لتكون المناجاة معه بقدر الحاجة، ولكنها كانت شاقَّة عليهم هم، وقيل لم يطبقها إلا عليٌّ ﷺ. ثم نُسخت، فقال تعالى: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٣﴾ [الآية: ١٣] فكانت إقامة الصلاة وطاعة الله ورسوله بدلاً من الصدقة، وكان درساً لهم، ومن المجادلة في قضية الزوجية إلى المناجاة عامة وخاصة، في جانب الأمة وجانب الرسول ﷺ، إلى تولي أعداء الله، والحلف كذباً، واتخاذ إيمانهم جُنَّة، وكلها في خط سير الكلمة مناجاةً وإعلاناً، وستلحقهم تلك الحالة يوم يبعثهم الله جميعاً، ﴿فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾. وهو أيضاً امتداد لخط سير الكلمة صدقاً وكذباً. وتأتي خاتمة السورة بوضع الحد الفاصل بين الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر وبين غيرهم ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ﴾ إلى آخر الآية الكريمة، وهكذا وبكل وضوح يظهر لنا مدى وقوة ارتباط افتتاحية السورة بموضوعها، ويصدق ما قلناه من أن الافتتاحية للسورة بمثابة العنوان الذي تدور حوله السورة كلها، وهذا نوع من الإعجاز القرآني يؤكد هدايته وتوجيهه، ويُوجب العناية بدراسته وتأمله.

١١ ـ الافتتاحيات بالحروف المقطعة:

والحروف المقطعة هي من حروف الهجاء، جاءت في أوائل بعض السور مفردة غير مركبة، منها على حرف واحد، مثل (ص، ق، ن) ومنها على حرفين مثل: (طه، يس) ومنها على ثلاثة حروف مثل: (الم، الر) ومنها على أربعة مثل: (المص) ومنها على خمسة مثل: (كهيعص) وهذا نهاية عددها. وتُنطق بأسمائها، فيقال: صاد، قاف، نون، ويقال: ألف، لام، ميم، وقد افتتحت بها تسع وعشرون سورة. وهذا هو عدد مجموع حروف الهجاء: أ، ب، ت... إلى ي. ومجموعها بدون التكرار أربعة عشر حرفاً، أي ما يساوي نصف عدد حروف الهجاء، أما مع التكرار فعددها ثمانية وسبعون حرفاً، وقد افتتح الله بها سوراً مكية، وهي الأكثر، وسوراً مدنية، وهي قليلة.

وقد أخذت هذه الافتتاحيات من هذا النوع حيزاً كبيراً عند العلماء، سواء في التفسير أو اللغة، من حيث المدلول والمعنى، أو في الإعراب والبناء تبعاً لذلك كله.

وقد أُفردت بتآليف مستقلة ضمن المؤلفات في علوم القرآن، من حيث المحكم والمتشابه، ومن حيث الدلالة على أوجه الإعجاز، بالإضافة إلى جميع كتب التفسير قديماً وحديثاً، فلا يخلو كتاب من تناول موضوعها، ويأخذ الخلف عن السلف، وفي الآونة الأخيرة تطور البحث فيها إلى منهج مادي، لم يكن السلف تعمَّقوا فيه، كما أنهم لم يُهملوه، وسنفرد هذا المنهج الحديث ببحث يُبيِّن ما له وما عليه، ولعل فيما سنورده إن شاء الله تصحيح مفاهيم أولئك الذين يُسارعون إلى كل جديد.

ويهمنا أولاً موقف السلف من هذه الافتتاحيات، وما علاقتها بالسور التي بدأت بها، ولا يسعنا في هذا العرض تتبع كل ما قيل ونقل عن أعلام المفسرين وأهل العلم بالعربية، مثل: الخليل، وسيبويه. ولكن نجمل القول بإيراد أصول مذاهب العلماء فيها، وما ترجَّح إليه جميع ما قيل فيها، وهي الآتي:

أولاً: إنها أسماء لتلك السور المبدوءة بها، كما هو المشهور في مثل سورة

طه، يس، ص، ق، ن، ومثلها سورة الفاتحة تُسمَّى سورة الحمد لله، والصافات، وعبس، والنازعات. وكلها سميت بأوائل ما جاء فيها. ولكن يرد عليه أن بقية السور لم تتحدد أسماؤها بما جاء في أوائلها، مثل سورة البقرة، آل عمران، النساء، وغيرها. ثم إن هذه الأحرف قد يشترك بعضها في افتتاحيات عدة سور، مثل (الم) فهي موجودة في ست سور: البقرة، آل عمران، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة. و(الر) موجودة في خمس سور: يونس، هود، يوسف، إبراهيم، الحجر، و(طسٓم) في سورتين: الشعراء، القصص. و(حم): في ست سور: غافر، فصلت، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف. فكيف تكون أسماء لما افتتحت به مع هذا الاشتراك ما بين سورتين وخمس وست سور؟!!

ثانياً: هي من باب التحدي الرمزي. أي أنهم لما قالوا: هو أساطير الأولين، وقالوا: إنه من كلام البشر، فتحداهم أن يأتوا بحديث مثله. ثم تنزَّلَ معهم إلى عشر سور مفتريات، إلى أن جاء التحديد بسورة واحدة من مثله، ولما لم يأتوا بشيء، وتحدَّاهم في هذا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٣]. فتحداهم مجتمعين مع شهدائهم وأعوانهم وكل قواهم، أن يأتوا بسورة واحدة، ثم قال لهم: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ وهذا هو التحدي المركب أو المزدوج أو المؤكد، وفعلاً لم يفعلوا كما أخبر عنهم سبحانه، ولازمَ هذا كله أن يكون مجيء هذه الحروف على تلك الصورة بمثابة من يتنزل معهم، مبكتاً لهم، ومظهراً حقيقة عجزهم، فيقول: إن ما عجزتم عنه ليس في تركيبة مادة غريبة عنكم، ولا جديدة عليكم، بل هو مركب ومنظم من هذه الحروف التي تتكلمون بها، وتؤلفون منها خطبكم، وتنظمون بها أشعاركم، فالمادة الأساسية لنظمه موجودة لديكم، وأنتم فرسان اللغة فصاحةً وبياناً، فلو كان من قول البشر لكان بوسعكم الإتيان ولو بسورة واحدة من مثله.

ويُستدل لهذا الوجه بأن جميع السور التي افتتحت بتلك الحروف، يعقبها حالاً الحديث عن القرآن الكريم. مثل: سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾، ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ والحواميم كلها؛ ففي غافر: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢﴾ فصلت: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ وسورة ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾.

وهذا الوجه له قوة اعتباره، ولا رد عليه إلا قولهم، ولِمَ خُصَّت كل سورة بهذا النوع من الحروف؟ وهل يمكن مجيء حرف «ص» محل حرف «ق» أو «ق» محل «ن». أو طه محل يس؟ ويُجاب عن ذلك بأمرين: **الأول**: أن ذلك توقيف. **والثاني**: أن تلك الحروف مع تلك السور نوع ارتباط ودلالة، أما نوع هذا الارتباط وتلك الدلالة فهو ما سنورده في الحديث عما أُحدث في هذا الموضوع.

ثالثاً: قالوا هي بمثابة أدوات التنبيه والاسترعاء، تستلفت الأنظار وتسترعي الانتباه، فإذا كان المشركون منصرفين عن سماع القرآن باعتباره في مفهومهم حديثاً عادياً، فإنهم حين يسمعون: ألف، لام، ميم. فإنها تطرق أسماعهم بأصوات مفرقة، وأحرف مقطعة، فيُرعونها أسماعَهم، ويوجهون إليها عنايَتهم، حتى إذا ما استجمعت أحاسيسهم، وتنبهت شعورهم، وأصغت إليه أفئدتهم، جاءهم التوجيه والإرشاد والدعوة إلى الله تعالى، كما في: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾.

رابعاً: قيل: إنها من المتشابه، الذي لا يعلم معناه إلا الله، أو أنها رموز لأسماء الله، أو هي سر الله في القرآن، إلى غير ذلك، وأغرب ما جاء في ذلك كله ما رواه ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ عند تفسير قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ أن ابن عباس سُئل عنها فأعرضَ عن السائل مرتين، فقال جابر للسائل: لقد كره سؤالكَ لأنها نزلتْ في رجلٍ من أهل البيت، يقال له: عبد الله أو عبد الإله، ينزل مدينة يشقها النهر شقين... إلى آخر الحديث، الذي جاء بتفصيل بعض الأحداث في هذا القرآن منطبقاً تماماً. وأولى الأقوال في هذه الحروف أنها من خصائص القرآن الكريم، وأن كلَّ ما جاء عنها هنا فإنه يصدق عليها من وجه ما، ولا ينبغي الإفراط فيما نُسب إليها، وحقيقة علمها إلى الله تعالى.

١٢ ـ آيات الهداية من سورة النمل:

نص آية الهداية من سورة النمل، من أول السورة الكريمة ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦﴾ [النمل: ١ ـ ٦].

نلاحظ في مستهل هذه السورة الكريمة مشابهة قوية مع افتتاحية سورة البقرة، في الحديث عن القرآن الكريم ﴿هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾ ثم اتباع ذلك بوصف المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤﴾. ثم قابلهم ببيان حال المكذبين سواء بسواء، ونلاحظ هنا اقتران البشرى بالهدى فهما متلازمان، لأن من هُدي إلى الحق جاءته البشرى بالسعادة في الدنيا والآخرة.

وهنا تعطي السورة الكريمة صورةَ أولئك الذين لا يُؤمنون بالآخرة، وهم يتخبطون في عماهم لا يَشعرون، حتى أصبحَ القبيح حسناً في أعينهم، فلا يَشعرون بقبح أفعالهم، وهذا أشد ضياعاً بهم وأكبر خسراناً عليهم، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٥] وقد قيل في ذلك:

يُقضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

وهو المعبر عنه عند الأصوليين بالجهل المركب، وهو أن يجهل الشيء ولا يعلم أنه يجهل، لأنه يظل في جهله وعماه، ظناً منه أنه على هدى، بخلاف من جهل الشيء ويعلم أنه يجهله، فإنه سيحاول أن يتعلَّم ما يجهله، ولو قلنا: إن أكثر ضلال وضياع كثير من الناس ـ سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات أو الطوائف أو حتى الأمم ـ كان من هذا القبيل، فإنه فعلاً يصدق

عليهم أنهم يجهلون الحق، ولا يعلمون أنهم يجهلون، وهذا كله لأنهم اتبعوا أهواءهم، كما قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الجاثية: ٣٣]. وهذا هو عين الموقف هنا ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ وتلك هي النتيجة الخسران وسوء العذاب.

ومن الإعجاز البياني أن يأتي قوله تعالى بعدها مباشرة ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾ أي أن القرآن الذي أُوحي إليك، والذي تدعوهم لهداية الاستقامة عليه، إنما تتلقاه من لدن حكيم، يضعُ الأمور في مواضعها، عليم بما فيه مصالح الخلائق، وفرق ما بين الذين يعمهون، والذين على هدى الحكيم العليم، ما بين الظلام والنور، والحق والباطل، والموت والحياة، والربح والخسران.

ومن قوة الربط بين مستهل هذه السورة ونهاية التي قبلها سورة الشعراء، أنه جاء قوله تعالى في آية ١٩٢: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ فبيَّنَ تعالى طريقة تلقيه ﷺ للقرآن، وأنه نزل به الروح الأمين، أمين على ما أُلقي إليه، أمين على ما يُلقيه عليك، ثم بعد عدة آيات نفى مفترياتهم على كتاب الله وعلى رسوله ﷺ، فقال في الآية ٢١٠: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾. ثم بيَّنَ سبحانه عدم استطاعتهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾. أي بما يرمون من الشهب، كم قال تعالى عنهم: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾. وبعد تقرير مصدر تنزيل القرآن الكريم، وسند مجيئه، وضمان حفظه، وعجز الشياطين عنه، بيَّنَ سبحانه وكشفَ مناهجَ الإفك والأفَّاكين الذين طُمست بصائرهم، وعَميت قلوبهم، فاستحوذت عليهم الشياطين، فقال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾﴾. أي إن كنتم تجهلون أو تتجاهلون فهلم أنبئكم، أي كما بيَّن سبحانه طريق الوحي وما عليه المصطفى ﷺ من الهدى والاستقامة، فهو أيضاً يبيِّن لهم طريقَ الضلال والانحراف ومصدر ذلك، وهو ما تنزَّل به الشياطين من كذب وإفك، وعلى من تنزل: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٢ ـ ٢٢٣]. كما بيَّن ﷺ أن الشيطان ربما استمع الكلمة، فيلقيها

لأفَّاك أثيم، فيكذب معها مئة كذبة، يروِّجها بتلك الكلمة التي استمعها.

ثم أتبعَ بطلان منهج الأفَّاكين الذين يستوحون إفكهم من الشياطين، فبيَّن كذلك منهجَ الشعراء الذين يستوحون الخيالَ، فيُحسِّنوا به القبيح، أو يُقبِّحوا به الحسن، فيُغوون عَوَامَّ النَّاس، فقال تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾. وبيَّن سبحانه دليل غوايتهم وإغوائهم للآخرين بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾ أي حيث تملي عليهم أهواؤهم، وتصوره مخيلاتهم ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ وهذا دليل ملموس على سقوط مناهجهم، من أنها ليست عملية. ولما كانت قرائح الشعراء قد تُؤمن، وتلتزم المنهج العملي، وتتجه إلى الحق، وتستقيم على الهدى، استثنى هذا النوع من الشعراء، وأشاد بمنهجهم، ورفعَ من شأنهم، فقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ فبيَّن تعالى أن هذا الصنف من الشعراء يستمد شاعريته، ويرسم طريقته، مما يضفيه عليه ذكر الله كثيراً، فينطلق لسانه في سبيل نصرة الحق ودفع الظلم، ومن هؤلاء شعراء الإسلام، الذين كان وقع ألسنتهم على الكفار أشد من وقع سيوفهم. وقد قال ﷺ لحسان رضي الله عنه: «اهجهم وروح القدس يُؤيدك، لهجاؤك إياهم أشدُّ عليهم من وقع السهام في غسق الظلام».

وهنا يظهر خطر الكلمة، وأثرُ الدعاية، وما يُسمَّى اليوم بالحرب الكلامية، أو بالحرب الباردة التي يوجهها أعداءُ الإسلام إلى المسلمين، وقد يُخدع بها من لم يدرك مقاصدها، وليس من عصمة ونجاة إلا بالاهتداء بما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾. ولو أخذنا نحصي كل دعاية ضدّ الإسلام، وما يلبسون به على السذج من المسلمين، لوجدنا دحضها وبيان زيفها من غضون كتاب الله الذي نزل به الروح الأمين ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

وبعد هذا العرض، وبيان مصدر الهداية، وتلقي الوحي وصونه عن تنزل الشياطين وغواية الشعراء، وأنه يتلقاه ﷺ من لدن حكيم عليم، بواسطة الروح الأمين، يخاطبهم في شأن موسى عليه السلام وبداية أمره، مما لا يُنكره أحد من المكذبين، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ

ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾ [النمل: ٧]. أي اذكر لهم ذلك، فإن كانوا مؤمنين به، فإن الكل من مصدر واحد، وعلى منهج واحد، فالله الذي كلَّمَ موسى، هو الله سبحانه الذي أتلقى القرآن من لدنه، وهو الذي جعلَه هدىً وبُشرى للمؤمنين.

* * *

انتهى الجزء الأول بعون الله وتوفيقه

ويليه الجزء الثاني وأوّله:

آيات الهداية من سورة القصص

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *